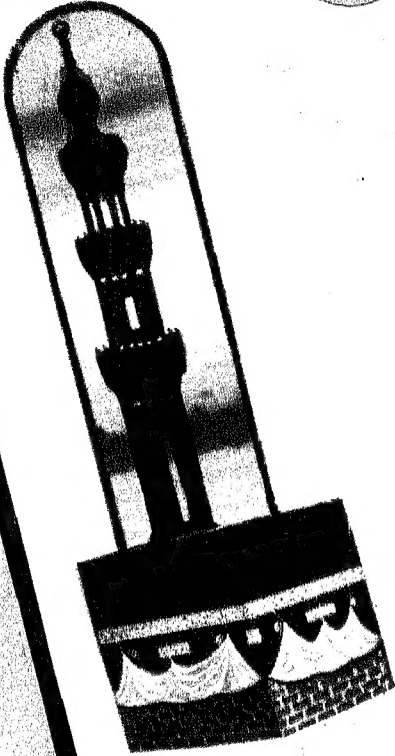


العلاقات

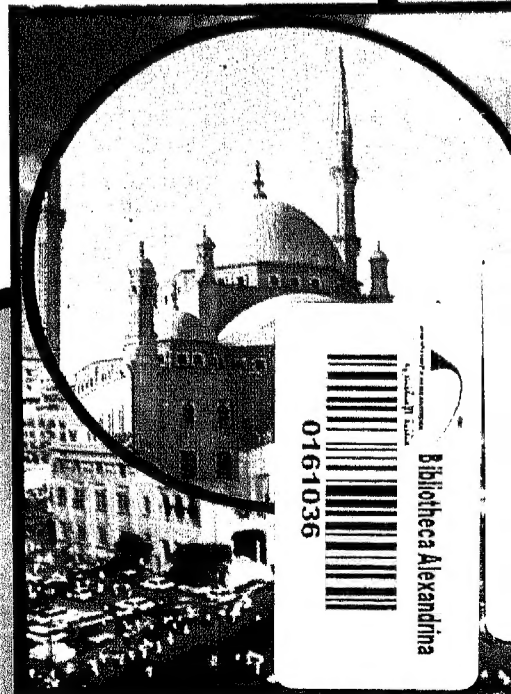


مصر
والحجاز
ونجد

في القرن
(١٩)

الطبعة الثانية ١٩٩٥ م / ١٤١٥ هـ

دكتور
سعد بيدر الحلواني
المدرس بجامعة الأزهر



0161036

Bibliotheca Alexandrina



العلاقات

١٢٩٥٩

المجلة (العدد) : لا سكندرية
رقم العدد : 38.5205.397
رقم التسجيل : ١٦٥٦٦



مصدر والحجاز ونجد في القرن (١٩)

دكتور

سعد بيدر الحلواني
المدرس بجامعة الأزهر

الطبعة الثانية ١٩٩٥م / ١٤١٥هـ

Handwritten text in a rectangular box, likely a library or archival stamp, containing several lines of script.

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى روح أمى غفر الله لها وطيب ثراها وأسكنها الفردوس
الأعلى ، فكم تمننت أن ترى هذا العمل قد خرج الى النور .
إلى والدى أطال الله فى عمره ومتعه بالصحة والعافية .
إلى زوجتى التى صبرت على مشاق إعداد المادة العلمية
وهيأت ظروفأ طيبة لإتمامها .
إلى بناتى أسماء ، ونادية ، وابنى أحمد ، والأمور الجنة .
إلى اخوتى جمال ، وأيمن ، وماجد ، وأخواتى شادية ،
ونادية ، وفاطمة .

(ب)

وغيرها بين الشعبين ظلت آثارها باقية بعد خروج جيش محمد على من شبه الجزيرة تنفيذا لمعاهدة لندن الشهيرة سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م .

كما استمرت العلاقات المصرية الحجازية في أشكالها المختلفة قائمة على قدم وساق ، وظهر ذلك واضحا في المجال السياسي والعسكري كحماية الحجازين باستثناء العربان - لجنود الحملة المصرية المنسحبين إلى مصر - واستعدادات الشريف لدرء الخطر الانجليزي الذي بات يهدد السواحل المصرية ، وكالتدخل المصري بالحجاز لعزل والى جدة عثمان باشا تاتار سنة ١٢٦١ هـ / ١٨٤٥ .. وتدخلها في تثبيت الشريف محمد بن عون على إمارة مكة ، وإرسالها الحملات المتتالية لدرء الأخطار العسيرة عن الحجاز ، وكانت هناك أوجه عديدة أخرى للعلاقات السياسية بين مصر والحجاز قشلت في الصراع بينهما على ضم محافظتي سواكن ومصرع ، وكذلك القلاع المصرية في شمال الحجاز .

وتعد قضية إرسال المنفيين من كل قطر إلى الآخر إحدى صور العلاقات السياسية التي توحى بامتداد كل قطر ليكمل الآخر جغرافياً وإنسانياً .

وفي مجال التجارة كان البحر الأحمر والشركات الملاحية المصرية التي أرسلت أساطيلها فيه من أعظم العوامل على زيادة الأنماط التجارية بين القطرين وقد قشلت في البن ، والملح والغلال والقطن والحيوانات والذهب والكتب وغيرها . كما كانت قناة السويس عاملاً قوياً على زيادة الحركة التجارية بين الموانئ المصرية ومثيلاتها الحجازية .

كما شاركت الاتصالات الفكرية والاجتماعية في إذكاء وتنمية العلاقات المصرية الحجازية فتأثر بعض المصوبين بدعوة ابن عبد الوهاب عن طريق معابر عدة ، وتأثر بعض الحجازيين وأبناء شبه الجزيرة العربية بالنهضة العلمية المصرية الحديثة التي كان يتزعمها بعض رجال الأزهر والمدارس الحديثة كما تأثروا بما أدخله محمد على وحفيده اسماعيل باشا في مصر من تقدم علمي غربي واكبته نهضة ثقافية وأدبية حملها بين القطرين علماء وطلبة علم ومهاجرون وتجار من كلا القطرين ومن سائر أقطار العالم الاسلامي .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله وصلاة وسلاما دائمين على المبعوث رحمة للعالمين القائل :خيركم من تعلم العلم وعلمه " صلوات الله عليه وعلى آله ومن أهتدى بهديه إلى يوم الدين .

وبعد

فقد وحد الله بين المسلمين فى مناسكهم ، وسن لهم سنة للتعارف على اختلاف أجناسهم فكانت وحدة لا تنقسم عراها ، وحبا لله شعبى مصر والحجاز بمقومات وأسياب خاصة جمعت بينهما فى بوتقة واحدة .

فبالإضافة إلى وحدة الدين واللغة كان للامتداد الجغرافى والنسب والصهر والتزواج المستمر بين الشعبين أثر عظيم فى قيام علاقات إنسانية وطيدة فى شتى المجالات طوال القرون الخالية ، وقد امتدت هذه العلاقات ونمت حتى ظهرت لنا بجلاء ووضوح فى القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى .

ولقد أدى اشتراك الشعبين فى مدافعة الأخطار والخطوب البرتغالية والفرنسية والانجليزية وغيرها إلى تأصيل وحدة المصير وتوثيق عرى الأخوة الاسلامية والعربية بين الشعبين المصرى والحجازى ، وما لا شك فيه أن هذه العلاقات ازدادت على مر القرون حتى بلغت ذروتها فى القرن الذى نحن بصدد دراسته ، وعندما ظهرت دعوة ابن عبد الوهاب الإصلاحية فى نجد داعية إلى المبادئ السلفية الاسلامية تلتفها آل سعود فكان من الطبع أن يناوئهم أشراف الحجاز فاحتدم الصراع بين الفريقين مما دفع الدولة العثمانية إلى الزج بمصر فى برائن هذا الصراع الذى امتزجت فيه الروح المذهبية والتنازع على الحدود بين نجد والحجاز ، وقد صاحبت حملات محمد على إلى شبه الجزيرة صور وأشكال للعلاقات السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية

(ج)

وقد أدى هذا الاختلاط الفكرى إلى انصهار الشيعين فتشابهت كثير من العادات والتقاليد التى انتقلت بين القطرين متأثرة بمؤثرات عديدة وروافد شتى .

وكان لموكب الحج المصرى النصيب الأكبر فى تنمية تلك العلاقات بين القطرين على الرغم من تعدى عربان الطريق واعتماداتهم المتكررة فى قوافل الحج المصرية واضطرار الحكومات المصرية المتعاقبة إلى تجهيز وتسليح القلاع على طول طريق الحج وتسليح القوافل المصرية لمداخلة أخطار العربان .

وقد حمل ركب الحج المصرى كل عام ما اعتادت مصر أن ترسله من كسوة للحرمين ومخصصات عديدة للفقراء والموظفين والعلماء والأشراف ، وللإصلاحات العديدة التى كان الحجاز يحتاجها بين الحين والآخر ، وشملت تلك الإصلاحات الحرمين الشريفين ، والقلاع المصرية الحجازية ، وتنمية موارد المياه ، والرعاية الصحية والتنقيب عن المعادن ، وتنظيم البريد ، وغير ذلك مما كان لها أعظم الأثر فى رفع المعاناة عن الحجاج من شتى بقاع الأرض بالإضافة إلى ارتفاع أهالى الحجاز بها . كل ذلك زاد من وشيجة الارتباط الأخوى الإسلامى بين الشيعين فى مصر والحجاز .

هانس ليشوفنى

أن أتقدم بوافر الشكر والعرفان إلى أستاذى أ . د / عبد الجواد صابر المصرى ،
و . أ . د / السيد محمد حسن الدقن على توجيهاتهم ونصحتهم فجزاهم الله عنى خير
الجزاء .

كما أشكر كل من أسدى لى المعونة العلمية فى دار الوثائق بالقاهرة والرياض وأخص بالشكر أيضا عميد كلية الآداب جامعة الملك سعود بالرياض وجميع أعضاء هيئة تدريس قسم التاريخ بالكلية على ما قدموه لى من عناية واهتمام عظيمين .

المؤلف

والله ولى التوفيق ..

د . سعد بدير الحلوانى

سخا - مصر فى ١٩٩٢/٣/١ م

الفصل الأول

ملامح العلاقات المصرية الحجازية

سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م

العلاقات منذ ظهور الشرافة حتى سنة ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م :

عما لا شك فيه أن الارتباط البشرى والاقتصادى والحضارى بين مصر ومنطقة شبه الجزيرة العربية قد امتد فى بطن التاريخ إلى أقدم العصور ، وإزداد هذا الارتباط بالفتح الإسلامى العربى لمصر سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م ، وبهجرة بعض القبائل العربية إليها بنية الاستقرار ، ونشر الدين الإسلامى واللغة العربية فيها (١) .

وإذا كانت مدن مصر وقراها قد باتت منذ العصر الإسلامى الأول ميدانا مفتوحا لأبناء شبه الجزيرة العربية يؤمنونها ويمارسون فيها نشاطهم الاقتصادى ، فإن كثيرا من المصريين قد قصدوا بلدان شبه الجزيرة لأداء مناسك الحج ، واستقر بعضهم فى المدن المقدسة ، ومارس البعض الآخر أنشطة اقتصادية مختلفة (٢) .

وأضافة إلى ذلك فقد عدت مصر ميدانا مفتوحا لكل المسلمين من شتى البلدان الإسلامية شأنها فى هذا شأن الأقطار الإسلامية كلها فى مختلف العصور السابقة التى ارتفع فيها لواء الخلافة . هذا من الناحية الاجتماعية ، أما الناحية السياسية فقد أصبحت مصر تابعة للمدينة المنورة عاصمة الحجاز .

(١) يذكر البعض أن هناك موجات حامية توافدت من شبه الجزيرة العربية منذ فجر التاريخ على مصر ، وكونت اللبنة الأولى للشعب المصرى فى العصر الفرعونى غير أن هذا رأى يحتاج إلى تمحيص لا يتسع المجال له ، أما عن النسب والقرى فالأول يعود إلى أبناء اسماعيل عليه السلام لأن أمه (هاجر) مصرية والصهر يتصل بمارية القبطية زوج الرسول ﷺ ، فالمصريون بذلك أخوال العرب .

أنظر : عزيز محمد حبيب - المملكة العربية السعودية - الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٥ - صص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٢) د/ عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم - الحجازيون فى مصر فى القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى - مجلة الدارة - العدد الأول - السنة الحادية عشر - شوال ١٤٠٥ هـ صص ١٤١ ، ١٤٢ . وجدير بالذكر أن البحث المذكور تناول جانبيا كبيرا من أنشطة الحجازيين الاقتصادية والاجتماعية فى مصر ، لمزيد من التفصيل أنظر : ١٤٥ وما بعدها .

الفصل الأول

ملاحع العلاقات المصرية الحجازية

سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م

العلاقات منذ ظهور الشرافة حتى سنة ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م :

مما لا شك فيه أن الارتباط البشرى والاقتصادى والحضارى بين مصر ومنطقة شبه الجزيرة العربية قد امتد فى بطن التاريخ إلى أقدم العصور ، وازداد هذا الارتباط بالفتح الاسلامى العربى لمصر سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م ، وبهجرة بعض القبائل العربية إليها بنية الاستقرار ، ونشر الدين الاسلامى واللغة العربية فيها (١) .

وإذا كانت مدن مصر وقراها قد باتت منذ العصر الاسلامى الأول ميدانا مفتوحا لأبناء شبه الجزيرة العربية يؤمنونها ويمارسون فيها نشاطهم الاقتصادى ، فإن كثيرا من المصريين قد قصدوا بلدان شبه الجزيرة لأداء مناسك الحج ، واستقر بعضهم فى المدن المقدسة ، ومارس البعض الأخر أنشطة اقتصادية مختلفة (٢) .

واضافة إلى ذلك فقد عدت مصر ميدانا مفتوحا لكل المسلمين من شتى البلدان الاسلامية شأنها فى هذا شأن الأقطار الاسلامية كلها فى مختلف العصور السابقة التى ارتفع فيها لواء الخلافة . هذا من الناحية الاجتماعية ، أما الناحية السياسية فقد أصبحت مصر تابعة للمدينة المنورة عاصمة الحجاز .

(١) يذكر البعض أن هناك موجات حامية توافدت من شبه الجزيرة العربية منذ فجر التاريخ على مصر ، وكونت اللبنة الأولى للشعب المصرى فى العصر الفرعونى غير أن هذا رأى يحتاج إلى تمحيص لا يتسع المجال له ، أما عن النسب والقربى فالأول يعود إلى أبناء اسماعيل عليه السلام لأن أمه (هاجر) مصرية والصهر يتصل بارية القبطية زوج الرسول ﷺ ، فالمصريون بذلك أخوال العرب .

أنظر : عزيز محمد حبيب - المملكة العربية السعودية - الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٥ - صص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٢) د/ عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم - الحجازيون فى مصر فى القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى - مجلة الدارة - العدد الأول - السنة الحادية عشر - شوال ١٤٠٥ هـ صص ١٤١ ، ١٤٢ . وجدير بالذكر أن البحث المذكور تناول جانبا كبيرا من أنشطة الحجازيين الاقتصادية والاجتماعية فى مصر ، لمزيد من التفصيل أنظر : ١٤٥ وما بعدها .

منذ عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى عهد على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) حيث انتقلت الخلافة إلى الكوفة . فأصبحت مصر والحجاز تابعين لها ثم انتقلت فى العصر الأموى إلى دمشق فأصبحت مصر والحجاز تابعتين لها .

أما فى العصر العباسى فقد اتخذت بغداد حاضرة للعالم الاسلامى وأصبحت مصر والحجاز تابعتين لها (١) .

ولما استولى الفاطميون على مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م ، واتخذوها حاضرة لخلافتهم ضموا إليها بعض الولايات الأخرى ، ومنها الحجاز للهدأ يأخذ أشكالاً مختلفة من التبعية لمصر فى القرون التالية قشلت فى الدعوة للفاطميين على منابر مكة والمدينة ، والاعتماد على ما كانت ترسله مصر من شلات ومؤن للحجاز ، وصار النفوذ الفاطمى مسيطراً على بقاع الحجاز فى أغلب عصرهم ، ما عدا الفترات التى كانت تشب فيها بعض الشورات التى كان يتزعمها أشرف مكة (٢) ، إلا أنها لم تكن تلبث إلا قليلاً فيعاود الفاطميون نشر نفوذهم بالترغيب مرة وبالترهيب مرة ثانية (٣) .

وفى العصر الأيوبي اهتم صلاح الدين وخلفاؤه بالسيطرة على الحجاز لمكانته فى نفوس المسلمين ولرغبة الأيوبيين فى أن يكونوا حماة للحرمين الشريفين ، هذا بالإضافة إلى أن صلاح الدين قد أراد السيطرة على طريق التجارة فى البحر الأحمر لأهميته إبان حروبه ضد الصليبيين (٤) .

(١) أحمد بن زنى دحلان - خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة ١٣٩٧ هـ - ص ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) مثال ذلك ما حدث فى عهد محمد بن جعفر بن محمد (أبو هاشم) أمير مكة فى سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م عندما قطع المذكور الخطبة للمستنصر العبيدى صاحب مصر ، وأعاد الخطبة على منابر مكة للعباسيين أنظر : الفاسى (محمد بن أحمد الحسينى) العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين - مؤسسة الرسالة - ط ٢ - ج ١ - بيروت - ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م - ص ص ٤٤٠ ، ٤٤١ .

(٣) المقرئى (تقي الدين أحمد بن على) - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - ج ١ - القاهرة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٤ - ص ٣٥٣ .

وأنظر : ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد) العبر وديوان المبتدأ والخبر - ج ٤ - ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م - ص ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٤) عائشة بنت عبد الله باقاسى - بلاد الحجاز فى العصر الأيوبي - دار مكة للطباعة والنشر - ط ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م - ص ٣٧ .

حتى لقد بلغ اهتمام الأيوبيين بالحجاز أن ولى الملك الكامل الأيوبي ابنه الملك المسعود على بلاد الحجاز واليمن ، وكان الخطيب يعلن فى دعائه للملك الكامل على منبر مكة : الشعارات الآتية :

" صاحب مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها والجزيرة ووليدها سلطان القبلتين وخادم الحرمين الشريفين " (١) إعلاما لقدر الملك الكامل وإعلاتا للملكه .

وفى العصر المملوكى لم تقل عناية المماليك بالحجاز عن عناية الأيوبيين به وقد ظهر ذلك جليا من تمسكهم بلقب : " صاحب الديار المصرية والشامية والحجازية كما ظهرت عنايتهم بالحجاز من تلك العمارات والاصلاحات التى أقاموها هناك (٢) .

ولا أدل على ذلك من جهود السلطان قايتباى ، ومساهماته العظيمة فى الحجاز فقد أمر ببناء مدرسة ملاصقة للحرم المكى ، وصرف عليها أموالا كثيرة ، وعمر الحرم المدنى بعد أن شبت فيه النار كما أوقف عدة قرى بمصر لتحمل غلالها إلى المجاورين كل عام (٣) .

واستمرت تبعية الحجاز لمصر حيث ساعد على ذلك استعانةالأشرف الحاكمين باسم مصر بأمراء الحج المصريين (٤) على الحجازيين الآخرين المتطعين الى الحكم .

وظل النفوذ والهيمنة المصرية فى تذبذب مستمر بين الظهور والاختفاء ، وبين الضعف والقوة ، كما كان هذا النفوذ فى أحيان كثيرة مباشرا ، وفى أحيان أخرى كان غير مباشر الى أن دخل العثمانيون

(١) الفاسى - العقد الشين - ج ٢ - ص ٢٨٣ .

(٢) المصدر السابق - ج ٤ - ص ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(٣) الاسحاقى (محمد بن عبدالمعطى أبى الفتح بن أحمد) - أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول - المطبعة الشرقية - ١٣٠٣ هـ - القاهرة ص ١٥٠ .

(٤) كان أبو بكر الصديق أول من لقب بأمير الحج سنة ٩ هـ - ٦٣٠ م ، وقد شملت مسئولية أمير الحج قيادة الجميع والاشراف على شئونهم ، وصيانة الأمن بينهم ولهم ، كما كان أمير الحج يتصدر القيام بشعائر الحج ، ويبدو أن بداية أمارة الحج فى مصر كانت منذ أنتقال الخلافة العباسية اليها بعد سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م ثم أصبح تعيين أمير الحج يتم من قبل سلاطين المماليك ، ثم فعل العثمانيون الشيء نفسه بعد سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م .

أنظر دائرة المعارف الاسلامية - طبعة الشعب مجلد ٤ - ص ٤٣٦ وما بعدها ، ود / محمد بدیع شريف - فى مهبط الوحى دار الفكر - ط ٢ - القاهرة ص ١٦٠ .

مصر سنة ٩٩٢ هـ / ١٥١٧ م (١)

ويتوضح أكثر أستطيع أن أقول : أن الأشراف الذين خضعت لهم مكة من منتصف القرن العاشر الميلادى الى الربع الأول من القرن العشرين قد اعتبروا أنفسهم حكاما محليين يدينون بالولاء للدولة العظمى التى تسيطر على القاهرة - فى أغلب الأحوال .

وقد ترتب على دخول العثمانيين مصر أن دخل الحجاز سلميا تحت السيادة العثمانية عندما بادر الشريف بركات (٢) بإرسال ابنه أبى غنى (٣) إلى القاهرة يحمل مفاتيح الحرمين الشريفين معلنا الولاء للعثمانيين فأكرمه السلطان سليم الأول وأعطاه تفويضا بحكم والده (٤) للحجاز . وفى هذا العصر أخذ هذا الارتباط بين مصر والحجاز شكلا آخر فقد ظلت فيه سلطة الأشراف وظل تعاقبهم على حكم إمارة مكة على جرى عاداتهم مع تبعية بقية المدن الحجازية لها والى كان يباشر شئونها أمراء من المنتسبين إلى الشريف فى مكة ، غير أن العثمانيين غيروا هذا النظام فنصبوا على مدن الحجاز العظيمة كالمدينة وينبع وجدة ولاية عثمانيين مثلوا السلطة العثمانية فيها .

(١) حافظ وهبه - جزيرة العرب فى القرن العشرين - ط ٢ - القاهرة ١٣٦ هـ / ١٩٤٦ م - ص ١٤٤ وانظر : عبدالله العثميين - تاريخ المملكة العربية السعودية - ط ١ ط ٢ - ١٤٠٩ هـ / ص ١٧ .

(٢) هو الشريف بركات بن محمد بن بركات المولود بمكة سنة ٨٦١ هـ / ١٤٥٧ م ، ومن تلقوا العلم فى الأزهر الشريف على نحو أربعين شيخا وأجازوه ، وقد ولى شرافه مكة فى سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م وتوفى بها فى سنة ٩٣١ هـ / ١٥٢٥ م .

أنظر : ابن زينى دحلان - خلاصة الكلام - ص ٥٣ وما بعدها .

(٣) هو أبى غنى بن بركات المولود سنة ١٩١١ هـ / ١٥٠٥ م ، وتولى إمارة مكة بعد أبيه حيث كان أبى غنى فى العشرين من عمره ، وله مواقف محموده فى صد البرتغاليين عن جدة سنة ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م وتوفى أبى غنى سنة ٩٩٣ هـ / ١٩٨٥ م بعد أن ترك للأشراف قانونا سمي باسمه .

أنظر : ابن زينى دحلان - خلاصة الكلام - ص ٥٣ وما بعدها .

وحسين محمد نصيف - ماضى الحجاز وحاضره - ط ١ - ط ١ - ط ١ - ١٣٤٩ هـ ص ١٧ وما بعدها .

(٤) أبى إياس (محمد بن أحمد) - بذائع الزهور فى وقائع الدهور - تحقيق محمد مصطفى - ج ٥ - الهيئة العامة للكتاب - ط ٣ - القاهرة - ١٤٠٤ هـ ١٩٨٥ - ص ١٩٣ وأنظر : د/ محمود صالح منسى - حركة اليقظة العربية - ط ٢ - القاهرة - ١٣٩١ هـ / رد / السيد محمد الدقن - دراسات فى تاريخ الدولة العثمانية - ١٤٠٦ هـ - ص ٤٧ ، والباحث نفسها السلطان الأشرف طومان باي والمقاومة المصرية للغزو العثمانى - القاهرة ١٩٧٩ - ص ٩٥ .

كما دعم العثمانيون وجودهم في الحجاز بحاكم عثماني على رأس فرقة عسكرية كاملة متمركزة في جدة ، وقد أضيفت إلى هذا الحاكم وظيفة مشيخة الحرمين ليشرف على التصدير في مكة (١) .

وكان حاكم جدة يتلقى أوامره من العاصمة التركية أحيانا ، وأحيانا أخرى من مصر وكان وإلى مصر له شأن في عزل شريف مكة وتعيينه .

ومن النظم التي اعتمدتها الدولة العثمانية أن وإلى مصر كان من واجباته تقديم المقترحات الخاصة بولاية مكة نظرا لثقة العثمانيين بولاية مصر من ناحية ولقربهم من الحجاز ، وبعد عاصمة العثمانيين عنه من ناحية أخرى (٢) . ولأن الدولة أقرت نظام تبعية الحجاز واليمن وباشوية الحبشة لمصر اداها فقد جاء في النظام والقانون العثمانيين أن قرارات الدولة وفرماناتها تنفذ في الحجاز واليمن وولاية الحبش عن طريق ديوان مصر حتى الحملات العسكرية كان لابد من مرورها بمصر أولا طبقا لهذا النظام.

إلا أن ولاء الأشراف وانتماهم للعثمانيين كانا يتذبذبان بين الحين والآخر فكان الأشراف كلما أنسوا ضعفا من العثمانيين والمصريين وسعوا نفوذهم ، وأعلوا كلمتهم لكنهم كانوا يتظاهرون دائما بأنهم خدام السلطان (٣) .

ومما يدل على أن تبعية الحجاز لمصر ظلت قائمة في العصر العثماني أن الباشا كان يلقب بألقاب رسمية عديدة منها : الوزير المعظم ، كافل المملكة الشريفة الاسلامية بالديار المصرية ، والشغور المحمية . والأقطار الحجازية .

كما كان يطلق عليه أيضا : حافظ الديار المصرية والأقطار الحجازية ، وما حمل باشا مصر هذا اللقب إلا بسبب تبعية منطقة الحجاز لمصر ، ولمسئوليته كذلك عن رعاية قافلة الحج ومخصصات الحرمين

(١) كان أول من تولى أمر جدة من قبل العثمانيين هو قاسم الشرواني الذي كان تاجرا يقيم بمكة ، ثم سافر إلى مصر ، واتفق وصوله إليها مع دخول السلطان سليم فاتحا فتقرب الشرواني منه فعينه أمينا في بندر جدة وأميرا عليها .
أنظر: هبدالدروس الأنصاري - موسوعة تاريخ مدينة جدة - مجلد ١ دار مصر للطباعة - ط ٣ - القاهرة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م - ص ٣٠٠ .

(٢) أحمد السباعي - تاريخ مكة - مطبوعات نادي مكة الثقافي - ط ٦ - ١٤٠٤ هـ ص ص ٤٥١ ، ٤٥٢ .

(٣) حافظ وهيبة - جزيرة العرب في القرن العشرين - ص ١٤٤ .

الشريفين ، ومحمل وكسوة وغير ذلك (١) .

وقد أخذ الارتباط الدينى والاقتصادى بين مصر والحجاز يزداد بعد أن أمر السلطان سليمان المشرع بشراء بعض قرى مصر ووقفها وإدارتها على الغلة التى ترسل سنويا من مصر لتوزع فى مكة بموجب الدفاتر السلطانية (٢) .

وفى عهد السلطان سليم بن سليمان زيدت مخصصات الحرمين الشريفين من الغلال سبعة آلاف أردب أخرى وكانت هذه المخصصات تحمل من الأوقاف السلطانية فى مصر على ظهور الجمال إلى السويس ، ومن هناك كانت تشحن فى السفن إلى جدة أو ينبع (٣) .

أما فى العصر السعودى الأول فقد كان لظهور دعوة ابن عبد الوهاب الإصلاحية فى نجد على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٤) انعكاسات مختلفة على سير العلاقات المصرية الحجازية انتهت بالتدخل العسكرى المصرى لصالح العثمانيين والأشراف فى الحجاز .

(١) عن بداية الكسوة وتسيير المحمل أنظر : البتونى - الرحلة الحجازية - ط ٢ . القاهرة - ١٣٢٩ هـ - ص ١١٤ ، ١١٥ وحسين محمد نصيف - ماضى الحجاز وحاضره - ص ٩٤ .

ودم مصطفى محمد رمضان - وثائق مخصصات الحرمين الشريفين فى مصر إبان العصر العثمانى وأهميتها فى تاريخ الجزيرة العربية - ندوة تاريخ الجزيرة - الرياض ١٣٩٧ هـ - ص ١٥ .

(٢) يذكر أستاذنا الدكتور / السيد محمد الدقن : أن هذه القرى كانت مخصصة للكسوة الشريفة التى ترسل سنويا إلى الحجاز ، بعد أن ذكر أن سليمان المشرع أمر باستكمال تكاليف الكسوة من الخزانة السلطانية أنظر : كسوة الكعبة المعظمة عبر التاريخ - ط ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م - ص ٩٥ .

(٣) أنظر تفاصيل ذلك عند : القطبى (قطب الدين النهر والى الحنفى) - الإعلام بأعلام بيت الله الحرام - مكتبة الكليات الأزهرية - مصر ٣٠٥ هـ ص ص ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٢٥ . وأنظر : أحمد السباعى - تاريخ مكة ص ٤٦٢ .

(٤) نشأ محمد بن عبد الوهاب فى بلدة العينية بنجد ، وتعلم الفقه الحنبلى فيها ثم سافر إلى المدينة ليتم تعليمه ، وطاف بعدة بلدان مثل البصرة وبغداد وكردستان وهمدان وأصفهان ، ثم رحل إلى قم ، ومنها عاد إلى بلده العينية فاعتكف ثمانية أشهر ثم خرج بدعوته الإصلاحية على الناس التى تضمنت نيل الفساد والإشراك بالله ، وشغله أمر العباد كثيرا ، كما شغلته قضية التوحيد ، وما انتشر بين المسلمين من بدع وخزعيلات ، وقد أطلق أعداء بن عبد الوهاب على دعوته بالحركة الوهابية نسبة إلى والده بينما يطلق الوهابيون على أنفسهم الموحدين والمسلمين السلفيين.

فعمدنا ظهرت دعوة بن عبد الوهاب الاصلاحية اعتبر الأشراف تلك الدعوة وأصحابها خصوما لهم واتخذ الشريف - مساعد بن سعيد - تدابير مضادة في مكة بمنع أهل نجد من تأدية فريضة الحج في عهد محمد بن عبد الوهاب وفي عهد محمد بن سعود (١).

إلا أن الشريف مساعدا طلب من الدرعية بعض علماء الدعوة لمناظرة علماء مكة فأجيب إلى ذلك ، غير أن المناظرة لم تسفر عن نتيجة تذكر .

وقد تجددت المناظرة في عهد الشريف أحمد بن سعيد الذي أرسل سنة ١١٨٥ هـ / ١٧٧١ م إلى الأمير عبدالعزيز بن محمد بن سعود والامام محمد بن عبد الوهاب بهذا الخصوص ، فاجتمع علماء الطرفين بمكة ودارت المناظرات بينهما في جدال طويل حول مبادئ دعوة السلفيين احتكم الجميع خلالها إلى كتب المناظرة إلا أن ذلك لم يسفر عن نتيجة تذكر أيضا (٢).

وفي تلك الأونة كان هناك صراع يدور في الحجاز بين زعماء الأشراف لعبت فيه مصر دورا خطيرا.

== وقد كان ميلاد ابن عبد الوهاب في سنة ١١٥ هـ / ١٧٠٣ م وكان له خمسة من الأبناء هم : حسين وحسن وعلى وعبد الله وإبراهيم . أنظر : أحمد أمين - زعماء الإصلاح في العصر الحديث - ط ٤ - ١٩٧٩ م - القاهرة ص ١٠ وما بعدها . ود / عبدالعزيز محمد الشناوي - الدولة العثمانية دولة اسلامية مشترى عليها - ج ١ - القاهرة - ١٩٨٠ ص ص ٧٩ ، ٥٤٢ .
وأنظر : إبراهيم بن عبيد الله عبد المحسن - تذكرة أولى النهى والفرقان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان - ١ - ١ - ط ١ - ص ١٣ .

(١) د/ إبراهيم الفوزان - إقليم الحجاز وعوامل نهضة الحديثة - الرياض ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م - ص ٦٩ ويذكر د/ الفوزان ، ود / عبد الرحيم عبد الرحمن أن شريف مكة هو مسعود وليس مساعدا وهذا ليس لأن السابق عليه مسعود والاثنان منعا الحجاج النجديين من دخول الحرم ، وقد أيد هذا أحمد السباعي مؤرخ مكة ، وأهل مكة أدري بشعابها - أنظر : د / إبراهيم الفوزان - ص ٦٩ ، د / عبد الرحيم عبد الرحمن - الدولة السعودية الأولى - ص ١٢٦ وأحمد السباعي - تاريخ مكة - ص ٤٨٨ .

(٢) د/ عبد الرحيم عبد الرحمن - الدولة السعودية الأولى - ط ٢ - ج ١ ص ٤٢ - وأنظر : د/ إبراهيم جمعة - الأطلس التاريخي للدولة السعودية - ١٣٩٨ هـ ص ٥٦ . وأنظر : صلاح الدين المختار - تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها - ١ - ص ٤٢ .

فقد نشب الخلاف فى سنة ١١٨٢ / ١٧٦٨ م بين الشريف مساعد بن سعيد الذى هو من ذوى زيد - وبين عبد الله بن حسين بن يحيى زعيم آل بركات على إمارة مكة وكان البركات قد استقر رأيهم على محاربة مساعد وقومه فحاولوا احتلال مدينة جدة . إلا أنها استعصت عليهم فعادوا منها إلى وادى فاطمة (١) وهناك تفتق ذهنهم على طلب مساعدة وإلى مصر فتوجه عبد الله بن حسين البركاتى إليها حيث التقى بعلى بك الكبير (٢) الذى كان يعد العدة للثورة على العثمانيين فى مصر وتوسيع مناطق نفوذه فوجدها على بك فرصة سانحة لاحتلها ليصل نفوذه إلى مكة وليكون ذلك أدعى لقبوله بعض الشئ عند الرأى العام الذى لا يقبل الانشقاق على الدولة العثمانية باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية فى هذا العصر .

وقد كلف على بك الكبير أمير الحج - محمدا بك أبا الذهب - باصطحاب البركاتى إلى مكة ومساعدته على تولي الإمارة وكان ذلك فى سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م

(١) يرتبط تاريخ وادى فاطمة بتاريخ مكة حيث سكنه بعض أمرائها إبان الحكم العثمانى ، كما سكنه أيضا بعض الأشراف فى ذلك الوقت . ويطلق على هذا المكان أيضا : وادى مر الظهران ، وادى الشريف ، وينسب الوادى إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم أو لفتاة كانت تدعى فاطمة الخزاعية - يوجد فى هذا المكان قبرها ، ويبعد هذا الوادى ٢٥ كم عن مكة . أنظر : أحمد عبد الجبار - عبادات وتقاليد الزواج بالمنطقة الغربية ط ١ - ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م - جدة - ص ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) ولد على بك فى بلاد الأمازة من أعمال القوقاز سنة ١٧٢٨ م / ١١٤١ هـ وكان أبوه واحدا من قساوسة الكنيسة اليونانية ، وفى إحدى الرحلات اختطف قطاع الطرق عليا وباعوه لأحد تجار الرقيق الذى أهدها إلى صديرا جمرك الأسكندرية اليهوديين فقدماه هدية إلى إبراهيم (كتنخدا جاويش) (البندكجرجى) ، واعتنق على الإسلام فى ظل كتنخدا جاويش وتعلم ، وأخذ يترقى حتى بلغ مرتبة الصنجقية ، ثم لم يلبث أن تولى منصب شيخ البلد سنة ١١٧٤/١٧٦٠ هـ ، وتمكن بعد ذلك من إزاحة منافسيه على مشيخة البلد ، وعلى رأسهم عبد الرحمن كتنخدا الذى كان له الحبل والعقد ، ثم تمكن من عزل الباشا العثمانى ، وخلق طاعة الدولة العثمانية بعد أن دانت له الحجاز ومصر أنظر : على باشا مبارك - الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ج ١ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ط ٢ - ١٩٨٠ ص ١٥٣ . ود/ ليلى عبد اللطيف أحمد - الصعيد فى عهد شيخ العرب هشام - ١٩٨٧ م ص ١٣٤ وما بعدها . وانظر فى ترجمته محمد كمال السيد - الأهرام جامعا وجامعة - سلسلة البحوث الإسلامية ١٤٠٦ هـ - ص ص ٩٥ ، ٩٦ .

وعندما انتهى أمير الحج المصري إلى مكة لم يظهر نيته في عزل الشريف مساعد وتولية البركاتى فى الوقت الذى شعر فيه الشريف مساعد بما يجرى فأرسل إلى أمير الحج المصري عقب الفراغ من منى بيومين ليغادر مكة بعسكره منعاً لما يحدث من التشوش فارتحل الأمير دون إظهار شئ من الخلاف (١).

وأرى أن السبب الذى منع أبا الذهب من عزل مساعد هو عدم تجهيز حملة حربية تكفى لهذا الأمر فى الوقت الذى كان فيه الشريف مساعد فى منعه بين أهله ورجاله وعلى أرضه كذلك ، فاستصعب أبر الذهب تولية البركاتى وأرجأ توليته إلى العام المقبل ليتمكن من إتمام العدة فى مصر ثم العودة الى مكة فى حملة قوية لمبايعة الشريف عبد الله البركاتى (٢) واستقاط الشريف مساعدين سعيدين وبعد أن استفحل الشقاق بين الشريف عبد الله والشريف مساعد ترك الشريف عبد الله الحجاز مولياً وجهه

(١) أحمد السباعى - تاريخ مكة - ص ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

(٢) والغريب أن الجبىرتى قد سكت عن أخبار هذه الحملة الاستطلاعية ، ولم يروى لنا أخبارها على الرغم من ذكره تفصيلات الحملة التى قُطِبها مباشرة ، ويبدو أن أمرها كان فى طى الكتمان لم يعلم به إلا أمير الحج والبركاتى وعلى بك فلم يصل إلى علم الجبىرتى إلا أخبار الحملة الثانوية - التى ستحدث عنها - بهذا ظهر الاستعداد لها . كما لم يُشر إلى هذا الموضوع د/ عبد الرحيم عبد الرحمن على الرغم من ذكره تفصيلات الحملة الثانية بعد ذلك ، ولهذا فقد اضطرر إلى الاعتماد على السباعى - مؤرخ مكة - وحده فى تلك المرحلة الأولى حيث أنه استقى معلوماته من مخطوطين : الأول إفادة الأتام لعبد الله غازى ، والثانى : تاج تواريخ البشر لمحمد سعيد الحضاروى ولم تصل إليهما يدى وألاحظ هنا بعض الخلط التاريخى فبينما يذكر الجبىرتى أن عبد الله البركاتى ورد على (على بك) سنة ١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ م نجد أن السباعى يذكر أن عبد الله البركاتى خرج ع أمير الحج سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م فمعنى ذلك أن ورود البركاتى كان قبل ذلك . والتوفيق بين الروایتين يمكن أن نتلسمه بما ذكره محمد أديب غالب : من أن عبد الله هرب بعد عودة المحمل المصرى سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م مرة ثانية الى مصر ليستنجد بعلى بك . فمعنى ذلك أن المرة الأولى كانت سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م ، والثانية سنة ١١٨٤ هـ : ١٧٧٠ ، والأخيرة هى التى تحدثت عنها الجبىرتى كانت فى أحداث سنة ١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ م .

صوب اسلاهيول ، وهناك التقى بالسلطان العثماني الذي كتب له مكاتبات يوصي فيها عليها بك به ، وكان على بك مشغولا حينئذ بتوطيد دعائم استقرار ملكه في مصر لتخلص له في النهاية .

وقد صادف طلب الشريف عبدالله هوى في نفس على بك ، فأمر باعداد حملة كبيرة لهذا الغرض ، ووصف الجبرتي هذا الاعداد بقوله :

" وأمر بتجهيز الذخائر والأقامات ، وعمل البقسماط الكثير ، حتى ملأوا منه المخازن ببولاق ومصر القديمة والقصور وبيوت الأمراء المتنافي الخالية ثم عبوا ذلك ، وأرسل مع باقي الاحتياجات واللوازم من الدقيق والسمن والزيت والعمل والسكر والأجبان في البر والبحر ، واستكتب أصناف العساكر أترাকা ومغاريه وشواما ومتاوله ودورزا وحضارمة ومانية وسودانا وحبوشا ودلاة وغير ذلك ، وأرسل منهم طوائف في المقدمات والمشاة وأنزلوهم من القلزم ^(١) في المراكب وصحبتهم الجياخانات ^(٢) والمدافع وآلات الحرب " .

وقد كان على رأس هذه الحملة محمد بك أبو الذهب ، وكان خروجها من مصر في صفر سنة ١١٨٤ هـ : يونيه ١٧٠ م (٣) .

وعندما وصلت الحملة المصرية إلى ينبع ، وقعت معركة حامية بين طليعة الحملة المصرية التي كان يقودها محمد بك أبو الذهب وعريان ينبع المواليين للشريف أحمد بن سعيد (٤) أمير مكة ، وكان

(١) القلزم اسم مدينة كانت تقع بالقرب من مدينة السويس الحالية وقد طغت عليها الرمال شأنها في ذلك شأن السواحل التي تقع في الأرض الجبلية العالية وقد أطلق على البحر الأحمر بحر القلزم نسبة الى هذه المدينة التي كانت تقع في أقصى الشمال من هذا البحر . أنظر : دائرة المعارف الاسلامية - م ٦ ص ٢٩٩ .

(٢) الجبه خانه في التركيبة المكان الذي يودع به الأسلحة والمعدات الحربية والذخائر . إلا أن الجبرتي أستعملها هنا بمعنى الذخيرة لا بمعنى المغزون أو المستودع . أنظر : د / أحمد السعيد سليمان - تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل - القاهرة ١٩٧٢م ص ٦٥ .

(٣) الجبرتي عجائب الآثار ج ١ - ص ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ .

(٤) تولى الشريف أحمد بن سعيد إمارة مكة بعد وفاة أخيه في أواخر سنة ١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ م وكان الشريف عبدالله آنذاك في مصر ، فلما عاد في صحبة الحملة وجد أن أحمد بن سعيد قد تولى إمارة مكة عوضا عن أخيه (مساعد بن سعيد) .

يقودهم وزيره درويش أغا ، وقد أنتهت هذه المعركة بانتصار طليعة الحملة المصرية ، وهزيمة العريان ، ومصرع أعداد كبيرة منهم ، ومصرع قائدهم ^(١) درويش أغا ^(٢) .

وبعد أن احتلت الحملة مدينة ينبع تقدمت إلى وادي فاطمة في جموع حاشدة من العريان بينما كان الشريف أحمد بن سعيد المتقهقر يستنفر القبائل ويقوم بتحصين مركزه ، وفي الوقت نفسه أرسل مفتى مكة إلى قائد الحملة برسالة يطلب فيها مقابلته والتفاوض معه ، فلما التقى المفتى بقائد الحملة محمد بك لم يجد منه إلا جوابا واحدا وهو أنه مأمور بانتزاع إمارة مكة من الشريف أحمد وتسليمها إلى الشريف عبدالله .

وفي ١٦ من ربيع الأول سنة ١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ م تحرك أبو الذهب بحملته من وادي فاطمة متجها صوب مكة إلا أن الشريف أحمد بن سعيد وجد أنه لا طاقة له بهذا الجيش بعد أن تفرقت عنه البادية فغادر مكة إلى الطائف ، ودخل الشريف عبدالله مكة مع الجيش المهاجم ونزدي له بالامارة .

وقد تتبع جيش الحملة مع بعض جنود الشريف عبدالله فلول جيش الشريف أحمد المعزول الذي تحصن بالطائف ، ثم لم يلبث أن هرب منها ، فلاحقه جنود الحملة ثم أحاطت به غير أنه تمكن من الفرار متوجها إلى الليث . وقد اكتفى أبو الذهب بفرار الشريف أحمد بن سعيد فنصب الشريف عبدالله أميراً على مكة ، ثم أرتحل في جنده إلى مصر في ٢٠ من جمادى الأولى سنة ١١٨٤ هـ ١٧٧٠ م بعد أن ترك حامية قوية للخطة التي اتفق عليها مع علي بك في مصر ^(٣) .

ويتوقف الباحث بعد هذا العرض عند العلاقة بين الاتصالات الأولية التي حدثت بين الشريف أحمد بن سعيد والسعوديين ، وبين تلك الحملة المصرية التي استنجد بها عبدالله البركاتي .

(١) ذكر أحمد السباعي في كتابه تاريخ مكة ص ٤٣٦ أن وزير الشريف درويش أغا قد فر هاربا عندما عجز عن صد الحملة المصرية إلا أن الجبرتي ذكر قوله : " وانتصر عليهم المصريون وقتل وزير البنيع المتولى من طرف شريف مكة وقتل معه خلائق كثيرة . أنظر : الجبرتي - ج ١ - ص ٤٥٦ .

(٢) الجبرتي - عجائب الآثار ج ١ - ص ٤٥٦ .

(٣) أحمد السباعي - ٤٣٥ وما بعدها - وأنظر : محمد جمعان محمد دادا - جدة في عهد الملك عبدالعزيز

(١٩٢٥-١٩٥٣ - ٩ - رسالة ماجستير من جامعة الأزهر ١٤١١ هـ - ص ٣٦ ، ٣٧ .

فيذكر الدكتور / عبدالرحيم عبدالرحمن (١) : أن الشريف أحمد بن سعيد اتصل بالسعوديين في سنة ١١٨٥ هـ / ١٧١ م محاولا التفاهم معهم على الرغم من عدم تمكنهم من تهديد الحجاز في ذلك الوقت المبكر ، وأن هذا الاتصال كان بسبب خشيته من استنجد الشريف عبدالله بن بركات بمصر ، وطعمه في التأييد العسكري من السعوديين لصد الحملة المصرية المرتقبة .

ولا يمكننا التسليم بهذا الرأي لأن الواقع التاريخي يخالفه من وجهين :

الوجه الأول : أن اتصالات كثيرة حدثت بين أشراف مكة والسعوديين دون أن يكون هناك تهديدات تشكلها حملة مصرية ، مثل الاتصال الذي حدث بين سعود بن سعيد شريف مكة وبين محمد بن سعود والأمام بن عبدالوهاب سنة ١١٦٥ هـ / ١٧٥٢ م ، وكذلك الاتصالات التي دارت بين الشريف غالب والسعوديين بزعامة عبدالعزيز بن محمد بن سعود والأمام بن عبدالوهاب سنة ١٢٠٤ هـ / ١٧٩٠ م ^(٢) على الرغم من عدم وجود تهديد بحملة مصرية أو غيرها .

والوجه الثاني : هو أن استنجد الشريف عبدالله بمصر كان في عامي ١١٨٣ هـ / ١١٦٩ م ، ١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ م بينما كان اتصال الشريف أحمد بن سعيد بالسعوديين في سنة ١١٨٥ هـ / ١٧٧١ م أي بعد عودة الحملة إلى مصر .

والذي يمكن أن نستنتجه هو أن اتصال الأشراف بالسعوديين في ذلك الوقت لم يخرج عن كونه استطلاعاً لمعرفة حقيقة ما تردد وشاع عن السعوديين من وصفهم بالغلو والشدة وتحريف الدين ^(٣)

فلم يخرج الأمر عن دعوة علماء نجد لجلاء الغموض الذي اكتنف دعوتهم الجديدة وثمة تساؤل

(١) د/ عبدالرحيم عبدالرحمن - الدول السعودية الأولى - ص ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) د/ ابراهيم الفوزان - أقليم الحجاز - ص ٦٩ .

(٣) أنهم أعداء الدعوة لأن عبدالوهاب بأنه مبتدع ، وأن مذهبه خامس المذاهب وأنه لا يحب الرسول ﷺ ولا أولياءه ، وأنه يدعو إلى زيارة قبر الرسول ﷺ ، والصلاة عليه كما أنهم ابن عبدالوهاب كذلك بأهمال أمر المذاهب الأربعة وإتلاف كتبها ، وأن السعوديين يفسدون القلوب ويغيرون عقائد الناس . أنظر : أحمد بن حجر ال أبو طامي - الشيخ محمد بن عبدالوهاب - ص ٤٨ .

يفرض وجوده حول قول الجبرتي^(١) عن عبدالله بن بركات وخرج الشريف عبدالله هاربا وذهب إلى ملك الروم^(٢) واستنجد به فكتب له مكاتبات لعلى بك بالمعونة والوصية والقيام معه ، وحضر إلى مصر بتلك المكاتبات . وذلك فى سنة ١١٨٤ هـ / ١٩٧٠ م .

والتساؤل هو : لماذا أوعز السلطان العثمانى إلى على بك بالقيام على رأس حملة إلى الحجاز لمناصرة الشريف عبدالله ؟ والاجابة تكمن فى طريقة العثمانيين عندما يريدون التغلص من يشتصون منه رائحة العصيان فانهم يحاولون توريطه فى عمل يودى به أو بخصمه وفى كلا الحالتين تصبح الدولة هى الكاسبة بصورة أو بأخرى .

وكانت بوادر عصيان على بك فى تلك الفترة قد ظهرت وحسنات الشريف أحمد لدى الدولة قد خفت وهذا الأسلوب قد استخدمه العثمانيون فيما بعد مع محمد على باشا عندما دفعوه دفعا إلى شبه الجزيرة العربية فى سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م^(٣) لقتال الوهابين .

ولم يقتصر دور المصريين على الحملة التى دخلت الحجاز بزعامة أبى الذهب لأن سطور التاريخ تنطق باشتراكهم فى مواقع حدثت بعد ذلك نذكر بعضها فيما يلى على سبيل المثال :

فبعد رحيل الحملة واستقرار الأمر للشريف عبدالله لم تفت الأحداث فى عضد الشريف المعزول أحمد بن سعيد فجهز فى نفس العام جيشا من ثقيف وما والاها ثم زحف على مكة واحتدم القتال ويذكر : " أنه أسفر عن هزيمة عبدالله ومؤيديه من عسكر مصر الذين اضطروا إلى الفرار إلى وادى^{فاملة} ثم انتقلوا منه إلى جدة فحاصرتهم القبائل فاضطروا إلى اللجوء إلى ينبع ، ومنها فروا إلى مصر مع الشريف عبدالله الذى سافر بعد ذلك من مصر إلى الأستانة وظل بها إلى أن مات^(٤) .

ومعنى ذلك أن عبدالله كان قد استبقى معه بعض الجنود المصريين تحسبا لما قد يحدث .

وهناك خبر آخر فحواه أن الشريف سرور بن مساعد استنجد بأمير الحج المصرى اسماعيل بك الدفتر دار فى سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣م فأمد به فريق من الخيالة المصريين غير أن هذا الفريق عجز عن

(١) الجبرتي - عجائب الآثار - ج ١ - ص ٤٥٥ .

(٢) يقصد الجبرتي بملك الروم سلطان العثمانيين .

(٣) هذا التاريخ الذى أورده هو تاريخ تحرك الحملة المصرية بقيادة طوسون باشا فى طريقها إلى الحجاز .

(٤) أحمد السباعى - تاريخ مكة - ص ٤٣٩ .

صد الثوار الذين كان يقودهم الشريف أحمد بن سعيد ^(١) كما حاول الشريف أحمد بن سعيد بعد هذا العام غير مرة ^(٢) الاستعانة بأمراء الحج المصرى والشامى ليساعده فى عزل الشريف سرور - وتلك محاولة شرعية لأن المصريين هم الذين أخرجوا الشريف أحمد بن سعيد ، فكان من الطبيعى أن يعتذروا عن عدم مساعدته محتجين بأنهم لا يخوضون قتالا إلا بمرسوم خاص .

وفى عهد الشريف سرور هذا حدثت بعض الاعتداءات على قافلة الحج المصرى فى سنة ١٢٠٠هـ/١٧٨٦م اعترضت بعض قبائل حرب طريقها غير أن أمير الحج المصرى (مراد بك) تمكن من أسر نفر منهم وأمر بكيعهم بحديد محمى فى خدودهم ليكون ذلك وشما يعرفون به إلا أن بعض مشايخهم تشفع فيهم فأبى الأمير وأتم ما أمر به فصاح صائحهم " بالقبائل حرب " فاجتمعوا على القافلة من كل حذب وصوب ، وأعملوا فيها السيف حتى لم ينج منهم إلا القليل ونفر أمير الحج ^(٣).

ويصف لنا الجبرتى الحادثة بشكل منظم ودقة أكثر مبينا السبب الحقيقى فيقول ^(٤) : " وسبب ذلك كله رعونة أمير الحج - مراد بك - فإنه لما أراد أن يتوجه بالحجاج إلى المدينة أرسل إلى العرب فحضر إليه جماعة من أكابرهم ، فدفع لهم عوائد سنتين ، وقسمت البواقي على السنين المقبلة بموجب فرمان وحجز عنده أربعة أشخاص رهائن فبدا له أن كواهم بالنار فى وجوههم ، فبلغ ذلك أصحابهم ، فقعدها للحجاج فى الطريق ، فبلغ أمير الحج ذلك فذهب من طريق أخرى ، فوجدهم رايطين فيها أيضا ، فقاتلوه قتالا هينا ، ففر هاربا وترك الحجاج والعرب ، فنهبوا حملته وقتلوا مماليكه ، ولم يبق معه إلا القليل ، فهرب بمن بقى معه واختفى عن الحجاج ثلاثة أيام ، ولم يره أحد ، وفعلت العرب فى الحجاج ما فعلوه وأخذوا المحمل أيضا ولم يردوه " .

ومما يشير الدهشة أن الجبرتى ألقى باللوم على أمير الحج مع أن ما فعله قد يعد من سلوكيات الحزم والشدة مع قطاع الطرق هؤلاء الذين يفرضون الاتاوات على ضيوف الرحمن الحاجين إلى بيت الله الحرام ، وواضح أيضا من حديث الجبرتى تحجيه بشدة على أمير الحج واتهامه بالفرار والتقصير مع أن السباعى مؤرخ مكة قد صور الحادثة على أنها كانت أكبر من الأمير ومن إمكاناته الحربية .

(١) أحمد الرشيدى - حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج ورقة ٨٥ مخطوطة بمكتبة رفاعة الطهطاوى بضمها رقم ٨٢ تاريخ .

(٢) لم يذكر لنا السباعى تواريخ محاولات الشريف أحمد ، واكتفى بقوله : " فى أكثر من سنة " .

(٣) أحمد السباعى - تاريخ مكة - ص ٤٤٣ .

(٤) الجبرتى - عجائب الآثار - ج ٢ - ص ١٩٧ .

ويغلب على الاعتقاد أن الجبرتي كان متأثرا في كتاباته عن الممالك - في هذه الفترة - بكرهيته لهم - كما سنرى أيضا في حديثه عنهم في أحداث الحملة الفرنسية على مصر .

والطريف في الأمر أن أمير الحج - مرادا بك - أتى بمحمل قديم زوره على أنه المحمل العائد ، ولكن الأمر قد تكشف بعد ذلك في العام التالي ١٢٠١ هـ / ١٧٨٧ م فقد كان للشريف سرور موقف طيب حيث حارب العريان ، وفتك بهم واستطاع استخلاص المحمل من أيديهم ثم أرسله برفقه أحد الأشراف إلى مصر .

وقيل أن الشريف الذي أتى به هو الذي افتداه بأربعمائة ريال فرانسة ^(١) فدخل به مصر ، واستقبله وجوه الناس ^(٢) - والراجح عندى الرواية الأولى فقد أراد الشريف سرور من استخلاصه للمحمل من قبضة قطاع الطرق التردد إلى مصر لكسبها في صفقة أو على الأقل ليكسب القوة التي ترافق قافلة الحج ليستعين بها ضد الأخطار المحدقة به من كل جانب ويؤيد هذا الرأي - في اعتقادي - ما حدث قبيل موسم الحج التالي إذ أرسل الشريف سرور في شوال سنة ١٢٠١ هـ / يوليو ١٧٨٧ م رسله إلى مصر ليخبر أولى الأمر بها عن عصيان عرب قبيلة حرب وغيرهم طالبا إرسال قوة كبيرة بكامل معداتها ^(٣) .

وفي سنة ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م خرج الشريف غالب - شريف الحجاز في ذلك الوقت - بجيش كبير شمل عساكر من البادية والخواضر والمغاربة كما اشترك جماعة من المصريين في هذه الحملة التي ذهبت لتأديب العصاة من العريان ^(٤) .

فما تقدم يتضح أنه كان للمصريين دور خطير في أحداث الحجاز السياسية والعسكرية خاصة فيما يتعلق بالحرمين الشريفين وقافلة الحج والشرافة .

(١) الريال الفرنسية كان يساوي عشرين قرشا في النصف الأول من القرن التاسع عشر على وجه التقريب . أنظر: دار الوثائق القومية بالقاهرة - الوثيقة رقم ٧٢ الدفتر رقم ١٥٦ - مجلس ملكي - المحفظة ٦ الحجاز - قرار صادر من مجلس جدة بتاريخ ١٢ من صفر سنة ١٢٥٣ هـ . ويبدو أن ذلك لم يكن مستقرا إنما كان السعر الرسمي الذي يصدره مجلس جدة هو عشرين قرشا ، ويختلف باختلاف البنادر المختلفة . أنظر : الوثيقة رقم ١٢ حمراء - المحفظة ٢٦٦ عاهدين صورة القرار الوارد من مجلس جدة بتاريخ ٥ من ربيع الآخر سنة ١٢٥٥ هـ .

(٢) الجبرتي - عجائب الآثار - ج ٢ - ص ١٩٧ .

(٣) الجبرتي - عجائب الآثار - ج ٢ - ص ١٩٧ .

(٤) د/ إبراهيم جمعة - الأطلس التاريخي - ص ٦٢ .

أثر الحملة الفرنسية على العلاقات المصرية الحجازية

لم تكن الحملة الفرنسية على مصر إلا حلقة من حلقات الالتفاف الأوربي الحديث على بلدان العالم الاسلامي ، وكانت في الوقت نفسه مظهرًا من مظاهر التنافس بين فرنسا وإنجلترا في سبيل بناء الامبراطوريات والاستحواذ على الأراضي والحصول على الامتيازات التجارية والصناعية.

ولم تكن تلك الحملة وليدة يومها بل كانت هناك محاولات سابقة في عهدي لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر إلا أن الفرصة لم تواتر الفرنسيين إلا أثناء الحرب بين فرنسا ومعظم دول أوروبا وعلى رأسها إنجلترا ، والتي أدت إلى تفكير القادة الفرنسيين في غزو إنجلترا نفسها ، ولما كان ذلك محفوفًا بالأخطار أصبح الاتجاه الفرنسي هو مهاجمة المناطق الضعيفة من ممالك إنجلترا فيما وراء البحار والتوصل إلى ذلك باختلال بعض الدول العثمانية فكان الغزو الفرنسي لمصر لتكون قاعدة لتنفيذ هذا الاتجاه وتحقيق المكاسب التالية :

- ١ - تأسيس مستعمرة مزدهرة في مصر واستغلال مواردها العظيمة .
- ٢ - توجيه ضربة مباشرة إلى بريطانيا بالسيطرة على أحسن الطرق إلى الهند (البحر الأحمر) .
- ٣ - إرتياد مصر القديمة والحديثة على أساس علمي ^(١) .

ومما لا شك فيه أن هذا الاستعمار الفرنسي في مصر كان محاولة لإيجاد محور جديد تركز عليه الحكومة الفرنسية لبناء امبراطورية استعمارية جديدة تناظر الامبراطورية البريطانية ^(٢) .

وليس أدل على ذلك مما حملته الرسائل الفرنسية التي أرسلها نابليون بونابرت إلى بعض زعماء الهند المحليين عن طريق شريف مكة الشريف غالب عشية استقرار الفرنسيين في مصر ^(٣) .

(١) هيلين آن ريفلين - الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر ترجمة د / أحمد عبدالرحيم مصطفى وآخر دار المعارف - القاهرة ١٩٦٨ م ص ص ٢٤ ، ٢٥ . وجدير بالذكر أن هيلين آن ريفلين كانت أستاذة بإحدى الجامعات الأمريكية واعتمدت في مصادرها على وثائق المحفوظات البريطانية والفرنسية بالإضافة إلى المكتبات العربية والأجنبية أنظر : مقدمة الكتاب بقلم المترجمان .

(٢) د / عبدالويز نوار - تاريخ العراق الحديث في نهاية حكم داود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا - دار الكاتب العربي - القاهرة - ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م - ص ص ١٩ .

(٣) الجبهتي عجائب الآثار - ج ٣ - ص ٨٤ .

وقد أعدت هذه الحملة إعدادا حريبا عظيما حتى أصبح قوامها ٣٦.٠٠٠ مقاتل (١) مزودين بالمعدات الحربية حملتهم أكثر من ثلاثمائة سفينة بحرسها أسطول مكون من خمس وخمسين سفينة حربية .

وقد كان الفرنسيون يعتقدون بأن مهمتهم سهلة ولن يلقوا مقاومة من المصريين لكراهيبتهم للمماليك ، ولأنهم عزل من السلاح ، إلا أن الحوادث خيبت ظنونهم . فالمتتبع لحوادث استيلاء الفرنسيين على مدن مصر وقرائها لابد أن يعترف بأن دور الأهالي في المقاومة كان أكثر بكثير من دور المماليك ، فلقد اندلعت ثورة عارمة في وجه الغزاة ، وسرت روحها ضد الحملة في البلاد كلها من الأسكندرية إلى أسوان (٢) وليس من الضروري في بحثنا هذا أن نستعرض في الحديث عن الحملة وأحداثها والمقاومة الشعبية وأشكالها إلا ما كان منها مجالا شارك فيه المصريون والحجازيون بجهودهم وجهادهم مستبشرين ضد الغزاة الفرنسيين .

فلقد تجلت أشكال العلاقات المصرية الحجازية في أروع صورها ، وكانت تحمل روح الأخوة الإسلامية ، والانتفاضة المستبشرة للدفاع عن حمى الدين والعروبة . فعندما وصلت أخبار الغزو الفرنسي لمصر إلى الحجاز في أوائل سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م متضمنة أن الفرنسيين قد باغتوا مصر واستولوا على الكثير من مدنها وقرها شمر الحجازيون - وعلى رأسهم الأشراف - عن ساعد الجد وأخذوا يعدون عدتهم ويحصنون المدن الحجازية بكل ما أتوا من قوة - كما أصدر الشريف غالب أمره إلى الأهالي المجاورين بأن يتعلموا استعمال السلاح ، وأعد لذلك ساحة صار يخرج إليها في أعداد كبيرة من المجاهدين للتدريب والتعليم ، كما أمر بإصلاح سور جدة وتقويته تحسبا واستعدادا لداعى الجهاد (٣) .

(١) تذكر هيلين آن ريفلين في كتابها الاقتصاد والادارة في مصر : أن الجيش الفرنسي كان قوامه أربعين ألفا من الجنود أنظر ص ٣١ .

(٢) يذكر الرافعى ص ٢٢ : " أن العدوان الاستعماري استثار روح القومية في نفوس المصريين " وهذا الكلام تنقصه الدقة التاريخية فالأصوب أن يقال : (روح الجهاد الإسلامية) لأن هذه المقاومة كانت جهادا في سبيل الله . أنظر : عبدالرحمن الرافعى بك - تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ج ١ - دار المعارف - ط ٥ - ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ص ٨٢ وما بعدها .

(٣) أحمد السباعي - تاريخ مكة - ص ٤٩٠ - وأنظر : عبدالكريم الغرابية - قيام الدولة السعودية - مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٤ م ص ٨٢ .

وقد ازدادت روح الجهاد الاسلامى قوة وحاسا عند وصول فرمان الدولة العثمانية الداعى أهل الحجاز إلى الاستعداد للدفاع عن بلادهم ضد الغزاة الفرنسيين يقول ابن زنى دحلان : ورد فرمان من الدولة بتحسين الحرمين تحفظا من الفرنسيين بعد أخذهم مصر فقرأى فرمان مكة والمدينة ، فأمرؤ الناس بالاستعداد للكفاح بتعلم الرمي وحمل السلاح ، وأصلحو سور جدة وعمروه واستعد الناس لذلك غاية الاستعداد " (١) .

ومن دواعى هذا الجهاد الدفاع عن النفس والوطن وقد مهد له وساعد عليه أمر الحاكم به وحشد المسلمين عليه بيد أن روح النخوة الاسلامية تجلت بصدق فيما قام به الأهالى بعد أن خطب فيهم أبلغ الخطباء أمثال الشيخ الكيلانى ، وأشعلوا فى نفوسهم الحماس الدينى ، فأخذوا يبذلون الأموال والأثفس ، وتجمع عدد كبير من الحجاز وتكون منهم جيش من المجاهدين سار صوب ينبع وهناك انضم اليهم الكثيرون من أهل ينبع وركبوا البحر الى القصير ، ثم اتجهوا صوب قنا وهناك أنضموا إلى المجاهدين من أهالى الصعيد ، ومن الأتراك والمغاربة الذين فروا أمام الفرنسيين بعد معركة أمبابة (٢) .

هذا على الرغم من أن شريف مكة كان الزعيم العربى الوحيد الذى رد على رسالة بونايرت ردا حسنا نظرا لرغبته فى استمرار الدخل الحجازي من جراء استمرار التجارة بين الحجاز ومصر بالاضافة إلى انعاش قوافل الحجاج القادمة منها (لاقتصاد الحجاز) كما كان لصادرات البن من الحجاز إلى مصر دوراقتصادى عظيم (٣) .

ويبدو أن شريف مكة فى موقفه هذا قد فصل بين المصالح الاقتصادية وجعلها فى طريق مستقل بعيدا عن روح الأخوة والنخوة الاسلامية التى تركها هى الأخرى تأخذ سبيلها ، ولم يتوقف عن دعمها وتعطى بنا بعض الأوصاف صورة قريبة لما كان عليه حماس هؤلاء الرجال الذين فزعوا لنصرة أخوانهم فى الدين حيث يذكر أنهم عبروا البحر الأحمر بالألوف مفاخرين جميعا بأنهم من سلالة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يلبسون الصمائم الخضضر ويحملون البنادق والسيوف والخناجر والرماح ، وفى خلقتهم صلاة تنطق بها وجوههم ، وقد وصفهم بونايرت بقوله : " أن ضراوتهم لا يعد لها الا انحطاط

(١) خلاصة الكلام فى بيان أمراء البيت الحرام - ص ٢٦٧ .

(٢) الجيرنى - عجائب الآثار - ج ٣ - ٦١ .

(٣) كريستوفر هيرولد - بونايرت فى مصر - ترجمة فؤاد اندراوس - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٦م - ص ١٥٧ .

مستوى معيشتهم " (١)

ولا يعيبيهم فى نظرى الشطر الأخير من وصف بونايرت لهم بل يزيد من قدرهم لأنهم على الرغم من انحطاط مستوى معيشتهم فانهم كانوا ليوثا فى الحق والجهاد فى سبيل الله بيد أن بونايرت أراد أن يعبر عن شجاعتهم ويطولتهم بالضراوة وأن يعبر عن حياتهم البسيطة التى لم تعرف الرفاهية بانحطاط مستوى العيش وهو تعبير نابع من خصومة لكنه كشف لنا حقائق عظيمة شرفت هؤلاء القوم .

ريضطر الباحث الى سوق رواية الجيرتى لما فيها من العبارات التى تحتاج الى مقارنة وشرح وتحييص ودراسة : قال الجيرتى فى مجمل حديثه عن أخبار شهر شعبان سنة ١٢١٣ هـ ومنها "تواتر الأخبار من ابتداء شهر رجب بأن رجلا مغربيا يقال له الشيخ الكيلانى كان مجاورا بمكة والمدينة والطائف ولما وردت أخبار الفرنسيين إلى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية ، انزعج أهل الحجاز لذلك ، وضجوا بالحرم وجردوا الكعبة وأن هذا الشيخ صار يعظ الناس ، ويدعوهم إلى الجهاد ، ويحرضهم على نصره الحق والدين وقرا بالحرم كتابا مؤلفا فى معنى ذلك فاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم ، واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين ، وركبوا البحر إلى القصير مع من انضم إليهم من أهل يتبع وخلافه .

فوردا مخبر أواخره أنه انضم إليه جملة من أهل الصعيد وبعض أترك ومغاربة ممن كان خرج معهم من غز مصر عند وقعة أمبابة ، وركب الغز معهم أيضا وحاربوا الفرنسيين فلم تثبت الغز كعادتهم وانهزموا وتبعهم هواره الصعيد والمجتمعة من القرى .

وثبت الحجازيون ثم انكفوا لقتلهم وذلك بناحية جرجا وهرب الغز والمماليك إلى ناحية إسنا وصحبتهم حسن بك الجداوى ، وعثمان بك حسن تابعه .

ووقع بين الحجاز والفرنسيين بعض حروب غير هذه المرة بعدة مواضع ، وينفصل الفريقان بدون طائل (٢) .

وأول شئ يحتاج الى بيان هو ما ذكره الجيرتى : " واجتمع الستمائة " فان ذلك يوحى بأن

(١) المرجع السابق - ص ٢٥٦

(٢) الجيرتى - ج ٣ - ٦١ .

مجموع المجاهدين الذين أتوا مع من لحق بهم لا يتعدى الثمانمائة أو الألف وهذا غير سليم لأن عربان
الينيع والقصير بل وعربان الصحراء الشرقية وسيناء يعدون أنفسهم من الحجاز ويفتخرون بذلك .

فقول الجبرتي أنهم ستمائة وركبوا البحر مع من انضم إليهم من أهل ينيع أى أن أهل ينيع عدد
آخر يضاف الى الستمائة وخلافه أى عربان أهل القصير والصحراء الشرقية وهذا يوحى بأنهم زادوا
على الألفين كثيرا أى أن الجبرتي ذكر العدد الذى تأكد منه وهو الستمائة حجازى الذين بدأوا
المسيرة وذكر من لم يتأكد من عدده بصيغه عمومية وبدون تحديد .

ويؤكد على ذلك أيضا ما ذكره بونايرت : ^(١) من أن عدد المقاتلين الذى أتوا من عرب ينيع
وجدة بلغ ألفين من المقاتلين بقيادة الشريف حسن هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن من يتتبع
تفاصيل معارك الصعيد الواحدة تلو الأخرى والتي اشترك فيها عرب الحجاز ليخرج بنتيجة واحدة هى
أن عدد الحجازيين كان كبيرا - ربما فاق الألفين .

فلقد اشترك الحجازيون - فى أول معركة لهم - وهى معركة سمهود فى ٢٢ من يناير
١٧٩٩ م / ١٢١٤ هـ بعد أن انضموا إلى جيش المجاهدين المصريين الذى بلغ تعدادة حوالى
١٢٠٠٠ مقاتل كان يقودهم مراد بك ، إلا أن تنظيم الفرنسيين وأسلحتهم الحديثة أدت إلى إنزال
الهزيمة بهذا الجيش ^(٢) والهزيمة فى الحرب لا تعنى إلا خسائر سواء فى الأرواح أو العتاد مع
التشتيت الذى يحدث للمهزوم كما نجد بعد ذلك تعاون الماليك مع طوائف عرب الحجاز وأهالى البلاد
فى مهاجمة الجواميات الفرنسية والمدن التى سيطر عليها الفرنسيون وقطع مواصلات الجيش الفرنسى
فى النيل وذلك بمهاجمة سفن الجنود والذخائر والأقوات ^(٣) - كما اشتركت القوات الحجازية فى سحق
الأسطول الفرنسى الذى تحرك من قرص ليلحق بالجيش فى أسيرط وكان الأسطول يتكون من اثنتى
عشر سفينة حربية تحمل المؤن والذخائر تتقدمها السفينة الحربية (إتاليا) ، وقد هجم المجاهدون
المصريون والحجازيون على السفن فى ٣ مارس سنة ١٧٩٩ م / ١٢١٤ هـ قريبا من قرية البارود ،
وعلى الرغم من إطلاق السفينة إيتاليا مدافعها وقتل عدد كبير من المهاجمين إلا أن المجاهدين استطاعوا

(١) عبدالرحمن الراقى - تاريخ الحركة القومية - ج ١ - ٣٦٢ .

(٢) المربع السابق - ص ٣٦٣ .

(٣) عبدالرحمن الراقى - تاريخ الحركة القومية - ج ١ - ص ٣٧٢ .

أن ينظموا صفوفهم فتجمعوا مرة أخرى وألقى عدد عظيم منهم بأنفسهم فى النيل وسبحوا هاجمين على السفن فاستولوا عليها وأفرغوا شحنات الذخائر منها على شاطئ النيل ، ثم ركبوها قاصدين السفينة (ايتاليا) للاستيلاء عليها ، وعلى الرغم من شدة نيران مدفسياتها إلا أن المهاجمين تمكنوا من الهجوم عليها ومحاصرتها ، ومع ذلك فقد أبى قائدها مورنداي Morindai التسليم ، وأشعل النيران فى مستودع البارود فانفجر بهد أن ألقى مورنداي وجنوده بأنفسهم فى اليم ، وقد نصب البارود السفينة غير أن المجاهدين استطاعوا أن يحاصروا مورنداي ورفاقه وأن يجردوهم عن أسلحتهم فبلغ قتالهم حسب الإحصاء الفرنسى خمسمائة قتيل (١).

وقد يتخيل البعض أن كل هذه المعارك وغيرها قد فت فى عضد المجاهدين الحجازيين ولم يتهم منهم سوى شزيمة قليلة تبحث عن طريق الفرار إلا أننا نفاجأ باشتراكهم مرة ثانية فى مواقع أخرى مما يدلنا دلالة قاطعة على أن عددهم كان كبيرا .

ويمكن الرد على هذا التخيل بأن الحرب التى كان يخوضها المصريون بمختلف فئاتهم (المماليك، العريان، أهل امدن، الفلاحون، المغاربة الهوارة الصعيدية البحارة) بالإضافة إلى من أنضمهم اليهم من أهل الحجاز فى الصعيد وأهل طرابلس الغرب (ليبيا) فى الشمال كانت فى الأغلب والأعم حرب كروفر (عصابات) وأنهم مع ذلك حققوا فى حروب التلاحم انتصارات كثيرة ومنها انتصارهم فى تجمع البارود ولم يحقق الفرنسيون انتصارا يذكر إلا فى موقعة الاسكندرية وشبراخيت وامبابة . وفيما عدا ذلك كان النصر للمجاهدين ولا يعد انسحاب المجاهدين - أوفراهم أو خساراتهم هزيمة أو أن الكفة كانت متقاربة (شأن حروب العصابات وهو يدل على حضارة وذكاء الانسان الحجازى والمصري، والجبرتيأشار إلى ذلك بقوله وينفصل الفريقان بدون طائل وعبارات الجبرتي مقتضبة بليغة فى مفهومها التاريخي ولا يعيها إلا ذوا الحس التاريخي والنتيجة أن خسارات الفرنسيين كانت لا تقل فجاعة عن خسارات المجاهدين .

فلقد اشترك الحجازيون بعد ذلك فى معركة فقط (٨ من مارس سنة ١٧٩٩) ١٢١٣ هـ التى روى " أنها كانت حامية الوطيس اشتبك فيها المقاتلون وجها لوجه وأنتهت بهزيمة الأهالى والعرب وانسحابهم إلى أبود .

كما اشترك الحجازيون أيضا فى معركة أبتود (٨ ، ٩ ، ١٠ من مارس سنة ١٧٩٨م / ١٢١٤هـ) وفى هذه المرة استخدم العرب والمصريون المدافع التى أستولوا عليها فى معركة البارود ، وفتكوا بالفرنسيين فتكا شديدا ، وتجدد القتال مرة ثانية فى داخل القرية وفى النهاية تمكن الفرنسيون من التغلب على الثوار بعد أن أحرقوا منازلهم (١) .

ثم اشتركوا بعد ذلك فى معارك تالية كمعركة بنى عدى وغيرها (٢) مما يعطى انطباعا بأن هؤلاء كانوا يلعبون داعى الجهاد بدافع اسلامى بحت ، وبأنهم أعدادهم كانت كبيرة تفوق الألفين بكثير .

بل إن بعض المصادر ذكرت أن الامدادات الحجازية تراوحت بين ستة آلاف وسبعة آلاف من الحجازيين الذين عبروا الى القصير (٣) .

وقد يظن البعض بأن هؤلاء جاؤا إلى مصر للدفاع عن الحجاز من خلال الزودعن مصر وهذا مردود بأن هذا الافتراض قد يكون مقبولا اذا كان هذا الزحف بأمر الحكام والزامهم أما التطوع فليس له إلا تفسير واحد وهو أن الجذور العميقة الدينية والاجتماعية والعلاقات الطيبة بين الشعبين فى مصر لحجاز هى التى دفعت بهؤلاء الى الجهاد وأنهم ما جاؤا إلا للزودعن إخوان لهم فى الدين والعروة .

والأمر الثانى الذى نود الإشارة اليه أن الشطر الثانى - تقريبا - من قول الجبرتى يظهر تقاعس الماليك واخلاتهم الميدان نهائيا للفرنسيين ، وكذلك أبناء الصعيد وكأن الميدان لم يبق فيه سوى الحجازيين ، وهذا يجافى المنطق فضلا عما ذكره الرافعى - مما سبق تفصيله من اشتراك الجميع

(١) عبدالرحمن الرافعى - تاريخ الحركة القومية - ج ١ - ص ٣٧٦ . ومصر فى مواجهة الحملة الفرنسية - ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) المرجع السابق - مصر فى مواجهة الحملة الفرنسية - ص ١٣٦ .

(٣) كريستوفر هيرولد - بونايرت فى مصر - ص ٢٦٨ . وفى الوقت الذى لم نسلم فيه للجبرتى بالستمائة الذين ذكرهم فائنا لا نسلم أيضا بوصول عدد ستة آلاف أو سبعة - كما ذكر كريستوفر - من الحجاز وإنما الأمر اليتمس عليه - فيما يبدو - فإن قبيلة الأشراف العرب فى قنا وما حولها يبلغ عددهم مائة ألف فرد وأرجح اشتراك عدة آلاف منهم فى المقاومة مع عرب الحجاز والماليك فى ذلك الوقت . أنظر : مصطلفى كامل شملول الشريف - شعروية مصر من قبائلها - ط ٢ - ١٩٧٠ م ص ١٩١ .

فى المقاومة مع بعض التقاعس من الممالىك وحدهم دون الأهالى لأن الممالىك كانت لهم أهداف خاصة وكيان متميز .

وأخيرا ببقى قول الجبرتي : " وقع بين أهل الحجاز والفرنسيين بعض حروب غير هذه المرة بعدة مواضع ، وينفصل الفريقان بدون طائل " فان هذا القول يوحى بتساوى الكفتين فى القتال وفى النتائج إلا أن الأفضل أن نسمى الأمور بسمياتها ، هذه هزيمة ، وذلك انتصار - فقد كان التفوق العسكرى الفرنسى الحديث واضحا دون شك وكانت المقاومة تبذل أقصى ما عندها .

أثر الحملة الفرنسيه على قافلة الحج والكسوة :

ظلت مواكب الحج والكسوة الشريفه ترسل بصورة منتظمة سنويا من مصر طوال العصر العثمانى ، هذا فيما عدا بعض فترات الاضطراب العسكرى والسياسية القاصمة أو تغلب العريان وسيطرتهم على الطرق .

وفى أثناء الاحتلال الفرنسى لمصر توقف إرسال مكعب الحج والكسوة فى السنوات ١٢١٣ هـ / ١٣١٤ هـ - ١٣١٥ هـ (١) على الرغم من تلك الاستعدادات . التى أقيمت لتجهيز الكسوة والاستعراض الذى تم لموكبها فى سنة ١٢١٣ هـ (٢) وسبب ذلك أن بونايرت نصب مصطفى كتحدا الباشا - أميرا للحج - وبالح فى الحفاوة به وأراد استمالته هو وبعض أعضاء الديوان ليشاركوه فى حملته على سوريا وليكسب بهم نفوذا أدبيا ومعنويا بيد أن مصطفى بك تخلف فى بلبس بحجة قلة جماله وعدم أمن الطريق ، ثم ما لبث أن أعلن الثورة على الفرنسيين ثم قاد جماعة من المجاهدين المصريين الذين تمكنوا فى شوال سنة ١٢١٣ من قطع إمدادات الفرنسيين المتوجهة إلى الشام بطريق دمياط والاستيلاء عليها (٣) .

لهذا بادر الفرنسيون بعزل مصطفى بك وتعين السيد اسماعيل الذهبى المعروف بالخشاب أحد

(١) د. السيد محمد الدقن - كسوة الكعبة المعظمة - ص ٩٩ .

(٢) أنظر تفاصيل الموكب عند - الجبرتي - عجائب الآثار - ج ٣ - ص ٦٨ .

(٣) عبدالرحمن الراقى - مصر فى مواجهة الحملة الفرنسية - ص ١٤٨ وما بعدها .

عدول المحكمة الكبرى أميرا على موكب الحج بدله وذلك فى شهر مارس ١٧٩٩^(١)، ومع ذلك فلم تخرج قافلة الحج ولم ترسل الكسوة ولا الصرة فى هذا العام^(٢) .

وقد يتساءل البعض عن أسباب توقف الحج المصرى فى هذا العام وعدم إرسال الكسوة والصرة على الرغم من تجهيز موكب الحج وتعيين أمير آخر له ، والمناداة فى الأسواق والشوارع بأن " من أراد الحج فيحج فى البحر من السويس صحبة الكسوة والصرة " (٣) .

ولا شك فى أن أسباب توقف قافلة الحج المصرى لا تتعدى ما يلى :

أولا : تتابع أحداث المقاومة المصرية من أقصى البلاد إلى أقصاها حتى شهر ذى القعدة من عام ١٢١٣ هـ وانشغال الفرنسيين عنها .

ثانيا : انشغال الأهالى بواجبات المقاومة ونظرهم إليها على أنها واجب شرعى ألزم من الحج فى تلك الفترة .

ثالثا : خوف الناس على أهلهم وذويهم إن هم تركوهم تحت سطوة الفرنسيين وخرجوا إلى الحج .

(١) الجبوتى - عجائب الآثار - ج ٣ - ٧٩، وعبدالرحمن الرافعي - تاريخ الحركة القومية - ج ٢ ص ص

٤٨ - ٥٣ طبع القاهرة ١٩٥٨ م .

(٢) المصدر السابق - ج ٣ - ٨٤ .

(٣) المصدر نفسه - ص ٧٤ .

أثر الحملة الفرنسية على الموقف فى الحجاز :

أستقر الأمر فى الحجاز للشرىف غالب بن مساعد بتوليته شرافه مكة سنة ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٧ م فى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر الهجرى وظل العداء ناشبا أظفاره بينه وبين السعوديين فى سنوات حكمه الأولى .

فحينما بعث السعوديون إلى الشرىف غالب يستأذنونونه فى الحج أبى أن يسمح لهم لارتيابه فى نواياهم وخوفه من مساعدتهم (١) .

ويرى الريحانى : (٢) أن الشرىف غالب بن مساعد كان حائرا فى بداية أمره لا يريد أن يعادى أبى سعود أو يواليه ، ولكنه أظهر فى الموالاة ميلا مربيا عندما كتب إلى ابن سعود - عبدالعزيز فى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩١ م يسأله إرسال عالم من علماء نجد ليفهمه دعوة ابن عبدالوهاب ، ويشك الريحانى فى نية غالب بن الصدق فىكون علماء الحجاز هم الذين أوغروا صدره ، وبين غيره فىكون هو المصانع والعلماء خدام قصده .

والأرجح فيما أرى : هو الاحتمال الأخير نظرا لارتياب الشرىف ومن سبقه فى آل سعود وخوفهم منهم علي مراكزهم فى الحجاز خاصة بعد تسرب دعوة ابن عبدالوهاب إلى الحجاز ولذا فقد ساق الشرىف جنوده بعد ذلك إلى المناطق السعودية قاصدا نجد إلا أنها عادت دون تحقيق أهدافها .

وقد تعددت المواقع بين الشرىف غالب والسعوديين كانت نتيجتها اتساع مناطق نفوذ السعوديين ونشر دعوتهم فى بقاع تابعة للحجاز لم تلبث أن أعلنت تبعيتها الى نجد (٣) .

ولما لم تجد محاولات غالب العسكرية مع السعوديين طلب من الأمير عبدالعزيز بن سعود فى سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م الصلح علي أن تعين الحدود الفاصلة بينهما ، وتعين القبائل التابعة لكل فريق ، وقد وافق الأمير عبدالعزيز على هذا الصلح بشرط عدم ممانعة حجاجهم ، ونتيجة لهذا

(١) أحمد السباعى - تاريخ - ص ٤٥٠ .

(٢) أمين الريحانى - نجد وملحقاته وسيرة عبدالعزيز بن عبدالرحمن ال فيصل ال سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها - منشورات الفغرية - ط ٥ الرياض ١٩٨١ - ص ٦٧ .

(٣) لمزيد من التفاصيل أنظر : د/ عبدالرحيم عبدالرحمن - الدولة السعودية الأولى - ص ١٣٥ ومابعدها .

الصلح تمكن أتباع الأمير عبدالعزيز من أداء فريضة الحج في هذا العام ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م^(١).
وهذا يبرز تساؤل هو : لماذا انقلب غالب فجأة من العداء للسافر إلى السعى في طلب الصلح ؟
ولا ريب من أن سبب التغيير في موقف الأشراف مرجعه تلك الأحداث الجديدة التي فرضت نفسها على
المواقف كلها في الشرق . فغالب لم يمد يده بالصلح إلى السعوديين إلا بعد ورود الأخبار عن
سرور الفرنسيين لمصر وأنهم أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الحجاز ، فكان عليه أن يتفرغ لهذا
الخطر الجديد ، وعليه أيضا أن يؤمن ظهوره ربما يحتاج الأمر إلى تجميع الجهود في شبه الجزيرة لمداخلة
الغزو الفرنسي المرتقب .

أما سبب انقطاع الحج في سنتي ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م ، ١٢١٤ هـ / ١٨٠٠ م فيغلب
على الاعتقاد أن ذلك كان بسبب عدم أمن الطريق بسبب اغلاق وتعطيل الشغور من جانب
الفرنسيين خوفا من الجيوش التركية والمتطوعين وخوفا من التسلسل الإنجليزي هذا من ناحية ومن ناحية
أخرى - فان الثورات في القاهرة وسائر أرجاء مصر حالت دون استكمال استعدادات الحج التي
تحتاج إلى وقت وتنظيم ويدل على ذلك إشارة الجبرتي التي جاء فيها (٢) .

” ومن أعظم الحوادث تعطيل الشغور ومنع المسافرين برا وبحرا ”

كما يدل عليه أيضا أن رحيل الفرنسيين عن مصر كان إيذانا بعودة قوافل الحج إلى نظامها
وحركتها مرة ثانية كالسابق .

العلاقات الاقتصادية إبان الاحتلال الفرنسي لمصر :

ما أن استقرت أحوال الفرنسيين في مصر بعض الشيء حتي كتب بوناپرت رسالة إلى شريف
مكة الشريف غالب في سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م يعرض عليه بعض الاتفاقات التجارية . وينذره
بالعواقب إن هو حاول قطعها ، كما بعث عن طريقه بثلاث رسائل إحداها إلى إمام مسقط ، والثانية
إلى السلطان حيدرتيبي في الهند ، والثالث إلى الوكيل الفرنسي بشعر مخافي اليمن ، فبعث إليه
الشريف غالب في ١٨ من ذي القعدة سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م ردا على رسالته ذكر فيها أنه تم

(١) أحمد السباعي - تاريخ مكة - ص ٤٩٠ .

(٢) الجبرتي - عجائب الآثار - ج ٣ ص ١٥٥ . وأنظر : أحمد السباعي - تاريخ مكة - ص ٤٩٠ ، ٤٩١ .

إرسال كتبه مع ثقة إلى أصحابها ، وأما بخصوص طلبه تسهيل وإرسال التجارة إلى مصرفجارى بذل
الهمة بخصوصها ، ثم أعلمه أن قى عزمه إرسال خمس سفن إلى مصر مشحون من بضائع التجار
خاصة البن ، مع كمية كبيرة من البن الخاص بالشريف نفسه ، ثم ألح الشريف فى طلب المحافظة على
هذه البضائع بالحراسة المكثفة ليطمئن الى أن تجارتهم فى يد أمينة ^(١) .

وبالفعل وصلت إلى ميناء السويس فى ذى الحجة سنة ١٢١٣ هـ / مايو ١٧٩٩ تسع سفن
تحميل بها البن والبهارات والبضائع التجارية الأخرى التى كان معها بن الشريف غالب صعبة ابنه .

وقد فرض الفرنسيون العشور على التجارة الحجازية بينما أعفوا بضاعة الشريف غالب ، فلم
يأخذوا منها العشور وذلك مقابل الهدايا التى كان الشريف قد أرسلها إليهم قبل وصول هذا
الأسطول التجارى بعشرين يوما وقد اعتنى الفرنسيون بطبع نسخ من خطابات الشريف إليهم وقاموا
بالصاقها فى حوائط الأسواق ^(٢) كدعاية لهم لتوطيد مركزهم فى مصر وكسب ثقة المصريين .

وعلى الرغم من أن بعض القادة الفرنسيين بعثوا إلى شريف مكة ببعض رسائل دبلوماسية
يصفون فيها الفرنسيين بأنهم حلفاء العثمانيين وحماة المسلمين على وجه البسيطة ^(٣) فاننا لم نعر على
تعاون تجارى آخر طوال فترة بقاء الفرنسيين فى مصر ولا شك فى أن هذا يرجع إلى إعلان الدولة
العثمانية الجهاد ضد الفرنسيين وتدمير الرأي العام فى الحجاز ،
ومناداة الحجازيين بالجهاد ضد الفرنسيين فى مصر ، وخوف الشريف غالب من أن يوصم بالميانة
أمام المجتمعات الاسلامية .

ولقد عادت التجارة بين مصر والحجاز بعد أن طويت صفحة الاحتلال الفرنسى لمصر فى جماد

(١) أحمد السباعى - تاريخ مكة - ص ص ٤٩١ ، ٤٩٢ .

(٢) الجبرتي - عجائب الآثار - ج ٣ - ص ٨٣ .

(٣) مثلما حدث من القائد الفرنسى بليار بعد احتلاله القصير فى مايو سنة ١٧٩٩ م ذى الحجة ١٢١٣ هـ فقد

أرسل الى شريف مكة رسالة ودية عبر فيها كذبا عن أن الفرنسيين حلفاء العثمانيين وحماة للمسلمين فى كل

مكان على وجه البسيطة - أنظر : كريستوفر هيرولد - بونايرت فى مصر - ص ٢٧٣ .

الآخر ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ م أكتوبر ورحل عنها آخر جندي فرنسي (١).

جاء في تاريخ الجيسترني أنه في ٨ من ربيع الأول سنة ١٢١٦ هـ / ١٩ من يوليو سنة ١٨٠١ م : (٢) أرسلوا (أي قادة مصر) هجنا إلى الطحاز منه فرمان بخبر الفتح والتصر وارتحال الفرنسيات من أرض مصر ودخول العشائية (وأرسلوا منه أيضا) مكاتبات من التجار (المصريين) لشركائهم (في الطحاز) لإرسال المتاجر إلى مصر ، وهذا يشير إلى عودة الانتعاش في الحركة التجارية بين البلدين مصر والطحاز (٣).

وقد سبق أن ذكرنا أن شريف مكة ما صد يده بالصلح إلى السعوديين إلا خوفه من خطر الحملة الفرنسية ، لهذا كان من الطبيعي أن تصوء العلاقات بين الشريف غالب والسعوديين بعد خروج الحملة من مصر ففي ١٢١٧ هـ / ١٨٠٢ م انتقض الصلح بين الشريف غالب وعبدالعزیز بن سعود وفارق الشريف وزيره عثمان المضايقي الذي خرج من مكة متجها إلى عبدالعزیز بن سعود مبايعا له ، ثم عاد ليجمع الجنود الموالين له حيث نازل بهم الشريف في مواقع عدة (٤).

ويبدو أن آل سعود قد قرروا هذه المرة وضع حد لتلك العلاقات المتذبذبة مع الشريف غالب الذي

(١) ذكر عبدالرحمن الرافعي : أن عدد الفرنسيين يوم رحيلهم بلغ ٧٢٠٠ من الجنود ، ١٥٠٠ من البحارة ، ١٤٠٠ من المرضى ، ٦٨٠ من الملكيين وأن قائدهم رجل حاملا معه مرض الطاعون فيكون مجموع الفرنسيين العائدين إلى فرنسا ١٠٧٨٠ فرنسي بينما كان عددهم عند غزوهم لمصر ٣٦٠٠٠٠ - وبالمقارنة بين العددين يتضح مدى فداحة الفرنسيين في خساراتهم البشرية - أنظر : تاريخ الحركة القومية تطویر نظام الحكم في مصر - ج ٢ - مكتبة النهضة المصرية ج ٣ - ١٣٧٨ هـ ١٥٨ م - ص ٢٥٢ .

(٢) الجيسترني عجائب الآثار - ج ٣ - ٢٦٩ .

(٣) من المعروف أن مصر كانت مركزا للتجارة بين الشرق وأوربا وظلت كذلك بشكل مستمر وخصوصا في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين فكانت لها تجارة عظيمة مع بلاد العرب وكانت السفن تحمل من جدة إلى السويس إلى ومتاجرها الهند مثل الفلفل والكافور واللآلئ والأقمشة الخيرية .

أنظر : جميل خانكي - تاريخ البحرية المصرية - مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة - ١٩٤ م ص ٢١٧ .

(٤) د / إبراهيم جمعة - الأطلس التاريخي - ص ص ٦٢ ، ٦٣ .

ما فتى يرسل بكتبه إلى الدولة العثمانية للاستنجاد بها والدولة في هذا الوقت كانت مثقلة بالأحداث الجسام (١) .

وقد وصف شريف مكة في كتبه هذه السعوديين بالكفر والخروج على الدين (والعياذ بالله) غير أن ابن سعود لم يبال بهذا وقاد جيوشه ومن والاه من نصر إلى نصر حتي دخل مكة بعد انتهاء موسم الحج سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م في الوقت الذي كان فيه الشريف غالب يحاول توريث الحجاج المصريين والشاميين معه في هذا الصراع الاقليمي (٢) . فلما فشل في إقناعهم بصد السعوديين ترك ومن معه مكة واتجه إلى جدة .

أما السعوديون فإنهم دخلوا مكة وأمضوا بها أربعاً وعشرين يوماً ثم هاجموا بعد ذلك جدة وحاصروها غير أن الشريف غالباً شتت شملهم وأضطرهم إلى فك الحصار والعودة إلى ديارهم فعادوا إلى نجد بعد أن أقاموا على مكة الشريف عبدالمعين بن مساعد واليا عليها .

وفي الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م جمع الشريف غالب رجال جيشه وتقدم بهم إلى مكة حيث دخلها دون منازعة من الشريف عبدالمعين بن مساعد (٣) .

استمرت المنازعات والمعارك بين الشريف مساعد وعبدالعزیز بن سعود حتى وجد الشريف غالب نفسه عاجزاً عن الاستمرار في المعارك فأرسل إلى ابن سعود يطلب الصلح على أن يبقى في إمارته تابعاً للدرعية منفذاً لنظمها ، وقد تم الصلح بين الطرفين على هذه الأسس في صفر سنة ١٢٢١ هـ / (٤) ١٨٠٦ م .

(١) كانت استانبول مشغولة هذا الوقت بعصيان الانكشارية في بلغراد وثورات بلاد العرب وأحداث الفرنسيين في مصر ، واعتداءات روسيا على البلاد المتاخمة ، ومحاولات الانجليز ضم الدردنيل والاستيلاء على الأسطول العثماني ، بالإضافة إلى هجومهم على مصر ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ م .
أنظر : أحمد السباعي - تاريخ مكة - ص ٥٠١ ود / عبدالرحيم عبدالرحمن الدولة السعودية الأولى - ص ١٤٥ .

(٢) د / عبدالرحيم عبدالرحمن - الدولة السعودية الأولى - ص ١٥١ .

(٣) ابنی زیني. دحلان - خلاصة الكلام - ص ٢٧٦ وما بعدها .

(٤) المصدر السابق - ص ٢٨٠ وما بعدها . وانظر د / عبدالرحيم عبدالرحمن ص ١٤٥ .

دور بعض المجاهدين الحجازيين فى صد الحملة الانجليزية عن مصر (١٢٢٢ هـ) إبريل ١٨٠٧ م .

لم يكن دور المجاهدين الحجازيين مقصورا على التصدى للفرنسيين فى مصر ومنازلتهم حتى النصر أو الشهادة وإنما ظهرت لمن بقى منهم أدوار أخرى كشفت عن معادن نفيسة من الرجال خلا المقاومة المصرية الشعبية للحملة الانجليزية التى ألفت براسيها على شواطئ الأسكندرية فى سنة ١٢٢٢ هـ / إبريل ١٨٠٧ م .

وكان من بين هؤلاء الرجال الذين شاركوا فى صد الانجليز عن الأسكندرية **أثنان من أبناء مكة** وكانا يقيمان بالأسكندرية بفرض تعاطى التجارة ، وببدو من رواية الجبرتي أنهما كانا قراء واسع وهما السيد أحمد البخارى وأخوه السيد سلامه وقد ظهر لهما دور إيجابى فى المقاومة حيث قاما بجمع أكثر من مائة رجل مغربي تحت قيادتهما وأنفقا عليهم حتى أقنوا استعدادهم للقتل بالذخيرة والأسلحة وقاداهم إلى معاراة الانجليز حيث استبسلوا فى الدفاع عن الاسكندرية ، وبذا كان للحجاز مشاركة فى هذه المقاومة الشعبية التى تقاعس عنها كثيرون من الأمراء والقادة المالي والعثمانيين وعندما علم بأمرهما محمد على باشا سر بهما سرورا عظيما وأنعم عليهما بالحق والرتب^(١).

وهذا الدور الذي قام به الحجازيون والمغاربة والذي تحدث عنه الجبرتي ليدلنا على استمرار صدق مشاعر الأخوة والعلاقات الأبدية بين مصر والحجاز اللتين تجمعهما وشيجة دينية عظيمة بالإضافة إلى الوشائج الكريمة الأخرى .

أثر استيلاء السعوديين على مكة فى العلاقات المصرية الحجازية

لم يتحول الشريف غالب بتبعيته إلى نجد إلا بعد أن أصيب بإحباط وبأس شديدين نتيجة لعدم استجابة استانبول لرسله الذين أرسلهم إليها طالبا النجدة .

(١) الجبرتي - عجائب الآثار - ج ٤ - ص ٧٥ .

وفى ١٠ شعبان سنة ١٢١٧ هـ / ٦ من ديسمبر سنة ١٨٠٢ حضر إلى القاهرة جماعة من علماء مكة وأشرفها فارين من السعوديين وكانت وجهة هؤلاء اسلامبول وكان هدفهم الاستنجاد بالدولة العثمانية لتتقدمهم من السعوديين ، ولتبادر بنصرتهم وقد أخذ هؤلاء العلماء والأشراف ينتقلون فى مصر بين بيوت وجهاء القوم ، ومنهم الوالى (خسرو باشا) والدفتر دار ويشكون إليهم ما حدث لهم فى الحجاز وأخذ الناس يتناقلون أخبارهم وحكاياتهم .

كما حضر فى رمضان من هذا العام جماعة أخرى من أشرف مكة وغيرهم لنفس السبب (١).

وفى سنة ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٦ م تصدى السعوديون لقافلتى الحج المصرى والشامى ، وأعترضوا على نظام المحامل مخذرين أمراءها من العودة بها مرة ثانية بعد عامهم هذا والا كسروه كما اشترطوا عليهم عدم اصطحاب الطبل والزمر (٢) .

وقد تم الحج فى هذا العام بسلام وأتم الحجاج نسكهم بسلام غير أن هذا التحذير السعودى يُعد أول أثر مذهبى وعملى فى محيط العلاقات المصرية الحجازية السعودية كما يعد - فى نظرى - بداية الأسباب التى ألهبت الأحداث وأنشبت المعارك الطاحنة فى شبه الجزيرة بين جيش محمد على والسعوديين فيما بعد .

وعلى الرغم من هذا فإن قوافل الحج فى سنة ١٢٢١ هـ / ١٨٠٧ م دخلت الأراضي الحجازية يتقدمها قافلة الحج المصرى وقافلة الحج الشامى وأمام كل منهما محملا على جرى العادة ، وقد تجاهل أمير كل قافلة الانذار الذى وجهه السعوديون إليهم فى العام الماضى بعدم اصطحاب المحامل لأنها مخالفة للشرع .

أما أمير الحج الشامى فإنه أرسل الى السعوديين كتبه معلنا قدومه فى الطريق إلا أن السعوديين أعادوا اليه كتبه وأمره بعدم دخول مكة فعاد من خلال الطريق إلى الشام ولم يحج الركب الشامى فى هذا العام وأما أمير الحج المصرى فإنه واصل سيره صوب الحرمين متجاهلا أمر السعوديين فما كان من السعوديين إلا أن هجموا على المحمل وأحرقوه ، أما قافلة الحج المصرى

(١) الجبترى - عجائب الآثار - ج ٣ - ص ٢٣٥ .

(٢) ابن زيني دحلان - خلاصة الكلام - ص ٢٩٤ .

فقد تركها السعوديون لتواصل مسيرتها ويؤدى أفرادها مناسك حجهم ، ثم أنذرهم ابن سعود ألا يعودوا على هذه الصورة مرة ثانية وتلا مناديه قوله تعالى :

" إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا " فانقطع مجئ ركب الحج الشامي والمصرى إلى الحجاز بعد هذا العام ^(١) وظل هذا الانقطاع إلى سنة ١٢٢٨ هـ / ١٨١٣ م وقد بادر سعود بطرد القاضيين العثمانيين من مكة والمدينة فى سنة ١٢٢١ هـ / ١٨٠٧ م وعين بدلا منهما قاضيين من علماء مكة والمدينة ثم أعلن إنكار أية سلطة روحية للخليفة العثمانى على الحرمين الشريفين ، وأمر كذلك بإبطال الدعاء للسلطان العثمانى فى خطبة الجمعة ، وأخرج الموظفين والعسكريين العثمانيين وأقام حاميات عربية بدلهم ^(٢) .

ونتيجة لذلك توقفت مصر عن إرسال الكسوة والمحمل بعد تلك الأحداث فكساها الأمير سعود كسوة من الفز الأحمر ، ثم كساها بعد ذلك بالديباج والقبilan الأسود ، وجعل إزارها وكسوة بابها (البرقع) من الحرير الأحمر المطرز بالذهب والقضه ، فلما استردت الدولة العثمانية سيطرتها على الحجاز فى سنة ١٢٢٨ هـ / ١٨١٣ م عادت مصر إلى إرسال كسوة الكعبة الخارجية كسابق عهدها ^(٣) .

ويذكر أن العالم الاسلامى قد أهتمز بعد ما أشيع من أن سعودا أمر بمنع قوافل الحجاج القادمة من الشام ومصر لأن هذا الصد عن بيت الله الحرام يعد الأول من نوعه خاصة بالنسبة للحجاج السنيين منذ زمن طويل ، ويعد تحديا كبيرا للدولة العثمانية جعل تدخلها أمرا محتوما ^(٤) .

(١) ابن زنى دحلان - خلاصة الكلام - ص ٢٩٤ . وأنظر : السباعى - تاريخ مكة ص ٥٠٢ ، ٥٠٤ . وجدير بالذكر : أن الجبريتى سكت عن موضوع إحراق المحمل المصرى ولم يشر إليه ، وأكتفى بذكر التشديد السعودى على الحجاج فقط .

(٢) أنظر : دحلان - خلاصة الكلام - ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ . ود / عبدالرحيم عبدالرحمن - الدولة السعودية الأولى - ص ١٤٨ وأحمد عسه - معجزة فوق الرمال - ط ٣ - ١٩٧١ م : ١٣٩١ هـ ص ٢٢

(٣) د / السيد محمد الدقن - كسوة الكعبة - ص ١٠٥ .

(٤) د / عبدالكريم الغرابية - قيام الدولة السعودية العربية - ص ٨٣ .

وأرى أن سعوداً لم يأمر بمنع قوافل الشام ومصر قط ، إنما تركز المنع على المحامل والطبول والزمور ، وما يصاحب الحجيج من ضوضاء تنافى قداسة الحج كما أرى أنه محق فيما ذهب إليه حيث أن العبادات الإسلامية يجب أن تكون مغلقة بلباس الخشوع والسكينة والخضوع لله رب العالمين وتكون في تجرد من الزينة واللبهر المعروف عن مركب الحج وما كان يصاحبه من آلات موسيقية بلغ عازفوها أربعة عشر موسيقياً في بعض قوافل الحج المصرية .

وقد اتهم عبدالله بن مسعود الشريف غالب بتأليب العالم الإسلامي والدولة العثمانية ضد السعوديين ، وإثارة الإشاعات والأكاذيب عنهم ، كما اتهمه عبدالله بتزوير الرسائل من سعود إلى الدولة العثمانية ومهرها بختم أصطنعه على أنه لسعود ممحلاً الرسائل مالميس فيها ^(١) .

وفي الاعتقاد أن الشريف فعل ذلك - إن صدق هذا الادعاء - بعد أن مل من طلب نجدة العثمانيين وأراد بهذه الواقعة أن يوغر صدورهم ليستحثهم على ردع السعوديين ، ومع ذلك فقد وقع الشريف في البئر الذي حفره للسعوديين كما سيتضح لنا .

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ١٢٢ المحفوظة رقم ١٦ بربراً - بدون تاريخ من عبدالله بن سعود إلى الدولة العلية وانظر : وثيقة رقم ٣٣ محفوظة ٤ بحرراً - من عبدالله بن سعود إلى محمد علي - بدون تاريخ .

محمد علي والحجاز :

كان الحال في مصر ينتقل من سئ إلى أسوأ منذ مطلع القرن التاسع عشر خاصة بعد أن رحل الفرنسيون ثم الانجليز عن مصر ، فقد استمر الصراع على السلطة بين المماليك والعثمانيين والألبانيين^(١) .

ولما ازداد نجم محمد علي (٢) الألباني علوا في سماء الساحة الشعبية المصرية وتفاقم نزاعه مع والي مصر خورشيد باشا بادرت الدولة العثمانية بالاستجابة لطلب الوالي في مصر (خورشيد باشا) وأرسلت في سنة ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥ م فرمانا سلطانيا بتعيين محمد علي واليا على جدة (٣) وكان الغرض هو أبعاد محمد علي عن مصر بأية وسيلة ، فتقبل محمد علي فرمان لكنه لم ينفذ (٤) .

(١) أنظر تفاصيل تلك الأحداث في الجبرتي - عجائب الآثار - ح ٣ - ص ص ٤٢٠ وما بعدها ، وأنظر : عبدالرحمن الرافعي - تاريخ الحركة القومية - ج ٢ ص ٣٠١ وما بعدها .

(٢) ولد محمد علي في قوله من بلاد مقدونية سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م ، ونشأ أميا دون تعليم يذكر ، والتحق بالجندية ، ثم أهلكها لاشتغاله بالتجارة فلما كانت سنة ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ م اشترك في الحملة التي ذهبت لإخراج الفرنسيين من مصر وسرعان ما أرتفع شأنه وصار قائدا على أربعة آلاف من الألبانيين (سرجشمه) واستطاع بتقريبه من العلماء الأزهريين والشعب أن يتقلد الولاية على مصر .

أنظر : د/ هيدالمتعالي الصعدي - المجددون في الاسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر -- مكتبة الآداب - بدون تاريخ - ص ٤٧٦ .

(٣) من متابحة الوثائق والمصادر التي تتعلق بمنطقه الحجاز طوال القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي أمكن ملاحظة - إطلاق لقب والي جدة حتى أوائل الثمانينات الهجرية من القرن الثالث عشر وبعدها ظهر إطلاق والي الحجاز ، وجدير بالذكر أن جدة تحولت في سنة ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م من ولاية إلى متصرفية وبعد سنة واحدة عادت ولاية مرة ثانية .

أنظر : اسماعيل هقي أوزون جارشلي -- أمراء مكة في العهد العثماني - ترجمة د/ خليل مراد - ١٤٠٦ هـ ص ٤٣ (بدون ناشر) .

(٤) عبدالرحمن الرافعي - تاريخ الحركة القومية ج ٢ ص ٣٣٣ .

وظل يتقرب من القادة الشعبيين العلماء) زلفى حتى تمكن من الحصول على مساعداتهم السياسية والعملية ، فحاصر الوالى (خورشيد باشا) فى القلعة وخلعه فلم يجد العلماء بدا من تنصيبه واليا على مصر ، ثم رفعوا هذا الأمر إلى الحكومة العثمانية مشفوعا بتأييدهم ويبدو أن محمد على أراد أن يحصل على ولاية مصر برضاء استانبول دون أن يعلن عليها العصيان ، وكان فى الوقت نفسه يستخدم كل السبل لتقوية جانبه ، وأخذ الشعب اليه مما أجبر العثمانيين إلى إرسال مندوبهم إلى الأسكندرية حاملا معه أمرا بإعطاء ولاية مصر لخورشيد أو لمحمد على أيهما أضح وأعز نفرا . فكانت القلعة وكان الاختيار لمحمد على (١) .

وبذلك صدر فرمان العثمانى بتولية محمد على على ولاية مصر نزولا على رغبة العلماء والرعية بعد عزل خورشيد باشا (٢) .

ويبدو من خلال سير الأحداث أن الدولة العثمانية ظلت حتى سنة ١٢٢٢ هـ ، ١٨٠٧ م دون أن تفكر فى دفع مصر صوب شبه الجزيرة العربية ففى رجب سنة ١٢٢١ هـ سبتمبر ١٨٠٦ م أرسلت الدولة العثمانية إلى محمد على مرسوما يتضمن استمراره على ولاية مصر ، والاهتمام بأمر الحج ، ولوازم الحرمين ، وهذا غريب إذ أن الحج متوقف فى تلك الفترة إلا أن الواضح أن المرسوم كان يشتمل على التجهيز المعنوى لمحمد على بما يمكن أن يسند إليه من أعمال فى الحجاز لمداخلة السعوديين (٣) .

وفى شعبان / أكتوبر من العام نفسه وصل إلى مصر رسول عثمانى بيده تقرير باستمرار محمد على فى ولايته على مصر ، وضرورة عنايته بمقررات الحرمين الشريفين ، ومخصصاته من الغلال وإعداد قافلة الحج وتجهيز غلال قدرها ستة آلاف أردب وإرسالها إلى الشام لمعاونة العساكر

(١) هنرى دوديل - محمد على مؤسس مصر الحديثة ترجمة أحمد عبدالحالى وآخر مكتبة الآداب ص ٢٢ - القاهرة .

(٢) مكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج - الوثيقة رقم ١٠٠ تاريخ - مجموعة وثائق رفاعة الطهطاوى ورسالة علماء مصر وأعيانها إلى سلطان الدولة العثمانية (صفر ١٢١٨ هـ / مايو ١٨٠٣) ، وعبدالرحمن الرافعى - تاريخ الحركة القومية - ج ٢ ص ٣٣٤ وما بعدها .

(٣) د / السيد محمد الدقن - دراسات فى تاريخ الدولة العثمانية - ص ٨٨ .

الشامية المتوجهة إلى الحجاز لإجلاء السعوديين عنه (١).

وهذا يعنى بلا شك أن دور مصر كان لا يزال حتى سنة ١٢٢١ هـ / سنة ١٨٠٦ م دوراً معاوناً فقط ، وكانت الأوامر السلطانية المتعلقة بالتصدي للسعوديين إلى وإلى الشام والعراق ، ولعل العثمانيين كانوا لا يزالون فى شك من مقدرة وإلى مصر الجديد (محمد على) على الاضطلاع بهذه الواجبات العسكرية فى الوقت الذى كانت فيه عدة قوى محلية تناوئه وتريد اقتلعه من السلطة فحتى هذا التاريخ كانت الدولة العثمانية تضمن على محمد على ثقتها الكاملة ولا تراه أهلاً للتصدي للسعوديين ، فلما فشل الشام والعراق لم تجد الدولة العثمانية بداً من اللجوء إلى مصر بعد أن غيرت الأحداث أفكارها لتعمل محلها أفكار جديدة ، وأول رسالة بعثت بها الدولة إلى محمد على حول استعداده لقتال السعوديين كانت فى شوال سنة ١٢٢٢ هـ / ٢٤ من ديسمبر سنة ١٨٠٧ م فيذكر الجبرتي فى هذا التاريخ أن قابجيا (٣) وصل معه مرسومات يتضمن أحدها التأكيد فى التشهيل والسفر لمحاربة الخارجين عليها بالحجاز ، واستخلاص الحرمين والوصية بالرعية والتجار.

وقد ظل هذا المندوب السلطانى قرابة الشهرين فى مصر بحث (محمد على) على إنفاذ الحملة إلى الحجاز فكان محمد على يماطله ويخادعه ويخبره بأنه سينفذ الأمر السلطانى إلا أن هذا الأمر يحتاج إلى وقت كبير للاستعداد ، وإنشاء مراكب فى ميناء السويس وغير ذلك (٤) .

وفى اعتقاده فإن محمد على كان صادقاً فى قوله ومحققاً فى موقفه لسوء الحالة الاقتصادية فى البلاد نتيجة تذبذب حالة الفيضان ، واستيلاء المماليك على الصعيد ، وخوفه من طمع الإنجليز فى مصر ، وقد أرسل محمد على فى ذى الحجة ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ م برسالة إلى سلطان

(١) الجبرتي - عجائب الآثار - ج ٤ - ص ٢٧ .

(٢) الجبرتي - عجائب الآثار - ج ٤ - ص ١٠٥ .

(٣) قابجى : تركية أصلها (قابى) ومعناها الباب ، والقابجى هو الحاجب أو البواب الذى يحرس باب الديوار الحكيمى ، يفتحه ويغلقه ، وعاليه استقبال الحاضرين إلى الديوان .

أنظر : د / أحمد السعيد سليمان - تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتي ص ١٦٢ .

(٤) الجبرتي - عجائب الآثار - ج ٤ - ص ١١١ .

العثمانيين مصطفى الرابع^(١) تضمنت شرحا لموقفه هذا . وما لا شك فيه أن محمد على كان واضحا كل الوضوح في رسالته هذه التي بعث بها ، وفي بداية سنة ١٨٠٩ م / ١٢٢٣ هـ تغير موقف الدولة بعض الشيء ، فيبدو أن الدولة أدركت أن محمد على يواجه مصاعب لا تمكنه من تجهيز الحملة على السعوديين في الحجاز على وجه السرعة لهذا أرسل السلطان العثماني الى محمد على رسالة في هذا العام فحوها : أن يوسف باشا المعدني - الصدر السابق - عين للسفر إلى الشام على رأس حملة لضبط أمورد بلاد العرب والحجاز وعليه (أي على محمد على) أن يقوم بإرسال لوازم تلك الحملة من سلاح وذخيرة وغير ذلك مما تحتاجه هذه الحملة .

وما تمهدر الإشارة إليه أن الحج المصري والشامي قد أنقطع في هذا العام أيضا سنة ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٨ م بحجة منع السعوديين لهم وهي فرية افتراها عليهم المصريون والعثمانيون والأشراف وهم منها منبرأ فلم يمنعوا أحدا من الحج على الطريقة المشروعة ، إفا المنع لما يأتي به هؤلاء الحجيج من بدع لا يجيزها الشرع من محمل وطبل وزمر يلهى العابد عن عبادته^(٢) .

ومع ذلك فلم يلبث السلطان العثماني الجديد محمود الثاني أن أرسل مرسوما جديدا في المحرم سنة ١٢٢٤ هـ / مارس ١٨٠٩ م إلى محمد على بضرورة الخروج الى الحجاز لمداغة السعوديين عنه مخبرا محمد على باشا بأن يوسف باشا المعدني سيخرج من الشام بجيشه الحربي لأداء هذا الواجب أيضا ، وفي الوقت نفسه سيخرج سليمان باشا والي بغداد بجيشه لمهاجمة

(١) دار الوثائق القومية - وثيقة رقم ٤ دفتر رقم ١ مصبة تركي - من محمد على إلى الباب العالي - بتاريخ ذى الحجة سنة ١٢٢٢ هـ / ديسمبر ١٨٠٧ م .

(٢) الجبرتي ج ٤ ص ص ١٢١ ، ١٢٢ ، وقد أفرد لنا الجبرتي ردا على من أدعوا على السعوديين منع المسلمين من الحج وما قيل في موضوع استيلاء السعوديين على كنوز الحرم النبوي التي أهداها أثرياء المسلمين على مر القرون للحرم النبوي فتكدست كنوز عظيمة عددها الجبرتي ورد على من زعم بحرمته ذلك بأن تلك الكنوز يجب الصرف منها على مصالح المسلمين دون اتخاذها حرم لا يمس وهم بذلك لم يرتكبوا جرما وهو على حق في ذلك .

أنظر : المصدر نفسه ص ١٢١ وما بعدها .

السعوديين أيضا وستكون وجهته الدرعية - عاصمة السعوديين (١) .

ويبدو أن السلطان محمود الثاني قد اقتنع بضرورة الاستعانة بمحمد على باشا وقواته كعنصر أساسي في تلك الجولة الحربية لا كعنصر مساعد .

ومن ثم فقد أخذ محمد على يجند كل طاقته دون أن يألو جهدا في إعداد حملته خاصة في المجال البحري حيث بادر بتجديد قسم صناعة السفن الأميرية الحربية في ترسانة بولاق ، وكانت ترسانة بولاق تصنع أجزاء هذه السفن وتنقلها على ظهور الإبل إلى ترسانة السويس وهناك يتم تركيبها ثم تعويها في البحر الأحمر ، وقد أصبحت هذه السفن هي التواة الأولى للأسطول المصري في عصر محمد على (٢) .

ومع أن محمد على شرع في إعداداته للحملة إلا أنه أصر على اشتراك الدولة في هذه الإعدادات بالنصيب الأوفى فألح عليها في طلب لوازم الجيش خلال فترة ستة أشهر ، بالإضافة إلى ما يحتاجه الأمر من رشاوى للعربان ، كما طلب أيضا المدافع والمهمات الحربية وغير الحربية اللازمة للسفن التي أنشأها مدعيا بأن هذه المدافع والمهمات لا توجد إلا في بلاد الدولة العثمانية (٣) .

ولم تكن تلك المطالب التي طلبها محمد على هي كل ما في جعبته بل إنه سبق أن أبدى في سنة ١٢٢٣ هـ / ١٨٠٨ م مخاوفه من وإلى الشام سليمان باشا متتهما إياه بمراسلة المالك المناوئين لحكم محمد على في مصر ، وأردف ذلك بطلب عزل سليمان باشا من ولاية الشام وتنصيب يوسف كينج باشا - صديق محمد على - على تلك الولاية ، إلا أن الدولة العثمانية لم تجبه إلى ذلك (٤) .

(١) المصدر السابق - ج ٤ ص ١٢٧ ومع ذلك فإن باشا دمشق لم يبذل أي جهد لمناوئة الوجود السعودي في الحجاز ويذكر البعض بأن ذلك لانتفاعه بانقطاع الحج نظرا لعودة أوقاف الحج التي تشمل مديرتي دمشق وطرابلس إلى حوزته الخاصة . أنظر : هنري دودويل - محمد على - ص ٤٧ . وأرى أن هذا الادعاء الأخير ينقصه الدليل .

(٢) جميل خانكي - تاريخ البحرية المصرية ص ٢٢٥ .

(٣) دار الوثائق القومية - وثيقة رقم ٢٣ دفتر رقم امعية تركي - من محمد على إلى الباب العالي - (١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م) .

(٤) د / عبدالرحيم عبدالرحمن - الدولة السعودية الأولى - ص ٢٩ .

وعلى الرغم من ذلك فإن محمد على أرسل (قبيل انفاذ الحملة) مندوباً خاصاً له للتجسس على أوضاع الجزيرة العربية ودرس أحوالها عن كثب ، والتعرف على اتجاه الشريف غالب ونوابه بعد أن تصالح مع السعوديين ، وكذلك التعرف على أوضاع القبائل والأهالي بصفة عامة .

وكان دخول هذا المندوب الحجاز بحجة أداء العمرة ، فأتصل هناك بكل الأطراف بطريقة سرية ، وعاد يحمل تحايا من الشريف واستعداداً منه لمناصرة الحملة المرتقبة (١) .

ومما عد من قبيل المفاجآت أن محمد على على الرغم من إلحاحه على الدولة العثمانية بطلبات إمداده بالسلاح والمدفعية من استانبول فإنه قد أعد الحملة قبل أن تصله تلك الامدادات (٢)

غير أنه من الثابت تاريخياً أنه آستعان في إعدادها بالسيد محمد المحرقى سر تيجار القاهرة الذي أمده بأموال عظيمة ، ويعد أن أتمت ترسانة بولاق صنع السفن مجزأة أتم محمد على باشا نقلها إلى السويس على ظهور الإبل لتركيبها هناك ثم تعويمها ، وقد استخدم محمد على ثمانية عشر ألفاً من الإبل في نقل تلك الأجزاء المصنعة والمعدات الحربية والذخائر والمؤن (٣) .

وفى ٤ من صفر سنة ١٢٢٦ هـ / ٢٨ من فبراير ١٨١١ م تم تقليد طوسون باشا ابن محمد على باشا رئاسة الحملة ، وقد أمره والده بألا يفعل شيئاً إلا بعد مشورة ومراجعة المحرقى ، وبلغ تعداد الحملة ثمانية آلاف جندي ، منهم خمسة آلاف من المشاة وجنود المدفعية .

(١) محمود شاكر - شبه الجزيرة - نجد - المكتب الاسلامي - بيروت ١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٦ م ص ١٩٥ .
 (٢) يذكر الجبرتي بأن تلك المعدات والامدادات العثمانية وصلت بالفعل إلى مصر فى غرة رجب ١٢٢٥ هـ / أغسطس ١٨١٠ م وهى مهمات حربية والآت ومراكب ولوازم الحرب المختلفة كما بعث السلطان إلى محمد على هدية رمزية سيفاً وخنجرًا وهى هدية بمناسبة تكليفه بالحرب .

أنظر : عجائب الآثار - ج ٤ - ص ١٧٠ .

(٣) أنظر تفاصيل ذلك فى : الجبرتي - ج ٤ ص ١٩٣ ، وعبدالرحمن الرافعى - عصر محمد على - مكتبة النهضة المصرية ط ٣ - القاهرة - ١٣٧ هـ / ١٩٥١ م ص ١٣٢ . وأنظر أيضاً : جميل خانكى -

تاريخ البحرية المصرية ص ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

وهؤلاء سافروا عن طريق البحر الأحمر على دفتين والباقيون وهم ثلاثة آلاف كانوا من فرقة
الفرسان بينهم الكثيرون من البدو والفرسان (١) .

وكان خط سير الحملة هو : أن تطلع السفن بالجنود المشاة من ميناء السويس إلى ميناء
ينبع (٢) ، وأما الفرسان ومعهم أمير الحملة - طوسون باشا فتم إرسالهم برا عن طريق برزخ
السويس فالتقوا بالمشاة والمدفعية في ينبع ، ومن هناك يزحف الجيش حسب الخطة
الموضوعة له .

ويبدو أن الحملة البرية كان القصد منها حمل المهمات والمؤنة والذخائر التي يصعب حملها في
السفن حتي تتوفر تلك السفن لحمل الجنود المشاة ومتاعهم الذين كانوا يتجمعون في السويس وربما
كان التأخير في تجميعهم هو السبب في انفاذ المؤن عن طريق البر أولاً .

وقد رافق الحملة البرية طائفة من الصناع من كل حرفة ، كما صاحبها بعض علماء المذاهب
الأربعة وهم : السيد أحمد الطحاوي الحنفى ، والشيخ محمد المهدي الشافعى ، والشيخ الخانكى
المالكى ، والشيخ المقدسى الحنبلى (٣) .

وقد استعان محمد على في هذه الحملة ببعض الضباط الألبانيين خاصة الذين كان يخشى
منهم حدوث اضطرابات أو قلاقل في مصر ، كما ضم الى حملته بعض المرتزقة الأوربيين الذين
خلفتهم الحملة الفرنسية كما ضم الى قواته خيالة عراقيين ، ومقاتلين سودانيين ، ومغربية ، وشراكسة
بالإضافة إلى البدو ، أما المدفعية فقد كانت طرازاً فرنسياً حديثاً (٤) .

(١) دار الوثائق القومية - وثيقة رقم ٧٠ - دفتر ١ معية تركى - من محمد على الى الباب العالى (٩ من
شعبان سنة ١٢٢٦ هـ / سنة ١٨١١ م) وأنظر : د / عبدالرحيم عبدالرحمن - الدولة السعودية الأولى - ص
٣٠٣ .

(٢) ويطلق عليه أيضاً ميناء المدينة المنورة .

(٣) الجببرى - عجائب الآثار - ج ٤ - ص ١٩٢ - وعبدالرحمن الرافعى عصر محمد على - ص ص ١٣٢ ،
١٣٣ .

(٤) أحمد عسة - معجزة فوق الرمال - ص ٢٦ .

واستطاع محمد على بدهائه استمالة الشريف غالب - شريف مكة إليه - بإرساله عن طريق تجار جدة وينبع الموجودين في مصر (١) .

وقد تمكنت الحملة في سبتمبر سنة ١٨١١ م / ١٢٢٦ هـ من الاستيلاء على المويلح (٢) وينبع دون عناء يذكر نظرا لتمكن الحملة من إغراء بعض القبائل القاطنة هناك بالهدايا والخلع وقيام هذه القبائل بإرسال الرسائل إلى مشايخ القبائل الأخرى لاستمالتهم (٣) .

كما تمكنت قوات الحملة بمساعدة القبائل التي انضمت إليها من هزيمة أول فرقة سعودية بقيادة جابر بن جبارة ، ومسعود بن مضيان ، وقد أتبع طوسون تلك الواقعة بالزحف بقواته في اتجاه المدينة المنورة حيث لم يلق صعوبة في البداية لاستمالة عريان الخويطات ، والعبادة ، ويلي والطرايين ، والحماسية ، والكواملة ، والعلقات ، ومزينة ، وتبة ،

(١) دار الوثائق القومية - وثيقة رقم (٢١) محفوظة بحريرا - من يوسف كنج الى محمد على - بتاريخ ١٩ ذي الحجة ١٢٢٤ هـ / ٢٥ من يناير سنة ١٨١٠ م .

(٢) وصفها النابلسي في رحلته سنة ١١٠٥ هـ : بأنها المنزل الرابع عشر من منازل الحاج - من جهة مصر - وأنها عبارة عن قلعة فيها آبار من الماء الحلو ، والبحر المالح على مد البصر ، في جهة الغرب منها وهي عامرة بالناس ، ومنها طبلخانة تضرب كل ليلة بعد العشاء .

أنظر : عبدالغنى اسماعيل النابلسي - الحقيقة والمجاز في الرحلة الى بلاد الشام ومصر والحجاز - الهبة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٦ - ص ٣٠٨ .

(٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة وثيقة رقم ٧٥ - دفتر رقم ١ - معية تركية - من محمد على إلى الباب العالي بتاريخ (٢٣ رمضان سنة ١٢٢٦ هـ / ١١ من أكتوبر وتغالي بعض المصادر في ذكر الرشاوى والهبات التي كانت تعطى لتلك القبائل فيذكر أحدهم : أن كبير مشايخ حرب حصل على مائة ألف ريال ، ورتبوا له رواتب شهرية وقد خصه من المبلغ ثمانية عشر ألف ريال - بيد أن هذا لا يمكن تصديقه لأن مثل هذا المبلغ كبير جدا يكفي لتجهيز جيش بأكمله في ذلك الوقت ويبدو أن السباعي ناقل من الجبرتي إذ عثرت على نفس التقدير عنده .

أنظر : عجائب الآثار - ج ٤ ص ٢٤٥ . وأحمد السباعي تاريخ مكة ص ٥٠٩ .

ولخون ، وعمران ، وعلوين ، وعميرات ، والدقيقات ، وبنى عقبة ، وبنى واصل ، وجهينة (١) .

ولم يهنا جنود الحملة بهذا النصر كثيرا فسرعان ما حدث اشتباك عنيف بين السعوديين والحملة في منطقة ممر الصفراء قبل أن يصل إلى المدينة حيث دارت الدائرة هناك على الحملة المصرية، وسبب هذا أن السعوديين فاجأوهم من جبل عال صخري ، يشرف على ممر الصفراء الضيق وأعملوا فيهم القتل حتي أفنوا كثيرا من جنود الحملة واستولوا على عتادها وعدتها (٢) حتى أن الثمانية آلاف الذين تكونت منهم الحملة لم يعد منهم إلى ينبع سري ثلاثة آلاف فقط ، وقتل منهم في المعركة والطريق خمسة آلاف (٣) .

وقد حاول محمد علي استغلال نتيجة تلك الواقعة لتصوير إمكانات السعوديين العسكرية بشكل مبالغ فيه أمام الدوله ليعزز طلبه في الشام بعزل واليه سليمان باشا وإسناد ولايته إلى يوسف كنج باشا صديقه أو أن يقوم سليمان باشا هذا بتسيير جيوش من الشام تحت قيادته ليشارك معه في قتال السعوديين ، وفي كلا الحالتين سيستفيد محمد علي من موارد الشام لصالح الحملة (٤) المصرية على شبه جزيرة العرب .

وقد استغل طوسون باشا فرصة انتظاره المدد في مراسلة القبائل الضاربة بين ينبع والمدينة وإغرائهم بصناديق الأموال والكساوى ، وقد نجح في تحقيق أهدافه وهى استمرار موالاة هذه القبائل له .

(١) دار الوثائق القومية - وثيقة رقم ٧٨ - دفتر رقم ١ معية تركية من محمد على إلى الباب العالى - بتاريخ (٥ من ذى القعدة سنة ١٢٢٦ هـ / ٢١ من نوفمبر سنة ١٨١١ م) .

(٢) أنظر : تفاصيل تلك الواقعة فى : الجبرتي - عجائب الآثار / ج ٤ ص ص / ١٩٦ ، ١٩٧ .

وأنظر : أمين الريحاني - نجد وملحقاته - ص ٧٢ .

(٣) عبدالرحمن الراغى - عصر محمد على - ص ١٣٥ .

(٤) دار الوثائق القومية - وثيقة رقم ٨٠ - دفتر أمية تركى - من محمد على إلى كبير أغاة دار السعادة (٢٧ من ذى الحجة سنة ١٢٢٦ هـ / ١٢ من يناير سنة ١٨١٢ م) .

وأنظر : د / عبدالرحيم - ص ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

ولما وصلت إليه الامدادات الحربية المصرية تحرك بقواته نحو المدينة فى سنة ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م ، مصاحبا جموعا كبيرة من عرب جبهة وحرب فاستطاع أن يستولى على المدينة بعد حصار دام خمسة وسبعين يوما منع طوسون خلالها الماء والمؤن عن أهل المدينة ^(١) ثم احتل بعد ذلك الحناكية بشمال المدينة ^(٢) .

ومن غريب ما روي وهو ما لا يستطيع المرء التسليم به ما ذكره أمين الريحانى ^(٣) وعسه وسلم به آخر ^(٤) : من أن أحد المرتزقة وهو اسكتلندي يدعى توماس كيث تولى حكم المدينة المنورة برهة ، ولا أدري ما المقصود بالبرهة ؟ هل هى لحظة ؟ أم ساعة ؟ أم يوم ؟ ولا يمكن للباحث أن يسلم بذلك دون أدلة أو براهين ، خاصة وأن هؤلاء المرتزقة لم يسمح لهم محمد على بمناصب قيادية فى حملته على الحجاز .

وقد ساعدت الرسائل المتبادلة بين طوسون والشريف غالب - الموجود بجدة على تسهيل دخول بعض القيادات البحرية المصرية إلى ثغر جدة ، مما سهل اقتحامهم بلدان الحجاز برا وبحرا دون قتال يذكر ، وياتت مكة قاب قوسين أو أدنى ^(٥) .

وبمساعدة الشريف والبدو تمكنت قوات الحملة المصرية من دخول مكة دون قتال يذكر لأن السعوديين أخلوها قبل أن يقتحمها رجال الحملة المصرية ويبدو أن السعوديين أرادوا بذلك استدراج قوات الحملة المصرية الغازية ناحية نجد حيث وعورة الطريق ، والولاء الأكثر من موطنى نجد للسعوديين ومذهبهم ، بالإضافة إلى صعوبة إمداد

(١) أحمد عس - معجزة فوق الرمال - ص ٢٧ .

(٢) عبدالرحمن الراجحي - عصر محمد على - ص ١٣٧ ، ١٣٨ والحناكية بلدة تقع شرقى المدينة فى الطريق إلى نجد على بعد مائة كيلو متر من المدينة .

(٣) أمين الريحانى - نجد وملحقاته - ص ٧٧ .

(٤) أحمد عسة معجزة فوق الرمال - ص ٢٧ .

(٥) دار الوثائق القومية - وثيقة رقم ٨١ محفوظة ٣ بحرياً - من طوسون الى محمد على (١٢) من محرم سنة

١٢٢٨ هـ / ١٥ من يناير سنة ١٨١٣ م .

الحملة مع مشاق تلك الطريق (١) .

وبعد أن تم لطوسون للاستيلاء على جدة ومكة تقدم بقواته إلى الطائف فاحتلها بدون عناء أو حرب في المحرم سنة ١٢٢٨ هـ / ٢٩ من يناير سنة ١٨١٣ م .

إلا أن هذه المكاسب والانتصارات السلمية أعقبها تخرج موقف الحملة بعد أن أعادت القوات السعودية نظامها واستكملت استعداداتها فتمكنت من هزيمة قوات الحملة المصرية عند تربة (٢) في سنة ١٢٢٩ هـ / ١٨١٣ م كما أن الحامية المصرية في الحناكية اضطرت إلى التسليم بعد أن دافعت عن مواقعها دفاعاً مستميتاً ، وازداد موقف الحملة سوءاً بسبب تفشي الأمراض والأوبئة وشدة الحر وقلة المؤونة والماء مما اضطر طوسون إلى وقف عملياته الحربية والالتزام بخطة دفاعي محدد شمل (٣) جدة وينبع ومكة والمدينة وفي الوقت نفسه بعث إلى أبيه بطلب النجدة على وجه السرعة .

وقد ظهرت على السطح في تلك الآونة فكرة للصلح بين الطرفين خاصة وأن طوسون نجح في تحقيق الهدف الرئيسي من حملته وهو تخليص الحجاز من قبضة السعوديين ، فقد كان محمد على يخشى من التورط في حرب صحراوية ضروس داخل شبه الجزيرة العربية تكلفه الكثير ، إلا أن الزعيمين المصري والسعودي لم يوصلا إلى نتيجة ترأب الصدع بينهما .

فقد أصر (محمد على) على شروط عدها السعوديون مستحيلة ، ولو أراد محمد على أن يقطع لطلب المستطاع وهذه الشروط هي :

(١) أحمد عسة - معجزة فوق الرمال - ص ٢٨ .

(٢) تربة والخزمة واحتان أو قريتان بين الحجاز ونجد كان يسكن الأولى ثلاثة آلاف من عرب البقوم، وعدد من الأشراف الذين كانوا يملكون معظم أراضيها ، وكثيراً ما وقع الخلاف على القريتين بين السعوديين والأشراف عند تعيين الحدود بين نجد والحجاز وكان كل طرف يدعى تبعيتها له .

أنظر : خير الدين الرزكلي - الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز دار العلم للملايين - ط ٤ بيروت ١٩٨٤

ص ٨٠ .

(٣) عبدالرحمن الراجعي - عصر محمد على - ص ١٣٩ وما بعدها .

أن يدفع سعود كل ما صرفه محمد على لرحلة الحجاز إلى وقت الصلح ، وأن يرد النفانس والكنوز التي استولى عليها من الحجرة النبوية الشريفة ، وأن يحضر سعود بنفسه لمقابلة محمد على باشا .

وقد اعتبر سعود هذه الشروط إهانة له (١) وهو محق في ذلك إذ أن الشرط الأخير على وجه الخصوص إذلال لسعود ونهاية لزعامته ، وربما نهاية كيانه أيضا (٢) .

وقد قرر محمد على باشا - عقب فشل محاولات الصلح - الشخوص بنفسه إلى الحجاز ليتولى قيادة قواته بعد إرسال المدد من الجنود والعتاد (٣) .

- (١) د / عبدالرحيم عبدالرحمن - الدولة السعودية - ص ٣١٣ .
- (٢) كما حدث بعد ذلك لعبدالله بن سعود - بعد خراب الدرعية سنة ١٢٣٤ هـ / ١٨١٨ م حيث أرسل إلى الآستانة ، وتولى بها على يد جلاديه ، والشئ نفسه حدث لعثمان المضائفي - قائد الجيش النجدي - وعلى بن مضيان أمير المدينة المنورة - حيث أرسل بعد فتح الطائف والمدينة سنة ١٢٢٧ هـ / ١٨٢١ م - ١٢٢٨ هـ / ١٨١٣ م من قبل جنود محمد على إلى الآستانة وقتل فيها .
- وبما يؤسف له أنه على الرغم من وعود محمد على لعبد الله بن سعود بالتوسط لدى السلطان العثماني ، واستقبال محمد على لابن سعود بحفاوة بالغة وإلباسه خلعه تقديرا واحتراما إلا أن السلطان العثماني محمود الثاني (ابن عبدالحميد الأول) ١٨٠٨ - ١٨٣٩ م أخذه الزهو والخيلا بالباطل ، وأمر بالطواف بعبد الله في أنحاء استانبول ، ثم أمر بإقامة احتفال مهيب لايقام إلا في الأعياد والمناسبات ، وركب بنفسه إلى ساحة السراي العتيقة ، وجعل عبدالله ومراقوه يرون من أمامه ثم أمر بإعدامهم أمام ساحة الاحتفال أنظر فيما سبق: دار الوثائق القومية - الوثيقة ٢٥ - محافظة ١٦ بحري - من الحاج محمد رفيع القاضي بدار السلطنة - سابقا إلى ولي النعم - بدون تاريخ .
- وأرجح أن تاريخ الوثيقة هو منتصف ١٢٣٤ هـ / ١٨١٩ م نظرا لأن عبدالله سافر إلى الآستانة في ١٩ من محرم ١٢٣٤ هـ / ١٨ من نوفمبر سنة ١٨١٨ م . د / عبدالرحيم عبدالرحمن - الدولة السعودية - ص ٣٤٤ . أحمد السبعي تاريخ مكة - ص ٥١٠ .
- (٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٨٢ - دفتر ٣ بحري - من محمد على إلى رؤساء الجند بتاريخ ١١ من محرم سنة ١٢٢٧ هـ / ١٨١١ .

واضطر لتحقيق ذلك إلى فرض التجنيد على الآلاف من المراكشيين ، والرتيق السوداني واليونانيين الأرمن (١) .

ولقد أراد محمد على من شغوصه إلى الحجاز بنفسه تحقيق عدة أهداف أعظمها مايلى :

- ١ - أن يعطى ابنه دروسا فى القيادة الميدانية ويبين له كيف يسير دفة الحرب .
- ٢ - أن ينقذه من الحصار الذى ضربه عليه السعوديون فى الطائف .
- ٣ - أن يظهر ولاءه للدولة العثمانية التى مازالت تراه غير جدير بشقتها منذ أن فرض نفسه ، وفرضت الظروف والزعامة الشعبية على الدولة .
- ٤ - أن يشحذ همة رجاله ويرفع معنوياتهم فى مواجهة رجال يقاتلون عن عقيدة وإيمان لا يتزعزعان
- ٥ - أن يطمئن على تنظيمات جنوده فى أول حرب خارجية لهم .
- ٦ - أن يلتقى العرب فى نفوس أعدائه بتلك الشائعات التى ستهول من أمر وصوله فى قواد عظيمة (٢) .

وكان أول شئ قام به محمد على بعد وصوله إلى الحجاز أنه قبض على الشريف غالب غدرا فى أواخر سنة ١٢٢٨ هـ / ١٨١٣ م ثم نفاه إلى مصر ومنها إلى سالونيك حيث ظل بها إلى أن توفى بها سنة ١٢٣١ هـ / ١٨١٦ م حدث هذا على الرغم من أن الشريف غالبا أحسن استقبال ورافقه إلى مكة المكرمة ترحيبا وطواعية .

وقد ولى محمد على الشريف يحيى بن سرور على إمارة مكة بدلا من عمه الشريف غالب (٣) .

(١) هنرى دوديل - محمد على - ص ٥٠ .

(٢) فقد ذكر أستاذنا الدكتور / عبدالجواد صابر اسماعيل أن شخوص محمد على إلى الحجاز كان بسبب انزعاجه من حصار السعوديين لابنه طوسون فى مدينة الطائف بعد أن دخلها بقواته .

أنظر : دور مصر فى الحرب العثمانية اليونانية (١٨٢١ - ١٨٢٣) - ط ١ - القاهرة ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م - ص ٩ .

(٣) أحمد السباعى - تاريخ مكة - ج ٢ - ص ٥١١ .

ويدعى أحد الباحثين ^(١) بأن محمد على شخص بنفسه إلى مكة بحجة توطيد دعائم النظام ولكن تبين أنه كان يرمي من وراء هذه الزيارة إلى تعيين شريف جديد لعدم ثقته فى الشريف القديم ولخوخته على أموال طائلة يرغب محمد على فى الاستيلاء عليها .

وهذا الحديث تعوزه الدقة حيث أن الشريف غالبا لم يكن فى منعة قط أمام جيش طوسون الزاحف ، وكان من السهل على طوسون أن يحيط به ورجاله وبأمواله انما الصحيح هو ما تقدم من أسباب .

وقد تداول الجانبان فى المعارك بعد ذلك النصر والهزيمة نضرب الصفع عن ذكر تفصيلاتها . إلا أن ما يعنينا اضافته هنا هو استمرار مصر فى التحكم فى شئون الحجاز السياسية والاقتصادية والاشراف على شئون الحج والعمرة ، وتغيير زعامة الأشراف فى مكة طبقا لما كان يتراعى للإدارة المصرية بعد موافقة السلطة العثمانية .

ولقد ظلت هذه السيطرة المصرية على الحجاز ناهضة قوية إلى أن تخلت مصر عن دورها فى ظل ظروف دولية ، وأخرى على ساحة الخلافة العثمانية .

ومن أمثلة تلك السيطرة المصرية على الحجاز :

أنه عندما حدثت فتنة الشريف يحيى بن سرور بن مساعد فى سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م ^(٢) الذى أبرز عداوته للإدارة المصرية اضطّر أحمد باشا محافظ مكة إلى تنصيب الشريف عبدالمطلب بن غالب على شرافه مكة ليساعده على درء فتنة ابن سرور ثم أرسل الى محمد على باشا ليعتمد شرافة عبدالمطلب بن غالب ، إلا أن ذلك لم يلق القبول عند محمد على ، فلم يعتمد شرافة عبدالمطلب لأنه كان يرى أن الشريف محمد بن عبدالمعين بن عون المقيم فى مصر أحق بهذا المنصب من عبدالمطلب ، وأولى ، فآلبسه خلعة الشرافة ثم أرسل إلى استانبول فى طلب الموافقة على

(١) هنرى دوديل - محمد على - ص ٤٩ .

(٢) تولى شرافة مكة سنة ١٢٢٨ هـ / ١٨١٣ م بعد أن قبض محمد على باشا على الشريف غالب ، وحدثت فتنة ابن سرور هذه من قتلة للشريف شنبر - أحد المقرين للإدارة المصرية سنة ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٦ م فاضطرب الناس على أثرها وأخذ ابن سرور يتحرش بالجنود المصريين ويجمع حوله القبائل لارجاعه إلى إمارته إلا أنه لم يتمكن منها . أنظر : ابن زنى دحلان - خلاصة الكلام ص ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

تنصيبه بى شرافة مكة (١) .

ومن عجائب الأمور أنه قد أصبح هناك ثلاثة من الأشراف يتنازعون إمارة مكة ، وكان كل منهم يعتمد على موافقة رسمية بشرافته بشكل أو بآخر .

فالشريف يحيى بن سرور مازال يعتبر نفسه شريف مكة وحوله القبائل توازره وتؤيده خارج مكة ، والشريف عبدالمطلب بن غالب قد نصبه أحمد باشا محافظ مكة ، وهو ينتظر موافقة محمد على باشا على شرافته بعد استئذان الباب العالى والشريف محمد بن عون نصبه محمد على باشا وبعث إلى الدولة يطلب اعتماد تنصيبه .

وفى الوقت نفسه أرسل محمد على باشا إلى عبدالمطلب بن غالب يشرح له اللبس الذى حدث فى هذا الأمر ، وأنه لا يستطيع إرجاع الشريف محمد بن عون بعد أن نصبه شريفا على مكة نظرا لأنه قد سبق أن بعث اسمه إلى الدولة ، وطلب فيها الموافقة على تنصيبه ، ثم أخذ محمد على بعد الشريف عبدالمطلب فى رسالته بالتكريم والتقدير إن هو وافق وسكن دون ثورة ، كما خيره بين البقاء فى مكة معززا مكرما أو الشخوص بأهله إلى مصر ليلقى فيها التكريم والتعظيم المناسبين له (٢) .

توضيح عن دور المصريين فى حملات محمد على :

وأثناء إقامتي فى المملكة السعودية سنة ١٩٨٨م لمست عن كثر مدى تأثير النفوس فى مجرى بأعباء الماضى الثقيل البغيض إلى نفوسهم هذا الماضى الذى ربما ذكرهم به المصريون العاملون فى شبه

(١) دارة الملك عبدالعزيز بالرياض - الوثيقة رقم ٢/٢ ك - ١٢٢ من المعية السنية الى الشريف عبدالمطلب

بتاريخ (٦ من ربيع الثانى سنة ١٢٤٣ هـ) .

وتحمل الوثيقة نفسها رقم ٦ من دفتر ٣١ معية تركى بدار الوثائق المصرية بالقاهرة - وقد حصلت عليها من

دارة الملك عبدالعزيز بالرياض .

(٢) المرجع السابق .

الجزيرة العربية ، لكن الواقع يؤكد أن الحرب بين محمد على والسعوديين لم يكن للمصريين فيها ناقة ولا جمل ، ولا أغالى إذا ذكرت أن المصريين قد نعموا على تلك الحرب ونالت منهم مثلما نالت من السعوديين إن لم تكن أكثر حيث فرضت عليهم تكاليف هذه الحرب فى صور إتاوات فرضها عليهم محمد على ليتمكن من تنفيذ ما أملى عليه وقبله ، هو لينشئ لنفسه ولأسرته ملكا واسعا عريضا على هامات المصريين وأهالى الجزيرة العربية .

وإذا أردنا الانصاف حقيقة فلا ينبغي أن نسمى تلك الجيوش الجرارة بالجيوش المصرية ، إنما يجب أن نطلق عليها الجيوش (العثمانية) لنسمى الأمور بسمياتها ، وقد أتفق مع كتابات أحد علماء قطر الذى كتب عن ابن عبدالوهاب ودعوته فما أشار الى جيش محمد على إلا بتسميته الجيش التركى ، وإلى مجموع من اشتبكوا فيه بقوله : الأتراك وليس المصريين ^(١) على الرغم من تحفظى على كلمة تركى لما فيها من قصور إلا أن الصحيح هو اطلاق كلمة العثمانى .

ويتحدث أحد الكتاب عن معاناة المصريين فى اعداد التجهيزات فيقول ^(٢) :
" تحملت مصر بسبب تجهيزها بالعتاد توضحيات جسيمة وذاق شعبها من أجل ذلك ألم التقتير والتعذيب والتنكيل اذ استولى نائب محمد على فى القاهرة على جميع أموال الملتزمين وفرض على الأهالى الإتاوات والغرامات فى سبيل حرب لاناقة لهم فيها ولا جمل .

وليس عجبا أن نجد كتابات الجبرتى فى تاريخه تلعن بين سطورها كل ما هو عثمانى ، وكل ما هو ألبانى ، ولقد كلفه موقفه هذا حياة ابنه فقتلوه ^(٣) ، وداره فأحرقوها ، وعلمه فصادروه ،

(١) أحمد بن حجر بن محمد آل أبر طامي - الشيخ محمد بن عبدالوهاب عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية وثناء العلماء عليه - مطبوعات الجامعة الاسلامية - المدينة المنورة - ص ٥٠ .

(٢) عبدالعزيز دنيا - سليم الحجازى ص ٣٩ .

(٣) فقد قتل عدرا فى شارع شبرا عند عودته إلى القاهرة ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ١٢٣٧هـ / ٢٢

من يونيه سنة ١٨٢٢ م ، وألقى بتبعة ذلك على محمد على .

أنظر : دائرة المعارف الاسلامية - م ١١ - ص ٦٤ .

وعمره (١١) ففعلوا به ، لكن الحقيقة الصامتة هي أن كل مصري في مصر كان جبريتيا .

وإني لأتساءل ممن تكون جيش محمد علي الذي أرسله إلى شبه الجزيرة ؟

والاجابة على هذا السؤال : هو أن هذا الجيش تتكون من ضباط ألبانيين ، كما ضم إلى حملته بعض المرتزقة الأوربيين الذين خلفتهم حملة نابليون بونابرت على مصر ليجعل منهم مساعدين لابنه طوسون الذي أمره على هذه الحملة ، كما ضم جندا من معظم الولايات العربية والاسلامية التي كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية ، وكان من بينها خيالة عراقيون ، ومقاتلون سودانيون ، ومغاربة ، وشراكسة ، بالإضافة إلى البدو (٢) .

ونجد هذا أكثر وضوحا فيم جاء في كتاب دودويل الذي قال (٣) :

" كان لا مناص من الالتجاء إلى التجنيد العنيف لسد هذا الطلب ولهذا أخذ المراكشيون من بلاد البربر والرقيق السوداني واليونانيون بل والأرمن يلتحقون بالجيش ويرسلون أفواجا إلى جبهة القتال" . وهناك مصريون اشتركوا في هذا الجيش الا أنهم أفراد قليلون ولا تُعلم ظروفهم من الترغيب والترهيب بيد أن معظم هؤلاء عادوا بعد أول معركة حقيقية مع السعوديين في واقعة عمر الصفراء قرب المدينة وفروا إلى مصر نادمين مثل السيد محمد المحرقى كبير تجار مصر وبعض المشايخ الذين سبق لهم الوشاية بالسيد عمر مكرم - نبض مصر الحقيقية - الذي قاوم الظلم حتي نفى - بعد أن سجل تاريخه ووفاته جليلة لرد المظالم عن شعبه ومحاولة منه لردع الحاكم الظالم . وإضافة إلى ذلك فإن هؤلاء المصريين القلائل الذين صاحبوا حملات محمد علي إلى الحجاز وسائر شبه الجزيرة العربية لم يكونوا محاربين قط ولم يشترك مصري واحد في القتل أو سفك الدماء .

كما يتحدث الريحاني عن حملة ابراهيم باشا علي شبه الجزيرة فقال (٤) :

" جاء بجيش لا يتجاوز الأربعة آلاف ، وفيهم الألباني والمغربي والسوداني ، وقد أضاف

(١) فقد ضاع كثير من مؤلفاته ، ويُعتقد أنها إما صودرت أو تم احرانها عندما أُحرق أتباع محمد علي بيته بسبب

نقد الجبريتي لمحمد علي نقدا لا ذعا .

(٢) أحمد عسة - معجزة فوق الرمال - ص ٢٦ .

(٣) هنري دودويل - محمد علي - ص ٥٠ .

(٤) أمين الريحاني - نجد وملحقاته - ص ٨٥ .

إليهم فى مروره بالصعيد ألفين من الفلاحين للأشغال والخدمة : ويضيف الريحانى قوله : ' وكان معه مهندس فرنسى وأربعة أطباء وصيادلة أيطاليين " .

كذلك تحدث الزركلى عن حملة (محمد على) على شبه الجزيرة فقال : " كانت العساكر التى انتقلت من مصر ، من الترك وأهل المغرب نحو ١٤ ألف مقاتل أو يزيدون " . كما تحدث عن حملة طوسمون على شبه الجزيرة العربية فقال : " كان يقود ثمانية آلاف من الجنود إلى ينبع ومعهم ضباط أوروبيون وعدد من المجازفين المسترزقين الذين كانوا فى عسكر بونايرت " (١) .

والذى أراه أن الفلاحين المصريين الذين جاء ذكرهم فى كتاب الريحانى قد أخذوا قسرا خاصة وأن بعض أهل الصعيد قرابتهم مرسولة بقبائل شبه الجزيرة العربية ، هذا بالإضافة إلى أن هؤلاء الفلاحين الذين امتص محمد على قوتهم وسلبهم أرزاقهم (٢) كان من السهل السيطرة عليهم، أضف إلى هذا أن هؤلاء لم يحملوا سلاحا قط فى معارك شبه الجزيرة ووزوهم فى تلك الحرب أصغر بكثير من وزر قبائل حرب ، وجهينة ، والحويطات، ولى ، وغيرها (٣) فلقد عضدت هذه القبائل حملات محمد على تحت ظروف الترغيب فى الغالب ولم يبالوا حينما قاتلوا إخوانهم فى شبه الجزيرة العربية. وسأترك قلم الجبرتى يسوق لنا أسباب هزيمة حملة محمد على فى ممر الصفراء من وجهة النظر الاسلامية وهو : (٤) " لقد قال لى بعض أكابرهم (٥) من الذين يدعون الصلاح والتورع أين لنا

(١) الزركلى - الوجيز فى سيرة الملك عبدالعزيز - ص ١٣٢.

(٢) من ذلك فى حوادث سنة ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م ما ذكره الجبرتى : " وهو أن الباشا أرسل لجميع كشاف الوجه القبلى بهجز جميع الغلال والحجر عليها لطرفه فلا يدعون أحدا يبيع ولا يشتري شيئا منها ولا يسافر بشئ منها فى مركب مطلقا ، ثم طلبوا ما عند أهل البلاد من الغلال حتى ما هومدخر فى دورهم للقتل فأخذوه أيضا ، ثم زاد فى الأمر حتى صاروا يكبسون الدور ، يأخذون ما يجدون من الغلال قل أو أكثر ولا يدفعون له ثمنا بل يقولون لهم نحسب لكم ثمنه من مال السنة القابلة ، ويشحنون بذلك جميع مراكب الباشا التى أستجدها وأعددها لنقل الغلال ، ثم يصيرون بها الى بحرى " . أنظر : عجائب الآثار - ٢١٨/٤ .

(٣) أنظر فى ذلك : دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٧٨ - دفتر رقم ١ معية تركى - من محمد على رلى الباب

العالى - بتاريخ ٥ ذى القعدة سنة ١٢٢٦ هـ / ٢١ نوفمبر ١٨١١ م .

(٤) الجبرتى - عجائب الآثار - ٤ / ٢٠٠ .

(٥) أى كبار العسكر فى حملة محمد على الذين فروا الى مصر بعد هزيمتهم .

بالنصر وأكثر عساكرنا على غير الملة ؟ وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهباً ، وصحبنا صناديق المسكرات (١) ولا يسمع في عرستنا آذان ولا تقام به فريضة ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين ، والقوم (٢) اذا دخل الوقت أذن المؤذنون وينتظمون صفوفاً خلف إمام واحد بخشوع وخضوع ، واذا حان وقت الصلاة والحرب قائم أذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف ، فتتقدم طائفة للحرب وتتأخر الأخرى للصلاة ، وعساكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به فضلاً عن رؤيته ، وينادون في معسكرهم هلموا الى حرب المشركين . ولا يحتاج ما بين السطور إلى تعليق فضلاً عن السطور نفسها مما يظهر نبض الانسان المصرى فى ذلك مثله الجبرى وأعتقد أن كل مصرى كان جبرتياً آخر .

وعلى الرغم مما تقدم فإن النسب والصهر لا يُنكر ، وأن الحقيقة كلها قد عقلها ووعاها مؤسس سعودية اليوم (الملك عبدالعزيز) الذى وصى أبنائه وأهله بمصر خيراً فقال : " ضعوا مصر فوق صدوركم " ، و " أوصيكم بمصر خيراً ؟ وهذا فى اعتقادى تقدير لمصر ودورها العظيم طوال القرون الماضية (٣) .

(١) نعمة بالله من ذلك هل هؤلاء مصريون ؟ حاشا لله .

(٢) يقصد السعوديين - السلنبيين .

(٣) عزيز محمد حبيب - المملكة العربية السعودية - ص ٢٤٩ .

الفصل الثانى

العلاقات السياسية بين مصر والحجاز

نُهييد :

كان لعزم محمد على إعلان الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية ١٢٥٠ هـ ، ١٢٥٤ هـ / ١٨٣٤ م ، ١٨٣٨ م أن تكتلت ضده الدول الأوربية وحذرت من العواقب الوخيمة التى تنتظره فى حالة اقدمه على هذا العمل (١) .

وبما لا شك فيه أن انتصارات محمد على الحربية خاصة فى موقعة " نصيبين " (٢٤ من يونية ١٨٣٩ م ربيع الآخر ١٢٥٥) (٢) ، وانضمام قائد البحرية العثمانية أحمد باشا فوزى بالأسطول العثمانى إلى محمد على وتسليمه هذا الأسطول اليه كهدية ، دفع الأوربيين إلى وضع المسألة المصرية والشرقية والتوازن الأوربى الدولى عامة على بساط البحث .

فى الوقت الذى أصبح لمصر فيه السيطرة على الشام وشبه الجزيرة العربية ، كما أصبحت أقوى دولة بحرية فى البحر المتوسط بعد انضمام الأسطول العثمانى إليها .

(١) عبدالرحمن الرافعى - عصر محمد على - ص ٣١١ .

(٢) سبب هذه الموقعة أن الدولة العثمانية نقضت معاهدة كوتاهية حين تقدمت قواتها مختربة حدود الشام بقيادة حافظ باشا وبعض الألمان حيث تحرك الجميع من بيرة وعبروا نهر الفرات إلى مكان قرب قرية نصيبين - التى تسميها الوثائق ترب - وقابلهم إبراهيم باشا بجلا فى ١٣ من ربيع الآخر سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م حيث تمكن من إيقاع الهزيمة بالعثمانيين ثم غنم جميع بنادقهم وخيامهم بما فيها من عتاد ومؤمن .
١٣ أصلية

* أنظر : دار الوثائق القومية الوثيقة ----- محفظة ٦٦ عابدين من محرم أغا محافظ ١١٨ حمراء

المدينة المنورة الى باشمعاون جناب الخديون (١٣ من جمادى الأولى سنة ١٢٥٥ هـ) .

* وأنظر الوثيقة ٢١ أصلية / ١٣٦ محفظة ٢٦٦ عابدين - من الميرامران سليم بالجديدة إلى صاحب الدولة بتاريخ (١٥ من جمادى الأولى سنة ١٢٥٥ هـ) .

إلا أن عداء المجلترا الشديد لمصر (١) جعلها تتزعم مفاوضات الأوربيين لكبح جماح محمد على والحد من أطماعه . وقد أدت هذه المفاوضات فى النهاية إلى توقيع معاهدة لندن الشهيرة فى ١٥ من جمادى الأولى سن ١٢٥٦ هـ / ١٥ من يوليو سنة ١٨٤٠ م وقد جاء فيها :

" أن يخول محمد على وخلفاؤه حكم مصر الوراثي ، وأن يقبل إخلاء جنوده من شبه الجزيرة العربية ، وجزيرة كريت ، وإقليم أدنه ، وسائر البلاد العثمانية التى أستولى عليها " (٢) عدا ولاية عكا وأن يعيد إلى الدولة أسطولها .

وبذلك تبدلت الأحوال فبعد أن كانت استانبول ترجو محمد على أن يفزو شبه الجزيرة العربية أصبحت تضغط عليه للاستحباب منها .

أما موقف الحجاز من هذا الصراع الناشب أطفاه بين محمد على من جهة والعثمانيين وحلفائهم من جهة أخرى ، فقد ظهر واضحا فى موقف أمير مكة الشريف محمد بن عون الذى أعلن إخلاصه لمحمد على وتأييده لسياسته . بينما كانت الدول الأوربية بزعامة المجلترا تقف بالمرصاد فى وجه محمد على مهددة ومنذرة ، وكانت هناك اتصالات بين القاهرة ومكة المكرمة أطلع محمد على الشريف محمد بن عون من خلالها على تطورات الموقف ، وتعنّت المجلترا وتهديداتها . فأبرق الشريف محمد بن عون على الفور إلى محمد على فى ١٩ من رمضان سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م بأنه اذا حدثت أية اعتداءات من قبل الانجليز فإنه يكون من أقصي أمانيه - على حد تعبيره - أن يجمع جندا من العرب يبلغ عدده مائتى ألف مقاتل مجهزين بأنواع الأسلحة الحربية ويقودهم الشريف ويحارب بهم المعتدين ويهلكهم فى الفيافى والصحارى (٣) .

(١) هذا العداء مبعثه هزيمتها الساحقة فى رشيد وكوم حماده سنة ١٨٢٢ هـ / ١٨٠٧ م .

(٢) عبدالرحمن الرافعى بك - عصر محمد على - ص ٣٢٧ .

(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٧٦ أصلية - ٣١٢ حمراء المحفوظة رقم ٢٦٩ عابدين - من محمد بن عون

إلى باشمعاون جناب الخديوى - بتاريخ (١٩ من رمضان سنة ١٢٥٦ هـ) .

وموقف الشريف عون وإن كان فيه إفراط فى الحماس ومبالغة فيه إلا أنه يظهر لنا الموقف الرسمى لحكومة الحجاز التى يتزعمها شريف مكة محمد بن عون وهو بلا شك تعضيد لمحمد على ليس على الانحياز فحسب ، وإنما على الأتراك العثمانيين كذلك ، وهذا يرجع فى الحقيقة إلى ما كان من ود بين الزعيمين المصرى والحجازى . كما أن الشريف محمد بن عون كان يعد صنيعة محمد على الذى مكن له من إمارة مكة رغم أنف العثمانيين .

جلاء جيش محمد على عن شبه الجزيرة العربية :

ولقد ترجم الشريف بعض أقواله إلى أفعال عندما أصدر أوامره حالما وصل إلى جدة فى ١٠ من شوال سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م بتحسين الثغر (جده) كما قام بمساعدة القادة المصريين بها فى توزيع المشاة فى مواضع استراتيجية بالإضافة إلى توزيع الفرسان فى عدة مناطق على الطريق الواقع بين مكة المكرمة وجدة تحسباً لأى اعتداء المحلىزى على القوات المصرية المطلوب جلاؤها عن شبه الجزيرة العربية .

أما السفن الأميرية الراسية فى الميناء فقد تم تنظيمها بحيث تكون على أهبة الاستعداد لصد أى اعتداء يحدث لها من الخارج ، وبحسب تعبير الشريف محمد بن عون فإن كل سفينة منها كانت بمثابة القلعة . بيد أن قائد الأسطول المصرى فى البحر الأحمر طلب من الشريف بن عون ثلاثمائة جندي جدد ، فأحضر له الشريف على الفور بلوكى^(١) الجنود المستحفظين المرابطين بجدة ويبلغ عددهم مائة وخمسين جندياً فوزعهم القائد المصرى على السفن للحراسة على الرغم من أن هؤلاء الجنود كانوا متأهبين للعودة إلى مصر ، وقد أتيع الشريف ابن عون ذلك بتقوية قلعة جدة وترصيفها برا وبحرا ، وعهد إلى معاونيه بعقد مجلس للتشاور فى تنظيم الأمور اللازمة على أن ترسل تقارير يومية بذلك إلى مصر^(٢) .

(١) البلك فى التركىة بلوك ومصدره بولك ، ومعناه التقسيم ، فالبلك هو القسم أو الفوج . أنظر : د/ أحمد

السعيد سليمان - تأصيل ما ورد فى الجبرتى ص ٤٤ .

(٢) دار الوثائق القومية الوثيقة ٨٢ / ١٠١ المحفوظة ٢٦٩ عابدين من الشريف محمد بن عون إلى باشمعارن

الحديوى بتاريخ ٢٦ من شوال سنة ١٢٥٦ هـ .

وقد أدى تخرج موقف مصر الحربى والسياسى على الصعيد الدولى إلى إذعان محمد على بعد لآى لما قررته معاهدة لندن ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م ، فأصدر أوامره بإخلاء شبه الجزيرة العربية من جنوده وترحيلهم إلى مصر (١) .

وقد شرع محمد على فى تنفيذ خطة إجلاء شبه الجزيرة العربية بإرسال الشريف محمد بن عبدالمعين بن عون من مصر إلى مكة (٢) عام ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م ليتولى أمر شرافتها من جهة وليسهل عمليات ترحيل الجيش المصرى من جهة أخرى .

وقد غادر الشريف محمد مصر إلى ينبع ومنها إتجه صوب قبيلة - حرب فشد عليها وأعمل فيها السيف بسبب أعمال النهب والقتال التى أتت بها ، ثم انطلق إلى المدينة المنورة حيث أقام بها شهرا .

ثم شرع أثناء إقامته فى أماكن قبائل حرب حول المدينة المنورة فى ترحيل الجيش المصرى ، وترتيب الأعمال الادارية على أساس الخضوع للحكم العثمانى الخالص من جديد .

ثم انتقل بعد ذلك إلى مكة بعد أن سبقه إليها ابنه عبدالله وقام بشئون إمارتها نيابة عنه ، فلما دخلها أتم عمليات ترحيل الجيش المصرى منها (٣) .

أما قوات الجيش المصرى المرابطة فى بقاع اليمن ، فقد تم تعيين القنفذة لتجميع جنود هذا الجيش فيها مع مهماتهم وأسلحتهم وذلك قهيدا لنقلهم من النقفذة إلى جدة ليتم ترحيلهم بعد ذلك إلى مصر . وقد تراءى فى ذى الحجة سنة ١٢٥٥ هـ / فبراير ١٨٤٠ م أن ينقل المدافع الثقيلة والذخائر

(١) عبدالرحمن الراجعى - عصر محمد على - ص ٣٦١ .

(٢) أن السبب فى بقاء الشريف محمد بن عبدالمعين فى مصر هو أن محمد على كان قد كلفه فى سنة (١٢٥٠ هـ / ١٨٣٥ م) بإعادة منطقة عسير إلى السيادة العثمانية وبما هو قائم بواجباته العسكرية قصر محافظ مكة أحمد باشا فى إمداده بالمؤن والذخيرة فأدى هذا إلى هزيمة قوات الشريف فى عسير ، فطلبها محمد على لأن كلا منهما أدعى تقصير الآخر ، بيد أن محمد على رأى إبقاء الشريف بمصر فظل فيها إلى أن أرسله فى سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م للإشراف على عمليات انسحاب الجيش المصرى من شبه الجزيرة العربية - أنظر : ابن زينى دحلان - خلاصة الكلام ص ٣٩٠ .

(٣) أحمد السباعى - تاريخ مكة - ص ٢ ص ٥٢٢ ، ٥٢٨ .

وأنظر : ابن زينى دحلان - خلاصة الكلام ص ٣٩١ .

والمهمات إلى القنغزة أولاً إلا ما يلزم الجيش في تنقلاته ليتحرك الجنود بعد ذلك بحمل خفيف فتسهل الحركة والانتقال إلى مصر (١) .

والذى يبدو لى أن محمد على قد تحقق منذ البداية من خطر العداء الأوربي له فبدأ في سحب وتجهيز آلياته الموجودة في البقاع الشائرة التي كان منها اليمن لتكون على أهبة الاستعداد لانتقالها إلى مصر وقت الخطر ذلك لأن تاريخ الأوامر التي بعث بها محمد على باشا إلى قادته بالانسحاب كان سابقا على معاهدة لندن المنعقدة في ١٢٥٦ هـ (١٥ يوليو ١٨٤٠ م التي ألزمته بسحب قواته من شبه الجزيرة وسائر الأراضي العثمانية عدا عكا ، كما أن محمد على قد طلب كذلك عددا من رؤساء الفرسان في وقت مبكر - قبل عقد المعاهدة المذكورة ليعودوا إلى مصر وذلك في بداية سنة ١٢٥٦ هـ مارس ١٨٤٠ م (٢) . وقد لا يبدو هذا وما قبله غريبا أما الذى تبدو فيه الغرابة ويدعو إلى الدهشة لأول وهلة فهو حديث بعض الوثائق المبكر عن عملية ترحيل الجيش المصرى من شبه الجزيرة كلها أى قبل فرض معاهدة لندن السالف ذكرها .

جاء في الرسالة الموجهة من أحمد شكرى سر عسكر الحجاز إلى محمد على في الحادى عشر من المحرم سنة ١٢٥٦ هـ / ١٥ من مارس سنة ١٢٥٦ هـ (٣) .

" وبما أنه سيصير جلب العسكر الموجودين في لجد والحجاز واليمن عند اللزوم إلى مصر فبقطع النظر عن كون الأوامر السننية جاءتنا محتوية على العلم والإخبار بأن يكونوا على أتم التأهب " .

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة ٣٥ حمراء بلاغرة أصلية - المحفوظة ٢٦٩ عابدين من أحمد شكرى سر عسكر

الحجاز إلى الجناب العالى بتاريخ ٧ محرم سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة التركية رقم ٢٧ حمراء - المحفوظ ٢٦٩ عابدين من أحمد شكرى سر عسكر الحجاز

إلى الجناب العالى بتاريخ (٥ من محرم ١٢٥٦ هـ) .

(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٣ أصلية ٥٠ حمراء - المحفوظة ٢٦٩ عابدين - من أحمد شكرى إلى

صاحب الدولة من مكة بتاريخ ١١ محرم سنة ١٢٥٦ هـ .

كـ جاء فى الرسالة الموجهة من ابراهيم توفيق الى محمد عي فى ٢٤ من المحرم سنة ١٢٥٦هـ / ٢٩ مارس ١٨٤٠ م (١) : "أنه لكون الارادة الخديوية تطلب إرسال جميع العساكر الموجودة فى أقطار اليمن إلى المحروسة والقيام بهذه الخدمة هو ألزم من كل شئ فأننا مشغولون بتجميع العساكر فى الجبال .."

وإزاء تلك الوثائق التى تؤكد أن محمد على قد بدأ فى طلب الاياته وجنوده من شبه الجزيرة العربية قبل ظهور معاهدة لندن بأكثر من أربعة أشهر ، فإنه من المرجح أنه كان يهدف الى سحب بعض القوات من شبه الجزيرة لتكثيف القوات المصرية فى مصر والشام لمواجهة العدوان الأوربى المرتقب بزعامة المجلترا ، ومن ورائه العدوان العثمانى .

ولقد كان جلاء القوات المصرية عن شبه الجزيرة ضرورة عسكرية وسياسية يجب اللجوء اليها حتى تستقر الأحوال خاصة وأن ثورات العسبريين واليسنيين والنجديين لم تنقطع قط ، بالإضافة إلى هلاك الكثير من جنود الجيش المصرى فى الأماكن المقفرة والأحوال الصعبة بشبه الجزيرة .

وبأن ذلك ظلت الأمور مضطربة فى شبه الجزيرة كنتيجة لاضطراب الأمور السياسية على لساحة الدولية بين محمد على وكل من الدوله العثمانية ، والدول الأوربية بزعامه المجلترا ، ومعنى أدق فإن سوء العلاقات بين محمد على وهذه الدول قد نتج عنه التفكير المصرى فى مجموعة من البدائل سواء فى شبه الجزيرة أم فى سوريا أم فى غيرها من الجهات المتنازع عليها .

ولذلك نجد أن القادة العسكريين المصريين فى شبه الجزيرة العربية كانوا فى حيرة من أمرهم ، هل يستمرون فى ترسيخ وجود قواتهم وتأكيد سيطرتهم ؟ أم يعدون العدة للرحيل إلى مصر ؟ خاصة وأن بعض الاستعدادات للرحيل فى وقت مبكر قد قمت ، بيد أن شائعات قوية راجت حول عودة الجنود المصريين الذين تم تحركهم من الحجاز فى وقت مبكر إلى مصر نجد هذا واضحا فى الرسالة التى بعث بها أحمد شكرى باشا قائد الجيش المصرى فى الحجاز إلى محمد على باشا فى جماد الأولى سنة ١٢٥٦هـ / يوليو ١٨٤٠ م والتى جاء فيها (١) " أنه تلقى الارادة العلوية المبشرة بخلع خسروا

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة ٧ أصلية ١٧٧ حمراء - المظفة ٢٦٩ عابدين من ابراهيم توفيق الى صاحب

الدوله (٢٤ من محرم سنة ١٢٢٢٢٥٦هـ) ..

باشا الصدر الأعظم - عدو مصر (١) ، وتولية رؤوف باشا ، وأنه قد سر لذلك بعد الاشاعات التى راجت عن عودة الجنود إلى مصر ، وأنه أطلق واحدا وعشرين طلقة ابتهاجا بتصالح الدولة العلية والحكومة المصرية ، ولن يعود الى مصر " .

ويبدو بوضوح من هذه الرسالة أن شكري باشا اعتمد على الشائعات وبنى عليها رسالته ، أما الحقيقة فهي أن مصر والدولة العثمانية لم يتصالحا حينئذ ، ولكن خيل لهذا القائد بأن عزل خسرو باشا . عدو مصر - من الصدارة معناه التصالح ومعناه البقاء فى الحجاز الخ .

وهناك رسالة بعث بها أحمد شكري الى محمد على باشا توضح الصورة أكثر .. إلا أنها نحتاج الى تفسير .. جاء فيها : (٢) " بأن الارادة المؤرخة فى ١٣ من ذى الحجة سنة ١٢٥٥ هـ فبراير ١٨٤٠ م تضمنت أنه سيصير جلب العساكر الموجودين فى نجد واليمن الى مصر ، وكذلك عسكر الحجاز إذا أوجب (الحال أخيرا) .. وتضيف الوثيقة نفسها : " أنه فى هذه المرة جاءتنا الارادة المؤرخة فى ٣ من صفر سنة ١٢٥٦ هـ / أبريل ١٨٤٠ وفيها أن حضرة ابراهيم باشا سيبقى هنا هو ومن بيعته من العساكر " .

فالارادة الأولى أفادت ترحيل الجنود المصريين ، والثانية أفادت بقاء ابراهيم باشا وجنده ... ولعل بقاء هؤلاء يتعلق بالحجاز لأن ولاية ابراهيم باشا عليها ولاية شرعية.

وعلى الصعيد العملى أخذت الآلايات المصرية تتجمع من بلدان اليمن فى القنفذة قهيدا لرحيلها .

ونظرا لعدم موافقة طقس تلك المدينة لصحة الجنود ومريضهم بها فقد جاءت الأوامر بنقلهم إلى جدة بعد أن فتكت الأمراض بالكثيرين منهم (٣) ولم تكن الأمراض هى المشكلة وحدها ، فقد كان هجوم عربان حرب من الجديدة على بعض فوق الجيش المصرى والحجاج يعد من أكبر المشاكل التى

(١) كان خسرو باشا شواليا على مصر سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م واشتهر بعدائه لمحمد على - أنظر :

عبدالرحمن الرافعى - عصر محمد على - ص. ٣٢٥ .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة ١٢ أصلية / ٢١ حمراء المحفوظة ٢٦٩ عابدين من أحمد شكري إلى صاحب الدولة

(٥ من ربيع الأول سنة ١٢٥٦ هـ) .

(٣) الوثيقة السابقه رقم ١٢ أصلية / ٢١ حمراء .

واجهت الجنود المصريين في المعركة ، ولذا فقد أمر محمد علي بالنسحاب خورشيد باشا على رأس قواته من نجد ليلتحص بجنود الشريف محمد بن عبدالمعين ويهاجمها سوريا الجديدة ويحصلان على تسكينها (١) .

هذا على الرغم من أن الشريف أبن عون قد رفض اعطاء قبائل حرب الأمان وأخذ يشتت شملهم وأحرق ديارهم . واقتلع نخيلهم حتى أجبرهم إلى اللجوء إليه بعد أن ذاقوا الذل والهوان (٢) .

ويبدو أن الشريف لم يحقق ارادة محمد علي تحقيقا كاملا فأرسل إليه محمد علي رسالة في الثاني من جمادى الثانية سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م يوبخه فيها على التفصير ولكنه ما لبث أن عاد محمد علي إلى كسب وده وارضاء خاطره برسالة بعث بها إليه في ٢ من جمادى الأولى سنة ١٢٥٦ هـ تضمنت احالة أمر تدبير وإدارة كافة البلدان الحجازية إلى عهده واستدعاء أحمد باشا وخورشيد باشا إلى مصر ، كما عهد إلى الشريف أيضا بواجبات إخضاع القبائل الشائرة مع استبقاء كل العساكر المرتزقة (الباشبوزق) وترحيل كل عساكر الجهادية بإعادتهم إلى مصر ، كما طلب محمد علي من الشريف تعيين قائد كفء على العساكر المرتزقة ليتولى بهم أمر الحفاظ على جهات المدينة وإدارة شئونها تحت رعايته ، وأضاف محمد علي في تعليماته بأن يقوم الشريف بالتنبيه على المختصين بوضع مقاييس عن الذخيرة اللازمة لمدة سنة لهؤلاء المرتزقة الذين سيظلون تحت إدارته وما يلزم من مبالغ لهم لإرسالها من مصر (٣) .

ولم يمض إلا ثلاثة شهور وبضعة أيام حتى تحرك أحمد باشا بالآلاى التاسع عشر إلى مكة لينتقل منها مسرعا إلى جدة التي كانت تستقبل أفواج الجنود المصريين القادمين من اليمن والذين كانوا يصلون تباعا من القنفذة ، وكان من المقرر أن يصطحب أحمد باشا في رحلته إلى مصر

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٨٧ محفوظة سايبر من الجناوب العالى إلى حضرة الشريف محمد بن عبدالمعين (١٣ من ربيع الأول سنة ١٢٥٦ هـ) .

(٢) أنظر : دحلان - خلاصة الكلام ص ٣١١ .

(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٩٢ المحفوظة سايبر الجناوب العالى إلى حضرة صاحب الدول والسيادة

والسعادة ولدنا الاكرم (٢ جمادى الثانية سنة ١٢٥٦ هـ) .

الآلاى الثالث عشر من جدة (١)

وقد أرسل الشريف برسالة إلى محمد على يبلغه فيها بإقلاع السفن التى تحصل الآلاى التاسع عشر والثالث عشر بصحبة أحمد باشا من جدة فى طريقهم الى القصير ، كما كتب الشريف إلى محافظ ينبع بسرعة إرسال كل السفن إلى ميناء جدة لنقل الجنود وأنه (أي الشريف) صمم على الشخصوس بنفسه إلى جدة للتأكيد على الموظفين بسرعة إتمام عطية سفر الجنود على الرغم من قيام محافظ جدة بواجباته خير قيام (٢) .

وقد أصبح الجنود المصريون يتدفقون فى أمان ويسر إلى مصر ، لكن مشكلة نقل الذخائر الكثيرة والمهمات والجبايات (٣) . المصرية من الحجاز إلى مصر باتت تحتاج إلى حل لكثرتها ، بما أضر محمد على إلى تركها كلها فى الحجاز بعد تقوعها وحصرها لتخضم أثمانها من قيمة الخراج المقرر على للدولة العثمانية ، ويبدو أن (المهمات والمؤن) كانت كثيرة جدا لدرجة أن صنف العدس وحده بلغ ثلاثة وعشرين ألف أردب بمكة ، ويقاس على ذلك بقية الأصناف (٤) . وقد تشكلت لجنة مصرية حجازية عثمانية لتصفية الأموال المصرية فى الحجاز ، فأحصت جميع المهمات والذخائر الموجودة به للمصريين وراجعت الأوراق ، وقومت ذلك بأثمانه وأبقتة فى الحجاز بعد تعهد العثمانيين بقبوله مما يستحق على مصر من الخراج المقرر عليها (٥) .

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة ٢٣٥ - المحفظه ٢٦٩ عابدين - من أحمد شكري بمكة الى صاحب الدولة - (١١ من رمضان سنة ١٢٥٦ هـ) .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة ٧٠ أصله ٤٥ حمراء - المحفظه ٢٦٩ عابدين - من الشريف محمد بن عون الى باشمعاون الخديوى (١١ من رمضان ١٢٥٦ هـ) .

(٣) الجبخانه تطلق فى اللغة التركية على المكان الذى يودع فيه الأسلحة والذخائر والجبرتى كان يستخدم الجبخانه بمعنى الذخيرة نفسها وليس بمعنى المستودع .

* أنظر : د/ أحمد السعيد - تأصيل ما ورد فى الجبرتى ص ٦٥ .

(٤) ابن زيني دحلان - خلاصة الكلام - ص ٣١٢ .

(٥) أحمد السباعى - تاريخ مكة - ص ٥٢٨ .

وأعتقد أن هذا الحل كان مرضيا لكل الأطراف ، أما الأمر الذي شغل فكر الجميع فهو استكمال ترحيل جميع جنود الجيش المصرى بعد إتمام تجمع جنود كل فرقة من شتات شبه الجزيرة وارسالهم الى مصر فى أمان ، ولم تكن السفن المصرية والحجازية المتاحة تكفى لهم ولمهماتهم ومؤنهم فاضطر محمد على إلى استئجار سفن أخرى اسلامية ، وبما لا شك فيه هو أن محمد على تكلف كثيرا من الأموال لنقل جنود الجيش المصرى وضباطه بحرا وبرا الى مصر . أما الرواتب التى عينها محمد على فى الحجاز فقد أصبح لها شأن آخر ، اذ أن محمد على كان قد رتب معاشات ومرتبات لكثيرين من الأشراف وغيرهم ، كما أنه أبطل دفاتر جارية القمح القديمة المرتبة لأهالي مكة على النظام العثمانى عندما وجدها تصب فى أيدي التجار والموثرين مع حرمان الفقراء منها على الرغم من تخصيصها فى الأصل لهم ، ثم رتب القمح للفقراء (١) فى دفاتر حديثة على النظام المصرى . وهذه تعد واحدة من محاسن محمد على فى الحجاز .

ولقد استقر الأمر بعد خروج جيوش محمد على من الحجاز على أن تبقى تلك الرواتب والجرايات فى الحجاز كما هى ولا أنها تحول على حساب الخزينة العثمانية .

تدخل محمد على لعزل والى جدة :

بعد رحيل جند محمد على من الحجاز بقيادة أحمد باشا وأمين باشا إلى مصر وخلو منصب والى ولاية جدة ، وجهت الدولة العثمانية إليها عثمان باشا تاتار (٣) شيخ الحرم النبوى الشريف ليجمع بين ولاية جدة ومشيخة الحرم المكى وذلك فى سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م (٤) .

(١) ابن زينى دحلان - خلاصة الكلام - ص ٣١٢ .

(٢) أحمد السباعى - تاريخ مكة - ص ٢٩ .

(٣) أنظر : ابن زينى دحلان - خلاصة الكلام - ص ٣١١ .

(٤) يذكر عبدالقدوس الانصارى : أن تولية عثمان باشا تاتار كان فى سنة ١٢٥٧ هـ / ١٨٤١م أنظر موسوعة

تاريخ جدة المجلد (١) دار مصر للطباعة ط ٣ القاهرة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م ص ٣٢٢ والمرجع مو ما

ذكرناه لأن ابن زينى دحلان معاصر للأحداث أما الأنصارى هو حديث وجاء بعده .

وقد ظل عثمان باشا على وفاق وود مع شريف مكة محمد بن عبدالمعين بن عون حتى سنة ١٢٦٠/١٨٤٤ م ثم حدث بينهما شقاق واختلاف بسبب سعى بعض الناس بالوشاية عند عثمان ضد بعض أمراء الأشراف كان منهم الشريف سلطان بن شرف والشريف عبدالله بن يزيد ، وفحوى هذه الوشاية أن هؤلاء الأمراء يزيدون في مقدار الزكاة التي يحصلونها من رعاياهم ولا تحصل الخزانة منهم إلا على النذر اليسير ، فثار عثمان في الأمراء مهيدا إياهم ، وكان ذلك سببا في اشعال العداوة بين عثمان وشريف مكة ابن عون ، وعلى أثر ذلك التجأ عثمان باشا إلى جده ، وتوجه الشريف إلى الطائف وظل كل منهما ينتظر الرد على شكواه التي أرسلها إلى استانبول ضد صاحبه ، وقد أخذ قرناء السوء في ترسيخ الوقيع بين الطرفين مما أدى إلى استعانة كل منهما بوسائله ضد الآخر أما عثمان باشا فإنه أرسل إلى الدولة في طلب الشريف عل بن غالب الذي كان يقيم في دار السلطنة ، وقد أذنت له الدولة بالتوجه إلى الحجاز ، فلما وصل إلى مصر في طريقه إلى الحجاز سنة ١٢٦١ هـ / ١٨٤٥ م أكرمه محمد على باشا غاية الأكرام ، وبقى بمصر ثلاثة أيام ثم توفي بعدها مباشرة ، قيل أنه مرض ، وقيل أنه مات مسموما. (١) .

يقول ابن زيني دحلان : (٢) " وأرسل عثمان باشا إلى الدولة يطلب منهم إرسال الشريف على بن غالب إلى مكة ، وأظهر أن القصد بذلك حضوره عند أهله لحفظ أموالهم " .

وابن دحلان بهذه العبارات يبين لنا الحقيقة وهي أن عثمان كان يظهر خلاف ما يبطن وعلى ما يبدو فإن عثمان باشا كان قد أرسل إلى حكومته شكواه ضد شريف مكة محمد بن عون طالبا تغييره وتعيين آخر بدلا منه ، وربما رشع خلفا له الشريف على بن غالب فوافقت الدولة العثمانية على شخوصه إلى مصر ومنها إلى الحجاز ، خاصة وأن الشريف ابن عون يعد من رجالات محمد على باشا ، وقد ساعد محمد على ابن عون في تولي إمارة مكة ، فكان طبعيا أن يتوجس العثمانيون خيفة من اتحاد الشريف ابن عون مع محمد على وتصديهما للسياسة العثمانية في الحجاز ، لذا فقد بادر العثمانيون بإرسال الشريف على ابن غالب إلى الحجاز تلبية لمطلب عثمان باشا وإلى جده

(١) ابن زيني دحلان - خلاصة الكلام - ص ص ٣١٣ - ٣١٤ .

(٢) ابن زيني دحلان - خلاصة الكلام - ص ٣١٣ .

وساعد على ترجيح هذا ما ذكر من أن الأخبار عندما حملت نبأ توحه الشريف ابن غالب من دار السلطنة إلى مكة كشرت الأراجيف بها وشاع بين الناس أنه إذا وصل ابن غالب إلى مكة يتم مراد عثمان باشا ويقبض على الشريف بن عون .

ولما حل الشريف ابن غالب بمصر أكرمه محمد علي باشا ، لكنه مات بعد ثلاث ليال كما سبق أن ذكرنا . والله أعلم بموته إن كان طبيعياً أم مات مسموماً ، فإن كان قد مات مسموماً فإن هوادة هذا يرجع بلا شك ما ذكرنا وما يؤيد هذا الترجيح أن الشريف ابن عون بعث إلى محمد علي في سن ١٢٦١ هـ / ١٨٤٥ م برسالة أعلمه فيها بما حدث من عداء بينه وبين عثمان ليعمل على نصرته . وبادر محمد علي باشا بتقديم رغبته إلى الدولة لعزل عثمان باشا من الولاية على جدة وأن تكتفى الدولة ببقائه في مشيخة الحرم المدني فقط (١) .

وقد استجابت الدولة إلى مطلب محمد علي وحقيقت رغبته . فلما جاء أمر العزل إلى عثمان داخله الحزن فمات من ليلته ، وقيل أنه سم نفسه (٢) .

وقد أسندت الدولة العثمانية ولاية جدة إلى شريف باشا وجعلته والياً على الحجاز ، وكان شريف باشا قبل ذلك من موظفي مشيخة الحرك المدني لسنوات طويلة بلغت أربعة عشر سنة . (٣)

وجدير بالذكر أن حسيب محمد باشا صاحب الإصلاحات المعروفة قد تولى بعد شريف باشا على الحجاز في سنة ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٨ م والذي أراه أن الدولة العثمانية قد أضطرت إلى إجابة وساطة محمد علي بعد أن فقدت رجلها على بن غالب . وهي في هذا الموقف تتطلق من مبدأ " مجبر أخاك لا يظل " وتحاول في الوقت نفسه أن تتفادى إغضاب محمد علي لتلتقط أنفاسها قهيدا لتغيير الموقف كله بما يتفق وسياستها في الحجاز .

ولذلك : نجد أنه لما توفي محمد علي ، انتهزت الدولة أول فرصة فعزلت الشريف محمد بن عون سنة ١٢٦٧ هـ / ١٨٥١ م من شرافة مكة ، وجلبته هو وأولاده إلى استانبول ثم عينت

(١) ابن زيني دحلان - خلاص الكلام - ص ٣١٣ ، ٣١٤ .

(٢) ابن زيني دحلان - خلاصة الكلام - ص ٣١٤ وانظر : عبدالقدوس الانصارى موسوعة تاريخ جده م ١ . ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٣) د / محمد عبدالله آل زلفة - إصلاحات حسيب باشا في ولاية الحجاز كما جاء في الوثائق العثمانية - منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسيكية والتوثيق والمعلومات - زغوان - ١٩٨٨ م - ص ٦٧ .

الشریف عبدالمطلب بن غالب بدلا منه (١) .

وهذا بالاضافة الى ما سبق الإشارة إليه وهو أن الاشراف افترقوا إلى فريقين أولاهما : آل
عون الذين ناصروا محمد عل باشا ... وثانيهما : آل غالب الذين ناصروا الدولة العثمانية .

الدور المصري فى الصراع بين الحجاز وعسير فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

يستطيع الباحث أن يؤرخ للتدخل المصري فى عسير ببداية حملة محمد على على شبه الجزيرة
إذ آتخذ محمد على عسير معبرا انطلقت منه قواته الى نجد ، حيث كانت عسير تتبع الدرعية فى
ذلك الوقت ، وكان والى عسير حينئذ : طامى بن شعيب . وقد تمكنت الحملة المصرية بعد تعزيزها
بجيش على رأسه محمد عل نفسه من تطويق عسير من الشمال والغرب ، ثم هزمت العسيريين وأسرت
قائدهم : طامى بن شعيب وبعثت به الى مصر مكبلا ، ومن مصر أرسل الى اسلاهمول حيث
لقى هناك نهايته المحتومة (٢) .

إلا أن هذا الصراع فى تلك الحقبة بين الحجاز ومصر من جهة ، وعسير من جهة أخرى يمكن
التأريخ له من بداية تولي عائض بن مرعى أمير عسير فى سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٨ م إلى سنة
١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م عندما استسلم محمد بن عائض للقوات العثمانية ، وتم إعدامه .

ففى سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٨ م توفى على بن مجثل أمير عسير ، فتولى عائض بن

(١) اسماعيل حتى أوزون جارشلى - أمراء مكة المكرمة فى العهد العثمانى - ترجمة د/ خليل على مراد -

مركز دراسات الخليج - بجامعة البصرة سنة ١٩٨٥ م ص ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٢) د/ عبدالكريم غرابيه - قيام الدولة السعودية العربية ص ٨٥ .

وانظر : محمود شاكر - شبه الجزيرة العربية - نجد ص ١٩٧ .

مرعى^(١) الامارة حسب وصية ابن مجثل واتفق زعماء القبائل العسيرة الذين تمسكوا به لدهاته وكفائه وورعه .

فلما تولى عائض بن مرعى إمارة عسير، رفض بعض الأشراف المتأمرين على البلدان المتنازع عليها بين الحجاز وعسير إمارته ونهضوا للانتقام من العسيرين فى صيبا وأبو عريش^(٢) . بيد أن عائض بن مرعى زعيم عسير بادر بالزحف عليهم ووقع بين الطرفين معارك جانبية أحس عائض فيها بسطوة الأشراف فأضطر الى مهادنتهم عندما علم بخبر وصول قوات حجازية بقيادة الشريف محمد بن عون الى بلاده^(٣) .

وقد تزعم عائض الثورة على الدولة العثمانية ومصر معا .. فهاجم عدة بلدان تابعة لها ، بعضها تسكنها قبائل بنى شهر وبيشة^(٤) ، وبعضها الآخر عرف ببلاد غامد وزهران .

وهذا ما دفع محمد على الى أن يصدر أوامره الى جيشه بإخماد ثورة العسيرين على أن يقود

(١) بعد عائض بن مرعى المؤسس الحقيقى لأسرة ال عائض فى عسير ، وقد كان عائض من أهل ريدة ، من قبيلة عسر ، وكان فى مبدأ أمره من أصحاب الأهل المعروفين فى منطقة عسير ، ثم ورت الامارة عن عمه على بن مجثل فى سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٨ م .

* أنظر : خير الدين الزركلى - الوجيز فى سيرة الملك عبدالعزيز - دار العلم للملايين - بيروت ط ٤ - ١٩٨٤م ص ٦٧ .

(٢) كانت أبو عريش تابعة إداريا للحجاز فى ذلك الوقت ، أما صيبا فكانت تتبع عسير .

* أنظر : هاشم بن سعيد النعمى - تاريخ عسير فى الماضى والحاضر - ج ١ ص ١٨٨ .

(٣) عبدالله بن على بن مسفر - السراج المنير - فى سيرة أمراء عسير .. مؤسسة الرسالة ط ١ - ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨م ص ٨٣ .

(٤) تقع قبيلة بنى شهر فى منطقة قائمقامية النماصى الواقعة شمال أبها وشرقى القنفذة ، ويبلغ عدد أفراد قبيلتى بنى شهر خمسون ألف نسمة ، وهى فرع من قحطان .. أما بيشة فانها عبارة عن واد يقع بين متصرفيه عسير ومدينة الطائف ، ويتبع بيشة أربع قبائل هى : المحلف ، وأكلب ، ومعاوية ، وبنى سلول .

* أنظر : شرف البركاتى - الرحلة اليمانية ص ص ١٠٠ ، ١٠١ .

هذا الجيش الشريف : محمد بن عون (١) وبقي أحمد باشا محافظ مكة في مكة ليتولى أمرها وأمر إمداد الجيش المتجه الى عسير (٢)

ولقد دارت رحى معارك عنيفة بين الفريقين انتهت في مرحلتها الأولى بهزيمة العسيريين حيث تمكنوا من شن هجوم شديد على قوات الحملة في أهبها انتهى بضرب حصارهم عليها ، بيد أن هذا الحصار لم يطل أمده ، إذ تم الصلح بينهما ، فقد كان الحصار شديدا على قوات الحملة من جهة ومن جهة أخرى خشي العسيريون من وصول لجندات مصرية وحجازية لفك الحصار فيقع الجيش العسيري بين شتى الرحي . وعاد على أثره الشريف محمد بن عون إلى مكة ملقيا اللوم في فشله على أحمد باشا محافظ مكة الذي لم يمه باحتياجات جنده من الذخائر والمؤن ، وفي الوقت نفسه رمى محافظ مكة شريفها بالتقصير وحمله تبعات فشله مما حدا بمحمد على أن يطلب حضورهما اليه في مصر ليتخاصما أمامه (٣) . وكان من أمرهما ما سبق توضيحه وهو بقاء ابن عون في مصر حتى سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م وعودة أحمد باشا الى الحجاز للاستعداد لقتال العسيريين .

وقد تمكن أحمد باشا من استخلاص بلاد غامد وزهران في سنة ١٢٥٣ هـ / ١٨٣٧ م إلا أنه تعذر عليه التقدم نحو بني شهر وبلاد عسير نظرا لهجوم العسيريين المكثف على حملته وقكنهم في سنة ١٢٥٤ هـ / ١٨٣٨ م من استرداد بلاد غامد وزهران . ومع ذلك فقد ظل أحمد باشا يقود حملته على عسير طوال سنتين آخرين دون أن يحقق نتائج حاسمة (٤).

(١) يذكر هاشم النعمي في كتابه - تاريخ عسير في الماضي والحاضر ص ٨٧ ك أنه كان مع الشريف ابن عون كل من أحمد باشا محافظ الحجاز ، ودوسري بن عبدالوهاب بن عامر (أبو نقطة) المتحمي وقد ثبت أن أبا نقطة كان ملازما للحملة على عسير أما محافظ مكة أحمد باشا فقد ظل باتفاق بائي المصادر مقيما في مكة لامداد جنود الحملة باحتياجاتها .

(٢) أحمد السباعي - تاريخ مكة - ج ٢ - ص ٥٢١ .

(٣) ابن زيني دحلان - خلاصة الكلام ص ٣١٠ وانظر : هاشم النعمي - تاريخ عسير ج ١ ص ١٨٧ ومابعدها .

(٤) أحمد السبعي - تاريخ مكة - ج ٢ ص ٥٢١ .

ولقد كانت هناك صعوبات جمة تعوق تقدم الحملات المصرية التي تستخدم الأسلحة الثقيلة كالدفاع الكبار وغيرها ، حيث تعوقها وعورة الطرق المشهورة بكثرة ارتفاعاتها وانخفاضاتها ، وقد كان هذا يؤدي إلى تعثر حركة الجيش ، في حين ينظر الجيش المعادي متمتعا بحرية الحركة والمناورة، حيث يعتمد على طريقة حرب العصابات في الكر والفر السريع وانتهاز الفرص ، حتى أن مسألة إنزال المدافع الثقيلة من مكان يدعى الريدة على جبل مرتفع كان يستدعى اتصالات القادة من بلاد عسير الى مصر ، وتشاور المختصين هناك حول هذه المسألة ، ثم إرسالهم مهندسا خبيراً ليقود عملية الإنزال ^(١) ، وبلا شك كان هذا مما صرف الجيش المصري عن بعض عمليات المباشرة والكر والفر وغير ذلك مما يلزم لنجاح مثل هذه الحملات الحربية .

كما كانت هناك معضلة أخرى حول استمالة أفراد القبائل في عسير حيث كان الأمير عائض بن مرعى - زعيم الثورة في عسير - يفرد لهم مرتبات شهرية تراوحت بين خمسة وثلاثين قرشا وخمسة وستين قرشا لكل فرد حسب مركزه في قبيلته ^(٢) . فكان من الصعب على مصر استمالة هؤلاء وكفاية مرتباتهم خاصة وأن زعماء هذه القبائل طلبوا أن تدفع الحكومة المصرية لكل فرد خمسة ريالات للفرد شهريا ، وتدفع لكل شيخ يرأس مائة فرد خمسة وعشرين ريالاً ^(٣) في الوقت الذي كان فيه مرتب الجندي في الجيش المصري لا يزيد على خمسة عشر قرشا شهريا ^(٤) ، ومعنى ذلك أن الأمير

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة ٥ أصلية ١٩٢ حمراء ومرفق - المحفظ ٢٢٦ عابدين - تركي العلايا من

أحمد باشا سر عسكر الحجاز الى حسين باشا باشمعاون الخديوى (١٤ من ربيع الأول سنة ١٢٥٥ هـ) .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة ١٢ أصلية ١٥٥ حمراء - المحفظ ٢٦٦ عابدين تركي - من أحمد باشا إلى

الباشمعاون من الطائف (٢٥ من جمادى الأولى سنة ١٢٥٥ هـ) .

(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة ١٤ أصلية - الحفظ ٢٦٦ عابدين - من أحمد شكرى إلى الباشمعاون

الخديوى (١١ من شوال سنة ١٢٥٥ هـ) .

(٤) كانت الرواتب في مصر - شأنها شأن جميع ولايات الدولة العثمانية - تعتبر منخفضة جدا عن نظيراتها في

الأمم الأخرى ، وهذا راجع بالتأكيد الى ما كانت عليه الخزانة العثمانية من فقر ، كان يتسبب كثيرا في

التوقف عن دفع رواتب العمال وتأخيرها كثيرا ، مما كان سببا في تمرد الموظفين والجنود العثمانيين على

الأهالى .

عائض كان يعطى جنود القبائل ضعف عطاء محمد على أو أكثر (١) .

أضف إلى تلك المصاعب : تعدد القادة واختلاف مشاربهم ، فمنهم الحجازيون ومنهم أشراف مكة ، ومنهم أشراف اليمن ، ومنهم مصريون وغير ذلك ، بينما كان العسيريون بقيادة واحدة وعسكرا أهليا واحدا (٢) .

التدخل المصرى فى عسيبر فى عهد عباس باشا الأول :

لم يلمح الباحث بين ثنايا المصادر أى نشاط سياسى لمصر فى شبه الجزيرة يستحق الذكر بعد خروج محمد على منها سوى التدخل المصرى فى خلع والى جدة عثمان باشا تاتار - كما سترى بعد - .
غير أن هروب فيصل بن تركى من سجنه بمصر سنة ١٢٥٩ هـ / ١٨٤٣ م كان منعظا تاريخيا خطرا فى مسار الأحداث السياسية فى شبه الجزيرة العربية (٣) .

أنظر : الأمير مصطفى فاضل باشا : من أمير الى سلطان ، ترجمة أحمد فتحى زغلول باشا - نشر توفيق الرافعى - القاهرة ١٩٢٢ ص ص ١٤ ، ١٥ / وهو عبارة عن رسالة بعث بها الأمير مصطفى ابن ابراهيم باشا الى السلطان عبدالعزيز سنة ١٨٦٦ م .

(١) د/ محمد محمود السروجى - الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر - دار المعارف بمصر ١٩٦٧ م - ص ٢٢ .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة ٣ أصلي ٥٠ حمراء المحفوظة ٢٦٩ عابدين من أحمد شكرى الى صاحب الدولة

(١١ من المحرم سنة ١٢٥٦ هـ) .

(٣) تولى فيصل بن تركى بن عبدالله بن محمد بن سعود أمر الدولة السعودية الثانية بعد اغتيال أبيه سنة ١٢٥٠

هـ/ ١٨٣٤ م ، ولم يستمر حكم فيصل سوى أربع سنوات ونصف حيث تمكنت قوات محمد على من استعادة حكم نجد واعتقال فيصل ، وارساله أسيرا إلى مصر مع بعض أهله ، إلا أنه تمكن من الهرب من سجنه بعد أن بقى به خمس سنوات ، وعاد ليتولى زعامة بلاده .

أنظر : نهاد الفادرى - التحدى الكبير .. بيروت - ١٩٦٥ م ص ٣٠ - وقد اختلف المؤرخون فى أمر هروب فيصل من سجنه ، فادعى الريحاني : أن محمد على أطلقه ليعيده حاكما على نجد ، ولم يعمل

فقد استطاع الأمير فيصل بن تركي تكوين ملك آبائه السعوديين من جديد في نجد وما حولها ، وأخذت عسير تبعث بولاتها إلى نجد كيذا للاشراف في الحجاز ولمحمد علي وخليفته في مصر ، وللدولة العثمانية في استانبول (١) .

وقد انتهى عهد محمد علي بمرضه ، وتوقفه عن إدارة دفة الحكم في مصر ، لضعف أصابه في قواه العقلية ، فقتل ابنه ابراهيم باشا مقاليد البلاد في جمادى الأولى سنة ١٢٦٤هـ /

الريحاني سبب ذلك بينما يذكر دحلان : أن عباس الأول قد سهل له أمر الهرب ، وأعد له عدته لصداقة حمية جنت بينهما ، ويذكر المختار : تفاصيل الهروب عن طريق جبل تدلى به فيصل هو وولديه وابن عمه من شرفة السجن .

أنظر : الريحاني - نجد وملحقاته - ص ٩٥ ، ودحلان - خلاصة الكلام - ص ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، وصلاح الدين المختار - تاريخ المملكة - م ١ ص ٣١٨ .
والذي أرجحه : أن فيصل بن تركي تمكن من الهرب بمساعدة الحكومة المصرية سواء من محمد علي أو بإيعاز ، ودليل ما يأتي :

أولا : موافقة فيصل على دفع مبلغ عشرة آلاف ريال فرنسي لشريف الحجاز على الرغم من عدم الوفاء بها في الغالب .

ثانيا : ما ذكره الخديوي اسماعيل باشا في رسالته التي بعث بها في سنة ١٢٨٠ هـ / ١٨٦٣ م إلى فيصل (ومن القديم مؤكد ومشهور انتسابكم لمحبة الجهة المصرية) مما يدل على سابق الود المصري .

ثالثا : فشل خالد بن سعود الموالي لمصر في الاحتفاظ بزعامة نجد ، وتولى ابن ثنيان المعادي لمصر رعا دفع مصر للزج برجل لها فضل عليه فيحفظ ودها ، فكان أن سهلت هروبه لتولى عرش آبائه .

أنظر : دار الوثائق القومية - الوثيقة ٤١ صفحه ٨١ أوامر عربي دقتر ١٩٠٧ م أمر إلى الأمير فيصل أمير ولايات نجد (٢٥ من ذي الحجة سنة ١٢٨٠ هـ) .

وأنظر :

R.Boyly winder - Saudia Arabia in the Ninteenth century .

New York - 1965 - P. 179-180 .

أبريل سنة ١٨٤٨ م ، ولكنه لم يستمر طويلا حتى وافته المنية فى ١٠ من نوفمبر سنة ١٨٤٨ م / ١٢٦٤ هـ (١) -
فى حياة أبيه .

وقد كان عباس حلمى (ولى العهد) فى الحجاز ، فلما توفى إبراهيم باشا : أرسلت السفينة
الانجليزية التى كانت رابضة فى ميناء السويس إلى جدة ، حيث أقلته إلى مصر ليتولى مهام
منصبه (٢) ، فى آخر سنة ١٢٦٤ هـ / نوفمبر سنة ١٨٤٨ م .

وفى عهده توفى جده محمد على باشا فى ١٣ من رمضان سن ١٢٦٥ هـ / أغسطس
سنة ١٨٤٩ م (٣) .

وفى عهد عباس الأول : عاد التدخل المصرى فى شئون الحجاز وعسير - فى سنة
١٢٦٨ هـ / ١٨٥٢ أصدرت الدولة العثمانية فرمانا إلى عباس باشا بتجريد حملة كبيرة لقتال ثوار
عسير الذين ما فتئوا يهددون بلاد الحجاز وتوابعها (٤) .

(١) لم يستمر إبراهيم باشا فى حكم مصر طويلا ، فقد أصيب بالتهاب رئوي مفاجئ أودى بحياته ، ويذكر فى ذلك
أنه تناول زجاجتين من الشمبانيا كانتا فى درجة البرودة الشديدة أثناء وجوده فى جو شديد الحرارة مما كان سببا
فى أصابته بالالتهاب الرئوي .

أنظر : Earl of Cromer : Modern Egypt vol 1 London 1908 -P. 19 .

وهذه الرواية فيها ما يدحضها ويقلل من قيمتها وهو أنه فى منتصف القرن التاسع عشر لم تكن هناك آلات
تتمكن من تبريد السوائل بدرجة برودة شديدة تتسبب فى وفاة انسان .

(٢) أمين سامى - تقويم النيل وعصر عباس حلمى الأول ومحمد سعيد باشا م ١ ، ج ٣ - مطبعة دار الكتب -
القاهرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م ص ٣ .

(٣) عبدالرحمن الرافعى - مصر المجاهدة فى العصر الحديث - القاهرة ١٩٥٨ م ص ١٤٣ .

(٤) وجدير بالذكر أن : أحمد السباعى يذكر تاريخ حملة عباس باشا سنة ١٢٨٢ هـ وهو خلط فى التواريخ
فجده كثيرا فى المصادر والمراجع السعودية خاصة مصادر تاريخ عسير .. أنظر : أحمد السباعى - تاريخ
مكة - ص ٥٣٧ .

وتنفيذاً لأمر من الدولة سير عباس باشا الأول حملة مكونة من عشرة آلاف جندي نظامي لاختطاف
ثوار عسيرة ، فالتجته هذه الحملة إلى ينبع ثم نزلت في المدينة المنورة (١) .

ويذكر البعض (٢) : بأن محمد بن ناصر (٣) خرج من المدينة المنورة في جمادى الثانية من
السنة نفسها على رأس حملة مصرية مع عرب حرب قبل وصول حملة عباس باشا السالف ذكرها -
وقد قامت هذه الحملة بالهجوم على بعض المناطق ثم عادت إلى المدينة .

ثم يذكر الباحث أن عباس باشا أعد حملة عسكرية لاختطاف ثورة عسيرة ، وأنه قد أوعز إلى قواته
التي في المدينة باللاحاق بها ، لتعريضها في قتال الثوار العسيرين مما يوحي بأنه كانت هناك قوات
مصرية بقيت في المدينة بعد رحيل قوات محمد علي من شبه الجزيرة العربية ، لكن الذي أطمئن
إليه هو أن محمد علي قد سحب قواته جميعها وأن القوات العثمانية حلت محلها ، أما تلك القوات
المصرية التي خرجت من المدينة مع الحملة المصرية إلى عسيرة ، فقد تكون بعض فرق قوات عباس
باشا التي تقدمت القوات كطلّاع ونزلت المدينة لتجهيز الساحة للجيش .

ولقد سببت تلك الحملة كثيراً من القلق والترقب ، وأطلقت بسببها الكثير من الإشاعات ولا سيما
في نجد ، فما أن أشيع نبأ وصول قوات عباس باشا في رمضان سنة ١٢٦٨ هـ / ١٨٥٢ حتى كثرت
الأراجيف بأن تلك القوات تريد احتلال نجد ، ولذلك أمر فيصل بن تركي أمير نجد بتعبئة قواته ،

(١) الأمير سمود بن هذلول - تاريخ ملوك آل سعود - ط ١ - ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٢) كما ذكر مؤرخ نجد آخر نفس الرواية ، بيد أنه لم يشر إلى وجود جنود مصريين بين تجريدة محمد بن ناصر
حيث اكتفى بقوله " خرج محمد بن ناصر من المدينة في تجريدة الاتراك ، وانضم إليه كثير من بادية حرب " .
وربما يقصد بالاتراك هناك : الجيش المصري . انظر : الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى النجدي - عقد الدور
فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثاني عشر وأول الرابع عشر بتحقيق عبدالرحمن بن عبد اللطيف ال
شبهن ط وزارة المعارف السعودية ص ٩ وانظر صلاح الدين المختار - تاريخ المملكة العربية السعودية - م
١ ص ٣٤٥ .

(٣) لم يذكر لنا صلاح الدين المختار هوية محمد بن ناصر والراجح عندي أنه قائد محلي من أشراف الحجاز على
الرغم من تزعمه تجريدة مصرية ، وهذا وارد .

وأرسل إلى أمراء المناطق التابعة له فى طلب النفير (١) .

وهذا فى اعتقادى رعب وقع فيه أهل نجد نظرا لأن وقائع حملات محمد على مازالت ماثلة فى أذهانهم بتسوتها وعنفوانها .

ومما لا شك فيه أن فيصلا لم يكن يقصد من استنفار القبائل الدفاع عن عسير أو مدافعة الهجوم المصرى عن المناطق التابعة للسعوديين ، وإنما كان هدفه الوحيد هو حماية نجد من الغزو المصرى الحجازى بعد ما بلغته أنباء الحملة ، والدليل على ذلك أن فيصلا حينما واثته الأخبار بأن عباسا باشا قد أرسل قوات عسكرية ضخمة مع القوات التى بالمدينة الى عسير بقصد منازلة الثوار فيها وأن القوات المصرية والحجازية أخذت طريقها بالفعل الى هناك أمر فيصل بتفريق جنوده ، وعاد مطمئنا الى الرياض (٢) .

وعلى الرغم من ضخامة تلك القوات القادمة من مصر والحجاز للقضاء على الثوار فى إقليم عسير اذ انضمت إلى الجيش المصرى أعداد كبيرة من قبائل حرب ومطير وغيرهم إلا أن عائض بن مرعى زعيم الأقليم تمكن من هزيمة تلك القوات بعد عدة مواقع وقعت بين الجانبين فى سنة ١٢٦٩ هـ / ١٨٥٣ م (٣) .

وهذا الانتصار الذى حققه بن مرعى يعد غربيا إذا علمنا أن منطقته عسير قد قاست طوال سنين عدة من ويلات داء الطاعون الذى انتشر فيها من سنة ١٢٦٦ هـ / ١٨٥٠ م الى سنة

(١) ابراهيم بن عبيد آل عبد المحسن - تذكرة أولى النهى والعرفان - ص ٩١ وأنظر : ابراهيم النجدي - عقد الدور - ص ٩ .

R.Boyly - Saudia Arabia . P 182-183 .

وأنظر :

(٢) صلاح الدين المختار - تاريخ المملكة العربية السعودية م ٢ ص ٣٤٥ .

(٣) أنظر : الأمير سعود بن هذلول - تاريخ هلك آل سعود ص ١٤٣ ، وأنظر تفاصيل تلك المواقع عند : عبدالله بن مسفر - السراج المنير - ص ص ٨٤ / ٨٥ وأمين الريحانى - نجد وملحقاتها ص ٩٦ و ابراهيم صالح النجدي عقد الدور - ص ١٠ مع الاحتراز من التواريخ التى يذكرها حيث تشتمل على أخطاء كثيرة إلا أنى استقيت منها لذكرها بعض التفاصيل أكثر من غيرها .

١٢٧٣ هـ / ١٨٥٦ م وأودى بحياة الكثيرين وعلى رأسهم أميرهم عائض بن مرعى الذى توفى فى سنة ١٢٧٣ هـ (١) .

ومن القريب أن عائض عندما انتصر على الجيش المصرى فى عسير أرسل إلى فيصل بن تركى مندوبين يحملون بشائر النصر ومعهم هدايا من الأسلحة والعتاد التى غنمتها قواته بالإضافة الى خمس الفخيمة الشرعى (٢) وهذا على الرغم من عودة فيصل بجنوده دون نصره أهالى عسير والوقوف معهم ضد الجيش المصرى المهاجم . بيد أن هدايا عائض إلى فيصل ما هى إلا إعلان صريح لولائه السياسى والمذهبى لنجد مهما كانت المواقف .

أما الحملة المصرية فانها انسحبت من عسير دون أن تحقق أى هدف من أهدافها . وإذا كانت جيوش محمد على باشا قد حققت بعض أهدافها فى شبه الجزيرة العربية فإن حملة عباس باشا قد عادت دون أن تحقق أى هدف من أهدافها فى عسير .

التدخل المصرى فى عسير فى عهد اسماعيل باشا :

ظلت مشكلة بلاد عسير تؤرق العثمانيين وتابعيهم من الحجازيين ، وولاة مصر حتى أوائل عهد اسماعيل باشا .

فلقد ثار محمد بن عائض بن مرعى - أمير عسير - فى بداية عهد اسماعيل وأراد بشورته الاستيلاء على تهامة اليمن ، فحاول أمير الحديدة- وهو من الأشراف التابعين للدولة العثمانية - محاربتة وصدته فى بعض المواقع ، إلا أن ابن عائض استعجل أمره ، واستولى على بعض البلدان التابعة للدولة العثمانية كزهران وغامد (٣) .

(١) هاشم النعمى - تاريخ عسير فى الماضى والحاضر ج ١ ص ٢٠١ .
وانظر سعود بن هذلول - ص ١١٤٣ .

(٢) عبدالله بن مسعر - السراج المنير ص ٨٥ ، وإبراهيم بن عبيد - تذكرة أولى النهى ج ١ ص ٩٣
وانظر أيضا : R-Boyly - Saudia Arabia . P. 183

(٣) عبدالرحمن الرافعى - عصر اسماعيل - ج ١ دار المعارف ط ٣ القاهرة - سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ص ١٩٧ .

وفى الوقت نفسه كان لضم ابن عائض لبلاد غامر وزهران إلى عسير أثر خطير فى العلاقات بين حكام مكة وعسير إذ كانت بلاد غامر وزهران هى الأرض الخصبة فى الحجاز التى تعتمد مكة على محاصيلها الزراعية ، كما كان لهذا رد فعل خطير فى اسلامبول (١) أيضا .

لهذا أصدرت الدولة العثمانية أوامرها إلى اسماعيل باشا - والى مصر - بتجهيز جيش كبير من مصر ليشارك مع شريف مكة عبدالله بن محمد بن عون (٢) فى إخماد ثورة العسيرين قامت على اسماعيل باشا ، وجهاز قواته لهذا الشأن (٣) .

ويذكر بعض الباحثين أن الدولة العثمانية حاولت فى سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣ م ، الاستعانة بالأمير فيصل ضد حكومة آل عائض فى عسير (٤) .

إلا أن الحقيقة هى أن اسماعيل باشا هو الذى أرسل رسالة إلى الأمير فيصل بن تركى أمير نجد - بموافقة الدولة - يحثه فيها على قضاء لوازم واحتياجات جنود الحملة المصرية المزمع إرسالها إلى عسير لاختماد ثورتها وبذل الهم فى سبيل نجاح هذه الحملة ، كما حاول اسماعيل استمالته إلى جانب الدولة العثمانية والدولة المصرية معا ، كانت هناك علامات على ثبات فيصل على المودة والصداقة التى تجمعهم وخديوى مصر حيث استمرت بينهما المراسلات والاتصالات وتبادل الهدايا (٥) . " ومن القديم مؤكد ومشهور انتسابكم لمحبة الجهة المصرية والقيام بقضاء ما يلزم لها من الأشغال ، فزيادة لظهار ذلك أردنا أحاطتكم بما حصل به الشروع من هنا (٦) .

(١) هاشم النعمي - تاريخ عسير فى الماضى والحاضر - ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) تولى الشرافه بعد موت أبيه فى شعبان سنة ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م وبقي فيها تسعة عشر عاما حتى وفاته فى ١٤ من جمادى الآخرة ١٢٩٤هـ / يونيو ١٨٧٧م أنظر اسماعيل حقي - امرأة مكة فى العهد العثماني ص ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٣) ابن زينى دحلان - خلاصة الكلام - ص ٣٢٤ .

(٤) محمود شاكر - شبه جزيرة العرب - ص ٢٠٦ .

(٥) أنظر : عبدالفتاح حسن أهر عليه - الدولة السعودية الثانية - (١٢٥٦ - ١٣٠٩هـ / ١٨٤٠ - ١٨٩١) الرياض ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م ص ١٥٣ .

(٦) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٤١ صفح ٨١ أوامر عربى - دفتر ١٩٠٧ أمر إلى الأمير فيصل أمير ولايات نجد (٢٥ من ذى الحجة سنة ١٢٨٠هـ) .

إلا أن فيصلا لم يقدم أية مساعدات - فيما يبدو - لعلاقته الطيبة بحكومة عسير (١). بيد أن اسماعيل باشا واصل أعماله لتنفيذ أوامر الدولة فأرسل على عسير قوة مكونة من ثلاث أوط (٢) من المشاة وزودها بالمدافع وكتائب الفرسان ، وعقد لواء قيادتها للأميرال اسماعيل صادق بك (٣) ، فلما وصلوا إلى ثغر جدة انضمت تلك القوات إلى قوات الدولة العثمانية بقيادة والى جد (٤) وجيهى باشا .

كما أنضمت قوات الحجاز من الأشراف بزعامة شريف مكة عبدالله بن محمد بن عون إلى القوات المصرية العثمانية ، وزحف الجميع : العثمانيون والمصريون والحجازيون متجهين إلى عسير ، فعلم بأمرهم ابن عائض فخرج فى قواته لملاقمتهم فتواجه الطرفان فى المكان المسمى بالمخوة فى تهامة غامد ، وشرع الجيشان فى مناورة الحرب للدخول فى معركة حاسمة ، إلا أن ابن عائض رأى أنه لا قبل له بقتال تلك القوات المجتمع عليه فآثر السلامة وأرسل فى طلب الصلح (٥) .

وفى الوقت نفسه أرسل الخديوى اسماعيل باشا برسالة فى ربيع الثانى سنة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م

-
- (١) محمود شاكر - شبه جزيرة العرب - ص ٢٠٧ .
- (٢) أوط : جمع أوطه Orta وهى الميدان ، مكان الواقعة ، ثم أطلقت على الفرق المتأهب لخوض الحرب. أنظر : د/ الفصائى أحمد المرسى - قاموس تركى عربى - القاهرة ١٩٧٩ - ص ٣٦٩ .
- (٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٥٣٧ - دفتر ٢١ عابدين من الجانب العالى إلى الأميرال اسماعيل صادق بك قائد العساكر المصرية (١٣ من صفر سنة ١٢٨١ هـ - ١٨٦٤ م) وأنظر : عبدالفتاح حسن أبو عليه - الدولة السعودية الثانية - (١٢٥٦ - ١٣٠٩ هـ / ١٨٤٠ - ١٨٩١) الرياض ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ص ١٥٣ .
- (٤) عبدالرحمن الرافعى عصر اسماعيل - ج ١ ص ١٩٧ وجدير بالاضافة أن والى جد وشيخ الحرميين فى ذلك العهد كان يدعى محمد وجيهى باشا الذى توفى سنة ١٢٨٤ هـ أنظر : ابن زينى دحلان - خلاصة الكلام - ص ٣٢٤ .
- (٥) هاشم النعمى - تاريخ عسير ج ١ ص ٢٠٤ . وأنظر : أحمد السباعى - تاريخ مكة - ج ٢ ص ٥٣٧ . أحمد عبدالرحيم مصطفى علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) دار المعارف القاهرة ١٩٦٧ م ص ٧٦ .

مع مندوب خاص هو أحمد أفندى اليمنى (١) إلى ابن عائض ذكره فيها بضرورة اتحاد القوى الإسلامية تحت طاعة السلطان وضرورة نصح المسلمين بعضهم لبعض ليكونوا يدا واحدة قوية على من يريد السوء بأهل الاسلام ، وعرض اسماعيل على ابن عائض وساطته عند السلطان فى طلب العفو له على أن يترك ابن عائض مناطق غامد ، وزهران وحلى ، ومنعص للإيالة الحجازية ، وأن تضم قبائل (بالقرن ، وشعران ، ويشة) إلى عسير تحت مسمى المتصرفية العزيرية على أن تكون تابعة للدولة العلية ، وتؤدى ما يقرر عليها من مرتبات طبقا لما تستلزمه التبعية ، وتعهد اسماعيل باشا أيضا بالتوسط لدى الدولة لمنح ابن عائض رتبة أمير الأمراء (باشا) متصرف عسير .

وبعد هذا الترغيب انتقل اسماعيل باشا فى رسالته إلى تهيب ابن عائض فى حالة عدم جنوحه إلى الطاعة حيث ينقلب الحال من المودة إلى العداوة الكبرى ، وحذره من أنه إذا ركب رأسه سيسوق اليه الجيوش العظيمة من القاهرة لخواب دياره وسفك الدماء .

ثم وعده فى نهاية رسالته بكف اشراف الحجاز عن مهاجمة أرض عسير (٢) اذا رضى للطاعة.

كما بعث اسماعيل باشا برسالة أخرى فى التاريخ السالف ذكره الى قائد قواته بالحجاز - اسماعيل بك صادق بأن يترقب عودة المندوب من لدن ابن عائض فان وفق فى واجباته فليظهر ذلك على الجميع ، ولأن فشل فى مسعاه فعلى اسماعيل صادق أن يخفى أمر الرسالة ولا يبدئها لأحد (٣) ، ويبدو أن الخديوى اسماعيل أراد من ذلك حفظ ماء الوجه وعدم الظهور بمظهر الضعيف الذى قد يلحق فى السلم مما قد يفسر بتفسيرات مشينة .

(١) دار الوثائق القومية - وثيقة رقم ٩١٦ صفحه ٢٦ صادر عابدين - دفتر ٢٢ - عابدين - أمر صادر الى:

أحمد أفندى اليمنى (١٤) من ربيع الثانى سنة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م .

(٢) دار الوثائق القومية - وثيقة رقم ٩٠ صفحه ٢٥ صادر عابدين - دفتر رقم ٢٢ - إلى الأمير بن

عائض أمير عسير (١٤) من ربيع الثانى سنة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م .

(٣) دار الوثائق القومية - وثيقة بدون رقم - محفظة سائرة - أمروصادر الى اسماعيل صادق بك (١٩) من

جمادى الأول سنة ١٢٨٢ هـ .

وازاء ذلك عقدت فى مدينة القنفذة مباحثات للصلح فى أواخر ربيع اثنائى سنة ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م حضرها نيابة عن أمير عسير مندوب يدعى الشيخ لاحق ومثل الحجاز فيها أسير مكة الشريف عبدالله ، ومثل مصر مندوبها أحمد أفندى اليمنى (١) .

وقد تأثر محمد بن عائض بالترغيب والترهيب الذى وجه به سواء فى رسائل اسماعيل أم فى جلسة المباحثات ورضخ للطاعة والانقياد للدولة العثمانية وتخلّى عن جهات : غامد وزهران التى دا الصراع حولها والخلاف الأكبر بين الحجاز وعسير (٢) .

أما الباب العالى فانه سر بموقف اسماعيل باشا المخلص والمناصر له فأرسل إليه خطا هما يونيه فى شعبان سنة ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م أظهر فيه السلطان العثمانى سعادته وامتنانه لذلك ورضاء التام عنه (٣) .

فأرسل اسماعيل باشا الى الدولة العلية مطالبا إياها أن تبره بوعده الذى وعده لابن عائض حتى يستمر على الطاعة والخضوع دون ثورة جديدة ، وحتى لا يبقى اسماعيل فى حرج ازاء تعهده لأمية عسير (٤) .

وعلى الرغم من ذلك فان اسماعيل باشا لم ينتظر نتائج وساطته لدى الباب العالى فأرسل فى سنة ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م أوامره الى قائد قواته فى عسير بتجهيز الجنود للسفر إلى مصر

(١) دارة الملك عبدالعزيز بالرياض الوثيقة رقم ٦/٢-٣ مجموعة الوثائق التركية - تقرير بشأن الصلح م
مستشار ولاية الحجاز الى الصدارة العظمى (٢٥ ربيع الثانى سنة ١٢٨٢هـ) .

(٢) هاشم النعمى - تاريخ عسير ج ١ ص ٢٠٤ .

(٣) د / محمد محمود السروحي - الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر - ص ٤٠ .

(٤) دار الوثائق القومية - وثيقة ١٢٢ صادر عابدين قيد رقم ٢٢ الى كامل باشا (٥ من جمادى الأولى سنة

١٢٨٢هـ) .

الى أن تصل الباخرة الابراهيمية من سواكن (١) متجهة الى جدة ليحمل عليها أورطة من الجنود النظاميين لتقلع بها الى السويس ، وكلما وصلت باخرة يرسل عليها الجنود والمهمات بقدر استيعابها ، وبعد انتهائه من نقل الجنود النظاميين يشرع فى نقل جماعة السرسوارى (٢) بمهماتهما ودوابها ، على أن يعود هو مع الفرقة الأخيرة باذلا أقصى جهد فى الحفاظ على المهمات والحيوانات أثناء النقل .

كما بعث اسماعيل باشا بمثل هذه الأوامر إلى والى الحجاز (٣) .. وفى هذا الشهر الذى صدرت فيه الأوامر بترحيل جنود الحملة المصرية وردت البشرى لأمير عسیر حاملة نبأ منح الدولة العثمانية رتبة أمير الأمراء - باشا - لمحمد بن عائض طبقا لما وعده به اسماعيل باشا .

وقد ذكر اسماعيل باشا فى رسالته التى حملت هذه البشرى إلى ابن عائض سبب تأخر نوال هذه الرتبة وهو تأثير ما قيل فى الاستانة بشأن محمد بن عائض مما أوغر الصدور ضده ، كما ذكر اسماعيل باشا أن فرمان السلطانى قد أرسل إلى والى الحجاز ليقوم بدوره بتسليمه إلى ابن عائض ، وما هو جدير بالاضافة أن رسالة اسماعيل التى بعث بها إلى ابن عائض حملها مندوب مصر الذى حمل الرسالة الأولى إليه وهو أحمد أفندى البنى (٤) .

(١) سواكن عبارة عن جزيرة تقع على خط عرض ١٩ ويتسع ميناؤها دون عمق كبير ، وكانت بها زراعة عامرة لقرنها من طوكر الخصبية وتبلغ المساحة المنزرعة بسواكن أحيانا ٤٥٠.٠٠٠ فدان وتعتمد فى زراعتها على مياه السهول وخور بركة وسكانها من الأحرار كانوا يبلغون ١٠٠.٠٠٠ نسمة أيام الحكم المصرى . أنظر: شوقى الجمل تقرير من أحمد ممتاز باشا الى مهودار الخديوى فى ١٤ من محرم سنة ١٢٨٨ هـ الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٩- ص ١١٥ .

(٢) الفرسان .

(٣) دار الوثائق القومية - وثيقة بدون رقم - محفوظة سائرة - إلى اسماعيل صادق بك (٧ من شعبان سنة

١٢٨٢ هـ) .

(٤) دار الوثائق القومية - وثيقة ضمن المتفرقات ص ٩٣ صادر عابدين - دفتر ٢٢ الى محمد باشا بن عائض

أمير عسیر (بتاريخ ٢٨ من شعبان سنة ١٢٨٢ هـ) .

وقد ادعى الرافعى أن القوات المصرية والعثمانية تمكنت من إخماد الثورة ، وأن الأمير محمد بن عائض قدم إلى الدولة العثمانية طاعته ، وأن الفرقة المصرية عادت ظافرة مشكورة على ما أبلته فى القتال (١) .

وكلام الرافعى يشير إلى أن قتالا حدث بين الفريقين ، غير أن الحقيقة - كما قدمنا - هى انتهاء المواجهة إلى الوساطة بترغيب ابن عائض وترهيبه دون حدوث قتال يذكر . وكفى الله المؤمنين القتال .

وبما لا شك فيه أن استقرار الوقائع أشار إلى حقيقة طالما أثرت فى مجرى الأحداث وهى أن أهالى عسير وزعامتهم آل عائض جبلوا على الثورة وخلع الطاعة وعدم التعود على الانقياد إلى أية سلطة أخرى سوى سلطتهم المحلية (٢) .

فعلى الرغم من كل ما حدث فإن محمد بن عائض باشا عاد فى نهاية سنة ١٢٨٣ هـ / ١٨٦٧ م إلى مهاجمة البلاد التابعة للحجاز مرة أخرى ودخل فى طور العصيان من جديد مما حدا بأمير مكة ووالى الحجاز إلى الاستنجد مباشرة بالخديوى اسماعيل دون الرجوع إلى الدولة العثمانية ، وقد انحصر طلب حاكمى الحجاز فى أن يقوم الخديوى بإرسال رسالة لابن عائض يذكره فيها بالوعود والعهود المتبادلة فلبى الخديوى اسماعيل طلبهما وبعث إلى ابن عائض برسالة تحمل هذا التذكير ، ولما لم تجد هذه الرسالة فتىلا ، طلب هذان الحاكمان من الخديوى إرسال رسالة أخرى أشد لهجة وأن تحتوى على تهديد ووعيد (٣) ، فبعث الخديوى اسماعيل إلى ابن عائض برسالة ثانية احتوت على تهديد ووعيد .

(١) عبدالرحمن الرافعى - عصر اسماعيل - ج ١ - ص ١٩٧ .

(٢) ولذلك فانى أرى أن ما قام به الملك عبدالعزيز بن سعود بعد نصف قرن بعد فى حد ذاته انجاز عظيم عندما قام بتوحيد تلك البلاد واخضاعها لسلطانه على الرغم من امكاناته الحربية المتواضعة فى الوقت الذى فشلت فيه جيوش جرارة من أتراك ومصريين وحجازيين فى هذا المضمار وقد تمكن عبدالعزيز لأول مرة من سوس قبائل العسير صعبة المراس .

(٣) دار الوثائق القومية - وثيقة رقم ٤٠٢ عابدين سجل ٢٤ - إلى التبروكتشخدا (٩) من المحرم سنة

وقد ذكر الخديوي اسماعيلي في رسالته الأولى أنه لا يصدق ما أشيع من عصيان ابن عائض وتجهيزاته العسكرية التي أعدها على الحدود العسيرة الحجازية ، كما تضمنت رسالته هذه أنه أرسل إليه مع حامل رسالته بعض الهدايا الترويجية وهي بندقية مذهبة من صنع مصر ومسدس ، وخيمة كبيرة بلوازمها وطبجتان ، ثم أختتم رسالته بأنه يأمل دوام العهد القديم (١) .

أما الرسالة الأخرى فانها كانت شديدة اللهجة ، فقد ذكر فيها الخديوي اسماعيل ما علمه من أخبار تخطى ابن عائض لحدود بلاده بقواته ، ونقضه العهد المبرمة بين الطرفين ، ثم نصحه بالعودة إلى الطاعة وإلى حدود بلاده حسماً للشر وحققاً للدماء وحفظاً للعهد ، وإلا فلا منر من امتشاق الحسام ، ولا يكون بعده إلا الندم (٢) .

ويبدو من خلال متابعة الوثائق أن الدولة العثمانية قد استاءت من تصرف اسماعيل باشا حين يرسل مباشرة إلى أمير عسير بحذره ويتوعده دون الرجوع إلى استانبول أولاً ، فاضطر الخديوي اسماعيل إلى تقديم ما يشبه الاعتذار إلى الدولة وذلك بشرح ما حدث وهو عدم معرفته بحقيقة الأمر حيث أن أمير مكة والى الحجاز لم يفسر له الأمر جلياً ، واكتفيا بذكر إحساسهما بأن هناك تحركات عدوانية ونظراً للاستعجال الزائد منهما لم يتمكن اسماعيل من مخاطبة الباب العالي (٣) .

ولعل اسماعيل قد بدأت عليه النزعة الاستقلالية في اتصالاته مع جيرانه دون الرجوع إلى الدولة العلية (٤) .

(١) دار الوثائق القومية - وثيقة رقم ٣٤٣ صادر عابدين - السجل رقم ٢٤ - إلى الأمير (محمد باشا بن عائض) قائم مقام العزيزية (٣ من ذى القعدة سنة ١٢٨٣ هـ) .

(٢) دار الوثائق القومية - وثيقة بدون رقم صفحة ١٠٦ عابدين - الدفتر رقم ٢٤ - من خديوي الاقطار المصرية وما والاها من الأقاليم السودانية إلى حضرة محمد باشا بن عائض قائم مقام صنعق العزيزية اليمانية (٧ من المحرم سنة ١٢٨٤ هـ) .

(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٤٠٢ عابدين السجل رقم ٢٤ - إلى القيوكتخدا (٩ من المحرم سنة ١٢٨٤ هـ) .

(٤) كان اسماعيل قد وضع سياسته للحصول على الاستقلال التام بأساليب مختلفة عن أساليب جده محمد على ، وكان أول نجاح لاسماعيل هو إصدار الدولة لفرمانها الذي تضمن حصر حكومة مصر في ذريته في ١٢ من ==

ويبدو أن ابن عائض ورجاله رأوا أنه من الحكمة الاستجابة لصوت العقل والحكمة الذي جاء في رسائل الخديوي اسماعيل ، لهذا نراهم قد عادوا إلى السكينة والهدوء في الفترة الواقعة بين المحرم سنة ١٢٨٤هـ/ وأوائل سنة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠ . لكن يبدو أن سياسة ابن عائض السلمية لم ترق بعض القبائل مثل قبائل رجال ألمع (١) التي ثارت على محمد بن عائض في سنة ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م غير أن : محمد بن عائض تمكن من أخمد ثورات تلك القبائل ، ولم يلبث محمد بن عائض أن أرسل إلى الشريف زيد بن حسين بن حيدر والأثراك العثمانيين الموجودين في منطقة صبيا وفدا برئاسة لاحق بن مسفر لمفاوضتهم ، ومعرفة نواياهم وأخبارهم ، غير أن هذا الوفد عاد بدون تحقيق نتيجة تذكر لمفاوضاته (٢) .

ومما يشير الدهشة أن محمد بن عائض حاول في جمادى الأولى سنة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م مراسلة الخديوي بعدة رسائل يخطب فيها وده ، ويطلب في إحداها إرسال فني لتصليح المدافع الموجودة في عسير .

وقد جاء في هذه الرسالة عبارة توحى بأن ابن عائض ربما أراد استمالة اسماعيل باشا ، والاتفاق معه على شيء ضد الدولة العثمانية والحجاز .

يقول ابن عائض في رسالته هذه أنه حمل مندوبه بثلاث أمور مشافهة ، ثم يقول : " ولم

===== صفر من العام نفسه ، ثم حصوله على سواكن ومصوع في ذي الحجة سنة ١٢٨١هـ / ومايو ١٨٦٥م .

أنظر : د/ راشد البراوي - المركز الدولي لمصر والسودان قناة السويس ج ١ - ط ١ - . - القاهرة - ١٩٥٢م ص ٣٤ .

(١) يطلق أسم " رجال ألمع " على القبائل التالية : قبيلة قيس ، وبنو زيد ، وبنو بكر ، وبنو قطبة ، وبنو عبد شحب ، وبنو شديدة ، وبنو عبد العوض ، وتقتل هذه القبائل بمجموعها نصف عسير ، كما أنها تحتل في حدودها الطبيعية مسافة ما بين درب شعبة جنوبها حتى تخوم محائل شمالا ، ومن الغرب ما بين سواحل القحيم حتى قسم جبال سراة عسير ، وهذه المسافة تقدر بمائة كيلو تقريبا وعرضها مثل ذلك . أنظر : هاشم النعيمي تاريخ عسير - ج ١ ص ٢٠٧ .

(٢) عبدالله بن مسفر - السراج المنير في سيرة أمراء عسير - ص ٤ وما بعدها .

نشرح شيئا فى الكتاب لأجل الخطر من كثرة الحساد لنا بمحبتكم والتقرب منكم " (١) .

والمشير أيضا أن طلب ابن عائض لفنى يصلح المدافع من مصر كان قبل هجومه على القلاع العثمانية بشهرين اثنين فقط .

فمازلت سنة ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م حتى قام محمد بن عائض بشور قارمقلى العثمانيين وحشد حشودا ضخمة ساقها على قلاعهم ، وأعمل فيها السيف ، ولم يتورع رجاله عن مدهامة الأهمالى العزل مرتكبين فظائع كثيرة على غير رضا منه - كما تتحدث ذلك المصادر العسيرية - ثم أستولي على المخلاف السليمانى ، وصبيا ، والزبدية وأبى عريض ، وحاول الاستيلاء على الحديدية ، لكنه فشل فى ذلك وعاد من حيث أتى ويبدو أن مرض الطاعون الذى تفشى فى رجاله هو الذى كبح جماحهم (٢) .

وما أن علمت الحكومة العثمانية بشورة ابن عائض ونقضه العهد والمواثيق واستيلائه على بعض المواقع والبلاد العثمانية حتى دفعت فى سنة ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م بحملة عسكرية كبيرة بلغ قوامها عشرين ألف مقاتل . وقد تشعبت هذه الحملة الى ثلاثة جيوش ثم سلك كل جيش من جيوشها الثلاثة طريقا معيناً متجها صوب مواقع الثوار العسيرين فسلك الجيش الأول : طريق صنعاء بقيادة أحمد بك وسلك الجيش الثانى طريق جدة بقيادة أحمد مختار باشا ، وسلك الجيش الثالث : طريق الطائف بقيادة عاطف بك والشريف عبدالله بن محمد بن عون .

وما يجدر ذكره أن الشريف عبدالله جمع معه جنودا من قبائل حرب وعتيبة وبادية الحجاز .

ولقد تمكنت القوات العثمانية والحجازية من الاستيلاء على المواقع العسيرية الواحدة تلو الأخرى بعد لآى ومشقة (٣) .

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ١٢٥ - المحفوظة ١٩ بحريرا - من محمد بن عائض الى فخامة دولة

الخدوي الأعظم (غرة جمادى الأولى سنة ١٢٨٧ هـ) .

(٢) هاشم النعمى - تاريخ عسير - ج ١ ص ٢٠٨ ، ص ٢٠٩ .

(٣) المصدر السابق - ص ٢١٢ وما بعدها .. وانظر : عبدالله بن مسفر السراج المنير - ص ٩٦ وما بعدها .

واستولت قوات رديف باشا على مصفه حلى . فى أدنى الحدود العسيرية ممايلى ثغر القنغزة، ثم واصلت زحفها فى اتجاه منطقة محائل واستولت على الجهات التى فى طريقها حتى تمركزت فى منطقة بارق ، وتمكنت فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٢٨٨ هـ / ١٨٧٢ م من اقتحام محائل واستولت عليها وقد أخذ رديف باشا قائد هذه الحملة من محائل مركزا لقيادته ثم تقدم بقواته فى حذر فاستولى على مضيق دالك بعد انسحاب رجال ألمع منه ، ثم استولى على (عقبة صماء) ثم خاض بقواته معركة طاحنة مع قوات محمد بن عائض فتمكن من دحرها واستولى على جبل تهليل ثم خاض معركة مشابهة بحته حصن الصعيد انتهت بهزيمة العسيرين وبذلك استطاع رديف باشا أن يصل إلى منطقة تريب - العاصمة العسيرية (الستا) .

وقد لاقى رديف باشا المنهزمين الى منطقة الحفيز وانتصر عليهم فى معركة سريعة ، ثم تابع فلولهم التى تجمعت فى ريدة - وقد دام القتال عدة أيام فى منطقة ريدة دون أن يحقق العثمانيون نصرا عسكريا حاسما فاتفق القائدان : مختار باشا ورديف باشا على الإحاطة بالمنطقة من الخلف بعد أن أذاعا إشاعة فحواها سفر مختار باشا بقواته ، وبذلك تمكن القائدان من تطويق محمد بن عائض ورجاله فاضطروا إلى التسليم فى أوائل سنة ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م .

والذى يعنينا فى هذا المقال أمران :

الأمر الأول :

عدول استانبول عن الاستنجاد بجيش القاهرة والاعتماد على القوات العثمانية والحجازية وحدها ، وذلك فيما يبدو لسببين اثنين:

أولهما : هو أن الحملة التى أرسلها الخديوى اسماعيل باشا إلى عسير من قبل لم تحسم الموقف ولم يكلف الخديوى اسماعيل نفسه خوض معارك فاصلة مع العسيرين بل اكتفى برسائل الترغيب والترهيب وطلب وألح فى طلب الاعتراف بولاية محمد بن عائض على متصرفية عسير مع مكافأته بلقب أمير الأمراء - باشا - الذى أدخل عليه الغرور وجعله يتصرف فيما هو له تصرف الملوك .

ثانيهما : هو أن الدولة لم تنس بعدما حدث من جده (محمد على) الذى استشرى أمره عندما أحرز

انتصارات فى شبه الجزيرة العربية وبدأ يفكر فى ابتلاع أجزاء كبيرة من ممتلكات الدولة العثمانية وهدد استانبول نفسها كما هو معروف .

الأمر الثانى:

هو أن الدولة العثمانية على الرغم من عدولها عن طلب الاستنجاد بالجيش المصرى فإنها طلبت من مصر أن تتكفل بإرسال المؤن الغذائية وهى خمسمائة ألف أقة من الأرز ، وخمسين ألف أقة من السمّن ، وخمسة عشر ألف أقة من السكر لتلك الفرق العسكرية الشاهانية .

وقد أصدر اسماعيل باشا أوامر مؤكدة ومشددة إلى كتبخانة بإعداد وتجهيز الكميات المذكورة على أن يرسل نصفها إلى ميناء الحديد والنصف الآخر إلى المواضع التى يحددها رديف باشا أحد القادة العثمانيين .

ومما يجدر ذكره أن تلك المؤن لم تكن تبرعا بلا حساب ، فلقد ذكر اسماعيل فى ختام رسالته أن:

" أئمان هذه الأشياء ومصاريفها سيرسل بها كشف فيما بعد " .

كما عرض الخديوى اسماعيل فى رسالته هذه استعدادة لتلبية أى طلبات أخرى (١) تحتاجها الدولة ، ويقصد الخديوى اسماعيل بهذا الكشف إقامة مقاصة بين ائمان هذه الأشياء وأموال الخزانة المقررة للدولة على مصر . وجدير بالذكر أن محمد بن عائض وقع فى قبضة الجيش العثمانى بأمان أحد قواده وهو مختار باشا إلا أن قائد القوات رديف باشا لم يعترف بالأمان وأمر بإعدام محمد بن عائض ومعه عدة أشخاص ، بينما أرسل العديد من رجال عسيرا إلى استانبول (٢) وبهذا خلصت عسير للعثمانيين وظلت تحت حكمهم فترة طويلة من الزمن تعاقب ولا تهم حكمها خلال هذه الفترة .

الصراع بين مصر والحجاز على إدارة سواكن ومصوع :

من المعروف أن البحر الأحمر قد لعب دورا خطيرا فى القرن التاسع عشر كطريق ملاحى بين

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ١٢٧٢ عابدين - سجل رقم ٢٤ - من الديوان الخديوى الى الباب العالى

(١٨ من ذى القعدة سنة ١٢٨٧ هـ) .

(٢) ابن زينى دحلان - خلاصة الكلام - ص ٣٢٥ .

الشرق والغرب ، وقد تأثرت مصر بحكم موقعها على هذا البحر خاصة بعد اكتشاف البخار واستخدامه فى المواصلات البحرية .

وقد تضاعف دور البحر الأحمر بعد اتصاله بالبحر المتوسط وفتح قناة السويس للملاحة فى نوفمبر سنة ١٨٦٩ م شعبان سنة ١٢٨٦ هـ .

ولقد أدركت فرنسا قدر البحر الأحمر فى وقت مبكر وحاولت احتلال مصر للسيطرة على موقعها واتخاذها رأس حربة موجهة إلى عدوتها اللدود المحتلرا فكان هذا دافعا للمحتلرا لتتجه بأنظارها هى الأخرى إلى مصر بعد أن وعت قدرها فى الميدان الدولى .

وثمة ظاهرة أخرى برزت فى هذه الحقبة وهى ارتباط النشاط البحرى فى البحر الأحمر بالصراع الاستعمارى فى أفريقيا بصفة عامة وارتباطه بالصراع الاستعمارى فى الساحل الشرقى من القارة الأفريقية بوجه خاص . إلا أن مصر نفضت عن كاهلها السبات فى عصر اسماعيل وعمدت الى تثبيت أقدامها فى المناطق الاستراتيجية من هذا الساحل قبل أن تسبقها الدول الاستعمارية إليها وأعظم تلك المناطق سواكن ومصوع وملحقاتها (١) وهاتان المحافظتان كانتا تحت سيطرة الدولة العثمانية إذ استطاعت ضمهما إلى ولاياتها فى النصف الثانى من القرن السادس عشر بعد جهاد طويل ضد البرتغاليين فى البحار ومنذ هذا الوقت قامت الدولة العثمانية ببناء القلاع والتحصينات فى تلك المنطقة، كما قامت بإلحاقها بإيالة جدة فى أواخر القرن السادس عشر وأطلقت عليها اسم ولاية الحبش (٢) .

(١) د/ شوقى عطا الله الجبل : سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ص ٦٠٥ .

(٢) كان أول من لمس أهمية السواحل الحبشية للسيطرة على سواحل البحر الأحمر هو أزدمر باشا الذى كان واليا على اليمن سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م وقد زين أزدمر للسلطان سليمان القانونى مشروع السيطرة على الساحل الحبشى فأمر له بعسكر عظيم بلغ ثلاثة آلاف فتمكن بهم من السيطرة على المنطقة وألحق بها جده وعين أزدمر واليا عليها .

أنظر : نوال سراج شنة -جدة فى مطلع القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) طبع مكة المكرمة سنة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ص ص ٩٠ ، ٩١ .

نظرا لأنها تعد من مخارج بلاد الحبشة وثغرها على البحر الأحمر (١). وقد كان يلى حكم هذه المناطق والى جدة وكان يطلق عليه والى جدة وشيخ الحرم ووالى سواكن ومصرع (٢). أو والى جده وشيخ الحرم ووالى إيالة الحبش .

وهكذا ظلت سواكن ومصرع تابعتين لإيالة جدة طوال قرنين ونصف قرن من الزمان حتى أوائل القرن التاسع عشر حيث تقلبت سواكن ومصرع فى تبعيتهما بين مصر والحجاز عدة مرات وهذا ما سنوضحه فيما يلى :

أولاً : فى عهد محمد على :

فى أوائل القرن التاسع أدت انتصارات محمد على فى حروبه بشبه الجزيرة العربية إلى إصدار السلطان محمود الثانى فى شوال سنة ١٢٣٥هـ / يوليو سنة ١٨٢٠ م فرمانا بتعيين (إبراهيم باشا بن محمد على) واليا على باشوية جدة . وبسبب تبعية سواكن ومصرع لإيالة جدة صار إبراهيم يعرف بتصرف جدة والحبشة (٣). وظل الأمر كذلك إلى أن تأمرت الدول الأوربية على محمد على وأخرجته من شبه الجزيرة العربية والحجاز فى سنة (١٢٥٦هـ / ١٨٤١ م) ثم صدر فرمان العثماني فى ٢٠ من ذى الحجة سنة ١٢٥٦هـ / ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ بفرض قيود ثقيلة الوطأة على (محمد على) ومن الواضح أن العثمانيين استغلوا فى هذا الموقف تألب الدول الأوربية على مصر.

ومما يجدر ذكره أن هذا فرمان أغفل ذكر منطقة السودان الشرقى - سواكن ومصرع - مما أدى إلى بقاء هذين الثغرين تابعين لإيالة جدة "جاء فى هذا فرمان :

(١) د/ محمد على حلة - سياسة مصر فى مصرع وملحقاتها (إرنزيا) ابان الحكم العثماني ١٨٦٥-١٨٨٥

مجلة كلية اللغة العربية - العدد الرابع ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م جامعة الأزهر القاهرة ص ٢٤٩ .

(٢) عثمان صالح سبى - تاريخ اريتريا دار الكنوز الأدبية - ط ٠ بيروت ١٩٨٤ م ص ٦٤ وعبد القدوس

الانصارى - موسوعة تاريخ جده - م ١ ص ٣١٨ .

وشوقى الجمل - تاريخ السودان وادي النيل - ج ٢ مكتبة الانجلو ١٩٦٩ م ص ١٥ .

(٣) سعد الحلوانى - الحكم المصري فى سواكن وملحقاتها (١٨٦٥ - ١٨٨٥) رسالة ماجستير أجازت فى كلية

اللغة العربية سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م ص ٢٩ .

" وقد ثبتكم على ولاية مقاطعات النوبة والدارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجية عن حدود مصر ، ولكن بغير حق التوارث " (١) .

ولكن الدولة العثمانية عهدت إلى محمد على باشا بإدارة الجمركين فيهما منذ التاسع عشر من رمضان سنة ١٢٦٢ هـ ١٢ من سبتمبر سنة ١٨٤٦ م أى فى أواخر حكمه وفى مقابل ذلك تعهدت مصر بأن تدفع مبلغا سنويا إلى خزانة ولاية جده (٢) وكان المتحکم فى الجمرك يجمع بين يدية السلطتين المالية والمحربية ويمقتضى ذلك كان يسيطر على الميناء والمناطق المحيطة به كذلك (٣) ماليا وعسكريا .

وقد كان محمد على يرى أن سواكن ومصوع ضرورتان للسودان ، وأنهما منفذان له على البحر الأحمر خاصة لإقليم التاكا وعاصمته كسلا ، فاجتهد لضمهما إلى السودان ، وقد كللت مساعيه بالنجاح ، ففاز بهما على سبيل الإيجار الذي قدر بـ ٢٥٠٠٠ جنيه فى العام (٤) أى أن مصر التزمت بدفع نسبة من جمارك الثغرين إلى خزانة جدة ودفع أجر الثغرين السنوى المتفق عليه إلى خزانة اسلامبول مباشرة .

ثانيا : فى عهد عباس :

ولم تستمر تبعية الميناءين لمصر كثيرا فعندما تولى عباس حلمى الأول حكم مصر بعد وفاة عمه ابراهيم باشا فى ١٤ من ذي الحجة سنة ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٨م بادر بتسليم الميناءين إلى إياه جدة فى ١٤ من المحرم سنة ١٢٦٥ هـ / نوفمبر ١٨٤٨م أى بعد شهر واحد من تسلمه السلطة فى مصر (٥)

(١) رئاسة مجلس الوزراء - السودان من ١٣ فبراير ١٨٤١ الى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣م المطبعة الأميرية - ١٩٥٣ - ص ١ .

(٢) د/ محمد عبدالله آل زلفة - اصلاحات حسيب باشا ص ٨٩ .

(٣) أنظر محمد فؤاد شكرى - مصر والسيادة على السودان - الوضع التاريخى للمسألة - دار الفكر العربى - القاهرة سنة ١٩٤٦ ص ص ٢٢ - ٢٣ .

وأنظر : سعد الحلوانى - الحكم المصرى فى سواكن وملحقاتها ص ٣٠ .

(٤) عبدالرحمن الرافعى - عصر اسماعيل - ج ١ ص ١١١ .

(٥) السيد رجب حراز - التوسع الايطالى فى شرق أفريقيا وتأسيس مستعمرتى أريتري والصومال - مطبعة جامعة القاهرة - القاهرة ١٣٦٠ هـ / ص ٧١ .

وقد أصدر عباس الأول أمره فى (١٤) من المحرم سنة ١٢٦٥ هـ / نوفمبر سنة ١٨٤٨ م) إلى أمير جمرك سواكن متضمنا ما يلى :

" ابتداء من سنة ١٢٦٣ هـ قد أحييت إدارة بندر سواكن من ضمن ملحقات إيالة جدة إلى مصر لإدارة شئونها بطريق الالتزام نظير البديل المتفق عليه ، وحيث اقتضى الحال الآن كفى يد الحكومة المصرية عن إدارتها من المحرم سنة ١٢٦٥ هـ وعن إدارة الكمرك واعادته لجهة الإيالة المذكورة ، فبوصول هذا اليكم بادروا بتسليم الكمرك المذكور مع متعلقاته إلى مندوب صاحب الدولة والى جده الذى سيحضر من قبل دولته للاستلام وبعد اتمام عملية التسليم والتسلم استصحبوا معكم جميع المستندات الدالة على المبالغ التى سددت لخزينة الإيالة المذكورة ابتداء من تاريخ إدارتها لغاية شهر ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ لإجراء المحاسبة بموجبها مع الدفاتر والأوراق والموظفين .. والأمل أن تحضروا فى أ قرب وقت وتحرر لكم هذا للاحاطة " (١) .

ومما لا شك فيه أن عباسا لم يكن مهتما بأمر السودان ومنافذه على البحر الأحمر مثل اهتمام جده محمد على باشا وعنايته به حتى أنه لم يفكر يوما فى زيارة ذلك الأقليم الكبير ليشاهد بنفسه شئون البلاد وأهلها (٢) .

وقد دفعه عدم اهتمامه بالسودان وعدم اعتنائه بأمره إلى ترك ذينك الميادين مصروع وسواكن - لإيالة جدة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن عباسا الذى كان يقضى حياته منعزلا قد أثر عدم الاحتكاك بأطماع الدول الأخرى مثل الحبشة والدول الأوروبية الى كانت تتحين الفرصة للتدخل فى شئون المنطقة (٣) .

ثالثا : فى عهد الخديوى اسماعيل :

زاد الاهتمام المصرى بشكل غير عادى بسواكن ومصروع فى عهد الخديوى اسماعيل حتى عادت إلى الأذهان أمجاد محمد على باشا ، فلم يقتصر الخديوى اسماعيل على المطالبة بتأجير الميناءين

(١) أمين سامى - تقويم النيل - م ١ ج ٣ ص ١٤ .

(٢) عبدالرحمن الراعى - عصر اسماعيل - ج ١ ص ١١١ .

(٣) د / محمد على حلة - سياسة مصر فى مصروع وملحقاتها - ص ٢٥٠ .

فحسب بل أنه عمل على إلحاقهما كاملين بالأملاك المصرية (١) . وعندما استقر عزم مصر على ذلك ، أمر الخديوى اسماعيل أمين الدفترخانة (٢) فى جمادى الثانية سنة ١٢٨١هـ / ١٨٦٤م بنسخ صورتين من الرسالة التى بعث بها الكنخدا باشا إلى القبوكتخذ المندوب الالى المصرى فى الأستانة - فى سنة ١٢٦٥هـ / ١٨٤٨م والخاصة بترك مصر الإشراف على سواكن ومصوع وإرجاعها إلى إيالة جدة ، كما طلب اسماعيل نسخ صورة رد القبوكتخذ حول هذا الموضوع فى عهد عباس باشا (٣) الأول وذلك لوضع هاتين الصورتين تحت الدراسة تمهيدا لضم المدينتين وملحقاتهما إلى مصر ، وقد بدأت مساعى اسماعيل بجدية فى أواخر سنة ١٢٨١هـ / ١٨٦٤م عندما أوعز إلى مندوبه بالإستانة (القبوكتخذ) محمد كامل بضرورة تحريك موضوع طلب إلحاق محافظتى سواكن بالإدارة المصرية وانتزاعها من إيالة جدة .

وقد عدد اسماعيل حججه ومبرراته فى طلب إلحاق سواكن ومصوع بمصر فى رسالته التى بعث بها إلى وكيله محمد كامل ليحتج بها أمام المسئولين العثمانيين فى الباب العالى ، ومن أبرز هذه الحجج والمبررات ما يلى :

أولاً : قرار العربان الذين يقطنون مقاطعة التاكى السودانية من دفع ما عليهم من أموال أميرية والتجائهم الى سواكن ومصوع نظرا لخروجهما عن دائرة الهيمنة المصرية .

ثانياً : خطورة هؤلاء الفارين وهذه الخطورة تكمن فى امكانية سيطرة بعض الجهات الأجنبية عليهم كالخبش واتخاذهم كأدوات للافساد والتحرش بالمصالح المصرية .

ثالثاً : القضاة على النخاسة وعلى عمليات الخطف التى يقوم بها الأجانب الأوربيون بصورة وحشية مع اشاعتهم أن الفاعل هم الأتراك مما يسئ إلى الدولة العلية (٤) .

(١) عبدالرحمن الرافعى - عصر اسماعيل ج ١ - ص ٢٢ .

(٢) أمين دفاتر المالية فى مصر .

(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٢٩ سجل رقم ٥٤٩ معية تركى صفحة ٧٣ من المعية إلى أمين

الدفترخانة (٢٧ من جمادى الثانية ١٢٨١هـ) .

(٤) دار الوثائق القومية - الوثيقة التركية رقم ٥٩ عابدين - دفتر رقم ٢١ صفحة ٢٢٨ -

تلك هي أقوى الحجج والمبررات التى أحتج بها الخديوى اسماعيل لدى الدولة العثمانية .

أما الدول الأوربية فقد لجأ الخديوى اسماعيل إلى تبرير موقفه أمامها بأن أعلن أن عملية القضاة على تجارة الرقيق التى تسعى اليها تلك الدول لا تتم إلا بوضع هذين الميناءين تحت سيطرة إدارة تتميز بالحزم والشدة ، وأن تبعية تلك المناطق لجدة لن يحقق الاشراف الجيد عليها نظرا لبعدها وعدم إحكامها السيطرة عليها . (١)

والذى أطمئن اليه هو أنه كانت هناك أسباب أخرى ودوافع أعظم قوة وأكبر قدرا من تلك الأسباب التى أحتج بها الخديوى اسماعيل ، وهذه الأسباب وتلك الدوافع جعلت مصر تلح فى طلب ضم هاتين المحافظتين إليها :

أولا : افتقار السودان - التابع لمصر - إلى منفذ بحرى يتم بواسطته تصريف المنتجات السودانية وتسهيل الاستيراد ، وتذليل التحركات العسكرية والمدنية من وإلى السودان بوجه عام ولا سيما أن الطرق البرية يعاب عليها طولها ووعورتها .

ولهذا وجدنا أن الادارة المصرية حولت كل الصادرات والواردات ومعظم الانتقالات إلى طريق سواكن البحرى (٢) .

وإزاء رغبة مصر الملحة فى ضم هذين الشغرين وعد الخديوى اسماعيل الدولة العثمانية بدفع قيمة الخزانة الذى يوازى ما كان يجبى من الميناءين وملحقاته ما إلى خرينة جدة سنويا (٣) . ولم يترك الخديوى اسماعيل - فى سبيل نبيل مأربه هذا - بابا مشروعا متاحا أو غير متاح **دون أن يطرقة** - واستخدم كل خبراته ووسائله الخاصة لتحقيق هدفه . وأول ما بدأ به هو استمالة فؤاد باشا الصدر الأعظم إذ أرسل اليه رسالة تضمنت شكره على جهوده فى هذا الشأن بعد أن تقرر عرض الطلب المصرى على مجلس الوزراء العثمانى ، وأوصاه فى رسالته هذه بضرورة بذل

== من أفندينا الى معتمدة بالاستانة (٢٧ من رجب سنة ١٢٨١ هـ) .

وأنظر المكاتب التركية رقم ٩٩ عابدين دفتر ٢١ صفحة ٢٧ من أفندينا الى معتمدة فى الاستانة (٧ من ذى القعدة سن ١٢٨١ هـ) .

(١) صلاح الدين الشامى - الموائى السودانى - مكتبة مصر - القاهرة ١٩٦١ م ص ١٣٤ .

(٢) دار الوثائق القومية - محافظ ابحاث السودان ، المحفظه ١٧ - دفتر رقم ٤ فى ٢٣ من ذى الحجة سنة ١٢٨٢ هـ . ، وأنظر : الدفتر : الدفتر رقم ٥٥٨ معية تركية - الوثيقة رقم ٢٧ - ص ٥٩ - ارادة سنية

الى حكمدار السودان فى ٢٨ من صفر سنة ١٢٨٣ هـ .

(٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة - الوثيقة التركية رقم ٥٩ عابدين - الدفتر رقم ٢١ صفحة ٢٨٨ من أفندينا

الى معتمده فى الاستانة - بتاريخ ٢٧ من رجب ١٢٨١ هـ .

الجهود في سبيل تعديل الشروط المقترحة وتسويتها على أحسن وجه (١) .

وقد عضد اسماعيل باشا مسعاه الخصوصى بواسطة من بيدهم الحل والعقد فى الآستانة ، فاستطاع أن يضمن تأييدهم بعد أن أنفق فيهم مبلغا كبيرا من الذهب (٢) ، ويبدو أن قواد باشا الصدر الأعظم قد ناله نصيب كبير من هذا المبلغ لأنه وعد القبوكندا قبل انعقاد مجلس الوزراء - الذى سيعرض أمامه أمر المحافظتين - ببذل الجهد وانزاع الموافقة رغم أنف المعارضين (٣) . وكان من بين المعارضين وزير المالية فى الآستانة الذى كان يشكك فى علاقة واتصالات مصر بوالى الحجاز (وجيهى باشا) محتجا بأن هذا الوالى كان موقفه الرفض فى البداية ثم تحول عنه (٤) وتفصيل ذلك أن الدولة العثمانية أرسلت إلى والى الحجاز رسالة تستفسر منه عن قيمة دخول مصوع وسواكن حتى يتسنى لها حساب قيمة الخزانة المفروض على مصر بعد أيلولة المحافظتين إليها .. فاهتبل والى الحجاز هذه الفرصة ورد رافضا ضم سواكن ومصوع إلى مصر وأخذ يعدد فى رسالته مدى الخسارة التى ستلحق بدوائر الرسوم الواقعة فى كل من جدة واليمن بالإضافة إلى ما سيصيب الخزانة العثمانية من خسارة ، ثم ذكر والى الحجاز فى رسالته هذه أن جمرك جدة سيخسر أيضا بسبب ذلك ما يوازى مائة ألف قرش سنويا .

ولم يكتف هذا الوالى بمعارضته المستميتة لمشروع ضم سواكن ومصوع إلى مصر فأطلق شائعة فحواها أن إنشاء السكك الحديدية فى السودان سيجعل السفن تعرج على سواكن مباشرة وهذا سيتسبب فى تعطيل دوائر الجمارك والملاحات فى جدة واليمن (٥) .

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة التركية رقم ٥٩ عابدين الدفتر رقم ٢١ صفحة ٢٢٨ من أفندينا الى معتمدة فى الآستانة بتاريخ ٢٧ من رجب ١٢٨١ هـ .

(٢) د / مكى شبكة - السودان عبر القرون - لجنة التأليف والترجمة والنشر - ط سنة ١٩٦٦ - ص ١٣٦ .

(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٦٧ عابدين - الدفتر ٢١ - ص ٢٣٦ من أفندينا إلى معتمدة بالآستانة بتاريخ ١٩ من شعبان سنة ١٢٨١ هـ .

(٤) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٦٦ عابدين - المحفظة رقم ١٤٢ - إلى عتبات الحضرة الفخيمة الخديوية - بتاريخ ١٧ من ذى القعدة سنة ١٢٨١ هـ .

(٥) دار الوثائق القومية - الوثيقة التركية رقم ٦٥ عابدين تركى - المحفظة رقم ١٤٢ من والى جدة الى مقام الصدارة (٨ من ذى القعدة سنة ١٢٨١ هـ) .

بيد أن مندوب
نأرسل الى الخديوي
عليه الخديوى بقوله
فيما يتعلق بمينائى
الحجاز بهذا الخصوص
وقد أدت
اسلامبول وعلق الى
اليه (٢) .

ولم يقف اس
المصرى بجده -
بالموافقة على ضم
اسماعيل فرصة
الحجازية من .

وقد
فوافق والى
المعارضه (٤)
كما وافق

(١) دار الوثائق

الآستانة كما

(٢) دار الوثائق

الصدارة -

(٣) د/ شوقى

(٤) فادر الوثائق

(٧) من ذى

(٥) كان أمير

بيد أن مندوب الخديوى فى الآستانة كان متيقظا تمام البقطة مدركا كل ما يجرى من حوله فأرسل الى الخديوى ينبهه الى خطورة معارضة والى الحجاز وضرورة احتوائه بأى شكل ، فرد عليه الخديوى بقوله : " لقد صرت ممنونا جدا من ملاحظتكم الدقيقة التى بعثتم بها ببطاقة على حده فيما يتعلق بمينائى مصوع وسواكن . وسنعمل ما يلزم حسب اشارتكم للحصول على موافقة والى الحجاز بهذا الخصوص (١) .

وقد أدت معارضة الحجاز فى البداية إلى ظهور عدة شروط تداولها مجلس الوكلاء فى اسلامبول وعلق البت فيها على وصول الرد من والى جدة على بعض الاستفسارات التى أرسلت اليه (٢) .

ولم يقف اسماعيل مكتوف الأيدى ازاء معارضة والى الحجاز فبادر بإرسال أوامره إلى المندوب المصرى بجده - على جودة بك - بضرورة اجتماعه مع شريف مكة - ووالى الحجاز لاقتناعهما بالموافقة على ضم المينائين إلى مصر . وعدم ابداء اعتراضهما على هذا الضم ، وقد انتهز الخديوى اسماعيل فرصة إمداده مكة بخمسة آلاف أردب من الحنطة ، ملوحا بما يمكن أن تجنيه الاعتراضات الحجازية من سوء الأثر فى العلاقات المصرية الحجازية (٣) .

وقد كللت مساعى الخديوى اسماعيل بالنجاح بعد أن أستخدم أسلوب التهريب والترغيب فوافق والى الحجاز على مشروع ضم سواكن ومصوع الى مصر بعد لأي ويعد أن خفف كثيرا من لهجته المعارضة (٤) .

كما وافق أيضا على هذا المشروع أمير مكة الشريف عبدالله بن محمد (٥) . فبعث الخديوى

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة بدون رقم - الدفتر ٢١ عابدين - صفحة ٢٤١ - من أفندينا الى معتمده فى

الاستانة كامل بك (٢٥ من شعبان ١٢٨١هـ) .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة ٥١ عابدين - الدفتر ٢١ صفح ٢٣٨ - من أفندينا إلى الباب العالى (مقام

الصدارة - ١٧ من رمضان سنة ١٢٨١هـ) .

(٣) د/ شوقى الجمل - سياسة مصر فى البحر الأحمر - ص ٤٧ .

(٤) فادر الوثائق القومية - وثيقة بدون رقم عابدين - دفتر ٢١ صفح ٢٧٤ - من أفندينا الى والى الحجاز

(٧ من ذى القعدة سنة ١٢٨١هـ) .

(٥) كان أمير مكة حينئذ هو الشريف عبدالله بن محمد بن عون الذى تولى إمارتها فى ربيع الأول سنة =

اسماعيل إلى كل منها برسالة شكر مشيرا بشهامة وإلى الحجاز وموافقته الجلييلة تجاه مصر وطالبا النصح من شريف مكة في كل ما يتعلق بموضوع ضم المحافظتين الى مصر (١) .

ونتيجة لتلك الجهود المضنية التي بذلها الخديوى اسماعيل صدر الفرمان العثمانى بالموافقة على ضم المحافظتين إلى مصر بشرط أساسى وهو أن يكون إلحاق المحافظتين بمصر فى مدة حياة الخديوى اسماعيل فقط ولا يتعداه إلى ورثته - أى أن هذا الضم مقصور على ذاته فقط .

كما أشار الفرمان إلى ضرورة تعديل مقدار المقابل المادى - اليركو - المطلوب لا بالة جدة مرة كل ثلاث سنوات تحسبا لأى نقص قد يطرأ على إيراد جمارك الحجاز ، مع زيادة فى إيراد جهات سواكن ومصوع .. فحينئذ يجرى جبر النقص بعلاوة لباشوية جدة .

كما نص الفرمان كذلك على أن يكون التسليم والتسليم اعتبارا من سنة ١٢٨١ هـ / ١٨٦٥ م ويتم بناء عليه ترتيب الأقساط المرتجى دفعها .

كذلك حدد هذا الفرمان قيمة (اليركو) بـ ٢٥٠٠ كيس تدفعه مصر إلى خزانة جدة كل عام بالاضافة إلى خمسة آلاف كيس هى إيراد الجمرك والملاحات قياسا على إيرادهما فى سنة ١٢٨٠ هـ / ١٨٦٣ م (٢) .

وقد تحملت الخزانة المصرية وحدها عبء هذه المسئوليات المالية عندما بر اسماعيل بوعدده للمصدر الأعظم ورجال استانبول الذين كان لهم دور بارز فى تذليل عقبات انتزاع المحافظتين من الحجاز وضماها إلى مصر ، فأصدر اسماعيل أمرا بالإنعام على كامل بك (القبوكتخدا) بثلاثة آلاف جنيه عثمانى ، وأرسل الصراف - كيورك باشى - لصرف المبلغ الخاص بالصدر الأعظم -

== ١٢٧٥ هـ / ١٨٥٨ م وظل فيها إلى وفاته سنة ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٧ م وكان أول شريف حصل على مرتبة الوزارة من الآستانة .

أنظر : اسماعيل حقى جارشللى - أمراء مكة فى العهد العثمانى ص ٧٧ ، ٧٨ .
(١) دار الوثائق القومية - وثيقة بدون رقم عابدين - دفتر ٢١ صفحة ٢٧٤ - من أفندينا إلى أمير مكة المكرمة (٧ من ذى الحجة سنة ١٢٨١ هـ) .

(٢) دار الوثائق القومية - ديوان جلالة الملك - مجموعة الفرمانا تالشهبانية الصادرة بالتركية - س ٩/٨/٩ سجل ٦ - من (١٨٦٣ - ١٨٧٩) . الفرمان رقم ٩١٣ فى ١٥ ذى الحجة سنة ١٢٨١ هـ بمدينة القسطنطينية .

فؤاد باشا وقدره ثلاثة الاف جنيه ، كما صرف لدولة على باشا (١) ألفى كيس (٢) .

ولقد تم الاتفاق بين مصر والدولة العثمانية فى سنة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م على تقديم السبعة آلاف والخمسمائة كيس - قيمة الخزنة - إلى خزنة جدة فى صورة غلال على ثلاثة أقساط ترسل تباعا فى حزيران (يونيو) وأيلول (سبتمبر) وكانون الثانى (يناير) من كل عام ، وما يتبقى بعد الغلال يدفع نقدا وبصورة فورية (٣)

ويظهر لنا من دراسة الرسائل المتبادلة بين مصر والدولة العثمانية - أن مصر لم تلتزم بمواعيد دفع تلك الأقساط لخزنة جدة ، فقد أرسلت مصر إلى الباب العالى فى ١٨ من رمضان سنة ١٢٨٢ هـ / أوائل ١٨٦٦ م تتعلل بأن سبب التأخير فى دفع تلك الأقساط انما نتج عن ثورة نشبت فى منطقته التاكا ، و وفاة موسى باشا حكمدار السودان - وتأخير تسلم مصوع من إبالة جدة ، وأردفت الرسالة تقول أن مصر ستقوم بدفع المستحقات من تاريخ التسليم سواء بالنسبة لسواكن أم بالنسبة لمصوع (٤) .

وبما يبعث على الدهشة هو ما جاء فى إحدى الرسائل المرسلة من المعية السنية إلى نظارة الداخلية فى ٦ من المحرم سنة ١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م وهو إعلامها بأمر المعية التى صدرت بصورة الكتابة إلى مقام الصدارة باسلامبول بأنه أوقف دفع الوركرو المستحق عن سواكن ومصوع فى الوقت الحاضر إلى خزينة جدة ، وأنه على نظارة الداخلية أن تقوم بإبلاغ المالية بهذا الأمر (٥) .

(١) يبدو أن على باشا هذا كان أحد وزراء السلطنة العثمانية اذ أن المرجع الذى أعتمدت عليه ذكره بعد الصدر الأعظم دون أن يذكر لنا منصبه .

(٢) د / شوقى الجمل - سياسة مصر فى البحر الأحمر - ص ٤٨ .

(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٣٣٤ - ص ٥٨ الدفتر ٥٥٣ من شريف باشا إلى ناظر المالية - بتاريخ (٢٦ من صفر سنة ١٢٨٢ هـ) .

وأنظر : ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤٨ ص ٣٤ الدفتر رقم ٨٢ عابدين - من الباب العالى إلى - بتاريخ (٢٢ من شعبان سنة ١٢٨٢ هـ) .

(٤) دار الوثائق القومية - الوثيقة التركية رقم ٣٦ صفحة ٩٦ دفتر رقم ٢٢ عابدين من المعية إلى الباب العالى بتاريخ (١٨ من رمضان سن ١٢٨٢ هـ) .

(٥) دار الوثائق القوم - الوثيقة التركية رقم ١٤ صفحة ١٠٨ دفتر ٥٦ معية تركى - من المعية السنية إلى نظارة الداخلية بتاريخ (٦ من محرم سنة ١٢٨٣ هـ) .

ولست أدري : هل توقف دفع الوركى إلى جدة معناه تحويله إلى الخزانة السلطانية؟ أم أنه توقف بسبب تعثر الوضع فى السودان ككل ، نظرا لشورة التاكا التى نشبت إبان تسلم محافظة سواكن؟.. إلا أن هناك احتمالا آخر أقوى وأوضح عندى من الاحتمالين السابقين وهو : أن اسماعيل قد سبق له أن سير حملة إلى عسير لإخماد ثورة محمد بن عائض بها ، وقد كلفته تلك الحملة كثيرا من المال فيغلب على الظن أنه أراد بوقف الأقساط الخاصة بسواكن ومصوع أن يرسل إلى الآستانة ليسوى حسابها بعد استبعاد تكاليف حملة عسير ، وقد سبق مثال مشابه لذلك يمكن القياس عليه هو أنه عندما أمر محمد على جنوده باخلاء شبه الجزيرة العربية فى سنة ١٢٥٧هـ / ١٨٤١ م وترك هناك كثيرا من الغلال والمؤن اتفق هو والدولة العثمانية على تسوية حسابها ضمن ما تدفعه مصر للدولة سنويا ، ومما هو جدير بالذكر أن مصر بعد أن صدر فرمان إحالة مصوع وسواكن إليها بادرت فى ربيع الأول سنة ١٢٨٢ هـ بارسال وكيل حكماية السودان جعفر باشا مظهر - الى جدة لاستلام الميناءين المذكورين (١) بعد أن زودته بأربعمائة ليرة المحليزية لينفق منها أثناء سفره على ظهر الباخرة (السويس) من جدة إلى سواكن ومصوع (٢) .

وفى الوقت نفسه أرسلت الحكومة المصرية رسالة إلى والى جدة لتسليم الميناءين إلى جعفر باشا مظهر ، وسحب الادارة الحجازية منهما لتتولى بدلا منها الادارة المصرية الجديدة (٣) .

الصراع العثماني المصري للسيطرة على قلاع شمال الحجاز :

أدى تكاتف الدول الأوربية ضد محمد على إلى خروج الجيش المصرى من شبه الجزيرة العربية وأجبر محمد على على سحب قواته من الحجاز فى سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م ومع ذلك فقد أبقى محمد على سيطرته على بعض المناطق شمال الحجاز أعاد تبعيتها إلى مصر ، وتتمثل هذه السيطرة

(١) دار الوثائق القومية - وثيقة رقم ٣٥٣ - ص ٦٢ - دفتر ٥٥٣ معية تركى - من شريف باشا الى مديرية

قنا (٤ من ربيع الأول سنة ١٢٨٢ هـ) .

(٢) د/ شوقي الجمل - الوثائق التاريخية - ص ٥٠ .

(٣) د/ شوقي الجمل - سياسة مصر فى البحر الأحمر - ص ٦١ .

فى عدة قلاع تبدأ من الوجه (١) جنوبا حتى منطقة العقبة شمالا (٢) وهذا القلاع هى : الوجه والمويطج وهنسا .

وقد كانت تلك القلاع تحت القيادة المصرية وتحت السيادة العثمانية طوال العصر العثمانى الأول.. لأن الحجاج كانوا يستعملون طريق العقبة سواء من حضر منهم من الشام أو من حضر منهم من مصر التى كان يصاحب حجاجها قافلة الحج المغربى (٣) .

وقد استمر الحال على ذلك حتى بداية العهد العثمانى الثانى ، وبعبارة سلك الحجاج طريق البحر الأحمر من السويس إلى جدة مباشرة (٤) .

وعلى الرغم من أن محمد على سحب جيوشه ومثليه من المدن الحجازية إلا أنه أبقى على الحاميات المصرية فى تلك القلاع والتى لم يكن لها أهمية تجارية واستراتيجية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وميزتها الوحيدة هى كونها تقع على طريق الحج المصرى (٥) .

ويذكر أحد الباحثين (٦) : أن الأتراك لم يثيروا موضوع هذه القلاع لعدم خطورتها عليهم . وهذا

(١) يقع ميناء الوجه فى الساحل الشرقى للبحر الأحمر بالجزيرة العربية فى مواجهة القصر .. أنظر : د/ شرقى

الجمل - سياسة مصر فى البحر الأحمر - ص ٢٩٧ .

(٢) يمتد خليج العقبة من شمال البحر الأحمر ويتجه نحو الجهة الشمالية الشرقية بطول ٩٨ ميلا ويعرض يتراوح بين

سبعة أميال وأربعة عشر ميلا ، وتلتف بشواطئ الجبال الصخرية والجرايتية التى تمتد فى الأرض من شمال

الخليج حتى البحر الميت ، كما يوجد على مدخله جزيرة تيران .

أنظر: حمدى حافظ وآخر - المشكلات العالمية المعاصرة - ط ١ القاهرة ١٩٥٨ م ص ١٩ .

(٣) Saleh Muhammad Al Amer - the Hijz under Ottoman Rule 1869 - 1914 - Riyad

1978 . P. 214.

(٤) أحمد السباعى تاريخ مكة ص ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٥٢٥ .

(٥) د/ صالح محمد العمرو - النزاع التركى المصرى على شمال الحجاز وسيناء وتدخل الحكومة البريطانية

(١٨٨٤ - ١٩٠٦) م - مجلة الدارة - العدد الأول - السنة الخامسة (ربيع الثانى ١٣٩٩ هـ - مارس

١٩٧٩ م) ص ٨ .

(٦) د/ صالح العمرو - النزاع التركى المصرى - ص ٩ .

فى عدة قلاع تبدأ من الوجه (١) جنوباً حتى منطقة العقبة شمالاً (٢) وهذا القلاع هى : الوجه والمويطح ومنها .

وقد كانت تلك القلاع تحت القيادة المصرية وتحت السيادة العثمانية طوال العصر العثماني الأول.. لأن الحجاج كانوا يستعملون طريق العقبة سواء من حضر منهم من الشام أو من حضر منهم من مصر التي كان يصاحب حجاجها قافلة الحج المغربي (٣) .

وقد استمر الحال على ذلك حتى بداية العهد العثماني الثاني ، وبهذا سلك الحجاج طريق البحر الأحمر من السويس إلى جدة مباشرة (٤) .

وعلى الرغم من أن محمد على سحب جيوشه ومثليه من المدن الحجازية إلا أنه أبقى على الحاميات المصرية فى تلك القلاع والتي لم يكن لها أهمية تجارية واستراتيجية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وميزتها الوحيدة هى كونها تقع على طريق الحج المصرى (٥) .

ويذكر أحد الباحثين (٦) : أن الأتراك لم يثيروا موضوع هذه القلاع لعدم خطورتها عليهم ، وهذا

(١) يقع ميناء الوجه فى الساحل الشرقى للبحر الأحمر بالجزيرة العربية فى مواجهة القصير .. أنظر : د/ شوقي الجمل - سياسة مصر فى البحر الأحمر - ص ٢٩٧ .

(٢) يمتد خليج العقبة من شمال البحر الأحمر ويتجه نحو الجهة الشمالية الشرقية بطول ٩٨ ميلاً ويعرض يتراوح بين سبعة أميال وأربعة عشر ميلاً ، وتلتف بشواطئها الجبال الصخرية والجرانيتية التى تقعد فى الأرض من شمال الخليج حتى البحر الميت ، كما يوجد على مدخله جزيرة تيران .

أنظر: حمدي حافظ وآخر - المشكلات العالمية المعاصرة - ط ١ القاهرة ١٩٥٨ م ص ١٩ .

(٣) Saleh Muhammad Al Amer - the Hijz under Ottoman Rule 1869 - 1914 - Riyad
1978 . P. 214.

(٤) أحمد السباعى تاريخ مكة ص ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٥٢٥ .

(٥) د/ صالح محمد العمرو - النزاع التركى المصرى على شمال الحجاز وسيناء وتدخّل الحكومة البريطانية (١٨٨٤ - ١٩٠٦) م - مجلة الدارة - العدد الأول - السنة الخامسة (ربيع الثانى ١٣٩٩ هـ - مارس ١٩٧٩ م) ص ٨ .

(٦) د/ صالح العمرو - النزاع التركى المصرى - ص ٩ .

على الرغم من أن بقاء تلك القلاع تحت السيطرة المصرية كان يتعارض مع الفترة الملحقه بمعاهدة لندن سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠م حول انسحاب المصريين من جميع الأملاك العثمانية .

بينما يذكر أحد المؤرخين : (١) أن بقاء بعض المناطق فى شمال الحجاز تابعة لحكم مصر كان انتظارا للبت فى أمرها . ومع ذلك فهناك تحليل أقرب إلى الدقة ذكره باحث آخر - عندما تحدث عن ميناء العقبة فقال : أن ميناء العقبة ذاته كان داخلا فى الوطن المصرى ، وتطوق سواحله مياه مصر ، وعندما أرادت تركيا فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى سنة ١٣١٠ هـ / ١٨٩٢م الاستيلاء على ميناء العقبة وجانب من شبه جزيرة سيناء لم يتيسر لها ذلك لأنه كان قد تم من قبل تصريح الحكومة العثمانية للحكومة المصرية بوضع عدد كاف من الجنود فى تلك المنطقة ، وفى مناطق أخرى من جزيرة سيناء لحماية ركب الحج والمحمل المصرى عبر سيناء والعقبة .

ويرى هذا الباحث أن ذلك كان منذ أمد بعيد ، وأن منطقة العقبة لم تلحق بولاية الحجاز لتصبح تحت سيادة تركيا إلا بسبب سيادة تركيا على كل من مصر والحجاز فلما زالت الولاية العثمانية ونزلت تركيا عن جميع حقوقها فى البلاد العربية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى كان من الطبيعى أن يرد هذا الثغر إلى مصر (٢) .

ويغلب على الاعتقاد أن هذا هو الأرجح لسبب واحد بدهى وهو أن الولايات الإسلامية قبل تعيين حدود كل منها كانت تهيمن على مناطق معينة بشكل أو بآخر من اشكال السيادة . وتعدّها ضمن نطاقها ، ومن المعروف أن تلك المناطق المتنازع عليها دخلت ضمن دخول مصر والحجاز تحت السيادة العثمانية ابتداء من سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م ، وأدى الوجود التركى والاستعمار الانجليزى إلى تفاقم المشكلة لأنه لولا الوجود الاستعمارى الانجليزى فى مصر لما طالبت الدولة العثمانية بل ولما طالب الحجاز بسلب تلك الثغور من الادارة المصرية.

ولقد سطر والى الحجاز عثمان نورى باشا (٣) الحكومة العثمانية فى سنة ١٣٠١ هـ / ١٨٨٤م

(١) أحمد الديبачى - تاريخ مكة ج ٢ ص ٥٢٥ .

(٢) همدى حافظ - المشكلات الناطقية - ص ٢٢ .

(٣) تولى عثمان نورى باشا ولاية الحجاز من سنة ١٢٩٩ هـ / ١٣٠٣ هـ (١٨٨٢ - ١٨٨٩ م) وعرضت اليه

مضيخة الحرم النبوى - أنظر : عبدالقادر الانصارى - موسوعة تاريخ جدة - م ١ ص ٢٢٦ .

من محاولات المصريين تمكين مركزهم في هذه الشغور عن طريق بناء قلاع جديدة في بلدة الوجه آخر هذه القلاع من ناحية الجنوب ، وأخذ والى الحجاز يؤلب الحكومة العثمانية على مصر ، فأبرق إلى الصدر الأعظم بما يحدث في الوجه ، كما أرسل بذاكرة إلى الحكومة العثمانية في استانبول شرح فيها الوضع مؤكدا على أن المصريين ليس لهم الحق في البقاء في هذه الأماكن ، وأنهم إنما تركوا فقط ليدبروا هذه الأماكن لأنها تشكل نقطة وصل في طريق الحجيج إلى البقاع المقدسة ، وأكد عثمان باشا أن حدود ولاية الحجاز كانت تمتد في السابق حتى خليج العقبة ، ويجب تعيين حدود للحجاز على هذا الشكل حتي لا تتدخل دولة أجنبية تسيطر على مصر في شئون الحجاز (٢) .

هذا بالإضافة إلى أن عثمان نوري باشا حذر العثمانيين من وجود الانجليز في مصر وبين لهم أن هناك خطورة من اقتراب قوات عسكرية انجليزية من الأراضي المقدسة مما يخشى معه احتلال تلك القوات لمكة والمدينة .

ولقد أدى تأليب عثمان نوري للحكومة استانبول إلى نتيجة حاسمة عندما اجتمع المجلس الوزاري باستانبول ١٣٠١هـ / ١٨٨٤م وقرر الباب العالي حينئذ بالاتفاق مع خديوى مصر على إرسال قوة عثمانية صغيرة من الحجاز للتمركز في الوجه (٢) . ولصدأى عدوان انجليزى مرتقب . وما لا شك فيه أن ادعاءات عثمان باشا وتحذيراته كانت أكثر مما ينبغي ، ولم تكن على قدر الحقائق الماثلة في تلك القلاع .

فعمليات التمكين المصرية هذه لم تتعد عدة إصلاحات تشكر عليها الإدارة المصرية ولو أن الإدارة المصرية أهملت هذه الإصلاحات لتعرضت بلا ريب لأشكال من النقد والتجريح بل إن بعض الإصلاحات كانت من الضرورات الدفاعية ، والتجارية ، والصحية ، ومن المصالح المرسله .

فمثلا : نجد أنه في عام ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١م قرر المجلس الخصوصى بمصر إقام مقايسة الفئار المزمع انشاؤه بجهة الوجه ، كما أتمت مصر تركيب آلة لتقطير مياه البحر في تلك الجهة ، وجرى النظر في جلسة المجلس الخصوصى حول المصاريف التى تلزمها (٣) .

(١) د / صالح العمرو - النزاع التركى المصرى - ص ٢٩ .

(٢) أنظر : Saleh al Amer . The Higaz under Ottoman Rulle P. 215 .

(٣) دار الوثائق القومية - الدفتر رقم ٤١ المجلس الخصوصى - صفحة ٦٥ - مسلسل ٤ من المجلس الخصوصى

بختم المستشار إلى قلم الاشغال بالجهادية .

سنة ١٣٠١ هـ / ١٨٨٤ م أرسلت هذه القوة التي قدرت بمائتي جندي لتحتل الوجه ، كما أرسلت بعد ذلك مجموعة من الموظفين العثمانيين على رأسهم قائمقام ليدبروا شئون الوجه ، فدخلت القوة التركية مدينة الوجه وقلعتها .. دون مقاومة من الحامية المصرية التي ظلت في مواقعها دون أن تنسحب (١) .

بيد أن المندوب البريطاني في مصر اللورد كرومر (٢) أرسل في سنة ١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م برقية إلى حكومته يخبرها فيها بما حدث ويقترح فيها انسحاب الحامية المصرية لعدم أهمية الوجه بعد تغيير طريق الحاج الذين يأخذون طريق البحر الأحمر بعد فتح قناة السويس على الرغم من عدم أهمية تركيا في امتلاك الوجه (٣) . وقد شمل اقتراح كرومر إبقاء بعض أفراد الحامية المصرية في الوجه ، فوافقت حكومته على ذلك (٤) .

ولاشك أن هذا الرأي الذي عرضه كرومر على حكومته يتسم بالضعف والتردد والتناقض وإهمال الحقيقة ، فبينما هو يقترح انسحاب الحامية المصرية من الوجه ويعلن عدم أهمية تركيا في امتلاك الوجه نراه يقترح بعد ذلك بقاء بعض أفراد الحامية المصرية في الوجه.

وفي عام ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٦ تم الاتفاق بين القاهرة واستانبول على إرسال بلوك من الجنود

Saleh al Amer - the Higaz under ottoman Rulle P.217

(١)

(٢) هو السيرافيلين بيرنج القنصل العام البريطاني في مصر .

(٣) يبدو أن اللورد كرومر استند في رأيه هذا وهو عدم أهمية تركيا في امتلاك الوجه الى ما نصت عليه الفرمانات، ومنها فرمان حصر الوراثة في الذرية لا سماعيل الذي شمل " مصر وملحقاتها والجهات المعلومة التابعة لادارتها بما فيها قائمقاميتا سواكن ومصرع اللتان ألحقنا أخيرا " ... فعجالة مصر وملحقاتها والجهات المعلومة التابعة لادارتها لا شك في أنها تعنى بوضوح الشفور والقلاع التي كانت تحت إدارة مصر .

أنظر : دار الوثائق القومية - الإرادة الصادرة إلى ناظر المالية رقم ١٦٧ دفتر رقم ٥٥٧ معية - صفحة ١٠٧

- (١٧ من صفر سنة ١٢٨٣ هـ) .

(٤) د/ صالح العمرو - النزاع التركي المصري - ص ١٠ وما بعدها .

وأنظر : أحمد السباعي - تاريخ مكة - ج ٢ ص ٥٢٥ .

العثمانيين الموجودين فى ينبع إلى الوجه ، وتعيين إحدى السفن الصغيرة الموجودة بميناء جدة لتمر على السواحل مرة كل خمسة عشر يوما للقيام بواجبات الاستخبارات العسكرية على أن يتعاون جنود البلوك العثمانى مع موظفى الحكومة المصرية فى المحافظة على جهة الوجه (١) .

ولقد ظل اشتراك القوات العثمانية مع القوات المصرية الحديوية فى الحفاظ على تلك المنطقة حتى مارس سنة ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٨م عندما صدرت الأوامر الحديوية إلى القوات المصرية والموظفين المصريين بالوجه بانسحابهم الفوري ، وقد استثنى الأمر من يريد من المصريين البقاء فيها خارجا عن نطاق وظيفته كما تم إحلال قاض عثمانى من ولاية الحجاز فى الوجه ليحل محل القاضى المصرى المستبعد (٢) .

أما بقية الموانئ والقلاع فقد ظلت كما هى خاضعة للعسكرية والادارة المصرية وبعد أربع سنوات من استيلاء العثمانيين على ثغر الوجه وبالتحديد فى سنة ١٣٠٧هـ / ١٨٩٠م أرسل والى الحجاز الى حكومته فى أستانبول تأليفا آخر على الحكومة المصرية أحتوى على محاولات المصريين التمكين لأنفسهم وتقوية حصونهم فى قلاع موانئ المويلح وضباء والعقبة (٣) .

ويؤكد أحد الباحثين : (٤) أن السلطان عبد الحميد (٥) قد صمم فى هذه الفترة بالذات على

-
- (١) دار الوثائق القومية - محافظ مجلس الوزراء رقم ١ جـ / ١١ حرية ترجمة إفادة صادر من الجمعية السنية الى مجلس النظار (٢٠ من جمادى الأولى سنة ١٣٠٣ هـ ٢٤ من فبراير سنة ١٨٨٦ م .
- (٢) دار الوثائق القومية - محافظ مجلس الوزراء رقم ١ جـ / ١١ حرية مستخرج من نوتة محضر جلسة ١٢ مارس سنة ١٨٨٨ م .

Saleh Al Amer - the Higaz - P. 218 .

وأنظر :

- (٣) د/ صالح العمرو - النزاع التركى المصرى - ص ١٢ ، ١٣ .
- (٤) د/ صالح العمرو / ص ١٢ ، ١٣ .
- (٥) تولى السلطان عبد الحميد عرش السلطنة العثمانية فى الثانى عشر من شعبان سنة ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م وخلع فى سنة ١٣٣٧ هـ / ١٩٠٩ م .
- أنظر : دار الوثائق القومية - صورة التلغراف العربى رقم ١٤٠ دفتر ٣١ عابدين صادر ص ٢٥ تلغرافات من ارادة سنية الى محافظ القريش . (١٣ من شعبان ١٢٩٣ هـ) وأنظر : دائرة المعارف الاسلاميه م ٢ ص ١٧٥ .

استعادة تلك المنطقة وقلاعها لما وصله من معلومات تفيد بأن اليهود يحاولون تأسيس مستعمرة يهودية فى تلك المنطقة ككل ، وأنهم استطاعوا الحصول على بعض الأراضى فى سيناء ، وبدأوا يهيئون لتأسيس القرى والمدن ، ويضيف الباحث : أن السلطان عبدالحميد خشى من استقرار اليهود فى جزء من ممتلكاته فقام بإرسال قوة تركية من المدينة فى ١٣١٠هـ / ١٨٩٢ م فطلب قائدها من قائد الحاميات المصرية تسليمه تلك البقاع ، إلا أن القائد المصرى رفض هذا الطلب قائلا : أنه لا يتقبل الأوامر إلا من القاهرة .

وفى الحقيقة : فإن هذا الكلام يعد من باب تحميل الأحداث فوق حقيقتها لما يأتى :

أولاً أن الوقت الذى حدث فيه إثارة موضوع الشغور الثلاثة كان متقدما عن بداية التنظيم الصهيونى ، ومطالباته بوطن قومى بصفة عامة ، ناهيك عن مطالباته بفلسطين أو سيناء وما جاورها من منطقة العقبة (١) .

فقد أثير موضوع الشغور الثلاثة - الميلىع - ضبا - العقبة - فى سنة ١٣٠٩هـ / ١٨٩١ م - كما سبق القول - وكما ذكر الباحث نفسه أما اليهود فلم يرد ذكر حتى فلسطين ضمن مطالباتهم بمؤتمرهم الأول فى بال سنة ١٣١٥هـ / ١٨٩٧ م ، ولم تتم مناقشة الوطن القومى - بصفة عامة - إلا فى المؤتمرات التالية للصهيوية فى سنة ١٣١٦هـ / ١٨٩٨ م ، سنة ١٣١٨هـ / ١٩٠٠ م ، سنة ١٣١٩هـ / ١٩٠١ م ، سنة ١٣٢٠هـ / ١٩٠٣ م .

وكان عدم استقرار الرأى فى مؤتمر بال الأول وما تلاه من مؤتمرات على إقليم معين ليكون وطنا قوميا لهم سببا فى ظهور البديل لإقليم فلسطين فى السنوات التالية ، ومن بين البدائل كان على

(١) من المسلم به أن اليهود كانت لهم أطماع قديمة فى شبه جزيرة سيناء ، ولذلك أصدر السلطان سليم الأول سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧ م فرمانا يقضى بعدم هجرة اليهود إلى سيناء التى يعتبرونها أرضا تاريخية ودينية لهم فقيها الوادى المقدس طوى الذى كلم الله فيه موسى - عليه السلام .

أنظر : د / عبدالعزيز الشناوى - الدولة العثمانية دولة اسلامية مفتحة عليها - ج ٢ ص ٩٦٦ إلا أن حديثي هو عن بداية محاولاتهم المنظمة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ، وعلاقة ذلك بالخلاف بين الحجاز والدولة العثمانية من جهة ومصر وبريطانيا من جهة أخرى على قلاع شمال الحجاز .

بساط البحث عندهم شبه جزيرة سيناء ، وقبرص ، والمحمية البريطانية فى شرق أفريقيا (أوغنده) (١)..... الخ .

ثانيا : أنه من المعلوم أن اتصال هرتزل بالبحر - التى بدأت تمكن له من ممتلكات الدولة العثمانية لم يتم إلا فى سنة ١٣١٦ هـ / ١٨٩٨ م . (٢) .

ثالثا : وهو الأهم : أن الحركة الصهيونية لم تمض فى مخططاتها لدراسة احتمالات نجاح توطين اليهود فى سيناء إلا فى أوائل سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م (٣) . ولم تكن إلا مجرد محاولات باءت فى النهاية بالفشل (٤) . فان اللجنة الصهيونية لم تغادر القاهرة إلا فى هذا التاريخ لدراسة شبه جزيرة سيناء على الطبيعة واختيار الأماكن التى تبدأ بتعميرها واستيطانها ، وعادت اللجنة فى آخر مارس سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م بعد أن أنهت إلى أن المنطقة صالحة للاستعمار . موصية بأن تكون العريش هى بداية المشروع

(١) د/ حسن صبرى الخولى - سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين فى النصف الأول من القرن العشرين - ١ - دار المعارف بمصر - القاهرة سنة ١٩٧٣ ص ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) فقد بدأ هرتزل فى هذا العام الدخول فى مفاوضات مع بعض أعضاء الوزارة البريطانية كان من بينهم جوزيف تشمبرلين - وزير المستعمرات ، ولورد لا تزدون وزير الخارجية للموافقة والمساعدة على إقامة اليهود فى سيناء قهيدا لانشاء دولة يهودية فيها تتمتع بالحكم الذاتى تابعة للإمبراطورية البريطانية . أنظر : د / عبدالعزيز الشناوى - الدولة العثمانية دولة اسلامية - ج ٢ ص ٩٧٠ .

(٣) وهذا ينفى ما ذهب اليه د/ صالح عمرو من أن اليهود وصلوا فعلا الى سيناء وأنهم استطاعوا الحصول على بعض الأراضى وبدأوا يهيشون لتأسيس القرى والمدن والحقيقة أن محاولتهم لم تبدأ إلا فى سنة ١٩٠٣ وحتى هذه لم تكن إلا مهمة استطلاعية لم يتمخض عنها استيلاء على أراضى أو تأسيس مدن .

(٤) من المعروف أن اليهود عندما أجه تفكيرهم إلى البديل كانوا يشترطون فيه أن يكون قريبا من الهدف الأسمى لهم وهو فلسطين فلذلك كانت قبرص وسيناء هى أقرب البقاع لذلك . وجدير بالذكر أن اللجنة التى أنتقلت الى مصر لدراسة هذا الأمر كان على رأسها الصهيونى البريطانى جوتنبرج . أنظر : د / زينب عضمت راشد وآخرون : الصهيونية دراسة تاريخية وفكرية - القاهرة - ١٩٧٥ ص ٩١ .

الاستيطانى شريطة أن يسمح لليهود بجلب الماء العذب من نهر النيل ، ولما رفض كرومر طلب توصيل المياه إلى سيناء أهمل المشروع ككل (١) لأنه يتطلب تحويل كميات ضخمة من مياه نهر النيل إلى سيناء مما يعوق حركة الزراعة المصرية .

كما كانت هناك محاولة أخرى للمغامر اليهودى الألمانى (بول فريدمان) (٢) الذي كان يبحث عن منطقة قليلة السكان ، ليعدها مسرحا لدولة يهودية ، وكان اختياره قد وقع على أرض مدين (سيناء) إلا أن عوامل كثيرة قادت به إلى الفشل الذريع مبكرا (٣) .

وعلى كل : ففى شهر يناير سنة ١٣١٠ هـ / ١٨٩٢م سيرات الدولة قوة عثمانية على رأسها محافظ الوجه للاستيلاء على قلعتى المولى وضبا ، وعندما وصلت هذه القوة وطلب قائدتها من سعد أفندى رفعت المحافظ المصرى لتلك القلاع الثلاث تسليمها له والانسحاب منها .. رفض سعد أفندى طلبه قائلا أنه لا ينفذ إلا التعليمات المصرية فقط ، ثم أرسل إلى حكومته بالقاهرة ليعرض عليها ما حدث (٤) .

فعمدت الحكومة المصرية جلسة لمجلس النظار للنظر فى هذا الأمر ، وقد تم تصديق مجلس النظار على إجراء سردار الجيش المصرى القاضى بإرسال إحدى السفن العسكرية وعلى متنها ضابط برفقته خمسون جنديا للمحافظة على المنطقة (٥) .

وفى الوقت نفسه أبرق المجلس إلى والى الحجاز بأن طلب الدولة العلية إخلاء القلاع الثلاثة صادر عن سوء فهم ، ويجب العدول عن ذلك لأن تلك المسائل يلزم النظر فيها عن طريق الجهات الحكومية أولا .

كما أسدت الحكومة المصرية لقائد الحامية المصرية شكرها وممنونيتها على تصرفه الحكيم إزاء طلب القوات العثمانية الحجازية (٦) .

والغريب فى الأمر : أن والى الحجاز رد على البرقية المصرية بسحب القوات العثمانية الحجازية من القلاع مؤكدا أن الأمر لم يصدر إليها إلا عن طريق البريد من محافظ المدينة ، ولذلك

(١) د/ حسن صبرى الخولى - سياسة الإستعمار والصهيوية - م ١ ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) محمود نعا - إسرائيل والبحر الأحمر - ص ١١٧ ، ١١٨ .

(٣) دار الوثائق القومية - محافظ مجلس الوزراء - ١ / ج / ١١ حربية فلم سردارية الجيش المصرى - من سردار الجيش المصرى إلى رئيسى مجلس النظار فى (١٣) يناير سن ١٨٩٢ م / ١٢ من جمادى الثانية سنة ١٣٠٩ هـ .

(٤) يذكر / صالح العنرو ص ١٣ أن عدد جنود الكتيبة المصرية خمسة وعشرون جنديا والصحيح هو ما قدمنا لاعتمادنا على وثيقة مجلس النظار الذي صدق على إرسال تلك الكتيبة .

(٥) دار الوثائق القومية - محافظ مجلس الوزراء - ١ / ج / ١١ حربية - من مجلس النظار إلى سردار الجيش المصرى بتاريخ جمادى الثانية سنة ١٣٠٩ هـ يناير ١٨٩٢ م .

فليس هناك لزوم لبقاء القوة العثمانية الحجازية فى تلك القلاع (١) .

فمهنى ذلك : أن محافظ المدينة وربما والى الحجاز أيضا هما اللذان قاما بهذا العمل دون حساب لعواقبه التى تؤدى إلى توريث استانبول والقاهرة فى عمل غير مرض ، أو لعل سياستهما نبعت من تراجع الدولة وتبصرها عواقب الأمور .

وفى نهاية المطاف دارت المفاوضات بين الدولة العثمانية ، والجانبين المصرى والانجليزى وانتهت باستجابة الخديوى المصرى عباس الثانى فى سنة ١٣٠٩ هـ / العاشر من فبراير سنة ١٨٩٢ م لطلب الدولة العثمانية وأصدر أمره إلى الحاميات المصرية فى ضبا والمويج بالانسحاب الفورى من قلعتى هاتين البلدين .. وفى الوقت نفسه أمر القوات المصرية المتمركزة فى العقبة بالبقاء فيها .. بيد أن المفاوضات بين الجانبين دارت حول مصير العقبة وتخفضت هذه المفاوضات عن تخلى الحكومة العثمانية عن أية مطالب لها فى سيناء مقابل جلاء الحامية المصرية عن العقبة ، وفى شهر شوال سنة ١٣٠٩ هـ / ١٣ أبريل ١٨٩٢ م انسحبت القوات المصرية من العقبة . وقد قنع الباب العالى بالاستيلاء على شمال الحجاز كاملا كما قنع الخديوى عباس الثانى بتحديد حدود ثابتة لمصر تصل إلى رأس خليج العقبة .

وقد أوصى الباب العالى فى ختام رسالته التى أبرق بها الى الخديوية المصرية فى ١١ من رمضان ١٣٠٩ هـ / ١٨٩١ م بضرورة الحفاظ على تعداد سكان شبه جزيرة سيناء وإدارتها كما كانت تدار من قبل فى عهد محمد على وإسماعيل وتوفيق (٢) .

ومما لا شك فيه : هو أن الدولة العثمانية قد أستغلت تجاربها السياسية التى لا تحصى والتى خاضتها طوال عصورها مع معظم دول العالم فى معالجة قضية القلاع هذه إذ تراها وقد وسعت من مساحة مطالبها لتفوز فى النهاية بما هو مطلوب ومستهدف ، وفى الوقت الذى طالبت فيه

(١) دار الوثائق القومية - محافظ مجلس الوزراء - ١ - ج ١ / ١١ حربية تلغراف وارد من دولتلو والى الحجاز الى رئيس مجلس النظار بتاريخ (١٣ يناير سنة ١٨٩٢ م) . وأنظر تلغراف من رئيس النظار المصرى إلى والى الحجاز فى (١٥ يناير ١٨٩٢ م) .

(٢) دار الوثائق القومية - محافظة أبحاث رقم ١٤١ - التلغراف رقم ٥٢ ملحق تلغراف - فى رمضان سنة

بالقلاع نجدها قد زجت بشبه جزيرة سيناء فى هذه المطالب حتى يكون المجال متسعا للمساومة بينها وبين مصر والمجتمعا معا فى الوقت الذى لا يعنيه أن تحصل على شبه الجزيرة لتفوز فى النهاية بتلك القلاع . وقد بين الزعيم المصرى مصطفى كامل مقدار المكسب الاستراتيجى الذى حصلت عليه الدولة باستيلائها على العقبة بقوله : " أما حادثة العقبة فانهم فى الواقع أوجسوا خيفة منها لأن السكة الحديدية التى ستبنيها تركيا من عمان إلى العقبة تسمح للجند التركى بدخول مصر فى ظرف أربع وعشرين ساعة " (١) .

وقد مر ما يقرب من عشر سنوات دون ظهور ما يعكر الصفو بين مصر والدولة العثمانية فى الحجاز ثم لم يلبث أن ظهر عامل جديد عكر الصفو على الساحة بين الدولتين عندما أثير موضوع الحدود من جديد بشكل مختلف فى سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م وكان هذا العامل هو بناء خط سكة حديد الحجاز الحديدية ومروره بمنطقة العقبة ، فاستلزم هذا بالضرورة أن يعيد كل طرف من الأطراف فى المنطقة حساباته فهربطانيا تضاربت الآراء عند ممثليها فى مصر بين خطورة هذا الخط على مصر والمصالح الإنجليزية فى المنطقة وبين عدم خطورته حيث كان البعض يرى أن الدوافع وراء هذا الخط دوافع استراتيجية بحتة ولا دخل للدين فيها . بينما رأى البعض الآخر أن الخط لو نفذ بالفعل فانه سيساعد الاتراك على حشد جيوشهم فى العقبة والعريش ، إلا أن ذلك ليس له قيمة استراتيجية لوقوع هذا الخط تحت رحمة الأسطول الإنجليزي فى البحر الأحمر .

ولم يقف الإنجليزي فى مصر مكتوفى الأيدي ، فقد بدأوا يشيرون من جديد قضية الحدود المصرية فى سيناء ، ويؤكدون أنها تنتهى عند العقبة ، وأنها تشمل الحصن والقرية (٢) .

وبعد عامين من بداية هذا التراشق السياسى ، أخذت الأمور شكلا جديدا وظهرت التحركات العسكرية عندما تمخضت الدراسات الخاصة بمشروع السكة الحديدية الحديدية عن تحديد خط قرعى من معان إلى العقبة ، وتم فى سنة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥ م إقامة مبانى المحطة الخاصة بهذا الخط الفرعى ، وكان لبداية عمليات بناء الخطوط التى صاحبها تحركات عسكرية عثمانية أثر كبير فى وقوع أزمة طابا (٣) .

(١) مصطفى كامل - أوراق مصطفى كامل (المراسلات) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ م - ص ٢٣٩ .

(٢) د/ صالح عمرو - النزاع التركى المصرى - ص ص ١٨ ، ١٩ .

(٣) د/ السيد محمد الدقن - سكة حديد الحجاز الحديدية - دراسة وثائقية - ط ٠ سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ص ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

ويذكر أحد الباحثين ^(١) أن بريطانيا هي التي بمثل المشكلة من جديد عندما أرسلت صوفدا من قبلها إلى قرية النخل ^(٢) لجمع المعلومات عن الأمن هناك وزودته بقوة صغيرة على أن يبنى دارا للحكومة ومسجدا وقلاعا في ذلك المكان ، وما لبثت الإدارة الإنجليزية في مصر أن عينته قائدا ومفتشا عاما لسيناء كلها ، مما زاد شكوك الحكومة العثمانية في الأمر واعتبرته محاولة للتدخل في مشروع الخط الحديدي الحجازي .

بينما يؤكد باحث آخر: ^(٣) أن تركيا هي التي أرادت أن تقصى المصريين بعيدا عن منطقة العقبة فأرسلت قوة احتلت مركز طابا في غرب العقبة وداخل حدود مصر مما حدا بالحكومة الإنجليزية إلى أن تتدخل في الأمر ، إلا أن استاذنا الدكتور / السيد محمد الدقن يأتي لنا بتفصيلات أدق تكشف أبعاد الموضوع بجلاء ، فيذكر أن وصول القوات العثمانية إلى العقبة قد أقلق الحكومة الإنجليزية وسلطاتها في القاهرة .

ففي يناير سنة ١٩٠٦ م / ١٣٢٤ هـ وصل عدد القوات العثمانية التي تجمعت في العقبة إلى ألف ومائتي جندي ، بالإضافة إلى وصول قوات عثمانية أخرى إلى أم الرشراش (إيلات) كما قفزت قوة عثمانية أخرى إلى منطقة طابا .

وفي بداية هذا العام عمدت القوات العثمانية إلى خلع أعمدة الحدود المقامة فيما بين رفح

(١) د/ صالح عمرو - النزاع التركي المصري ص ٢٠ .

(٢) تعد قرية النخل من أهم المحطات على طريق الحاج المصري عبر سيناء حيث توجد في قلب شبه الجزيرة وكانت عاصمة لبلاد التيه بل عاصمة سيناء قبل الحرب العالمية الأولى وتقع النخل على الجانب الأيمن لوادي العريش قرب دائرة عرض ٥٥ - ٢٩ شمالا وغربي خط الطول ٣٤ وبها قلعة على هضبة يبلغ ارتفاعها ١٧٥٠ قدما عن سطح البحر وهذه القلعة بناها السلطان قنصوه الفوري وكانت هذه القرية في سنة ١٣٢٤/١٩٠٦ هـ حوالى ستين منزلا ويقسمها شارع في وسطها إلى قسمين شرقي وغربي وتبلغ المسافقيين نخل والسويس ثمانين ميلا وبين نخل والعقبة سبعين ميلا - أنظر : السيد عبدالمجيد بكر - الملامح الجغرافية لضروب الحجيج ص

والعقبة تمهيدا للمطالبة بسيناء كلها ، مما حدا بأسعد رفعت أفندى عرفات إلى تبليغ السلطات المصرية والانجليزية بما حدث (١) .

وقى أول فبراير من العام نفسه تحركت تعزيزات عثمانية متجهة إلى تلك المنطقة لحماية العقبة ، كانت هذه التعزيزات مؤلفة من لواءين من قوات المشاة ، كما قامت قوات عثمانية أخرى باحتلال بعض المراكز فى الأراضي المصرية على الساحل الغربى لمخليج العقبة ، وهي (نقيب العقبة) ، (والقطار) (٢) .

ويؤكد استاذنا الدكتور / الدقن : أن التحركات العثمانية كانت بمثابة إحراج لمركز بريطانيا فى مصر ، وانتقاما منها للدور الذى تلعبه ضدها فى اليمن . وعلى الجانب الآخر ظهر إصرار الحكومة المصرية والانجليزية على التمسك بمنطقة طابا ، وقد تم إرسال قوة مصرية مكونة من خمسين جنديا وضابطا بقيادة الأميرال سعد بك رفعت قائد سيناء على ظهر السفينة (نور البحر) لاحتلال وادى طابا وذلك فى ذى القعدة ١٣٢٤ هـ/ يناير ١٩٠٦ م غير أن القوات التركية منعتها من تحقيق هدفها فاضطر الأميرال سعد بك إلى إنزال الجنود فى جزيرة فرعون على بعد عدة أميال من طابا ، كما قامت السلطات الانجليزية فى هذا التاريخ بتشكيل مظاهرة بحرية تهديدية عندما أرسلت البارجة ديانا إلى مياه الخليج فى مواجهة العقبة تحسبا لما يلزم من قوة ردع (٣) .

كما عمد الانجليز إلى تنظيم مظاهرة بحرية تهديدية أخرى بالقرب من السواحل التركية ، وبذلك تكون المجتثرا قد كشرت عن أنيابها بشكل سافر ، ولا سيما بعد أن أصدرت الخارجية البريطانية إنذارها الموجه للعثمانيين فى سنة ١٣٢٥ هـ / ٣ من مايو سنة ١٩٠٦ م .

- (١) سالم اليماني - سيناء الأرض والحرب والبشر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٥ م - ص ١٨ .
 - (٢) د/ السيد محمد الدقن - سكة حديد الحجاز الحميدية - ص ١٨٥ وما بعدها .. وأنظر محمد حسين هيكل - مذكرات فى السياسة المصرية - ج ١ دار المعارف القاهرة ١٩٥١ م - ص ٢٦ .
 - (٣) أوراق مصطفى كامل - المراسلات - ص ٢٣٩ .
- وأنظر : د/ السيد محمد الدقن - سكة حديد الحجاز - ص ١٨٧ ، ١٨٨ .
- ود/ يونان لبيب رزق - الأصول التاريخية لمسألة طابا - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٣ م -

وقد اشتمل هذا الإنذار على التهديد بحدوث نتائج وخيمة للغاية إذا لم تنسحب القوات العثمانية فى مدة عشرة أيام من المواقع التى احتلتها ، مما حدا فى النهاية بالدولة العثمانية إلى الاستجابة للإنذار البريطانى وإعلانها الاستعداد للتسحاب فى ١٣٢٥ هـ / ١٤ من مايو سنة ١٩٠٦ م^(١) . ويعيننا هنا أن نشير إلى الموقف الشعبى فى مصر إزاء تلك المشكلة التى بدأت بالقلاع الحجازية وانتهت على رمال شبه جزيرة سيناء .

فعلى الرغم من أن هذا الصراع كان بين العثمانيين والحجازيين من جهة ، والحكومة المصرية والانجليزية من جهة أخرى ، إلا أن نبض الشارع المصرى كان فى جانب العثمانيين وضد الحكومة المصرية والانجليزية معا ، حتى قُسر ذلك بالتعصب الدينى من جانب المصريين لبنى دينهم العثمانيين فى حين أنهم لا يشقون فى الحكومتين المصرية والانجليزية معا .

ويبدو أن هذه المشاعر الدينية التى دفعت المصريين لموازرة العثمانيين إنما جاءت نتيجة لتلك الحملة الشديدة التى أثارتها بعض الصحف المصرية (٢) ضد الاحتلال إبان الأزمة مؤيدة فى ذلك الموقف العثمانى . وكان مختار باشا المندوب السامى العثمانى فى مصر يشعل أوار هذه الحملة الشعبية على الحكومة المصرية والاحتلال معا (٣) .

ولا يمكننا أن ننكر أن هذه المشاعر كانت مشاعر وطنية أيضا ... لوقوع مصر فى قبضة مستعمر غاشم ، لا يحب المصريون أن يقع تحت وطأته مزيد من الأماكن والبلدان لهذا وجدنا أن مصطفى كامل - الزعيم الوطنى المصرى يقف إلى جانب الدولة العثمانية ، وأخذ يدافع عن

(١) أنظر تفاصيل ذلك عند :

فاروق جميل جاويش - العلاقات المصرية العثمانية فى عهد الخديوى عباس الثانى (١٨٩٢-١٩١٤م) رسالة دكتوراه من جامعة الأزهر - ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ص ٢٤٢ ومابعدها .. وأنظر : د/ يونان لبيب - الأصول التاريخية لمسألة طابا - ص ٣٤ ومابعدها .

(٢) تزعم حملة الصحف المؤيدة للدولة العثمانية جريدتان هما : المؤيد واللواء اللتان زعمتا بأن مصر لا تقام فى أن تكون طابا تركية . أنظر : محمد حسين هيكل - مذكرات فى السياسة المصرية - ج ١ ص ٢٦ .

أحمد لطفى السيد (باشا) - صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية فى مصر من مارس ١٩٠٧ إلى مارس ١٩٠٩ م - مكتبة النهضة - مصر ١٩٤٦ م - ص ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

وأنظر : د / يونان لبيب - الأصول التاريخية لمسألة طابا - ص ٨٢ .

موقفها ومطالبها بكل جهده ، فقد كان مصطفى كامل يعتمد فى مطالباته الوطنية على موازنة دولة الخلافة الاسلامية العثمانية لرفع نير الاحتلال الانجليزى عن مصر ، إلا أن رضوخ الدولة العثمانية لمطالب المحتل جاء صفة كبرى لآمال وجهود مصطفى كامل ، وأسقطت من يده ورقة قوية طالما اعتمد عليها فى نضاله الوطنى ، هذه الورقة هى مساندة (١) الأستانة لجهوده المستصيبة .

وقد دفع الموقف الشعبى المصرى - المناهض للحكومة المصرية - والانجليزية سلطات الاحتلال إلى استدعاء قوات عسكرية بريطانية إضافية لتدارك الموقف (٢) فى مصر ولمساندة قوات الاحتلال فيها .

(١) محمد حسنين هيكل - تراجم مصرية وغربية - مطبعة مصر - ص ١٤٦ .

(٢) أحمد لطفى السيد - صفحات مطوية - ص ٨٢ .

مصر والحجاز منفى للمذبذبين والمعاوضين فى التطويين :

لا يستطيع الباحث فى تاريخ العلاقات العربية أن ينكر حقيقة تاريخية واضحة وهى أن كانت تتخذ الحجاز فى فترات تاريخية مختلفة منفى للمذبذبين أو ذوى الاتجاهات السياسية المعارضة ويبدو أن ذلك نظاما مصريا لم يقتصر على الحجاز فقد سبق أن أشرت إلى أن مصر اتخذت السيو كذلك منفى للمفضوب عليهم طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين (١) .

كما أن الشام اتخذ كذلك فى فترات سياسية وتاريخية سابقة ، والباحث فى العصور الامة الأول يجد كثيرا من الأمثلة على ذلك .

أولا : أشهر المنفيين من مصر إلى الحجاز :

يرى الجبرتى فى تاريخه أن كثيرا من المصريين تم نفيهم إلى الحجاز وأكتفى بذكر مثال واحد رواء :

نفى سنة ١١٧٨ هـ / ١٧٦٤ م أمر على بك بنفى مجموعة من الناس كان على رأسهم عبدالرحمن كتحذا وقد كان سعى على بك لنفى عبدالرحمن كتحذا إلى الحجاز ضمن مخطط شامل لإز من عساهم أن ينافسوه فى منصب مشيخة البلد الذى عض عليه بالنواجز (٢) فأرسله إلى السيو فى حراسة صالح بيك ليوصله إليها ، فلما وصل إلى السويس تم نفيه إلى الحجاز ، ويض الجبرتى عن نفي عبدالرحمن ما يلى :

" وارتجت مصر فى ذلك اليوم وخصوصا لخروج عبدالرحمن كتحذا ، فإنه كان أعظم الجبه وكبيرهم وابن سيدهم ، وله الصولة والكلمة والشهرة وبه ارتفع قدر البينكجيرية (٣) على العزب وكان له عزوة كبيرة ، وماليك وأتباع وعساكر مغاربة وغيرهم حتى ظن الناس وقوع فتنة عظيمة ذلك اليوم ، فلم يحصل شئ من ذلك سوى منازل بالناس من البهتة والتعجب " (٤)

وقد أقام عبدالرحمن كتحذا فى الحجاز اثنتى عشرة سنة حتى سافر يوسف بيك أميرا لقاف الحج فى ١٩٨٩ هـ / ١٧٧٥ م ، فلما قضى الحجاج مناسكهم صمم يوسف بك على إحضار عبدالرحمن معه إلى مصر فأحضره فى تختروان بعد أن أستولى عليه الكبر والهم ، ولكنه توفى به أحد عشر يوما من وصوله إلى بيته (٥) .

(١) سعد الحلوانى - الحكم المصري فى سواكن وملحقاتها ص ٩٤ وما بعدها .

(٢) د/ ليلى عبداللطيف - الصعيد فى عهد شيخ العرب همام ص ١٣٦ .

(٣) البينكجيرية أو الانكشارية هم الجند الجديد ، وهى كلمة مركبة من جزئين ينى أى الجديد ، وتشرى الجند .

أنظر : د / أحمد السميد - تأصيل ما ورد فى الجبرتى - ص ٣١ .

(٤) الجبرتى - عجائب الآثار - ج ١ ص ٣٢٦ .

(٥) المصدر السابق - ج ٢ ص ٩ وأنظر طرفا من حياة عبدالرحمن وأعماله ومنتاصبه ص ٢ وما بعدها .

ومن أشهر الرجال الذين نفوا من مصر بعد الجبرتي إلى الحجاز : عباس حلمي باشا الأول قبل ولايته على مصر بوقت قليل .

فقد كان عباس باشا أكبر أفراد الأسرة العلوية سناً وبالتالى كان أحقهم بالولاية بعد إبراهيم بن محمد على ، وقد حاول محمد على تجهيز حفيده هذا لولاية الحكم إلا أن عباساً كان خلواً من المواهب الإدارية ، ولم يكن يرضي عمه إبراهيم باشا ما كان ينطوى عليه عباس من سلوك يتم عن قسوة يميل إليها فى معاملة الأهالى حتى أضطره إبراهيم باشا الى الهجرة الى الحجاز (١) متفياً هناك .

وقد سافر عباس باشا إلى الحجاز فى ٢٧ من شعبان سنة ١٢٦٤ هـ / ٣٠ من يوليو سنة ١٨٤٨ م ولكنه لم يطل به المقام هناك سوى أربعة أشهر تقريباً إذ داهم الموت عمه إبراهيم باشا فى ١٤ من ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ / ١٣ من نوفمبر ١٨٤٨ م أما جده محمد على باشا فإن غيبوبة الموت كانت قد أحاطت به آنذاك ، فلهذا شكل مجلس خاص لتسيير دفة الحكم فى مصر إلى أن يتم استدعاء عباس من الحجاز ليجلس على أريكة الحكم ، فلما استدعى جاء الى مصر وتولى حكمها فى ٢٧ من ذى الحجة سنة ١٢٦٤ هـ / ٢٤ من نوفمبر سنة ١٨٤٨ م . (٢)

ومن المشاهير الذين نفوا من مصر إلى الحجاز المفكر الاسلامى الكبير جمال الدين الأفغانى ، فقد صدر فى شهر رمضان سنة ١٢٩٦ هـ / أغسطس ١٨٧٩ م أمر الخديوى توفيق متضمناً نفى الشيخ جمال الدين الأفغانى والأسباب التى دعت الخديوى إلى إصداره .. وقهى هذا الأمر أنه منذ شعور الحكومة بوجود جماعة سرية مجتمعة على فساد الدين والدنيا ، رئيسها يدعى : جمال الدين الأفغانى .. مطرود من بلاده ، ثم من الاستانة ، وتم ضبط أوراق عنده ، فأبعدته الحكومة عن الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية ، وجهته من طريق السويس إلى الأقطار الحجازية لإزالة الفساد من البلاد عبرة للمعتبرين (٣) .

(١) عبدالرحمن الرافعى - عصر اسماعيل - ج ١ - ص ١٥ ، ١٦ .

وأنظر محمد فهى لهيطة - تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ص ١٩٤ .

(٢) أمين سامى - تقويم النيل - م ١ ج ٣ ص ٩٠٣ .

(٣) الوقائع المصرية العدد ٨٢٦٠ (١٣) من رمضان سنة ١٢٩٦ هـ / ٣١ من أغسطس سنة ١٨٧٩ م .

ومما يجدر ذكره : أن كثيرا من الباحثين (١) وبعض المفكرين ذكروا أن نفى جمال الدين كان من مصر إلى الهند ، لكن الوقائع المصرية لم تؤيد روايتهم هذه فلقد جاء فيها أن السيد / جمال الدين نفى إلى الحجاز .

وإذا كانت السلطات قد سمحت له بعد ذلك بالسفر إلى الهند ، فهذا شئ آخر لا يغير من فحوى قرار النفى السالف ذكره .

ومن الأمثلة التي يمكن أن نسوقها في هذا المجال : نفى العالم المعروف محمد بن علي التميمي المغربي التونسي الذي كان من كبار العلماء المغريين الذين عاشوا في مصر ، بل وتولوا فيها مناصب وأعمال رفيعة ، فقد أسند إلى محمد التميمي نظارة مسجد أبي الذهب ، كما أسند إليه أيضا الاشراف على أوقافه ، وكانت له اتصالات بكبار القوم ، وعلى رأسهم ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا ، وقد آمنه ابراهيم على تعليم أبنائه ، مما يدل على مبلغ علم الرجل . وكان محمد التميمي يقوم بالتدريس في الأزهر اشريف ، بجانب أعماله السابقة ، إلا أنه بعد وفاة ابراهيم باشا... أمر عباس باشا بنفيه إلى الحجاز ، فأقام به فترة من الزمن ثم رحل بعدها إلى القسطنطينية حيث وافاه أجله هناك سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ (٢) .

ثانيا : أشهر المنفيين من الحجاز إلى مصر :

كذلك كان النفي من الحجاز إلى مصر سياسة متبعة ، كثيرا ما مارستها السلطات في الحجاز ومصر ، على مدى العصور السابقة ، فعندما دخل السلطان سليم الأول مصر منتصرا في سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧ م وجد القاضي الحجازي صلاح الدين ابن أبي السعود بن ظهيرة منفيًا بها لعجزه عن أداء عشرة الاف دينار طالبت به بها حكومة السلطان الغوري ، كما وجد في مصر كذلك بعض أعيان مكة المنفيين بها لأمر نقمها عليهم سلطان مصر فأمر السلطان سليم الأول بإكرامهم وعودتهم جميعا إلى وطنهم (مكة) المكرمة (٣) .

(١) منهم : أحمد أمين - زعماء الاصلاح ص ٨٢ .

(٢) خير الدين الزركلي - الأعلام - م ٣ - ص ص ٩٥٤ ، ٩٥٥ .

(٣) ابن زيني دحلان - خلاصة الكلام ص ص ٥٠ ، ٥١ .

وفى عصر محمد على باشا اتخذت مصر منفى لأبناء وأحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وقد أقام هؤلاء ردحا طويلا من الزمن فى مصر، وتوفى بعضهم فيها (١). وكان لمعظمهم دور كبير فى إثراء الحركة الفكرية والثقافية بين مصر والحجاز كما سيأتى بيانه فى الفصل الرابع .

وفى شهر صفر سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م بمثل الشريف محمد بن عون بالتماس إلى محمد على باشا يرجوه فيه العفو عن آل سبعة عشر رهلا الذين نفوا من المدينة المنورة إلى مصر ، وقد سمح لهم محمد على بعد أن صفح عنهم بالمشى فى الأسواق ووعد بأنه سوف يطلق سراحهم إلى وطنهم ، ولقد طلب الشريف فى التماسه هذا أن يكون صفح محمد على عنهم كأنه تم بوساطة الشريف لهم حتى تزداد هيئته ويتحسن مركزه بين القبائل (٢) .

فقد تولى هذا الشريف على إمارة مكة بعد وفاة عمه الشريف عون الرفيق سنة ١٢٢٣ هـ / ١٩٠٥ م وكان الشريف على من أصدقاء السلطان العثمانى - عبد الحميد الثانى - فلما قامت حركة الاتحاد والترقى فى الآستانة ونجحت فى السيطرة على مقدرات الأمور أصدر الاتحاديون أوامره بإعلان الدستور فى الولايات العثمانية ، إلا أن الشريف عليا تباطأ فى الاعلان مما أغضب عليه الاتحاديين ، فأصدروا أمرا بعزله فى ٢٨ من رمضان سنة ١٣٢٦ هـ / ٢٥ من أكتوبر سنة ١٩٠٨ ، ثم أصدروا أمرا بنفيه وعائلته الى مصر (٣) .

غير أن أحد الباحثين يذكر : (٤) أن الشريف عليا استقال ولجأ الى مصر خشية بطش الاتحاديين .

(١) ابراهيم عبدالمحسن - تذكرة أولى النهى - ص ٥ وما بعدها و ١٧٣ و ٢٢٢ ومجلة الدارة - العدد ٣ السنة الخامسة - (ربيع ثان سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠) .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة التركية رقم ٧ أصله محفوظة ٢٦٩ عابدين - من الشريف محمد بن عون من المدينة المنورة إلى المعاونة السنية (بتاريخ غرة صفر سنة ١٢٥٦) .

(٣) حافظ وهبه - جزيرة العرب فى القرن العشرين - ص ١٤٦ .. وأنظر : أحمد السباعى - تاريخ مكة - ص ٥٦٠ .

(٤) د/ طالب محمد وهيم - مملكة الحجاز - ص ٣٤ .

كما يذكر (١): أن الشريف عليا خشي أن يعمد رجال الاتحاد إلى الانتقام منه ، فغادر الحجاز على عجل وذهب إلى مصر لاجئا سياسيا .

والصحيح هو ما رواه السباعي وهبه لأن الاتحاديين عزلوا والي الحجاز- أحمد راتب - لتباطئه هو الآخر في إعلان الدستور وعينوا مكانه كاظم باشا ، ولأن هذين الباحثين لم يمعنا النظر فيما نقلاه عن حافظ وهبه والسباعي وهما المؤرخان اللذان اعتمدت على روايتهما فيما ذكرته وتعد كتابتهما مصدرا أصليا للوقائع التاريخية في تلك الحقبة في الحجاز .

وقد رحل الشريف علي إلى مصر حاملا معه أموالا طائلة وكثيرا من الذهب والورق ، فاشترى بها املاكا وعقارات ، كما اقتنى قصرا في منطقة حدائق القبة عاش فيه عيشة رغدة وكان يغد عليه الكثيرون من أبناء الأسر الهاشمية في الشدة والرخاء (٢) .

يتضح مما سبق مدى الترابط الوطيد بين مصر والحجاز والدور الذي لعبته مصر في درء الكثير من الأخطار التي أهدقت بالحجاز ، وقد أظهرت الأحداث مدى تمسك محمد علي باشا بالحجاز ، وفي المقابل موقف الحجازيين الذي تمثل في استعدادات شريف مكة لصد أي اعتداءات انجليزية أو أوربية بعد التهديدات الانجليزية لمحمد علي ومناطق نفوذه ، كما ظهر الترابط أيضا من حرص الأشراف على الحفاظ على الجيش المصري أثناء انسحابه إلى مصر سن ١٢٥٦هـ / ١٢٥٧هـ - ١٨٤٠م / ١٨٤١م .

ولم ينته الأمر بين القطرين بخروج جيش محمد علي ، بل استمرت العلاقات السياسية حيث ظلت بعض آثار السطوة المصرية السياسية في الحجاز ، وظهرت في التدخل لعزل والي جدة عثمان باشا تاتار انتصارا لشريف مكة محمد بن عون الذي كانت تربطه هو وأسرته علاقات وطيدة بمصر ، واستمرت العيون المصرية ساهرة على حماية الحجاز عند تعرضه للأخطار ، وخاصة عندما ثار العسيريون ، وسببوا بعض القلاقل للحجاز كانت لهم مصر بالمرصاد ، فتدخلت بالترغيب والترهيب

(١) د/ فائق بكر الصواف - العلاقات بين الدولة العثمانية وأقليم الحجاز - ص ٩٩ .

(٢) حسين بن محمد نصيف ماضي الحجاز وحاضره - ج١ - مكتبة خضير ط ١ مصر - ١٣٤٩هـ ص ٥ .

حتى كسرت شوكتهم وكبحت جماهم ، كما تحملت مصر عبء إدارة مينائي سواكن ومصوع وسعت إلى ضمهما اليها رغم معارضة ولاية جدة لذلك ، و كانت هذه المساعي مع ما تلاها من صراع سياسى على السيطرة على قلاع الحجاز بعض نقاط الخلاف التى ثارت بين القطرين إلا أن تسويتها كانا بالطريقة الدبلوماسية التى لم تؤثر مطلقا فى العلاقات الوطيدة بين الشعبين .

كما ظهر الارتباط واضحا فى تبادل نفى الأفراد بين القطرين بشكل غير منتظم .. وهذا فى حد ذاته يعطى للباحث تخيلا وإحساسا بامتداد كل قطر ليكمل الآخر ليس فقط جغرافيا ، وإنما من وجوه أخرى عديدة .

الفصل الثالث

العلاقات التجارية بين مصر والحجاز

تقديم :

كان لمصر السيادة على الحجاز فى العصرين الفاطمى والأيوبي .
وقد أصبحت هذه السيادة فى العصر المملوكى أكثر وضوحا وأشد رسوخا وعلى الرغم من ذلك
فقد كان تصريف شئون الحكم فى الحجاز فى يد الأشراف لكن تحت السيادة المصرية .
أما ميناء جدة - ثغر الحجاز الرئيسى - فقد ظل تحت السيطرة المصرية المباشرة إبان العصر
المملوكى .

ولقد اعتمد الحجاز إلى حد كبير على ما اعتادت مصر أن ترسله كل عام من خيرات إلى
الحرمين وبعض القبائل العربية فى المنطقة الحجازية وهذا عدا المرتبات المنتظمة التى كانت تبعث بها
إلى الأشراف . ويدخل العثمانيون مصر والشام رأي السلطان سليم الأول إبقاء الأمر فى الحجاز على
ما هو عليه من سيطرة الأشراف على الحكم تحت السيادة العثمانية والإشراف المصرى مع ما ترسله مصر
من مخصصات الحجاز وكان من مقتضى السيادة العثمانية على الحجاز أن تظل مصر مركزا لادار
شئونه والإشراف عليه وأن تكون معبرا للسيادة العثمانية عليه .

أما جدة فقد باتت مع بعض الموانئ والمناطق الخاضعة للعثمانيين على ساحل البحر الأحمر
كسواكن ومصروع باشوية جديدة عرفت باسم باشوية جدة وولاية الحيش واستمرت علاقات مصر
بالحجاز قائمة فى ازدياد وفاء طوال العصر العثمانى وتنوعت تلك العلاقات بينهما فى الجانب
الاقتصادي فى نواح شتى ونخص بالذكر هنا العلاقات التجارية التى كانت قائمة بين الولاياتين
فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حتى بداية الحرب العالمية الأولى .

أسباب رواج التجارة بين مصر والحجاز فى هذه الحقبة :

لقد تضافرت عوامل كثيرة ساعدت على ازدياد النشاط التجاري بين البلدين وتمثل هذه العوامل فيما يلى :

أولا : عناية مصر بالبحر الأحمر وسواحلها والتي أصبح معظمها خاضعا للسيادة المصرية فى القرن التاسع عشر .

ثانيا : استيلاء مصر على ميناء سواكن الذي يعد المخرج البحرى الوحيد آنذاك للتجارة السودانية ، وأقرب الثغور الشرقية إلى جدة مما ضاعف من حجم التبادل التجارى بين مصر والحجاز عن طريق سواكن جدة .

ثالثا : قرب الموانئ المصرية واتصالها بالموانئ الحجازية المواجهة لها على الضفاف الشرقية للبحر الأحمر .

رابعا : وجود روابط اجتماعية بين القطرين والتي من أجلها دام الاتصال والسفر بين البلدين .

خامسا : ظهور الشركات الملاحية المصرية فى البحر الأحمر والذي أدى إلى ازدياد التبادل التجارى بين القطرين .

ولذلك فقد عمدت الحكومة المصرية منذ سنة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م إلى تسيير خطوط ملاحية منظمة بين السويس وسواكن وجدة ، ويمكننا أن نعرف نظام الرحلة الدورية لإحدى البواخر المصرية من خلال الأمر الصادر إلى وكيل الكمبانية العزيزية بالسويس (١) فى ١٨ من رمضان ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م بأن يتم شحن الباخرة (مصوع) بآلات التلغراف المرسلة إلى سواكن مع بعض

(١) هى شركة لتسيير السفن التجارية والسفيرة فى البحر الأحمر والمتوسط اشترك فيها مجموعة النظار والأثرياء المصريين وبعض الأجانب وقد تمت الموافقة على انشائها فى ٥ من ذى الحجة سنة ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٣ م على أن يكون أسم الشركة (الشركة المصرية فى سياحة السفن) ومدة الترخيص لها ثلاثون عاما ، وقد منحتها

المهمات والتعينات لإنزالها فى سواكن ثم تتجه بعد ذلك الى جدة مشحونه بالبضائع التجارية التى حملتها من سواكن لتفريغها فى جدة ، ثم تحمل بضائع أخرى من جدة وتتم شحن حمولتها لتعود بها الى السويس (١) فمن هذا الأمر نعرف خط سير السفن الحكومية التجارية التى تشرف عليها الكومبانية العزيزية وهو السويس - سواكن - جدة - السويس .

ومما هو جدير بالذكر أن الحكومة المصرية دعمت الأسطول الحربى منذ سنة ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥ م للسيطرة على تلك المنافذ والسواحل فى البحر الأحمر .

بيد أن المجتثرا خشيت من ظهور قوة عسكرية مصرية كتلك القوة التى ظهرت فى عصر محمد على فأوعزت إلى الدولة العثمانية بوضع العراقيل وتحجيم هذا الأسطول مما أضطر مصر إلى أن تتجه اتجاهها آخر تركز فى تقوية شركات الملاحة التجارية التى تعمل فى هذا البحر ، وقد ساعدها هذا على رواج التجارة بين موانيه (٢) ، خاصة أن ميناء جدة كان يزدهم فى مواسم كثيرة بسفن تجارة الهند وجاوا ، وهؤلاء كانوا على درجة كبيرة من الشراء والخبرة فى الأمور التجارية مما يجعل التعامل معهم مربحا للغاية (٣) .

=====

الدولة الكثير من الامتيازات ثم تحول اسم الشركة الى (الكومبانية العزيزية) تيمنا باسم السلطان عبدالعزیز (١٨٦٣-١٨٧٦) م .

أنظر : دار الوثائق القومية - الوثيق رقم ٦٤٠ ص ١٠٠ دفتر ١٩٠٧ أوامر بتاريخ (٣ من شعبان سنة ١٢٨٠هـ) ، والوثيقة رقم ٣٨٠ - دفتر ٢١ - عابدين . بتاريخ ١١ من ذى القعدة سنة ١٢٨٠هـ .

(١) دار الوثائق القومية - التلغراف التركى رقم ١٢٧ الدفتر ٢ عابدين صادر لتلغرافات- من رياض باشا إلى وكيل الكمبانية العزيزية بالسويس بتاريخ ١٨ من رمضان سنة ١٢٨٢ هـ) .

(٢) د/ شوقي الجمل - الوثائق التاريخية - ص ٣ وتاريخ السودان وادى النيل - ج ٢ - ص ١٥ .

(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٩٤ أصلية محفوظة ٢٦٩ عابدين - من الشريف محمد بن عون إلى المصية السنية بتاريخ ٧ من محرم سنة ١٢٥٧ هـ .

الأنماط التجارية المتبادلة بين مصر والحجاز :

سأفصل الحديث فيما يلى عن أشهر السلع التجارية التى استقبلتها كل من مصر والحجاز أو صدرتها فى مجال التبادل التجارى بينهما .

أولاً : تجارة البن :

سبق أن ذكرنا أنه كان هناك تجارة رائجة بين مصر والحجاز فى بداية القرن التاسع عشر وأن نابليون بونابرت حاول استغلال هذا الرواج الاقتصادى التجارى بين البلدين فأرسل إلى شريف مكة فى طلب نقل وتشجيع التجارة الحجازية الى مصر وقد أجابه الشريف بإرسال عدة مراكب تصحبها تجارة خاصة بالشريف وكميات كبيرة من البن (١) .

وفى عهد محمد على وقبل سيطرته على شبه الجزيرة العربية - كان للتجارة المصرية مع بلاد الحجاز قدرها وضرورتها ، وآثارها الواضحة ، فيذكر الجبرتي فى أحداث جمادى الأولى سنة ١٢٢٦هـ (٢) ، أن الوارد انقطع من الديار الحجازية وغلا سعر البن حتى وصل الى مائتين وسبعين نصف فضة لكل رطل ، وقل وجوده من الأسواق والدكاكين ، فلا يوجد الا مع المشقة ، وصنع الناس القهوة من أنواع الحبوب المحمصة كالشعير والتمح والفلو ويزز العاقول مخلوطا مع البن وغير خلط وفى الشهر التالى أى فى جمادى الثانية يذكر الجبرتي انفراج الأزمة فيقول "وفيه وردت مراكب وداوات (٣) وفيها البن وذلك باستدعاء الباشا لها من ناحية جدة .. وانحل سعر البن " وفى سنة ١٢٢٦هـ / ١٨١١ م أعرب الشريف عن ولائه لمحمد على باشا عندما أمر قادة السفن الكائنة بمرساة ينبع بأن ينقلوا ما فيها من مال التجار وغيرهم ويودعوه قلعة المدينة (ينبع) ثم أخذ هذه السفن وأوسطها بما فيها من بضائع وبهاروين وأرسلها إلى السويس لتباع بمصر (٤) .

فاذا كان هذا هو حال التجارة قبل استيلاء (محمد على) على شبه الجزيرة العربية فمن البدهى أن حالها قد دب فيه النشاط بعد أن صارت مصر والحجاز تحت إدارة واحدة هى إدارة محمد على

(١) أنظر : الفصل الأول .

(٢) الجبرتي - عجائب الآثار- ج ٤ - ص ١٩٢ .

(٣) الداوات هى السفن الكبيرة .

(٤) الجبرتي - عجائب الآثار- ج ٤ - ص ١٩٤ .

فأصبحت هناك قوافل من السفن تمخر عباب البحر الأحمر باستمرار مما شجع على نقل التجارة بين البلدين بصورة منتظمة ، ومكثفة .

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن الحجاز لم يكن فى الغالب ينتج شيئاً (١) يشكل سلعة تجارية وكان البن يرد من اليمن إلى جدة أو القنفذة ، ويتم تصديره بعد ذلك بوسائل التجارة المعروفة إلى مصر ، كما كان الحال كذلك بالنسبة للبضائع الأخرى التى كانت ترد من الهند وجاوا وغيرها (٢) .

وقد عانت كل من مصر والحجاز فى سنة ١٢٥٣ هـ / ١٨٣٧ م من قلة البن الوارد من اليمن بسبب عسف حكام هذا الاقليم بزّاع البن خاصة حكام صنعاء ، هذا بالإضافة الى أن منطقة عدن التى يكثر بها زراعة البن وكان يسيطر عليها الثوار اليمنيون الذين ظلوا فى ثورة دائمة ضد الحكم المصرى تمكنوا من قطع امدادات البن الذى يمتاز به إقليم عدن ، ولذلك فقد اقترح ابراهيم توفيق باشا قائد الجنود المصرية باليمن شمول الأهالى برعاية الحكومة المصرية ومساعدتهم بتدليل العقبات فى سبيل غرس أشجار البن وترغيبهم فى ذلك حتى تكثر زراعته ويعم نفعه (٣) . وعلى الرغم من أن السودان توجد فيه زراعات للبن فى السهول الخصبة التى تقع بين عطبرة والنيل الأبيض (٤) إلا أن إنتاجه كان يباع محلياً ، ولم تكن تعتمد عليه مصر ، ربما لاعتمادها على البن اليمنى الذى كان يأتيها عن طريق الحجاز فى ذلك الوقت .

-
- (١) كما ذكر الله فى كتابه الكريم " يجرى اليه ثمرات كل شئ زقا من لدنا الآية ٥٧ من سورة القصص .
- (٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة ٢١٤ - الدفتر ١٥٦ مجلس ملكى - المحفظة ٦ أبحاث الحجاز قرار صادر من مجلس جدة بتاريخ (١٥ من ذى القعدة سنة ١٢٥٣) .
- وانظر : الوثيقة رقم ٣١٥ حمراء المحفظة ٢٦٢ عابدين - من ابراهيم توفيق باشا بالحديدة إلى الجناب العالى بتاريخ (٥ من ذى الحجة سنة ١٢٥٣ هـ) .
- وانظر : الوثيقة رقم ٢٥٥ حمراء - رقم ٩٤ أصلية ٢٦٩ من الشريف محمد بن عون الى المعية بتاريخ ٢٠ ذى الحجة سنة ٥٦ وردت فى ٧ محرم سنة ١٢٥٧ هـ) .
- (٣) دار الوثائق القومية - وثيقة رقم ٣١٥ حمراء - محفظة رقم ٢٦٢ عابدين - من ابراهيم توفيق باشا بالحديدة الى الجناب العالى بتاريخ (٥ من ذى الحجة سنة ١٢٥٣ هـ) .
- (٤) محمد صالح ضرار - تاريخ سواكن والبحر الأحمر - ص ٧٦ ،

وقد حدث فى سنة ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧م تغير ملموس فى تجارة البن بين مصر والحجاز اذ أن جدة بعد أن كانت تعتمد فى الاستيراد على البن الذى يأتىها من جهة اليمن نجد أنها - فى العام المذكور - تستورد البن من اليمن ومصر معا (١) .

والراجع عندى أن البن الذى استورده الحجاز من مصر هذا إما وصلها عن طريق السودان بعد زيادة الاهتمام بزراعته فى الأراضي السودانية ويؤيد هذا الترجيح ما جاء فى وثائق حكمدارية هور التابعة للإدارة المصرية (٢) وهو صدور الأوامر المصرية إلى حكمدار هور بتشجيع الأهالى علي زراعة البن ، وامتثال الحكمدارية لتلك الأوامر حتى بدأ الأهالى بالفعل فى زراعته.

وقد طلب أهالى هور بعض أصناف من الأقمشة فوافقت الحكومة المصرية علي إرسال ما يحتاجونه منها على شرط مبادلة الأقمشة بالبن بحيث يتم إرسال البن من هور إلى مصر وتسويقه فيها ، وما ينتج عن بيعه تخصص منه قيمة الأقمشة (٣) .

(1) Muhammad S. Al Shaafi - the foreign TRade of Juddah . O. 101.

(٢) تعد مدينة هور من أكبر مدن الحبشة من حيث العمران وتقع شرق مدينة أديس أبابا جنوب خط عرض ١٠ وشرق خط طول ٤٠ وهى أقرب الحدود الصومالية الانثيوبية وأقرب البلاد الحبشية اليها ديردا٠ ، وأقرب البلاد الصومالية اليها هوجيسة - أنظر : إدارة المساحة الأطلس العربى ص ١٢ طبع القاهرة ١٩٧٨ م ومعظم أهلها البالغ عددهم ثمانون ألف نسمة مسلمون ، ويشغلون بالتجارة والزراعة ، وريش النعام ، وتعد مدينة هور من البلاد التى اكتشفها الجغرافيون المصريون ، ولم يسبقهم إليها أحد قبلهم فى العصر الحديث .

أنظر : دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٤ - محفوظ ٣ عابدين وارد معينة من أركان حرب مأمورية هور- بتاريخ (٣ من محرم سنة ١٢٩٣ هـ) وأنظر : الوقائع المصرية العدد ٦٥٥ بتاريخ (٢٨ من ربيع أول سنة ١٢٩٣ هـ) (٢٣ من أبريل سن ١٨٧٦ م) .

(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة العربية رقم ٨ ص ٧٦ الدفتر رقم ١٠ أوامر عربية - أمر الى حكمدار هور - بتاريخ ١٨ من جمادى الثانية سنة ١٢٩٣ هـ .

ثانيا : نجاوة الملح :

كانت تجارة الملح طوال القرن التاسع عشر من التجارات الرائجة بين جدة والبلاد الساحلية التي تسيطر عليها مصر كمصوع ، وسواكن ، والقصير ، من أجل ذلك عصدت الادارة المصرية فى تلك البقاع الساحلية إلى تنمية هذا المورد الجيد وتنظيم تجارته ، وكانت فى سواكن ملاحتان هما ملاحه درج ، وملاحه راوية ، وتبعد الأولى مسافة ستين ميلا عن سواكن ، بينما تبعد الثانية عنها مسافة ١١٢ ميلا ، وكان بكل منهما جنود وكتاب لضبط عملية الايرادات فى الوقت الذى كانت تنتج فيه ملاحه راوية الجزء الأكبر من الملح المصري وتبعد هذه الملاحه عن البحر بمسافة قدرها ألف وخمسمائة متر (١) فكان انتاجها من الملح يحمل إلى جدة على السفن حيث يباع هناك لتجار الهند (٢) .

وكيفية ذلك أنه كان يتم جمع كميات الملح بتكسيه بـ (القزم والمعتلات) ثم ينقل بالمقاطف وهو مشيع بالمياه حيث تحمله الحمير عبر ألف وخمسمائة متر إلى الصنادل (*) الصغيرة التى توصله الى السواعى (٣) فتنطلق تلك السواعى به الى ميناء جدة حيث تباع الأقة هناك منه بخمس فضيات تدفع اثنان منها للنقل والشحن ، بينما يحصل التجار والحكومة المصرية على ثلاثة أخماس ثمنه (٤)

(١) أنظر : أمين سامى باشا - تقويم النيل - م ٢ ج ٣ - ص ٩١٢ .

وأنظر : سعد الحلوانى - الحكم المصرى فى سواكن وملحقاتها - ص ١٥٨ .

(٢) دار الوثائق القومية محافظ أبحاث السودان تقرير أحمد ممتاز باشا محافظ سواحل البحر الأحمر الى مهودار خديوى - بتاريخ (٢٤ من المحرم سنة ١٢٨٨ هـ / ٢٦ من مارس سن ١٨٧١ م) .

(*) الصنادل جمع صندال وهى لفظ تركية تعنى الزورق ، والسنبوك " والقارب .

أنظر : محمد على الأنسى - الدراوي اللامعات - ص ٣٣٩ .

(٣) جمع ساعية وهى : المراكب التى تحمل من عشرة أطنان الى خمسة عشر طنا ويستعمل السواعى مستخرجوا اللؤلؤ والأصداف والمحار ولهذا النوع سوق رائجة بالسودان حيث يباع بأسعار جيدة .

أنظر : عبدالقدوس الأنصارى - موسوعة تاريخ جده - م ١ - ص ٤٥٨ .

(٤) دار الوثائق القومية - قسم الوثائق الأفريقية - المحفظ رقم ١١١ - سواحل البحر الأحمر - أوراق واردة من سواحل البحر الأحمر - الدفتر رقم ١٦ أحمر جورنال مرور - ص ٩ .

منها ١٨ فضة من ثمن كل أقة للحكومة ويتبقى لأصحاب الملح ١٢ فضة من ثمن كل أقة .
وقد كان النظام المعتاد قبل إحالة تلك الموانئ السودانية على الإدارة المصرية هو أن تحضر المراكب
من جدة الى سواكن لأخذ الملح وتصريفه بجدة حيث يتم الاتفاق على أثمانه هناك بين تجار الحجاز
والتجار الهنود الذين يحملونه على المراكب الهندية الى بلادهم لافتتقار بلاد الهند الى الملاحات
فى هذا الزمن - إلا أنه بعد إحالة ذلك الشغل والملاحات على مصر فى سنة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م
أمرت الادارة المصرية فى الخرطوم محافظ سواكن بعدم تصريف الملح من الموانئ المصرية كطوكر
والقصير قبل قبض الثمن من أصحاب تلك المراكب مثلهم فى ذلك مثل العربان الذين لا يعطون الملح
إلا بعد أن يدفعوا ثمنه . لكن ناظر رسومات جدة أرسل إلى محافظ سواكن فى ٢١ من شعبان
١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م يستعجل ورود الملح الى جدة نظرا لرسو ثمانية مراكب هندية تنتظر الحصول
على الملح من تجار جدة . وقد أوضح محافظ سواكن للادارة المصرية فى السودان عدم امكانية تقدير
قيمة الملح وبالتالي اقام بيعة فى سواكن لأمر فى مفاده أن الملح وقت تجميعه من الملاحه يكون مشغلا
بالماء ولا يمكن وزنه أو كيبله على هذه الصورة انما يتم شحنه فى المراكب إلى جدة حيث يتم تصفيته
فى الطريق ، وهناك فى جدة يتم بيعه لتجار الهند خاليا من الماء على أساس تحديد ثمن الأقة
بخمسة من الفضة (١) . وما يعجب له الباحث هذا الفرق الشاسع بين ثمن بيعه للتجار الهنود ،
و ثمن بيعه للأهالى فى الحجاز حيث كان يباع للتجار الهنود بخمس فضيات ، وكان يباع للأهالى
بخمسين فضة ومعنى ذلك أن الأهالى كانوا يدفعون فيه عشرة أضعاف ثمنه وهذا فرق لم نعثر له على
سبب مقنع . بيد أنه يمكننى أن أخرج من قراءتى للعديد من الوثائق بنتيجة فحواها أن تجار جدة
لم يستطيعوا احتكار الملح عند بيعه للتجار الهنود نظرا لوجود منافس تجارى قوى فى عدن التى
كانت تستخرج الملح وتخضع للاحتلال البريطانى لكنهم استغلوا ضعف الأهالى وحاجتهم فاحتكروا
الملح وباعوه لهم بأسعار باهظة زادت على السعر الذى باعوا به للتجار الهنود خمسا وأربعين فضة
فى كل أقة .

(١) دار الوثائق القومية - المكتبة العربية رقم ١٦٦ صفحه ١٩٥ - دفتر رقم ٣٥٤٣ ح صادر محافظة

سواكن من محافظ سواكن الى وكيل عموم السودان بتاريخ (٢١ من شعبان سنة ١٢٨٢ هـ) .

وانظر : مكتبة رقم ٣٦٧ - صفحة ١ ج ٢ دفتر ص ٢/٥/٢/٤ صادر محافظة سواكن (بتاريخ ٢٢

من شعبان سن ١٢٨٢ هـ) .

ونظرا للمشكلة التي طرأت أمام الادارة المصرية بخصوص طريقة تسمين وبيع الملح فقد أرسلت محافظة سواكن الى الحكومة المصرية فى ٢٢ من شعبان سن ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م بطلب تعيين من يتولى عملية وزن وتقدير وتصريف الملح فى جدة بالاضافة الى قبض ثمن المباع وضرورة الاسراع فى ذلك نظرا لوجود ست سفن هندية ترغب فى شراء الملح (١) .

وقد رأت الحكومة المصرية ضرورة تجهيز مخزن للملح فى جدة وارسال وكيل عسكرى من مصر برتبة (قاوش أغاسى) ليقوم هناك على أن يصاحبه كاتب وبعض الجنود وتكون واجبات هذا الوكيل وأعوانه مراقبة السوق التجاري وتقدير مدي احتياجه للملح ، ثم يقوم بعد ذلك بطلب الكميات اللازمة مباشرة ، وقد تم إرسال هؤلاء الرجال إلى جدة فى شوال سنة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م بعد أن حصلوا على الأوراق اللازمة لمباشرة عملهم فيها ، ولضبط وربط عملية بيع الملح هناك (٢) .

ويبدو أن هذا النظام قد تغير بعض الشئ فيما بعد وجاء فى وثيقة مؤرخة بشهر شوال سنة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م : أنه لتنظيم عملية استخراج الملح وشحنه وبيعه بجدة عينت الحكومة المصرية ابراهيم بك عمر بكر لى مأمورا على ملاحات سواكن لينظر فى كيفية تسهيل الأعمال الخاصة بتجارة الملح والتدابير التي تؤدي الى تسميتها (٣) .

فكان عليه أولا أن ينظر فى الاجراءات ثم يتجه الى جدة لاجراء ما يلزم لتسويقه ثم يرسل السفن الى سواكن لشحن الملح عليها وفى الوقت نفسه يعود هو الى سواكن للإعداد للعام التالى ، وهكذا تدور عجلة أعماله فى نظام دورى ، أما ملاحات مصوع فلم نعر على مايفيد تصدير انتاجها الى بلاد الحجاز ، ويبدو أنه كان يستهلك جميعه محليا وداخل أفريقيا على الرغم من كثرته ويؤكد هذا الافتراض ما جاء فى أحد التقارير أن مصوع كان بها ملاحه تسمى بردوله ، وأخرى تدعى عتيورى وأن جنوب الحبشة كلها كانت تشتري الملح منهما ، كما كان عريان المنطقة

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٣٦٧ - صفحة ١ محافظة سواكن عربية - صادر - ج ٢ ص ٥/٢/٤ / ٢ بتاريخ (٢٢ من شعبان سنة ١٢٨٢ هـ) .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ١ - صفحة ٢٤ ادفتر ٤ / ٢٥/٢ صادر محافظة سواكن - ج ٢ حسابات بتاريخ (٢٧ من شوال سنة ١٢٨٢ هـ) .

(٣) د/ شوقى الجمل - سياس مصر فى البحر الأحمر ص ٩٧ .

يأتون الى الملاحات التابعة لمصوع لشراء الملح منها كذلك (١) .

ثالثا : تجارة الغلال :

ظلت تجارة الغلال بين مصر والبلدان الحجازية من التجارات العظيمة (٢) نظرا لفقر تلك البلدان ولعدم وجود زراعات تقيم أود سكانها بالإضافة إلى احتياج الحجاج القادمين من مختلف الأصقاع الى ما يكفى معيشتهم طوال فترة بقائهم بالحجاز التى قد تصل إلى ثلاثة أو أربعة أشهر كل عام ولقد ظل ميناء القصير المنزلة القصوى فى عملية تخزين وشحن الغلال الى سائر البلاد الحجازية (٣) وذلك لوقوعه فى بلاد الصعيد المصرى التى كانت تنتج الغلال بوفرة ولقرية من الموانئ الحجازية .

ويذكر البتنونى (٤) : أن ميناء القصير ظل خلال القرن التاسع عشر - على الرغم من استخدام الطريق البرى هو الميناء الرئيسى لنقل وتصدير الخبثوب إلى الحجاز، فلقد كانت الغلال المخصصة لكل من الحجاز واليمن يتم شحنها من ميناء القصير الى ميناء جدة (ثغر الحجاز) وفى هذا الثغر كان يتم توزيع تلك الغلال على الجهات المخصصة لها سواء أكانت فى الحجاز أم كانت فى اليمن ، وكانت الغلال المخصصة للحرمين الشريفين ترسل من مصر إلى الحجاز عبر هذا

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة التركية رقم ٢٢ - المحفوظة رقم ٣٨ معية تركى تقرير مرفوع من حسن رفعت محافظ مصوع عن استلام ميناء مصوع بتاريخ (٦ من المحرم سنة ١٢٨٣ هـ) .

(٢) محمد جمعان دادا - جدة فى عهد الملك عبدالعزيز - ص ٥٠ .

(٣) وتعبير أحدي الوثائق : " اذ أنها هى أصل شؤون الحجاز فشرده عليها كل الذخائر التى ترسل لأجل سائر البلدان الحجازية .

أنظر : دار الوثائق القومية الوثيقة رقم ٤ أصلية / ٥٦ حمراء المحفوظة ٢٦٧ عابدين (ملف القصير) من حسين أشا محافظ القصير الى باشمعاون الخديوى بتاريخ ١٢ من محرم سنة ١٢٥٥ هـ .

(٤) محمد ليب البتنونى - الرحلة الحجازية - ص ٤٤ .

الطريق (١) . وقد حدد إبراهيم رفعت أسماء الأصناف المتبادلة بين الجهتين في الخنطة ، والأرز ، والصابون ، والسكر (٢) . كما ذكر وهو يتحدث عن رحلته الى الحجاز في سنة ١٣١٩هـ (٣) / ١٩٠١ م أن أهالي الوجه كانوا يتاجرون في الأرز والشعير والفول والحبوب الأخرى وكانت هذه الحبوب ترد إليهم من مينائي القصير والسويس على سفن شراعية .

وقد كانت أسعار الغلال في الحجاز متفاوتة وغير محددة جاء في إحدى الرسائل الرسمية أن الحكومة الخديوية المصرية قامت ببيع خمسمائة أردب من الغلال لقافلة الحج الشامي بالسعر الميرى (٤) في شهر شوال ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م وهذا معناه أنه كانت هناك أسعار أخرى غير أميرية خاضعة للعرض والطلب والاستغلال.

كما كانت الحكومة الخديوية المصرية تقوم في الأحيان بشراء بعض الغلال الواردة إلى الحجاز لحساب التجار وذلك لكفاية حاجات الحجاج وحاجات الجنود والخدم الموجودين في حراسة قوافل الحج فعلى سبيل المثال عندما وردت من رابع كمية من الغلال لحساب التجار في ذى القعدة سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٤٠م اشترى منها محافظ المدينة المنورة ما يكفى لتموين الجنود وسائر الخدم الميرية الموجودين في حراسة الحجاج على الطريق إلى مكة المكرمة ، كما اشترى أيضا ما يكفى لعليق الجمال الأميرية والخيول (٥) وذلك لعدم ورود الغلال المصرية الأميرية من اليمن .

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٢٣ أصلية / تابع لمر ٨٦ حمراء - المحفظة ٢٦٦ عابدين صورة العريضة المرسلة من حضرة سليمان أفندي محافظ جدة إلى ديوان المعاونة بتاريخ (١٧ من جمادى الأولى سنة ١٢٥٥ هـ) .

(٢) إبراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ١ - دار المعرفة - بيروت - ص ٢٤ .

(٣) إبراهيم رفعت (باشا) مرآة الحرمين - ج ١ - ص ٤٩٠ .

(٤) دار الوثائق القومية - الوثيقة التركية رقم ٣٧ أصلية / ٢٥ أحمر - المحفظة ٢٦٦ عابدين من محافظ المدينة المنورة إلى كبير معاونى الجنب العالى بتاريخ (١١ من شوال سنة ١٢٥٥ هـ) والوثيقة رقم ١١ أصلية / ١٨٦ حمراء - المحفظ ٢٦٧ عابدين - من مصطفى توفيق أفندي محافظ ينبع الى باشمعاون الخديوى - بتاريخ غرة ذى الحجة سنة ١٢٥٥ هـ .

(٥) دار الوثائق القومية - الوثيقة التركية رقم ٤٤ أصلية / ١٦٤ حمراء - المحفظة ٢٦٦ عابدين - من محافظ المدينة إلى كبير معاونى الجنب العالى - بتاريخ ٢١ من ذى القعدة سنة ١٢٥٥ هـ .

هذا بالإضافة إلى أنه كانت هناك بعض الظروف التي تضطر فيها مصر إلى شراء الغلال من الكويت والاحساء ونجد لتسد حاجات الحجاز من هذا الصنف (١) على الرغم من أن تلك البقاع كما نعلم - لم تكن تنتج الغلال إنما كانت تلك الغلال تأتي إلى أسواقهما في الغالب - من العراق وإيران واليمن ، إلا أن عملية الشراء هذه فيهما يبدو - كانت تتم عند تعذر الشراء من المدينة أو من اليمن أو من جدة .

وهناك بعض الوثائق التي تشير إلى أن سفن الغلال المصرية كانت تفرغ حمولاتها في اليمن ثم تحمل هذه الغلال على ظهور الجمال إلى المدينة المنورة (٢) وبما تجدر الإشارة إليه أن الحجاز كان يستقبل كل عام كميات كبيرة من الغلال منها من بلاد قبائل غامد وزهران وبنى شهر وبنى عمرو بالقرن وشمران (٣) حتى أن تلك البلاد كانت تمد الحجاز بحوالي خمس آلاف أو ستة آلاف أردب من القمح حسب الانتاج فيها (٤) .

أما أسعار تلك الغلال التي كانت تباع بها في الحجاز فقد كانت تتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة التركية رقم ٣ - المحفوظة ٢٦٦ عابدين بتاريخ (٩ من شوال سنة ١٢٥٥هـ) .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة التركية رقم ١٢٨ حمراء / ٤٨ أصلية المحفوظة ٢٦٩ عابدين من الشريف محمد بن عون إلى باشمعاون جناب الخديوى - بتاريخ غرة جمادى الآخرة سنة ١٢٥٦ هـ .

(٣) تكون هذه القبائل معظم مجموعة قبائل عسير وتشمل جغرافيتها التقريبية الأراضى الواقعة جنوب الحجاز، وشمال اليمن ، ويبلغ عدد أبناء قبيلة غامد مائة وعشرين ألف نسمة ، بينما يبلغ عدد أبناء قبيلة زهران مائة وخمسين ألفا ، أما قبيلة بنى شهر فيبلغ عدد أبنائها مائة وخمسين ألفا ، وعدد أبناء بنى عمر خمسة وثلاثون ألفا ، ويبلغ عدد أبناء قبيلة بالقرن أربعين ألفا ، ويبلغ عدد أبناء قبيلة شمران خمسة وثلاثين ألفا ، وهذا التقدير التقريبي عن الوضع في أوائل القرن العشرين أنظر : شرف عبدالمحسن البركاتى - الرحلة اليمانية - ص ١٠٠ وما بعدها ، وعبدالفتاح حسن أبو غلبة - تطور المجتمع السعودى فى عهد الملك عبدالعزيز السعود فى ١٩٠١ م ١٩٥٣ - دكتوراه من جامعة القاهرة ص ٦٦ .

(٤) دار الوثائق القومية - الوثيقة العربى رقم ٢١٦ حمراء - المحفوظ ٢٦٦ عابدين - من أحمد شكرى إلى معارن جناب الخديوى - بتاريخ (٢٢ من ربيع الأول سنة ١٢٥٥هـ) .

قرش للأردب وقت شح الغلال (١) أما وقت ورودها بكثرة فقد كانت أسعارها تصل إلى مائة وسبعين قرشا للأردب الواحد (٢) .

وجدير بالذكر : أيضا أن عمليات شراء الغلال من داخل شبه الجزيرة ذاتها والتي كانت تقوم بها الإدارة المصرية لم يقلل من كمية الغلال التي كانت ترسلها مصر إلى بلاد الحجاز كل عام فقد كانت سفن الشركة العزيزية تغادر السويس بانتظام مشحونة بالغلال إلى موانئ الحجاز (٣) .

ولا يكاد يمر يوم دون أن ترد إلى ميناء السويس إحدى سفن هذه الشركة محملة بالبضائع والركاب من مختلف موانئ البحر الأحمر (٤) .

ويستطيع الباحث أن يلخص من متابعته لما كانت تنشره جريدة الوقائع المصرية حول تجارة الغلال مدى رواج هذه التجارة وعلو قدرها بين القطرين الشقيقين (مصر والحجاز) طوال القرن التاسع عشر، ومن الأمثلة التاريخية التي يمكن سورها كشواهد على حركة نقل الغلال من مصر إلى الحجاز .

أن الباخرة المسماة الحديدية سافرت في ٢٨ من صفر سنة ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م من السويس إلى ينبع ، وهي تحمل أربع مائة وثمانين أردبا من الغلال ، هذا بالإضافة إلى بضائع تجارية أخرى وبعض الركاب (٥) .

وأن الباخرة (دسوق) قد أقلعت من ميناء السويس في طريقها إلى ينبع وجده ومصوع بتاريخ غرة ربيع الأول سنة ١٢٨٥ هـ / يونيو ١٨٦٨ م وهي تحمل أربعة آلاف وثمانمائة أردب من القمح

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة التركيبية رقم ٤٤ أصلية - ١٢٣ حمراء - المحفوظة

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٤ أصلية - ١٦٥ حمراء - المحفوظة ٢٦٦ - عابدين - من محمد بن

عون إلى صاحب الدولة الخديوي بتاريخ (٢٢ من ذي القعدة سن ١٢٥٥ هـ) .

(٣) د/شوقي الجمل - سياس مصر في البحر الأحمر - ص ٢٩٠ .

(٤) المرجع السابق - ص ٢٩٠ .

(٥) الوقائع المصرية - العدد ٢١١ - بتاريخ ٢ من ربيع الأول سنة ١٢٨٥ هـ / ٢٢ من يونيو سنة ١٨٦٨ م.

إلى الظروف التجارية وبعض الركاب (١)

الأمر عند هذا الحد بل كانت هناك تجارة للغلال تأتي من جانب الحجاز في اتجاه مصر الأحيان ، ويغلب على الاعتقاد أن ذلك كان يحدث عندما تنفيض الغلال فوق تخفيض سعرها تبعاً لقاعدة العرض والطلب بينما يكون سعرها في مصر مجزياً وهناك صنها أن تاجراً من أهل ينبع يدعى دخيل الله قد شحن مركبة بمائتين وخمسة وخمسين الأُميرية وخمسة وثمانين أردباً من غلال التجار ، وأبحر بها من ينبع متجهاً إلى ومنها أن تاجراً آخر من أهالي ينبع أيضاً يدعى عوده حطب قد شحن مركبه بثلاثمائة دبا من شعير الميرى ومائة وخمسة عشر أردباً من شعير التجار (٣) وأبحر بها مولياً سير . كما كانت هناك تجارة للسهم الذي كان يصدر من مصر إلى الحجاز فيباع في مريترواح ما بين سبعين إلى مائة وأربعين قرشاً للأردب ، ويبلغ ما صدر منه إلى جدة ١٨٧٢م أربعة آلاف وخمسمائة وأربعة عشر أردباً (٤) .

تجارة القطن :

لور زراعة القطن المصري في عهد محمد علي باشا من النوع الهندي الردي إلى أنواع أفضل (٥) أعظم الأثر في ازدياد الطلب العالمي على القطن المصري ومن أوائل تمت تلهف على القطن المصري أسواق الحجاز سواء لتسويقه محلياً أو لإعادة

مصرية - العدد ٢٢٨ بتاريخ ١٣ من جمادى الأولى سنة ١٢٨٥ هـ ٣١ من أغسطس سنة ١٨٦٨م

سورية - العدد ١٢٨ - بتاريخ ٢١ من رمضان سنة ١٢٦٤ هـ .

مصرية - العدد ١٢٩ - بتاريخ ٢٨ من رمضان سنة ١٢٦٤ هـ .

١ - تاريخ سواكن والبحر الأحمر - ص ٧٦ .

التطور بداية من سنة ١٢٣٧ هـ سنة ١٨٢١م حيث استدعى محمد علي باشا أحد الخبراء ، وهو المسيو جامل أو جوميل فأشار بزراعة نوع جديد ، ثم أدخل إلى مصر زراعة أجود الأنواع على رأسها قطن : " ستي ايلند " الأمريكي وأقبلت على شرائه مصانع الغزل والنسيج في فرنسا . بعد أن نجح زراعة هذا النوع في مصر .

تصديره مرة أخرى عن طريق التجار الهنود الذين كانوا من أنشط التجار في مدينة جدة والذين تخصصوا في التجارة الخارجية وقد ازداد الطلب على القطن المصري ، وارتفعت أسعاره بين سنة ١٢٨٠ وسنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٣ - ١٨٦٥ م) بسبب استمرار الحرب الأهلية الأمريكية التي ابتدأت سن ١٨٦١ م / ١٢٧٨ هـ والتي كان من أثرها أن قل محصول القطن الأمريكى ، فشجع ذلك المصريين على الاهتمام بزراعة القطن ، والتوسع فيه ، وساعد على ذلك استعداد التربة المصرية ، وطبيعة الجو المناسبة لإنتاج محصول جيد (١) .

وقد كان لعناية الادارة المصرية في شرق السودان باذخار زراعة القطن إلى تلك المنطقة بعد أيلولتها الى مصر سنة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م أثر عظيم في دخول هذه السلعة (القطن) ضمن المعاملات التجارية بين مصر والحجاز .

ف عقب استيلاء مصر على منطقتي سواكن ومصروع أدخلت الادارة المصرية زراعة القطن الى مناطق عقيق ، وطوكر (٢) ، وسواكن ، وسنكات وغيرها .

وقد نجحت تلك الزراعة نجاحا باهرا بعد جلب بذور القطن بوفرة من مصر وتشجيع الأهالى

=====

أنظر : د/ محمد فهمى طيبة - تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديث مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٤٤ م - ص ١٢ . وأنظر هيلين آن ريفلين الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر - ص ٢٠٢ وما بعدها .

(1) Muhammad S. Al . Shaafi - the foreign . Trade of Juddah during the ottoman Period (1840 - 1916) . All Rights 1985 . P. 93 .

وأنظر : محمد فهمى طيبة - تاريخ مصر الاقتصادى - ص ٢٨٥ .

(٢) امتازات أراضى منطقة طوكر مميزة فريدة حيث كان القطن يتم بذر فيه حتى حلول موسم السيل دون حرث الأرض ، فقط يتم زراعته على السيول المتدفقة فى الصيف .

أما فى الشتاء فتتسر أشجاره بفعل الرطوبة وبعض الأمطار حتي ينضج القطن ويتم جمعه ، وتستمر تلك الأشجار فى العطاء عدة سنوات دون الحاجة الى زرعها مرة ثانية .

أنظر : دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٣ مرور ص ١٤٦ الدفتر ١٨٤٧ ممينة من محافظ سواحل البحر الأحمر بتاريخ (٥ من جمادى الثانية سن ١٢٨٨ هـ) .

على زراعته مع توفير كافة الاحتياجات الضرورية له (١) .

وفى البداية كان يتم شحن القطن من شرق السودان دون حله الى مصر ليتم حله فيها إلا أن الادارة المصرية أرسلت فيما بعد عدة محالج إلى منطقة شرق السودان ليتم الحليج هناك توفيراً للنقل ومصاريفه حيث أن القطن الصافى يبلغ وزنه حوالى الثلث ويبلغ وزن البذور حوالى الثلثين فحليج القطن فى أماكن زراعته يوفر ثلثى تكاليف النقل هذا من جهة ومن جهة أخرى فان حله فى سواكن وما حولها سهل عملية تصديره الى ميناء جدة ليكون جاهزاً لبيعه فى الحجاز الى تجار القطن المحليين والدوليين هناك (٢) ، وفى جدة كان يباع قنطار القطن بخمسة عشر ريالاً ، وقد أشار أحمد ممتاز محافظ سواكن على الادارة المصرية فى رسالة وجهها اليها فى ١٠ من شعبان سنة ١٢٨٦هـ بسرعة ارسال الأشياء التى اقترح ارسالها لتشجيع زراعة القطن وزيادة رقيه مع زيادة امكانيات الحليج فى شرق السودان حتى يمكن الاستفادة من سوق جدة الذى كان دائم الطلب للقطن المصرى مشيراً إلى أن القطن المصرى المعروض فى جدة لا يكفى مطالب التجار فيها إذ أن معظمه يأتى من اليمن وبالسعر الذى سبقت الاشارة اليه أى خمسة عشر ريالاً) .

ثم قال فى نهاية رسالته أنه اذا تم الاستكثار من زراعة القطن فى منطقة شرق السودان ، وكثر المعروض منه فى جدة ، فانه سيباع هناك بما لا يقل عن عشرة ريالات ، وهذا يحقق للحكومة المصرية والأهالى السودانية مكاسب عظيمة خاصة اذا علمنا أن الحكومة المصرية تستفيد من عوائد الجمارك المفروضة على القطن الخاص بالأهالى السودانين عندما يتم تصديره الى جدة بالإضافة إلى ما كان يربط على زراعته من أموال وما كانت تنتفع به الحكومة خاصة حيث أنها كانت تزود جزءاً

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ١٢٢ المحفوظة ١٩ بحري - من أحمد ممتاز محافظ سواكن الى مهردار

الحديوى بتاريخ ١٠ من شعبان سنة ١٢٨٦هـ .

وأنظر : التلغراف العربى رقم ٤٥٢ - ص ٥٨ صادر تلغرافات - دفتر ١٠ - عابدين - من رياض باشا

الى السكة الحديد بمصر - بتاريخ ٢٢ من شوال سنة ١٢٨٨هـ .

(٢) دار الوثائق القومية - صور التلغراف العربى رقم ٣٩٥ صادر تلغرافات الدفتر ١٢ عابدين بتاريخ ٢٨ من

شعبان سنة ١٢٨٨هـ . - وأنظر : صورة التلغراف العربى رقم ٤٨٩ وارد تلغرافات الدفتر ١٤ عابدين من

محافظ السويس الى خيرى باشا - بتاريخ ١٣ من رمضان سنة ١٢٨٨هـ .

كبيراً على ذمتها وياشراقها (١)

وقد ساعدت شركة السودان التجارية التي تأسست سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م (٢) فى نمو تجارة القطن وازدهارها ، كما ساعدت فى نمو تجارات أخرى ، وأسهمت فى ازدهارها ، حيث عملت تلك الشركة على تذليل عقبات نقل السلع من الدواخل السودانية الى السواحل ، لتصديرها الى كل من السويس وجدة (٣) ومما تجدر الإشارة اليه أن قطن سواكن وما حولها (فى شرق السودان) كان يصدر للبيع عبر ثلاث مدن: جدة وهناك يباع للتجار العرب والهنود والأوروبيين ليقوموا بتسويقه ، والسويس: ومنها كما يواصل رحلته الى الاسكندرية حيث يتم تصديره إلى أسواق أوروبية عديدة (٤) .

خاصة : تجارة الحيوانات :

راجت بين جدة وسواكن والسويس تجارة حيوية هى تجارة الحيوانات منها ما كان للذبح والغنم ، ومنها ما كان للحمل كالجمل ، ففي الوقت الذي كانت فيه مصر تعتمد على الكثير مما يأتيها من السودان من اللحوم عن طريق سواكن كان الحجاز يعتمد أيضاً على حيوانات السودان التى كان يستوردها للذبح والحمل ، وتشير المصادر إلى وجود تجارة واسعة من الإبل التى كانت تأتي من

(١) دار الوثائق القومية - الوثيق رقم ١٢٢ المحفظ ١٩ بحرها تركية - من أحمد ممتاز محافظ سواكن الى مهو

دار خديوى - بتاريخ (١٠ من شعبان سنة ١٢٨٦ هـ) .

(٢) أسهم فى تأسيس شركة السودان التجارية بعض البيوت التجارية بالأسكندرية وبعض المصارف الأوروبية وقد بلغ رأسمال هذه الشركة مليونين من الجنيهات .

أنظر : د/ شوقي الجمل - دور مصر فى أفريقيا فى العصر الحديث - الهيئة المصرية للكتاب - ١٩٨٤م ص ٤٠ .

(٣) دار الوثائق القومية الدفتر رقم ١٩٢١ أوامر كرام - صورة الأمر ثمة ٣ أمر إلى محافظ سواكن بتاريخ (٩ من ربيع الآخر سنة ١٢٨٣ هـ) .

(٤) دار الوثائق القومية - صورة التلغراف العربى رقم ٤٠١ وارد تلغراف الدفتر ١١ عابدين من محافظ السويس إلى سعادة رياض باشا بتاريخ (٢٠ من ذى القعدة سنة ١٢٨٦ هـ) .

منطقة الحجاز وتباع فى الأسواق المصرية خاصة فى السويس وفى القاهرة ، كما كانت مصر تستورد الأغنام العربية من الحجاز للاستفادة من الشحوم والآليات التى كانت تمتاز بها الأغنام الحجازية (١)

وجاء فى وثائق سنة ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥ م أن حكومة مصر أحالت التزام القصابة فى سواكن على عهده (حسن بك موسى) بمبلغ أربعمئة ريال سنويا عن الحيوانات التى تذبح بالبلد أو التى ترسل إلى جدة عن طريق الموانئ (٢) .

كما تتحدث وثيقة أخرى عن شحن سبعة عشر جملا بوابور سواكن من ميناء سواكن لارسالهم إلى جدة (٣) .

كذلك كانت الشيران تجمع من أطراف عديدة فى الحجاز وما حولها ثم يتم نقلها من القنفذة إلى جدة ، وفيها يتم الاتفاق على أسعارها ثم ترسل بحرا إلى مصر (٤) .

سادسا : تجارة الجلود :

تشير بعض الرسائل المتبادلة بين مصر والحجاز إلى وجود تجارة عظيمة للجلود بين البلدين فى تلك الحقبة من التاريخ وهو ما أدى الى رواج المدايق المصرية واستيرادها المستمر للجلود الحجازية فى الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها .

إلا أن تلك التجارة لم تكن تأخذ طريقها إلى مصر الا بعد اكتفاء مصلحة المدايق بجدة التابعة للحجاز بما يحتاجه من هذه الجلود وما يتبقى منه يتم إرساله إلى مدايق مصر .

(١) ك - س - توتيشل - المملكة العربية السعودية وتطورات مصادرها الطبيعية - ترجمة شكيب الأموى -

دار أحياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٥٥ م ص ص ٣١ ، ٣٢ .

(٢) دار الوثائق القومية - المكاتبة رقم ١٥ - ص ١٥ دفتر رقم ٣٥٤٣ ح صادر من محافظة سواكن بتاريخ

(١٥ من ربيع الآخر سنة ١٢٨٢ هـ) .

(٣) دار الوثائق القومية - صورة التلغراف العربي رقم ٢٣٣ - ص ٣٤ الدفتر رقم ٢ عابدين وارد تلغرافات

- من القومبانية بالسويس إلى سعاد رياض باشا بتاريخ (٧ من شوال سن ١٢٨٢ هـ) .

(٤) دار الوثائق القومية مكاتبة رقم ٤٧ الدفتر رقم ١٥٦ مجلس ملكى بدون تاريخ .

وتتحدث إحدى الوثائق عن طلب مصر لكميات من الجلود الحجازية فى ٢٠ من جمادى الأولى سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩ م وقد جاء فى هذه الوثيقة أن هذه الجلود بلغ عددها إحدى وثلاثين ألف قطعة وستمائة وخمس قطع من الجلود (١) .

كما نلاحظ أيضا من خلال تلك الرسائل الاهتمام بتجميع الجلود من سائر أرجاء الحجاز فى قنفذة ثم إرسالها الى مدينة جدة ليتم بيعها بعد ذلك لمصر بعد أن تحصل مداخل جدة على جميع احتياجاتها من الجلود التى تكفى السوق المحلية فى الحجاز (٢) .

سابعاً : تجارة العاج :

ومن الأنواع المستازة التى كان يقوم بتصديرها مبناء سواكن إلى أسواق جدة بكميات تجارية العاج (سن الفيل) وقد صدر منه فى سنة ١٨٧٢ م / ١٢٨٩هـ وحدها ٣٠٠٤٢ جراما (٣) ، وكانت الأوقية منه تباع بنحو أربعة وخمسين قرشا (٤) .

ثامناً : تجارة الحُصر :

كما كانت هناك تجارة الحصر الناعمة التى كانت تجلب من مصر إلى الحجاز وتستخدم فى فرش المساجد والجوامع بجدة نظرا لأن هذه الحصر الناعمة تصنع من سعف النخيل لأن سعف النخيل الذى كان فى الحجاز محليا كان من النوع الخشن ، ولم يتمكن الحجازيون من تربطه فى مستوى الحصر المصرية لأن التربط له أصول فنية .

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة العربية رقم ١٣٥ حمراء المحفوظة ٢٦٧ عابدين الى دولتلو ولى النعم سعادة أفندينا سر عسكر الأقطار الحجازية ومحافظ مكة المشرفة - بتاريخ (١٧ من جمادى أول سنة ١٢٥٥هـ) . وأنظر : الملحق على الوثيقة السابقة من أحمد شكرى باشمعاون جناب خديوى بتاريخ ٢٠ من جمادى أول سنة ١٢٥٥هـ .

(٢) دار الوثائق القومية المكتوبة رقم ١٢٠ دفتر رقم ١٥٦ المجلس ملكى - تقرير من محافظة جدة الخاص بشهر ربيع الأول - بدون تاريخ .

(٣) سعيد الحلوانى - الحكم المصرى فى سواكن وملحقاتها ص ١٦٤ .

(٤) محمد ضرار - تاريخ سواكن والبحر الأحمر - ص ٧٩ .

ويذكر ابراهيم رفعت باشا فى حديثه عن جدة (١) أن بها خمس جوامع ، وثلاثون مسجدا مفروشة بالحصر الناعمة الجميلة النظيفة ، إلا إنها تكون مبللة عند رطوبة الجو ولقد اعتادت مصر إرسال كميات كبيرة من الحصر كل عام لفرش الحرم النبوى الشريف فى المدينة المنورة (٢) .

تاسعا : تجارة الذهب :

وهناك تجارة أخرى رائجة وهى تجارة الذهب وقد كانت فروق أسعاره تشجع التجار على نقله من مكان إلى آخر تبعا لزيادة هذه الأسعار ، فعلى سبيل المثال كانت أوقية الذهب تباع فى أسواق سواكن بعشرين ريالا ، بينما كانت تباع فى أسواق الحجاز باثنين وعشرين ريالا (٣) ، ومن غير المعقول هذا الفارق دون أن يستغله التجار الذين يعملون بين تلك الأسواق سواء فى الحجاز أم فى السودان أم فى مصر كذلك ، ومن الأنواع الذهبية التى كان يستوردها الحجازيون من مصر ويحرصون عليها فى مناسباتهم وهداياهم : المشغولات الذهبية والتى كانت تهذى فى مناسبات العرس ، ومن هذه المشغولات الذهبية هدية تسمى (الرغد) وهى الهدية التى كان الأهل يهدونها الى العروس ، وهى أسورة من الذهب على شكل ثعبان مرصع بالماس (٤) .

هذا بالإضافة الى أن مصر كانت تقوم بدور الوسيط فى نقل الذهب الحجازى إلى أسواق عدن ليتم تحويله هناك عن طريق بعض التجار الى رويات هندية وذلك قبل افتتاح البنوك فى الحجاز فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى حيث كان تجار الحجاز يتعاملون مع الهند بشراء الرويات الهندية من عدن وذلك بتصدير الجنيهات الذهبية إلى مصر وبيعها هناك ثم تحويل قيمتها بالرويات الى عدن .

ولا شك فى أن الربح الناتج عن تصدير الجنيهات الذهبية إلى مصر كان كبيرا لأن الربح المحقق من تصدير الجنيه الذهب الواحد إلى مصر يساوى جنيتها مصريا واحدا .

-
- (١) ابراهيم رفعت باشا - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ٢٢ .
 (٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة التركية رقم ٨٣ حمراء المحفوظة ٢٦٩ عابدين محمد شريف رائف مدير الحرم النبوى إلى محرم بك محافظة المدينة المنورة (١٧ من جمادى الأولى سنة ١٢٥٦ هـ) .
 (٣) محمد ضرار تاريخ سواكن والبحر الأحمر - ص ٧٦
 (٤) محمد على مفرى ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز - ص ٣٧ .

ومن قيمة الجنيهاات الذهبية التي تتحول إلى روبيات هندية كان التجار الهنود يقومون بإرسال البضائع المطلوبة لحساب التجار في مدينة جدة (١) .

عاشوا : نجاوة الكتب :

هناك ما يشير إلى اهتمام الحجازيين بشراء الكتب النفيسة من مصر خاصة وأن الحجاز لم يكن قد عرف الطباعة الحديثة والتي كانت قد دخلت مصر في وقت مبكر ، ويروى أن ورثة صالح بن على باعشن - الثرى الحجازى المشهور عندما بحثوا في صناديقه وجدوا فيها كتباً نفيسة معظمها قد اشتراه من مصر (٢) .

كما أن من أولى المكتبات التي افتتحت في جدة كانت مكتبة السيد / عبدالفتاح الرشيدى فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهذه المكتبة كانت تقع فى محلة الشام بجدة ، وكان الرشيدى يشتري لها الكتب من مصر ، ويجلبها إلى الحجاز فى صناديق ، كما كان الرشيدى أيضا يقوم بشراء بعض الكتب من الحجاج المصريين الذى يرون بجدة (٣) .

حادى عشر : نجاوة اللوازم الأولية :

كان بسواكن - ابان الحكم المصرى لها - محلات لبعض التجار الحجازيين الذين يتاجرون فى بعض اللوازم الأولية التى يستعملها الأهالى فى بيوتهم ، ونظراً لضعف الامكانيات لا يتمكنون من انتاجها محلياً كالأقمشة والعطارة وغيرها ، وكانت تباع بسواكن بأثمان عالية لقلتها ولعدم وجود تسعيرة محددة لها (٤) .

(١) محمد على مغربي - ملامح الحياة الاجتماعية فى الجاز ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) عبدالقدوس الأنصارى - موسوعة تاريخ جدة - م ١ - ص ٤٢٥ .

(٣) المرجع السابق - ص ٥٢٨ .

(٤) دار الوثائق القومية - التقرير الثالث لعلى رضا باشا محافظ سواحل البحر الأحمر إلى مهردار خديوى عن بندر سواكن وحالة أهله - بدون تاريخ وأغلب الظن أن تاريخه هو ١٢٩٦ هـ لأن التقرير الأول كان فى شعبان ١٢٩٦ هـ والثانى فى شعبان ١٢٩٦ هـ والثالث فى رمضان ١٢٩٦ هـ والرابع فى صفر ١٢٩٧ هـ .

ثانى عشر : تجارات أخرى :

كذلك كانت هناك أنواع أخرى من السلع التجارية تصدر من مصر إلى مكة عبر السويس وسواكن وجدة كالصابون والسكر المصرى الذى كان يصدر من جدة إلى أوروبا ، وكانت هناك كذلك أنواع غير تقليدية من التجارة الرائجة هى نباتات العقاقير (كالشيع والسنامكى والنبلسه) ، التى كانت تنتقل من جدة الى ميناء القصير حيث يذكر أنه كان لها سوق كبيرة فى قنابل حفر قناتة السويس (١) .

كما كانت مصر تقوم بتصدير الصمغ الى الحجاز ، وقد بلغ ما صدر منه إلى الحجاز في سنة ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م ثلاثة آلاف وأربعمائة وستين قنطارا (٢) . كما كان يصدر السجاد والفلغل من جدة الى ميناء القصير وينقل منها إلى أسواق الصعيد وأسواق القاهرة وبالإضافة الى ذلك فقد كان فى سواكن ابان الحكم - المصرى تجار حجازيون يتعاملون فى مختلف البضائع الواردة إلى السودان من الحجاز ومن غيره . حتى أن تجار الحجاز فى جدة كان لهم تجارة رابحة يبيعونها الى تجار سواكن الذين تعددت جنسياتهم فكان منهم الهنود ومنهم المصريون ومنهم الحجازيون ومنهم الألمان والايطاليون والفرنسيون (٣) .

حمولات سفن القومبانية العزيفية من البضائع والمسافرين :

لقد أمدتنا جريدة الوقائع المصرية ببعض البيانات الخاصة بطرود تجارية كان يتم التعامل فيها تجاريا - دون تحديد لصنف معين كما أمدتنا بمعلومات قيمة عن تلك الحركة التجارية النشطة دل عليها انتقال أعداد كبيرة من التجار وغيرهم فى سفن القومبانية العزيفية بين الموانئ المصرية العديدة والموانئ الحجازية ويمكن إبراد بعض الأمثلة التاريخية على ذلك لنتبين منها مدى هذا الرواج التجارى بين القطرين :

(١) د/ السيد يوسف نصر - الدور الحضارى للجيش المصرى فى القرن التاسع عشر فى آسيا وأفريقيا مكتب

مديولى - الطبعة الأولى - القاهرة - ١٩٨٣ م ص ٥٥ .

وابراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ٢٤ .

(٢) محمد ضرار - تاريخ سواكن والبحر الأحمر - ص ٧٦ .

(٣) محمد ضرار - تاريخ سواكن والبحر الأحمر - ص ٧٦ ، ٧٧ .

ففى ١٤ من جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م حضرت إلى السويس الباخرة (المديدة) وعلى متنها ٢٩٨٨ طردا من البضائع التجارية و ٢٥ طردا للدائرة السنينة ٥٤ راكبا من جدة ومن سواكن ٨٨١ جنديا و ٧ سبعة خيول (١) .

وفى رحلة أخرى وصلت الباخرة مصوع إلى السويس قادمة من جدة فى ٢٦ من صفر سنة ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م وكانت تحمل ٢٢٧٥ طردا من الضائع التجارية التى بعث بها تجار جدة كما كان علي متن الباخرة ٩٥ شخصا من الركاب (٢) ، وفى ١٣ من ربيع الأول سنة ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م تحركت الباخرة سواكن وعلى متنها ١٢٥٨ طردا من بضائع التجار و ٧٨ شخصا من الركاب متجهة الى جدة فمصوع فسواكن (٣) .

كما أن الباخرة دسوق وصلت إلى السويس فى ٢٧ ربيع الآخر ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م بعد مرورها بمصوع وسواكن وجدة وهي تحمل ٢١٨٢ طردا من البضائع التجارية و ٩٧ شخصا من الركاب أقلتهم الباخرة من مصوع وسواكن وجدة . (٤)

وتحدثنا الوثائق كثيرا عن الطرود التجارية المتبادلة بين الحجاز والموانئ المصرية فمن أمثلة ذلك الباخرة سواكن التى وصلت إلى ميناء السويس فى ٧ من شوال سنة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م قادمة من جدة وعلى متنها ٥٢٢ طردا ، ٥٦ رأسا من الأغنام وبعض الركاب هذا بالإضافة الى سبعة عشر جملا صدرت من سواكن جدة (٥) .

(١) الوقائع المصرية - العدد ١٤٢ - بتاريخ ١٧ من جمادى الأول سنة ١٢٨٤ هـ / ١٦ من سبتمبر سن ١٨٦٧ م

(٢) الوقائع المصرية - العدد ٢١٠ - بتاريخ ٢٧ من صفر سنة ١٢٨٥ هـ / ١٨ من يونيه سنة ١٨٦٨ م .

(٣) الوقائع المصرية - العدد ٢١٣ - بتاريخ ١٤ من ربيع الأول سنة ١٢٨٥ هـ / ٤ من يوليو ١٨٦٨ م

(٤) الوقائع المصرية - العدد ٢٢٤ - بتاريخ ٢٧ من ربيع الآخر سنة ١٢٨٥ هـ ، ١٦ من أغسطس ١٨٦٨ م .

(٥) دار الوثائق القومية - صورة التلغراف العربى رقم ٢٣٣ - ص ٣٤ الدفتر رقم ٢ عابدين - وارد

تلغرافات - من القومبانية بالسويس الى سعادة رياض باشا تاريخ (٧ من شوال سنة ١٢٨٢ هـ) .

نهو الحركة التجارية بين الأقطار الثلاثة مصر والحجاز والسودان ؟

من خلال متابعتي لحركة التجارة في المصادر التاريخية بين الأقطار الثلاثة الحجاز والسودان ومصر - خاصتبع امتداد الحكم المصري الى سواكن ومصر - استطعت أن المع اطرادا ملحوظا في زيادة هذه الحركة التجارية حيث تنقل المصادر والمراجع أخبار هذه التجارة بشكل متناثر بين الأحداث السياسية أو عند الحديث عن أخبار الشخصيات المؤثرة في تلك الأحداث .

فعلى سبيل المثال كان عثمان دقنه (١) من كبار تجار منطقته سواكن بالاضافة إلى أنه تولى زعامة السودان الشرقى بتفويض من الأمام أحمد المهدي (٢) عند نشوب ثورته المعروفة بالثورة المهدية .

وقبل قيام الثورة المهدية كان لعثمان هذا تجارة عظيمة نظرا لثروته المتضاعفة وقد سير ذات

-
- (١) هو عثمان بن أبي بكر بن محمد حضر جد له يدعى عبدالله من الأسكندية الى سواكن بتجارة عظيمة سنة ٩٥٢ هـ واستوطنها متزوجا ابنة قاضيهما ويقال في نسبه أنه ينسب إلى عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب . وقد نشأ عثمان في بيت علم ودين حيث كانت أمه تشرف على خلوة لتعليم البنات قراءة القرآن الكريم وقد التحق عثمان بالمعهد العلمي في سواكن حيث درس التوحيد والتجويد والنحو وعلوما أخرى .
- أنظر : محمد ضرار - أمير الشرق عثمان دقنه الدار السودانية للكتب الطبعة الأولى - ص ١٩ وما بعدها .
- (٢) ولد محمد أحمد المهدي في ٢٧ من رجب ١٢٦٠هـ / ١٢ من أغسطس سنة ١٨٤٤م بجزيرة لبب قرب دنقلة وينسبونه إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه - وقد درس محمد علوم الدين وأفتتح مدرسة بالخرطوم سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م ثم انقطع للعبادة بجزيرة أبا في النيل الأبيض ، ومن هنا نشر دعوته التي تتلخص في تنقية عمل الناس بالشرعة مما لحق به من شوائب وبدأ ينتقل بالناس إلى الجانب السياسي في الشرعة حتى عمت دعوته معظم أنحاء السودان واستولى عليه .
- أنظر : مجموعة المناشير الصادرة من الأمام المهدي ، وأنظر : محمد فؤاد شكرى - مصر والسودان - تاريخ وادى النيل السياسي في القرن التاسع عشر (١٨٢٠ - ١٨٩٩م) دار المعارف - ١٩٥٧م ص ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ، وأنظر : محمد السراج - شقائق النعمان في حياة المهدي ووقائع السودان - مطبعة دار أحياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٤٧م ص ٤٧ وما بعدها .

مرة في سنة ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٧ م تجارة هائلة لمدن الحجاز ، مع بعض التجار الآخرين ، وروى أن تلك البضاعة عندما وصلت إلى بر الحجاز تم القبض عليها بدعوى أنها اشتملت على صنف الرقيق ، كما تم القبض على من بصحبته من التجار ، وعندما علم عثمان دقنه بهذا التحجير سافر علي الفور إلى الحجاز ليستوضح الأمر فلم يجد هناك تهمة محددة فما زال بوالي الحجاز حتى أفرج - بعد محاولات مضنية عن البضاعة والتجار معا .

ويبدو أنه كان للحكومة الإنجليزية ضلع في القبض علي هذه التجارة حتى يروى أنه بعد أن تم الافراج عن البضائع بمساعي رجال قبيلة الدقنا ب أوعز الانجليز إلى مصر بمصادرة أموالهم وممتلكاتهم بحجة اتهامهم بتجارة الرقيق (١) .

وعلى الرغم من أن بعض المصادر تنفي عن عثمان دقنة شبهة تجارته في الرقيق (٢) إلا أن تكرار القبض عليه عدة مرات (٣) ، واتهامه بهذه التهمة قد يشير ظلالة من الشك حوله ، فيذكر أحد الباحثين (٤) : أن عثمان دقنة كان يعمل بتجارة الرقيق بين السودان والحجاز ، وعندهما منعت الحكومة التجارة في الرقيق ساءت حالته ، وسجن مرة فوجدته مع أخيه بسبب هذه التجارة المنوعة .

وما تجدر الإشارة إليه هو أن اسماعيل باشا (خديوى مصر) كان قد أعلن الحرب الضروس على النخاسة في مصر والسودان بعد سنوات قليلة من حكمه وأسند هذه المهمة إلى المسير

(١) محمد ضرار - أمير الشرق عثمان دقنه - ص ٢٢ .

وأنظر : عبدالله حسين - السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية - ج ١ المطبعة الرحمانية بمصر - الطبعة الأولى - ١٣٥٤ هـ / ١٩٥٣ - ص ١٣٥ وما بعدها .

(٢) مجموعة رسائل لأحد أدياء مصر - السودان المصري والانجليزى - الأهرام - الاسكندرية - ١٨٩٦ - ص ١١٩ .

(٣) أنظر : تفاصيل ذلك في :

ابراهيم فوزى " باشا " السودان بين يدى غوردون وكتشتر - ج ١ القاهرة ١٣١٩ هـ - ص ١٧٦ .

وأنظر : مجموعة رسائل لأحد أدياء مصر - ص ١١ .

ومحمد ضرار - أمير المشرق - ص ٢٢ .

(٤) عبدالله حسين - السودان - ج ١ ص ٢٣٥ .

صمويل بل بيكر (١) ومن ذلك ما روى فى سيرة الشيخ ابراهيم عبدالفتاح أنه كان يتولى قضاء مدينة جدة ورئاسة محكمة التجارة بها ، وأنه كانت له تجارة كبيرة بجدة وسعها بافتتاح فرع لها فى السودان - ابان الحكم المصر - وحينما استولى المهدي على السودان فى سنة ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م. نهبت أموال الشيخ ابراهيم وتجارته فى السودان كما نهبت تجارات أخرى كثيرة .

وقد ظل الشيخ ابراهيم متخفيا فى السودان مدة حتى تمكن من الهرب الى سواكن ومعه ابنه ليعود منها الى وطنه الحجاز ، ولكن الانجليز والمصريين قبضوا عليه قبل أن يتمكن من مغادرة سواكن وسجنوه هو وابنه بتهمة التجسس لصالح محمد أحمد المهدي وتصادف أن دخل القائد العام سجن سواكن لتفقد أحوال المسجونين فوقف الجميع احتراماً ماعدا الشيخ ابراهيم فانه ظل فى مكانه جالسا فاسترعى ذلك نظر القائد الانجليزى الذى بادره بالسؤال كل الناس قاموا احتراماً لى فلم تفعل كما فعلوا ؟ فرد عليه الشيخ ابراهيم بقوله : دينى يمنعنى من ذلك فعرف الحاكم الانجليزى أن الرجل من صلحاء علماء المسلمين ، وأكبر فيه عزته ثم لم يلبث أن أفرج عنه وعن ولده فعاد الى الحجاز ، وتحمل التجار ما كان لهم عنده ، وأمدوه بالبضائع حتى تمكن من الوقوف على قدميه فى التجارة مرة أخرى (٢) .

وقد أوردت تلك الحادثة والتي قبلها كتدليل على وجود تجارة رائجة كان يعترضها بعض المشاكل والعقبات ولكن سرعان ما كانت تتبدد هذه المشاكل أمام تعاون التجار بعضهم مع بعض .

مصادر تجارة جدة :

يذكر أحد الباحثين (٣) : أن ميناء جدة كان يرد اليه بين عامى ١٢٦٠هـ / ١٢٨٠هـ / ١٨٤٤م ، ١٨٦٣م (مائة مركب ومركب شراعى) سنويا وهذا الأسطول كان يرد محملاً بمختلف أنواع البضائع المصدرة من بلدان العالم المختلفة إلى جدة لتموينها وتموين شبه الجزيرة العربية وغيرها من بلاد العرب ، وإلى هذا الحد فكلام الباحث لا نكاد نختلف عليه إنما الذى يدعونا حقاً إلى

(١) بيركسرايتس - اسماعيل المفتري عليه - ترجمة فؤاد صروف - دار النشر الحديث - ص ٧٠ وما بعدها.

(٢) عبدالقدوس الأنصارى - موسوعة تاريخ جدة - م ١ - ص ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٣) عبدالقدوس الأنصارى - موسوعة تاريخ جدة - م ١ ص ٤٦٠ .

الرد هو إهمال الباحث ذكر الصادرات المصرية من السودان ومصر في معرض حديثه عن مصادر تلك التجارة الواردة إلى مدينة جدة ، فقد ذكر الباحث أن : " مصادر تلك البضائع الواردة إلى جدة على هذا الأسطول هي ككلتا بالهند والبصرة بالعراق ، وبلاد الشرق الأقصى كاندونيسيا والملايو وما أشبه ولا شك في أن إهمال الباحث لذكر مصر مع الأقطار التي كانت تصدر بضائعها إلى الحجاز يُعد قصورا في عرضه التاريخي فقد سبق أن فصلنا كثيرا من ضروب التجارة بين مصر والحجاز وما لاشك فيه أن هذه التجارة المتبادلة تعد تاريخا اقتصاديا كبيرا بين القطرين لا يمكن التغاضي عنه أو تجاهله فلقد ذكره الباحث نفسه (١) في حديثه عن الشيخ علي باعشن أنه جلب صنف الأرز من مصر ثم سافر إليها للتجارة حيث تزوج بها وطاب له المقام فيها حتى أنه صار رئيسا لتجارها .

الملاحاة التجارية بين الموانئ المصرية والحجاز :

كان من بين العوامل التي ساعدت على انتظام حركة التجارة والانتقال بين موانئ البحر الأحمر المختلفة ظهور شركتين مصريتين الأولى : الشركة المصرية للملاحاة التجارية وهي نيلية ومعظم أصحاب امتيازها أجنبى فهي بذلك مصرية اسما وأجنبية لحما ودما وقد أنشئت هذه الشركة سنة ١٢٦٨هـ / ١٨٥٢ م / لنقل البضائع والمسافرين بالبواخر عن طريق النيل والترح الملاحية وبهذا أمكن نقل البضائع بين الأسكندرية والقاهرة في يوم ونصف يوم كما كانت هذه الشركة تقوم بعمليات نقل التجارة الداخلية في مصر والسودان بسفن النيلية بالإضافة إلى نقل البضائع التجارية إلى السواحل حيث تتولى نقلها الشركة الثانية (وهي الشركة المصرية المجيدية) .

وقد أنشئت الشركة المصرية المجيدية سنة ١٢٧٤هـ / سنة ١٨٥٧ م وأطلق عليها المجيدية تبعا باسم السلطان عبدالمجيد سلطان الدولة العثمانية وكان رئيسها مصطفى فاضل باشا ابراهيم والغرض من انشائها هو تسيير البواخر في البحر الأحمر والمحيط الهندي حاملة البضائع والمسافرين .

أما تحركات بواخرها فكانت تنظمها ثلاث خطط الأولى: تحركات مجموعة منها بين السويس

وثلثون الحجاز واليمن والقصير وسواكن ومصوع والثانية : تحركات مجموعة منها فى البحر الأبيض المتوسط والثالثة : تحركات مجموعة منها فى المحيط الهندى (١) .

وقد تبع إنشاء هاتين الشركتين إنشاء القومبانية المصرية (٢) فى ١٥ من ذى الحجة سنة ١٢٧٩هـ / سنة ١٨٦٢ م وظهر لهذه القومبانية أثر عظيم فى ازدياد وانتظام حركة التجارة والاتصالات بين موانئ البحر الأحمر المختلفة .

وكان لهذه القومبانية نظام خاص لتسيير السفن بين موانئ السويس وجدة وينبع بصورة منتظمة أسبوعيا وهى تحمل البضائع التجارية سواء الخاص منها بالحكومة أم بالأهالى وقد أضيف إلى هذه السفن كذلك واجبات نقل البريد (البوستة) بين الموانئ الخمسة السويس وسواكن ومصوع وينبع وجده سواء الخاص منها بالحكومة أم بالتجار العرب والأوروبيين أم بالأهالى أم بغيرهم (٣) .

(١) د / شوقى الجمل - سياسة مصر فى البحر الأحمر ص ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٢٨٤ . وأنظر : د / محمد فهمى الهبظة - تاريخ مصر الاقتصادى ص ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ - ود / محمد عبدالله الزلفى - ميزانية ولايتى الحجاز واليمن - ص ص ٣٥٨ - ٣٥٩

(٢) تم إنشاء القومبانية العزيزية المصرية فى سباحة السفن التجارية باشتراك كل من اسماعيل راغب باشا ، محمد شريف باشا ، ونوبار باشا ، وعبدالمطيف باشا ، وأحمد طلعت باشا ، وحسين شرين باشا ، والخواجه أومنهايم ، وايدوارد ويوما كسيموسى سكاكينى ، ودان سينادنيوه كمؤسسين للقومبانية ، وقد وافقت الحكومة المصرية على الترخيص لهم بتسيير السفن فى البحر الأحمر والمتوسط لمدة ثلاثين عاما ، على أن تتبع كل اللوائح والقوانين المصرية ولا يعمل عليها سوى المصرين من ضباط وبحرية ، وقد باعت الحكومة للشركة ست سفن أربع منها فى البحر الأحمر وهى الحجاز ، ونجد ، والقبارى وجدة ، واثنان منها فى البحر المتوسط هما النيل والجعفرية .

أنظر : تفاصيل ذلك عند :

أمين سامى (باشا) تقويم النيل - م ٢ - ج ٣ - ص ٤٨٣ وما بعدها .
(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة التركية ٩٣ فترة ٨٣ - المحفوظة ٣٨ معية تركى من جعفر مظهر حكامدار السودان الى السكرتير الخاص للجناب العالى (١٩ من محرم سنة ١٢٨٣ هـ) وأنظر :
صورة الأمر ٣ - ص ١٨٢ - الدفتر ١٩٢١ أوامر كرام - أمر إالى محافظ سواكن بتاريخ ٩ من ربيع الآخر سنة ١٢٨٣ م .

وعندما أصبحت سواكن ضمن الأملاك المصرية أرسل حكامدار السودان الى ادارة القومبانية العزيزية المصرية فى أوائل ١٢٨٣ هـ - ١٨٦٦ م بما تم انجازها من تدابير لتيسير نقل البريد واعلام التجار بخطوات نقل تجارتهم من الخرطوم وغيرها الى سواكن ، ومن ثم فيلزم مرور بواخر القومبانية العزيزية المصرية فى البحر الأحمر التى كانت تأخذ طريقها من السويس الى جدة وينبع عبر سواكن حسب الخطة الآتية :

تعين القومبانية العزيزية باخرة فى كل يوم ثلاثاء من كل أسبوع لتبحر من السويس الى سواكن مباشرة ، ثم تبحر يوم الخميس من كل أسبوع من سواكن الى جدة ثم تعود إلى السويس وهى تحمل البضائع والتجار والمسافرين ، على أن تقوم تلك البواخر بأخذ البوستان من كل جهة لتوصيلها إلى الموانى التى ترسوا عليها حسب العناوين المكتوبة عليها .

وقد التمس مجلس ادارة القومبانية العزيزية من الجنب العالى فى ١١ من ربيع الأول سنة ١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م صدور الأمر الى حكامدار السودان باعلان التجار وغيرهم بافتتاح الخط البحرى والحضور ببضائعهم لاستخدامه فى نقلها (٩١) كما تم ربط مصوع بهذا الخط أيضا فى ١٤ من جمادى الثانية سن ١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م وأعلم محافظ سواكن بذلك (٢) .

وما يجدر الإشارة اليه أن النظام الذى كان متبعاً قبل ذلك بعام أى فى سنة ١٢٨٢ هـ / سنة ١٨٦٥ م كان يقضى حسب أوامر الخديوى اسماعيل بوجوب رسم خطة بواخر القومبانية العزيزية التى تعمل على خط السويس جدة لتعرج على سواكن مرة فى كل خمسة عشر يوما بصورة منتظمة (٣) .

-
- (١) دار الوثائق القومية المصنط ٩٨ محافظ العزيزية - محافظة قرارات مجلس القومبانية العزيزية- ملف قرارات سنة ١٢٨٣ هـ - صورة قرار بتاريخ (١١ من ربيع الأول سنة ١٢٨٣ هـ) .
- (٢) دار الوثائق القومية الدفتر ص / ٤ / ١١ / ٦ / ٢ - ج ٢ وارد سواكن - تحريران نمرة ٥٠ - صفحه ٦٤ بتاريخ (١٤ من جمادى الثانى سنة ١٢٨٣ هـ) .
- (٣) دار الوثائق القومية - وثيقة بدون رقم صفحه ٢٦ - الدفتر ٥٥٨ معية تركى إلى وكيل حكامدارية السودان بتاريخ (٢٨ من جمادى الآخر سنة ١٢٨٢ هـ) .

ثم استدعى الأمر بعد ذلك زيادة عدد السفن وتقليل عدد الأيام ليصبح مرتين فى الأسبوع كما
أشرنا من قبل .

ومن المفيد ذكر أنه لم يكن يقصد أقاليم السودان من التجار - قبل الفتح المصري سوى قلة
قليلة من المغامرين ومعظمهم من سكان الوجه القبلي . وكانوا مع ذلك عرضة للاخطار فى أغلب
الأحيان .

أما بعد الفتح المصري فقد تحولت التجارة عبر السودان إلى طرق أكثر طمأنينة تتجه نحو
موانئ البحر الأحمر التى جهزتها واعتنت بها الادارة المصرية عناية فائقة (١) .

وقد تم ربط موانئ اليمن هى الأخرى بموانئ الحجاز والسودان ومصر بخطوط ملاحية منتظمة
استخدمتها سفن القومبانية العزيزية المصرية وساعدت على ازدهار التجارة بين موانئ البحر الأحمر
المختلفة فى مصر والحجاز والسودان واليمن وتبذلت السلع التجارية بينها بطريقة منتظمة (٢) .

وقد ألزمت الحكومة المصرية القومبانية بالعزيزية بأن تبدأ بتسيير سفنها فى البحر الأحمر أولاً
ثم تسيير سفنها فى البحر المتوسط بعد ذلك ، ونصت الشروط التى عقدت بين الطرفين الحكومة
المصرية والشركة على أن العاملين بسفن القومبانية المذكورة سواء أكانوا بحارة أم ضباط لابد أن
يكونوا مصريين وأن من حق الحكومة - عند الضرورة استخدام كافة سفن الشركة فى مقابل أجر يتفق
عليه الطرفان .

وفى مقابل ذلك تعهدت الحكومة بتقديم المخازن والمباني والأراضى التى تلزم لمعدات الشركة
وأغراضها فى الأسكندرية والقاهرة والسويس مجاناً بالإضافة الى ما قدمته الحكومة إلى هذه
الشركة من السفن الحكومية التى تعمل فى البحر الأحمر وهى الحجاز ونجد والقبارى وجدة ومن
سفنها التى تعمل فى البحر المتوسط وهى النيل والجعفرية ولم تتقاضى الحكومة من الشركة إلا
ثماناً رمزياً فقط على عشر سنوات .

(١) د/ جمال قاسم - الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية - معهد البحوث والدراسات العربية -

١٩٧٥م - ص ٢٧١ .

(٢) دار الوثائق القومية - صورة الأمر رقم ٣ الدفتر ٩٩٢١ أوامر كرام - أمر الى محافظة سواكن - فى

٩ من ربيع الآخر سنة ١٢٨٣ هـ .

وقد كانت هذه السفن بلاريب مساهمة من الحكومة المصرية لانجاح مشروع القومبانية العزيرية المصرية (١) .

وقد استمرت القومبانية فى تأدية واجباتها التجارية والبريدية ونقل المسافرين حتى سنة ١٢٨٧هـ/ سنة ١٨٧٠م عندما تم احلال الحكومة المصرية محل المساهمين فألت ممتلكاتها ومشروعاتها وأموالها وموظفوها وعمالها الى الحكومة وتغيرت اسمها فأصبح (مصلحة وابورات البوستة الخديوية) .

وقد واصلت مصلحة وابورات البوستة الخديوية المسيرة التجارية والحضارية فى البحرين الأحمر والمتوسط (٢) .

وتفيد الوثائق أنه كانت هناك بعض السفن الأجنبية التى تتردد على الموانئ المصرية والحجازية لحمل البضائع التجارية ونقل الأهالى بين موانئ البحر الأحمر ، فقد كانت هناك شركتان الأولى ايطالية وهى (شركة روباتنير) والثانية انجليزية وهى (شركة بريتنس هندت) وقد أعدت الشركتان خطا تجاريا بين جدة ومصرع وسواكن (٣) وبذلك أصبحت سفن هاتين الشركتين عنصرا منافسا لوابورات الخديوية ، الا أن ادارة مصلحة وابورات البوستة الخديوية خفضت من قيمة الأجر (النولون) فقطعت بذلك خط الرجعة على السفن الأجنبية ، فامتنعت أو قل حضورها الى الموانئ التابعة لمصر والحجاز .

وعلى أثر ذلك قررت الحكومة المصرية الخديوية فى سنة ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م : تغيير الخطوط الملاحية بحيث يتم نقل بضائع سواكن ومصرع التى يراد ارسالها من جدة الى السويس ، وفى ميناء السويس يتم شحنها فى السفن المتجهة إلى جدة ، مع مراعاة عدم زيادة الأجر عن السابق لعدم

(١) د / شوقى الجمل سياسة مصر فى البحر الأحمر - ص ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٢) الوقائع المصرية - العدد ١٥٥ - بتاريخ ٣٠ من المحرم سنة ١٢٨٧هـ / ١ من مايو سنة ١٨٧٠م.

(٣) دار الوثائق القومية - تلافراف عربي رقم ٨٢ - وارد تلافرافات الدفتر رقم ٣٨ عابدين (٢٥ من صفر

سنة ١٢٩٣هـ) .

وانظر : محمد ضرار - تاريخ سواكن والبحر الأحمر - ص ٨٣ / ٨٤ .

تكليف التجارة زيادة على أجور بضائعهم (١) .

ولا شك في أن الإدارة المصرية أرادت بهذا النظام انتعاش ميناء السويس ، وذلك بجعل التجارة تنصب فيه من مجموعة السواحل التابعة لمصر وما حولها ليقوم ميناء السويس بعد ذلك بإعادة البضائع إلى مقصدها ويدخل في ذلك أيضا ما يمكن أن تستفيد به مصر بمرور البضائع على السويس كأجور الشحن والرسوم المقررة وجذب التجارة الهندية إلى ميناء السويس والتي كانت رائجة في ميناء جدة بشكل ملموس .

كما تم في ٢٢ من شعبان سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م تخصيص خط بحري آخر بين السويس وبربره (٢) تابع الوابورات الخديوية وقد خصصت الحكومة المصرية لهذا الخط عدد من السفن تمر على جدة في الذهاب والإياب وقد أمدتنا وثائق سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م بتفاصيل عديدة عن الخط ومواعيد تحرك ووصول السفن المخصصة له إلى كل ميناء والمسافات بين تلك الموانئ يمكننا عرضها فيما يلي :

أولا : السفينة المزمع سفرها من السويس إلى جدة تتحرك بعد ظهر الاثنين عبر ٦٤٦ ميلا تقطعها في ٩٢ ساعة ، ثم تقلع من جدة إلى رأس راوية التابعة لسواكن - عبر ١١٠ أميال تقطعها في ١٥ ساعة .

ثم تقلع من رأس راوية إلى سواكن عبر ١٢٠ ميلا تقطعها في ١٧ ساعة . ثم تقلع من سواكن إلى مصوع عبر ٢٦٠ ميلا تقطعها في ٣٧ ساعة .

ثم تقلع من مصوع إلى عيذاب عبر ٢٣٩ ميلا تقطعها في ٣٩ ساعة ثم تقلع من عيذاب إلى تاجورة عبر ١٣٥ ميلا تقطعها في ١٩ ساعة ثم تقلع من تاجورة إلى زيلع عبر ٧٠ ميلا تقطعها في ١٠ ساعات . ثم تقلع من زيلع إلى بربرة عبر ١١٤ ميلا تقطعها في ١٦ ساعة .

ثانيا : عندما تتحرك السفينة مزمنة القيام برحلة العودة فانها تبدأ من حيث انتهت رحلة قدومها فتقلع من بربرة لتنتهي رحلتها من حيث بدأت عند السويس ، مارة بميناء جدة وجميع الموانئ

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٤ - ص ١٦ الدفتر رقم ٦ وارد معية عربى - من مصلحة

وابورات البوستان الخديوية (غاية ذى القعدة سنة ١٢٩١ هـ) .

(٢) تقع على ساحل الصومال الشمالى وتطل على خليج عدن في مواجهة ثغر عدن وباب المندب . الأطلس العربى

ص ١٢ ط المساحة بالقاهرة ١٩٧٨ .

التي مرت عليها فى رحلة القدوم (١) .

ومما هو جدير بالذكر أنه بعد افتتاح قناة السويس للملاحة الدولية اتسع المجال أمام السفن التي كانت حركتها مقصورة على البحر الأحمر بين الحجاز ومصر فمدت خطوط ابهارها من جدة الى الاسكندرية (٢) فاتسعت بذلك حركة التجارة والنقل بين مصر والحجاز .

القوافل التجارية البرية :

لم يكن دور مصر فى انعاش التجارة الاقتصادية بين الأقطار الثلاثة ينحصر فقط فى تسيير القومبانية العزيزية لبراخها بل كان هناك دور سبق عمل القومبانية العزيزية وهو تنظيم القوافل التجارية البرية فلقد اهتمت الادارة المصرية فى السودان بالقوافل التجارية البرية بين الخرطوم وسواكن حيث ربطت تلك القوافل بمواعيد ثابتة وألزمت العريان المقيمين على طول الطريق بحراستها ، كما أعدت لخدمة القوافل التجارية المحطات للراحة والآبار ليشرب منها الناس والخيول والجمال ، وهذا النظام أفاد الادارة فى تسهيل نقل كل ما يخصها ، كما أفادها فى تسيير أعمال جمع المكوس التي كانت تفرض على البضائع (٣) .

مصر شريان الحجاز :

لا يستطيع أحد أن ينكر أن مصر ظلت شريانا للحياة فى الحجاز طوال فترات العصور الاسلامية ، جاء فى دائرة المعارف الاسلامية: أن مصر تزود مكة بالمؤن

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٢٩٢ المحفوظة ٥٢ معية تركى - بتاريخ (٢٢ من شعبان سنة ١٢٩٢ هـ) .

(٢) كانت جريدة الأخبار المصرية تنشر يوميا فى أعدادها حركة وصول وإقلاع السفن بين جدة والاسكندرية .
أنظر : على سبيل المثال : الأخبار - العدد ١٢٣ - السنة الأولى - بتاريخ ٢٨ من رجب سنة ١٣١٤ هـ / ٢ من يناير سنة ١٨٩٧ م .

(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٢٢ صادر ص ٣٩ دفتر ٥٥٢ صادر المعية السنية من حضرة الباشمعان إلى حاكم دار السودان - فى (٣ من شعبان : سنة ١٢٨١ هـ) .

عن طريق جدة ، ومن ثم كانت جدة مفتاحها ، كما أن البلدين اعتمدا على مصر اقتصاديا سياسيا (١).

بيد أنه مما يشير الدهشة أن مؤرخ جدة (٢) قلل من قدر هذه الحقيقة التاريخية حين قال منتقدا ما جاء فى دائرة المعارف الاسلامية ويتراعى لى أن هذا القول لا يصح إطلاقه هكذا بل يحسن أن يقيد ببعض الأحيان وعبارات الأنصارى توحى بأن اعتماد جدة ومكة على مصر اقتصاديا وسياسيا كان قليلا بيد أن المتتبع لوقائع التاريخ فى جميع العصور الاسلامية يدرك تماما أن ما ذكره الأنصارى يعد بابا من أبواب إلقاء الكلام على عواهنه بدون نظر أو تمحيص ولا يسعنا إلا أن نقول أن إطلاق دائرة المعارف لحكمها التاريخى يفيد الغالب والأعم فى معظم الفترات التاريخية - وهو الصحيح - فلقد اعتمد الحجاز على مصر ابتداء من العصور الاسلامية الأولى إلى آخر القرن التاسع عشر الميلادى .

ومنذ أن فتح العرب المسلمون مصر فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخذ اعتماد الحجاز (اقتصاديا) على المؤن المصرية يأخذ شكلا جديداً ويزداد يوما بعد يوم ، أما اعتماد الحجاز على مصر سياسيا فقد ظهر بوضوح منذ استيلاء الفاطميين على مصر وتحول تبعية الحجاز من بغداد الى القاهرة المعز لدين الله الفاطمى بعد سنة ٣٥٨ هـ ، واستمرت هذه الأحوال على نفس المنوال حتى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى ، التاسع عشر الميلادى، أما بالنسبة للتبعية الاقتصادية فإنها استمرت حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى بنسب متفاوتة .

ويضيف الأنصارى معللا تقييده لما جاء فى دائرة المعارف بقوله (٣) : فقد مضى على جدة زمن كانت فيه قطب رحى التجارة فى هذه المنطقة بواسطة أسطولها الشراعى التجارى الذى كان يصنع فى مرفئها ، ويدلنا على ذلك أن دائرة المعارف الاسلامية نفسها تحدثت بأن لنجاح جدة

(١) هوتسما وآخرون دائرة المعارف الاسلامية - المجلد ١١ ص ١٢٦ طبع القاهرة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .

(٢) عبدالقدوس الأنصارى - موسوعة تاريخ جدة - م ١ - ص ٤٦٢ .

(٣) المرجع والصفحة السابقان .

التجارى العظيم يؤرخ من ابتداء القرن الخامس عشر الميلادى عندما أصبحت مركز التجارة بين مصر والهند (١) .

وليس معنى كون جدة قطب رحى التجارة - إذا سلمنا بهذا - أن تكون هى ومكة قد استغنتا عن المؤن المصرية أو قللتا من الاعتماد على مصر اقتصاديا وسياسيا ، والذي يقرأ تاريخ الأشراف (٢) يعرف أن الحجاز لم يكن به من الأغنياء وميسورى الحال سوى طبقتى التجار والأشراف فهم الذين كان كثيرون منهم فى سعة من الرزق وبعضهم فى كفاية .

أما طبقات الأمة الحجازية الأخرى فقد كانت تعيش فى ضنك وضيق يتفاوت بين الحين والآخر قوة وضعفا حسب ورود المؤن والمخصصات المصرية وحسب مقاديرها تلك المخصصات التى يحاول أن يقلل البعض من شأنها .

وليس معنى نجاح جدة التجارى وأنها أصبحت مركز التجارة بين مصر والهند أنها سيطرت على تجارة المنطقة بما فيها تجارة مصر ، وإنما كانت التجارة الهندية أعظم تجارة الشرق جزءا من تجارة مصر التى كانت لها معاملات تجارية مع معظم دول العالم . والحجاز كله يعد من أفقر مناطق العالم فى الموارد فلم يكن لنجاح جدة التجارى ليجعل الطبقة الفقيرة فيها فى غنى عن المؤن المصرية التى كانت ترسل كل عام وحتى موضوع تفرد جدة بالنجاح التجارى فيه نظر . فلم تكن جدة هى الشفر التجارى الوحيد الذى ارتبط بحاجه تجاريا بمصر ، فعلى سبيل المثال نجد أن مدينة الوجه فى شمال الحجاز قد أحرزت نجاحا تجاريا عظيما بسبب ارتباطها بالتجارة المصرية وهذا ما أشار اليه البتونى فى رحلته اذ قال : أن مدينة الوجه كانت تعتمد فى أغلب تجارتها على السويس ، ومن السويس كانت الشركة الحديدية ترسل مركبا لحصل البريد الى مدينة الوجه كل خمسة عشر يوما ، وبالتالي تشحن معه البضائع الى هناك (٣) .

(١) دائرة المعارف الاسلامية - المجلد ١١ ص ١٢٧ .

(٢) أنظر : فى ذلك على سبيل المثال :

أحمد بن زيني دجلان - خلاصة الكلام فى بيان أمراء بيت الله الحرام .

(٣) محمد لبيب البتونى - الرحلة الحجازية - ص ١٨٧ .

ومع هذا فلم يكن نجاح التجارة في الوجه مسوغاً لاستغناء أهل الحجاز عن المخصصات المصرية.

أثر افتتاح قناة السويس على تجارة الحجاز :

كان فتح قناة السويس المصرية في ١١ من شعبان سنة ١٢٨٦ هـ / نوفمبر سنة ١٨٦٩ م عاملاً من العوامل التي أدت إلى تغيير بعض الأنماط الاقتصادية في مصر والحجاز ومنطقة البحر الأحمر كلها إضافة إلى التغيير الذي طرأ على المواقف السياسية والحربية في المنطقة كلها .

فقد ساعد افتتاح القناة الدولة العثمانية على التدخل المستمر في شئون شرافة مكة وتشديد قبضتها على الشئون في الحجاز حيث أوجد افتتاحها عمراً مائياً مباشراً بين الآستانة ، وكل من الحجاز واليمن ، فلقد كان انتقال القوات العثمانية قبل افتتاح قناة السويس إلى الحجاز وغيره محفوظاً بالمصاعب لاستخدامها الطرق البرية فقط عبر الشام فشمال الحجاز فالبحر فمسير أو الطرق البرية بالإضافة إلى الطرق البحرية فكثيراً ما كانت قوات الدولة تستخدم البحر المتوسط ، ثم الطريق البري من الأسكندرية إلى السويس ثم البحر الأحمر .

لذا فقد كانت هذه القوات تصل إلى مكان الأحداث وهي في حالة إعياء شديد وربما بعد فوات فرص النجاح الساحقة مما كان يسهل على الشوار احتوائها ، وقد تبدل الموقف بعد افتتاح القناة ، فأصبح في إمكان الدولة أن ترسل قواتها بحراً فقط إلى الحجاز أو اليمن ومعها المؤن والامدادات العسكرية فتصل إلى أهدافها دون أن تعاني ما كانت تعانيه في الماضي من مصاعب ولقد أدى ذلك إلى دعم سيطرة الدولة على إقليم الحجاز بشكل جيد (١) .

لقد كان لافتتاح قناة السويس أثر إيجابى لا ينكر على ميناء ومدينة جدة ككل في الجانب الاقتصادي فقد ساعد افتتاح القناة على ازدياد نشاط البحر الأحمر التجاري فأصبحت موانئه تستقبل أعداداً كثيرة من السفن التجارية وغيرها فاقت أعداد السفن التي

(١) فائق بكر الصواف - العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز (١٨٧٦ - ١٩١٦) م - ١٣٩٨ هـ /

١٩٧٨ ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

وأنظر : محمد أنيس - الدولة العثمانية والشرق العربي - ص ٢٢٤ .

كانت تستقبلها قبل افتتاح القناة فانتعشت تلك المواني وصارت تستقبل التجارة الأوربية فى رحلتها الذهاب والعودة التى تقوم بها معظم السفن وكان لميناء جدة نصيب كبير من هذه الجولات التجارية الواسعة التى أتاحها قناة السويس للملاحة الدولية فى البحر الأحمر (١) .

ويذكر الأنصارى (٢) أن أسواق جدة كانت قبل فتح قناة السويس مخازن عظيمة توزع البضائع على مدن الحجاز ومصر والشام وغيرها من بلاد الشرق العربى ، كما أن كثيرا من الصناعات راجت فيها ، أما بعد أن افتتحت قناة السويس للملاحة فإن تجارة جدة وصناعاتها أخذت فى الانكماش والضمور ، كما استعملت البواخر فى النقل والانتقال بدلا من المراكب الشراعية .

ومع التسليم ببعض ما ذكره الأنصارى إلا أنه غفل عن القول بأن أسطول جدة الذى تحدث عنه كان جله من النوع الشراعى الذى طغت عليه السفن الكبيرة الاسلامية والأوربية التى انتشرت فى البحر الأحمر ، كما اتجهت مصر الى تحويل معظم أسطولها الحربى الى أسطول تجارى امتدت أذرعه إلى بقاع وسواحل عديدة أدى الى عجز الأسطول الجدى عن منافسة السفن التجارية العظيمة خاصة بعد أن عملت إدارة الأسطول التجارى المصرى على تخفيض أجور النقل بما جذب التجار اليه فكان طبيعيا أن أدى كل هذا إلى ضربة أصابت أسطول جدة فى الصميم وأسلمت حركته إلى ركود واضح فضر وانكمش .

أما أسواق جدة وتجارها فانها لم تتأثر بهذا كثيرا لأن السفن المصرية والهندية والأوربية تولت نقل التجارات والبضائع إليها بعد أن توارى تدريجيا الأسطول الجدى .

وقد أصبح البحر الأحمر مسرحا ممتازا للسفن التجارية والمصرية والعثمانية ، والأوربية بعد مرور عامين من افتتاح قناة السويس ، فتشير إحدى الإحصاءات البحرية حول السفن التى كانت تعمل على الخط البحرى الحجازى فى سنة ١٢٨٨هـ / ١٨٧١ م إلى أنه بالإضافة إلى السفن المصرية التجارية العاملة فى البحر الأحمر كانت هناك ثلاث سفن عثمانية ، وثلاث سفن انجليزية .

(١) محمد أحمد الروشى - المرافئ الطبيعية على الساحل السعودى الغربى - ص ١٩ ومحمد جمعان دادا - جدة فى عهد الملك عبدالعزيز ص ٥٢ .

(٢) عبدالقدوس الأنصارى موسوعة تاريخ جدة - م ١ - ص ٤٦٠ .

وسفينتان احدهما الجليزية والأخرى فلمنكية ، وكلهما تتسابق إلى نقل الحجيج عبر البحر الأحمر (١) .

وقد أفرد الأنصارى حديثا مطولا (٢) : عما لحق بميناء جدة من خراب تجاري إثر افتتاح قناة السويس وانتقد بشدة أيوب صبرى صاحب كتاب مرآة الحرمين للذكره ارتفاع شأن جدة بعد افتتاح قناة السويس ، ومما يؤسف له أن الأنصارى دلل على خراب تجارة جدة بضياح أسطولها مع أن تلك التجارة باتت فى ازدياد ونشاط مستمرين بسبب تلك الخدمات المستمرة التى قدمتها إليها الأساطيل التجارية الاسلامية والأوروبية أي أن ضياح أسطول جدة التجارى لم يترتب عليه ضياح تجارة الحجاز أو تجارة جدة .

يقول حافظ وهبه (٣) : " أنه قد كانت جدة فى القرن التاسع عشر مركزا تجاريا هاما تجلب البضائع اليها من الهند وغيرها الا أن شأن جدة التجارى قد دب فيه الضعف بعد أن وضع محمد على باشا يده على الحجاز وفتح السويس للتجارة (٤) كما أضعف من شأن جدة ففتح ميناء بورسودان ، فأصبح هو الميناء الأول فى البحر الأحمر " .

وعلى الرغم من أن محمد على باشا قد وضع يده على الحجاز الا أننا لم نسمع أنه قيد حرية التجارة أو التجار بين القطرين الحجاز ومصر ، انما الواضح من وثائق عصره أنه كان يترك للأسواق المحلية ما يكفيها ، بل كان يجلب لها ما يمتنع على تجارها ، واذا أراد صنفا بعينه فانه يطلبه بشمنه بعد اكتفاء السوق المحلى الذاتى ، أما فتح قناة السويس للتجارة واتصال البحرين الأبيض

(١) الوقائع المصرية - العدد ٤٠٣ - بتاريخ ٢٣ من محرم سنة ١٢٨٨هـ / ١٣ من أبريل سنة ١٨٧١ م .

(٢) موسوعة تاريخ جدة - م ١ - ص ٢٢٢ .

(٣) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين - ص ٢٢ .

(٤) كان النشاط التجارى فى ميناء السويس قد اتسع بعد تمهيد الطريق البرى بينها وبين القاهرة ، واتام تقديد خط

السكة الحديدية اليها ، وانشاء الشركة المجيدية ونشاطها فى البحر الأحمر بالاضافة الى توسيع الميناء

واصلاح واقامة حاجز بحرى ، وتأمين السفن ، وانشاء حوض عائم لاصلاحها - أنظر : د/ شوقي الجمل

- سياسة مصر فى البحر الأحمر ص ٢٩٧ .

والأحمر فانه يعد في حد ذاته بداية الانطلاقة لتطورات خطيرة في تاريخ التجارة العربية الإسلامية الدولية .

فلقد ترتب على ذلك تحول أعداد كبيرة من السفن التي كانت تقصد رأس الرجاء الصالح الى طريق البحر الأحمر ، فأصبح لمصر وجدة المشاركة الحقيقية في التوجيه الاقتصادي والسياسي للبحر الأحمر (١) .

ويقول المغربي (٢) : " إن جدة كانت قبل شق قناة السويس بمثابة همزة الوصل بين الهند ومصر حيث تجلب البضائع من الهند إلى ميناء جدة عن طريق البواخر ثم تصدر الى مينائي السويس والقصير ، الا أنه بعد شق القناة انتهت حاجة مصر إلى الاستيراد عن طريق جدة ، وأخذت تحصل على بضائعها باستيرادها مباشرة سواء من الشرق أو من الغرب عن طريق القناة " .

ولا يمكننا أن نسلم بأن جدة كانت بمثابة همزة الوصل بين مصر والهند في جميع الأحوال والأوقات السابقة على فتح القناة فلقد جاء في وثائق سنة ١٢٨١ هـ / ١٨٦٤ م . ما يؤيد أن التجارة كانت في كثير من الأحيان تأتي مباشرة الى مرفئ مصر في السويس وسواكن ومصروع دون مرورها على جدة وذلك قبل افتتاح القناة فقد بعث الخديوي اسماعيل لمعتمده في الآستانة : برسالة في ٢٨ من ذى القعدة سنة ١٢٨١ هـ / ١٨٦٤ م جاء فيها : (٣) والبضائع التي يراد تصريفها في الحجاز تحمل وتنقل على السفن من الهند وخليج البصرة وسواحل اليمن ويؤتى بها رأساً إلى جدة ، والتي يراد تصريفها في مصر من تلك الجهات تأتي إلى مرفأ السويس وإلى سواكن ومصروع من غير حاجة الى مرورها بميناء جدة .

كما تقدم عرفنا أن عناية مصر بالحجاز لم تقتصر على المجال السياسي بل تعدته إلى مجالات

(١) سعد الحلواني - الحكم المصري في سواكن وملحقاتها ص ١٤٧ .

(٢) محمد علي مغربي - أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة ، ط ٢ - ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م - ص ١٣٩ .

(٣) دار الوثائق القومية - المكاتب التركية رقم ١٠٢ - ص ٢٨٣ الدفتر رقم (٢١) عابدين تركي - من أفندينا (اسماعيل باشا) الى المعتمد بالآستانة بتاريخ : ٢٨ من ذى القعدة سنة ١٢٨١ هـ .

أوسع كان على رأسها المجال التجاري فعمدت الإدارة المصرية إلى تسيير خطوط ملاحية تجارية بين موانئها على سواحل البحر الأحمر وبين موانئ الحجاز ، ولقد تعددت مع ذلك أوجه التجارة التي شملت كثيراً من الأنواع التجارية الآتية : البن والملح والفلال والحيوانات والجلود والقطن وغير ذلك: مثل الصمغ والعاج والخضر ، والكتب ، والسكر ، والشيخ ، والسناوى ، والنيلة ، مما أثرى التبادل التجارى بين القطرين . وقد كان لافتتاح قناة السويس للتجارة الدولية أثر عظيم فى مرور تجارة البحر المتوسط الى جدة وأخذت السفن تصل من الأسكندرية الى جدة ، غيرها من موانئ الحجاز مباشرة ، على الرغم من أثر القناة السلبى على أسطول جدة الذي لم يستطع مسايرة السفن التجارية الحديثة ، فإن تجارة الحجاز أفادت من افتتاح القناة واستعاضت عن أسطول جدة بالسفن التجارية الكبيرة الاسلامية والأوربية وتسبب ذلك فى اندثاره .

الفصل الرابع

العلاقات الفكرية والاجتماعية بين مصر والحجاز

تقديم :

تعد العلاقات الاجتماعية بين الشعوب واحدة من أقوى العلاقات الانسانية التي لاتقضى عليها الأحوال الطارئة والمتغيرة ، إنما يظل وقعها طويلا متجددا بعكس العلاقات السياسية أو الاقتصادية تلك التي تخضع لظروف طارئة وتتبدل حسبما يطرأ عليها من تغييرات فى المناصب القيادية أو التكتلات الدولية .

والعلاقات بين مصر والحجاز ليست وليدة العصر الحديث إنما ذات جذور عميقة تصل بنا إلى التاريخ القديم منذ زواج أبي الأنبياء ابراهيم - عليه السلام - من هاجر المصرية إلى يوم الله هذا .

وقد كانت العلاقات الاجتماعية بين القطرين هي المستمرة على أحسن ما تكون العلاقات بين الشعوب خاصة بعد أن ارتبطا بالوشائج الدينية واللغوية والفكرية ، وكان للجوار واتصال الحدود الأثر البالغ في قوة الترابط بين القطرين ، ولم تختلف التقاليد والعادات كثيرا ، فأدى هذا كله إلى ظهور الهجرات والتزاوج المستمر بين أبناء الشعبين ، وتوثقت عرى الأخوة والصداقة بينهم بشكل واضح .

ولله در الشاعر الذى قال :

هذا الحجاز وهذه مصر جمعا فكان الماء والزهر

العلاقات الثقافية والعلمية :

لقد تعددت روافد الثقافة بفروعها وأشكالها المختلفة فى الحجاز ، لأن الروافد المصرية كان لها الأثر الأكبر فى التأثير على المجتمع الحجازى .

ولقد ظهرت بواعث النهضة الفكرية فى الحجاز بانتقال دعوة محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية إليه سنة ١٢٠٦ هـ / سنة ١٧٩١م وسريانها فى بلدانه بوسائل مختلفة منها :

كتب ابن عبد الوهاب ورسائله ، ورسله الذين بشهم لإقامة المناظرات ونشر التعاليم الإسلامية التى نادى بها الاسلام .

بيد أن سيطرة السعوديين بعد ذلك على منطقة الحجاز من سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢هـ كان له أعظم الأثر فى فرض تعاليم الدعوة على أهالى تلك المنطقة .

أما الأثر الفكرى المصرى فى الحجاز فقد ظهر واضحا بعد أن مكن محمد على باشا لنفسه فى شبه الجزيرة العربية خاصة فى السنوات العشر الأخيرة من حكمه فيها ، فلقد أتاح الحكم المصرى للحجازيين فرصة الاطلاع على التيار الثقافى الخارجى ، ونشر الوعى العلمى ، واستمر ذلك حتى سنة ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م ، وبعدها انحسر المد المصرى غير أن آثاره ظلت باقية فى أشكال غير منظمة ، أشكال اجتماعية بحتة لا تملك قوة كبيرة دافعة فتوقفت مسيرة الحجاز نحو حضارة العصر الحديث بعد خروج المصريين منه وعودة الأتراك إليه ، ومع ذلك فقد أقام بعض سكان الحجاز الكتاتيب الجديدة لتعليم الصبية فأصبح فى مكة وحدها أكثر من خمسين كتابا ، وفى المدينة ما يزيد على الثلاثين ، ولذلك ظهرت الكتاتيب فى كل من جدة والطائف بعد أن حرمتا من رافد الحركة العلمية بمصر ، ورافد حركة ابن عبد الوهاب الإصلاحية بنجد (١) .

وإذا كان الحجاز قد استقى بواعث نهضته من رافدين كبيرين هما :

دعوة ابن عبد الوهاب بنجد ، ونهضة مصر العلمية فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) فإن الحجاز قد عد بعد ذلك معبرا لفكر ابن عبد الوهاب الى سائر الأقطار الإسلامية حينما حمل هذا الفكر البعض من تلك الأنفاج العظيمة من حجاج بيت الله الحرام وهم عائدون الى أوطانهم ، فلم تقتصر أفكار الدعوة على الحجاز وشبه الجزيرة العربية بل تعدتها الى غيرها من كثير من الأقطار الإسلامية ، وكان موسم الحج ميدانا صالحا وفرصة سانحة لعرض

(١) د/ إبراهيم الفوزان - أقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة - ص ٢٥٧ ما بعدها .

مبادئ هذه الدعوة على الخجاج ، واستمالتهم الى قبولها فاذا عادوا الى بلادهم دعوا اليها (١)

ولم يكن الحج هو الطريق الأوحى الذى انتشرت به دعوة محمد عبدالوهاب الاصلاحية فى مصر فلقد انتشرت الدعوة بطرق أخرى غيرها كان أعظمها :

مجموعة بيت الشيخ محمد بن عبدالوهاب وبعض أبناء البيت السعودى وأتباعهم الذين حملهم جنود محمد على أسرى الى مصر (٢) . وبها كان يسمح لهم بالاختلاط بعلماء الأزهر وعلان مبادئهم فى جمهرة من المسلمين فكان لهذا أعظم الأثر فى انتشار مبادئ الشيخ محمد بن عبدالوهاب الاصلاحية بين المصريين ومن هؤلاء الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب وفى سن ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨ م الذى أخذ العلم عن جده وعن مشايخه من علماء الأزهر / عبدالرحمن الجبىرى مؤرخ مصر ، وكعبه الله بن سويدان الذى أجازه بجميع مروياته (٣) بد اللطيف بن عبدالرحمن بن حسن المتوفى سنة ١٢٨٣هـ / ١٨٧٦ م أخذ عن الشيخ البيجورى شيخ الأزهر وعن الشيخ مصطفى الأزهرى والشيخ أحمد الصعبدى وغيرهم (٤) فيصل بن تركى المتوفى سنة ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥ م الذى أسس الدولة السعودية الثانية له دراسات للقرآن وكتب التفسير فى مصر أثناء إقامته منفيا فيها (٥) .

ومنهم عبدالله بن محمد عبدالوهاب الذى نقله ابراهيم بن محمد على باشا الى مصر بعد استيلائه على الدرعية سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٨ م ونقل معه ابنه عبدالرحمن وبقى عبدالله فى مصر الى أن

(١) أحمد أمين - زعماء الاصلاح فى العصر الحديث - ص ٢٣ .

(٢) بلغ عددهم أربعمائة فرد من الأسرى ، من بينهم أربعة أبناء سعود الكبير وهم : فهد ومشارى ، وسعد ، وخالد بالإضافة الى عبدالله الذى أرسل الى الاستانة ، وقتله العثمانيون بها .

أنظر : أمين الريحانى - نجد وملحقاتها - ص ٩١ .

(٣) أنظر : ابراهيم بن عبدالمحسن - تذكرة أولى النهى - ج ١ - ص ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٤) أنظر : المصدر السابق - ص ٢٢٢ .

(٥) أنظر : د/ عبدالفتاح حسن أبوعلية - الدولة السعودية الثانية (١٢٥٦هـ - ١٣٠٩هـ) الرياض (١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) ص ٩٥ .

توفى بها سنة ١٢٤٢ هـ أما ابنه عبدالرحمن فقد تعلم فى الأزهر الشريف ودرس برواق الحنابلة وظل يدرس فى الأزهر الى أن توفى فى سنة ١٢٧٣ هـ / سنة ١٨٥٦ م بعد أن أنجب ثلاثة أبناء: أحمد الأجزجي ، وعبدالله الذي عمل كاتباً فى قلعة الوجه بشمال الحجاز ثم عاد الى مصر، وثالثهم محمد (١) .

ومن تأثروا بتعاليم بن عبد الوهاب من المصريين الشيخ درويش خضر الذى كانت تربطه بالشيخ محمد عبيد قرابة وطيدة حيث كان الشيخ درويش خالا لأبيه .

وقد اعتنق الشيخ درويش مبادئ الدعوة التى نادى بها ابن عبد الوهاب والتى تحث على التحلى ببساطة الاسلام الأولى ، وتنقية الأعمال الدينية من البدع والخرافات التى لحقت بها وقد تمكنت دعوة ابن عبد الوهاب من فكر الشيخ درويش خاصة بعد أن سافر الى طرابلس الغرب ، واجتمع بها بأتباع السنوسى (٢) الذين وجدهم قد استقبلوا تلك الدعوة الاصلاحية وتمكنت من قلوبهم (٣) .

كما تأثر بالدعوة الشيخ / محمد عبيد الذى شب على تربية اسلامية (٤) وتأثر بخال أبيه - الشيخ درويش (٥) واقتنع بتعاليم دعوة ابن عبد الوهاب ووجد فيها الوسيلة للقضاء على البدع

(١) أنظر مجلة الدارة العدد ٣ - السنة الخامسة (ربيع ثان ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م) الرياض ص ٥ وما بعدها .

(٢) جاء الأمام - محمد السنوسى إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وسمع بدعوة ابن عبد الوهاب السلفية فاعتنقها وعاد الى الجزائر يدعو اليها .

أنظر : د/ ابراهيم الفوزان - اقليم الحجاز - ص ٢٦٠ .

(٣) أنظر : أحمد أمين - زعماء الاصلاح - ص ٣٠٦ ، ٣٢٨ .

(٤) قد كان الأمام محمد عبيد فى بداية حياته أشعريا صوفيا ، ثم صار بالتدريج سلفيا . أنظر : محمد رشيد رضا - تاريخ الأستاذ محمد عبيد - ج ٢ مطبعة المنار ط ٢ مصر ١٣٤٤ هـ - ص ٥٧٤ .

(٥) وكان للشيخ درويش أثر عظيم بجانب تلقين الإمام محمد عبيد المبادئ السلفية التى نادى بها ابن عبد الوهاب وهو تشجيع الأمام على مواصلة طلب العلم فى الجامع الاحمدى ثم الدراسة فى الأزهر الشريف مما كان له أثر طيب فى تكوين فكر الأمام . أنظر : حسين حسان - الحركة العلمية والتعليمية فى الأزهر ص ٤٣٨ .

والخرافات فى المجتمعات العامة ، وصار يدعو للمبدأين الأساسيين اللذين تضمنهما فكر ابن عبد الوهاب وهما :

أولاً : معارضة البدع ، وما ارتكبه بعض العامة من أباطيل وترهات .

ثانياً : فتح باب الاجتهاد الذى ادعى بعض من المقلدين أنه أغلق فأما المبدأ الأول فقد أخذ الشيخ محمد عبده يهتبل الفرص فى سبيل نشر ما اعتقده من فكر دينى فانتهاز فرصة وجود جماعة من العلماء لديه فى يوم المولد النبوى ، ودعوته للعشاء عند أحد المحتفلين ، فقام فيهم خطيباً مبيناً لهم أن هذه الموالد كلها منكرات ، ويتمنى لو أنفق ما يصرف فيها على الفقراء ، وناظرهم فى ذلك مناظرة انتهت بانصراف العلماء الى العشاء فى المولد ، وامتناع الشيخ محمد عبده وحده عن المشاركة فى هذا العشاء .

كما قام الشيخ بتفسير جزء (عم) للناشئة فحمل فى تفسيره هذا بعنف على كل ما يشوب عقيدة التوحيد من أباطيل أدخلها البعض ، ودمجها فى العقيدة وهى منها براء (١) .

وكان الامام محمد عبده يطلق على الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى محاضراته التى كان يلقيها بالأزهر الشريف لقب : (المصلح العظيم) .

كما ألقى محمد عبده تبعة وقف دعوته الاصلاحية فى القرن الثالث عشر على الأتراك العثمانيين ومحمد على باشا الذى كان يذكره بلفظ " الألبانى " (٢) .

وقد أعان الشيخ فى ذلك تلميذه وصديقه السيد محمد رشيد رضا الذى ملأ صفحات مجلة المنار بمثل دعوة صديقه وأستاذه ليسمع بها المسلمون فى كل البلدان الاسلامية (٣) .

(١) أحمد أمين - زعماء الاصلاح فى العصر الحديث - ص ٢٥ .

(٢) محمد رشيد رضا - تاريخ الاستاذ الامام ج ٢ ص ٣٨٢ . ود/ ابراهيم الفوزان - اقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة - ص ١٦١ . وفى اعتقاده أن ذكره لفظ الألبانى ربما فيه تبرئة المصريين من الفظائع التى ارتكبتها جيشه فى شبه الجزيرة العربية .

(٣) أحمد أمين زعماء الاصلاح - ص ٢٥ . ٢٦ . وأنور الجندي - أعلام القرن الرابع عشر الهجرى - المجلد الأول أعلام الدعوة والفكر - مكتبة الأنجلو - ١٩٨١ .

وقد أطال السيد محمد رشيد رضا فى الكتابة عن أتباع ابن عبد الوهاب وإمامهم وما قاله فى ابن عبد الوهاب :

" وكان الشيخ محمد عبد الوهاب رحمه الله مجددا فى الاسلام بإرجاع أهله عن الشرك والبدع التى قشت فيهم الى التوحيد والسعة " (١) .

وكان محمد رشيد رضا يمتدح كثيرا مذهب ابن تيمية وما قام به من نصرة مذهب السلف على المذاهب الكلامية ببرهان فى العقل والنقل ، ويذكر لمحمد رضا عن تأثر المصريين بالمذهب السلفى قوله : " وقد أحيت مصر والهند كتب (ابن تيمية) وكتب تلميذه العلامة ابن القيم بعد أن كان الاهتداء بها محصورا فى بلاد نجد ، وهى الآن تعم الشرق والغرب ، وستكون عمدة جميع مسلمى الأرض (٢) . وهو بذلك يتوقع للدعوة السلفية أن تسود العالم الإسلامى وأنى له ذلك ! ومن المصريين الذى تأثروا بتلك الدعوة أيضا :

إبراهيم رفعت باشا الذى تولى منصب قومندان الجنود المرافقين لقافلة حج سنة ١٣١٨ هـ / ١٩٠١م كما تولى أمارة الحج فى سنوات (١٣٢٠ هـ / ١٩٠٣ م) ، (١٣٢٢ هـ / ١٩٠٤م) ، (١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م) فلقد تأثر إبراهيم رفعت بتعاليم ابن عبد الوهاب الاصلاحية فتهكم على عادات الناس فى مصر ومنها التجمهر بأعداد كبيرة حول المحمل عند سفره الى الحجاز من مصر ومحاولة لمسه بأيديهم والتبرك به لأنه سيدخل المسجد الحرام ، ويوضع فى مقصورة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول بصدد ذلك (٣) .

" ولما كان التمسح بالقبور منهيًا عنه فى الشرع كان الأجدر بالناس أن لا يتمسحوا بما يوضع على الأضرحة من باب أولى ، وخليق بالمسلمين خاصتهم وعامتهم أن تتفق عاداتهم مع آداب دينهم " .

(١) د/ إبراهيم الفوزان - أقليم الحجاز - ص ٢١٨ .

(٢) الشيخ محمد عبده - رسالة التوحيد - تعليق / محمد رشيد رضا دار المنار ط ١٧ مصر - ١٣٨٦ هـ - ص

(٣) إبراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ١٣ .

ولا شك فى أن هذا الحديث يعد متفقا مع طبيعة المبادئ التى قامت عليها دعوة ابن عبد الوهاب الإصلاحية .

وقد تأثر بالدعوة أيضا : أحمد أمين (١) حيث يظهر ذلك فى كتاباته بوضوح وفى ذلك يقول :
"فكانت دعوة ابن عبد الوهاب حربا على كل ما ابتدع بعد الاسلام الأول من عادات وتقاليد ، فلا اجتماع لقراءة مولد ، ولا استفتاء بزيارة قبور ، ولا خروج للنساء وراء الجنائز ، ولا إقامة أذكار بغنى فيها ويرقص ، ولا محمل يتبرك به ويتمسح ، ويحتفل به هذا الاحتفال الضخم ، وهوليس إلا أعواد خشبية لا تضر ولا تنفع " .

ويضيف قوله : " كل هذا مخالف للاسلام الصحيح يجب أن يزال ، ويجب أن نعود إلى الإسلام فى بساطته الأولى " (٢) .

ومن تأثر بالدعوة أيضا ، وسار على نهجها الشيخ / عبدالظاهر محمد أبو السمح المتوفى سنة ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م بمديرية الشرقية من أسرة دينية فحفظ القرآن العظيم على يد والده ولما يزل فى التاسعة من عمره ، ثم أرسله أبوه إلى الأزهر فتعلم على يد علمائه .

وشاء له القدر أن يحضر جلسات علم الإمام محمد عبده ، واتصل بالشيخ أمين الشنقيطى الذى كان يعد من كبار العلماء السلفيين فتعهد الأخير وبث فى فكره تعاليم ابن عبد الوهاب التى وجدت عنده مرتعا خصبا ونال منها ونالت منه مما دفعه لدراسة كتب ابن تيمية ، وابن الجوزي حتى سيطر عليه الفكر الفلسفى ، وعمل مدرسا بالسويس ثم عاد إلى القاهرة وتعلم على يد السيد

(١) هو أحمد أمين بن ابراهيم الطباخ من علماء وكتاب مصر المرموقين ، ولد بالقاهرة فى سنة ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٦ م ، وتوفى فى سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م ، وقد تلقى علومه الأولى فى الأزهر الشريف ، ومدرسة القضاء الشرعى ، ثم عمل تاضيا فى المحاكم الأهلية ، وفى سنة ١٩٢٦ م تولى التدريس بالجامعة المصرية ومناصب أخرى ، وله مؤلفات عديدة ومقالات صاعقة وجهود علمية متنوعة .

أنظر : دائرة المعارف الاسلامية - م ٢ - ص ٢٨٧ ، ونسب الجاهلي - معجم الأعلام - ص ٣٢ .
(٢) أحمد أمين - زعماء الإصلاح ص ١٦ .

محمد رشيد رضا ، ثم عين مدرسا بالأسكندرية فأسس بها جماعة أنصار السنة ولكنه أودى بسبب دعوته إلى الإصلاح الدينى فصبر حتى رحل إلى مكة وعينه الملك عبدالعزيز بن سعود إماما وخطيبا ومدرسا بالمسجد الحرام فأسس مدرسة دار الحديث بمكة وظهرت له عدة مؤلفات منها: (حياة القلوب ، ومناسك الحج وتفسير بعض أجزاء القرآن الكريم ، وكرامات الأولياء) ، ومما يجدر ذكره أن الشيخ أبا السمع كانت له كتابات واسعة فى صحف الأخبار ووادى النيل ومجلة المنار أشتملت على دعوته للعقيدة السلفية (١) .

تنقل العلماء وطلبة العلم بين مصر والحجاز : وثمة رافد آخر من أعظم الروافد التى ربطت بين مصر والحجاز فى النواحي الثقافية والعلمية وهو تنقل العلماء وطلبة التعليم بين القطرين :

أولا : رحلات الحجازيين العلمية إلى مصر :

كان بعض الأثرياء الحجازيين يرغبون فى تعليم أبنائهم ثقافة وعلما أوفر وأعلى لهذا جعلوا قبلتهم مصر بأزهرها ومحافلها العلمية المختلفة ، كما أن كثيرين من علماء الحجاز لم يقتنعوا بما كسبوه من علوم فى مدارس الحجاز وحلقاته ، فاتجهوا إلى مصر ليستزيدوا من علومها ومعارفها ، وليتخذوا من علمائها أئمة يقتدون بهم وينهلون من فيض علومهم ومصابيح بهتدون بضياؤها ويسيروا على هداها .

وقد زخرت كتب الأعلام بهؤلاء الطلبة والعلماء وسنستشهد فيما يلى بأمثلة منهم لنعرف من خلالها طبيعة هذه العلاقات وقدرها فى هذه الحقبة من التاريخ فمن هؤلاء :

الشيخ المؤرخ أحمد بن زيني وحلان : ولد أحمد بمكة سنة ١٢٣٢هـ / ١٨١٧م فلما شب عن الطوق بعث به أبوه إلى القاهرة فتتلمذ على يد مجموعة من فحول علماء الأزهر الشريف

(١) عمر - عبدالجبار - سير وتراجم - ص ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

بما أهله إلى تبوء مكانة علمية عظيمة حازها بجدارته ، وقد ألف الشيخ مؤلفات كثيرة أبرزها مؤلفاته التاريخية القيمة التي اعتمد عليها كثير من الذين تصدروا لكتابة تاريخ شبه الجزيرة العربية في القرن الثالث الهجري التاسع عشر الميلادي ، كما تلقى عليه العلم كثيرون من طلبة الأزهر. على الرغم من افتراءاته الكثيرة على دعوة ابن عبد الوهاب والسعوديين .

ولقد جاء في إحدى المخطوطات بدار الكتب المصرية أن الشيخ أحمد بن زيني دحلان قد تتلمذ على يديه بعض طلبة العلم في مصر ومن أجازهم ببعض علومه ومروياته (١) . الشيخ عبدالفتاح بن عبدالرحمن البنا الدمياطي وتلمذ على الشيخ أحمد الشيخ / عثمان بن حسن الدمياطي ، والعالم الجليل الشيخ محمد الشنواني الشافعي الأزهرى ، والعلامة الشيخ عبدالله الشرقاوى الشافعي الأزهرى ، والعلامة الشيخ محمد الأمير الكبير المالكي الأزهرى .

وقد توفي ابن زيني دحلان بالمدينة المنورة في سنة ١٣٠٤هـ / سنة ١٨٨٦ م ومن أبرز مؤلفاته خلاصة الكلام في بيان أمراء البيت الحرام ، ورسالة في الرد على الوهابية والسير النبوية، والفتح المبين في فضائل الخلفاء الراشدين وأهل البيت الطاهرين (٢) .

ومنهم الشيخ صالح بن بكرى شطا : ولد سنة ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥ م بالحجاز وتوفى والده سنة ١٣١٠هـ / ١٨٩٢ م وهو في الثامنة من عمره فقام برعايته أخوه الشيخ السيد أحمد شطا الذى كان أحد مدرسى المسجد الحرام ، وقد حفظ صالح القرآن الكريم ومتون الفقه واللغة العربية على يد أخويه أحمد وعمر وأخذ علمي الأدب والفلك عن عبدالله بن صدقه دحلان . كما تلقى التفسير والحديث وأصول الفقه وعلوم البلاغة عن مجموعة من علماء عصره في مكة الذين أجازوه للتدريس ولم يكتف صالح شطا بهذه العلوم التي أتقن الكثير منها فقام برحلات ثقافية إلى بعض البلدان الإسلامية التي كان على رأسها مصر قرأ خلالها نفائس كتب السلف الصالح وفكرهم كما

(١) مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٢٤٦ مصطلح الحديث إجازة من الشيخ أحمد بن زيني دحلان

المكي (١٢٣١هـ / ١٣٠٤هـ) إلى الشيخ عبدالفتاح بن عبدالرحمن الدمياطي .

(٢) عبدالواسع بن يحيى الواسعى - الدر الفريد الجامع لمتفرقات الاسانيد - ص ٧٨ .

وانظر : خير الدين الزركلي - الأعلام - ج ١ ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، وسام الجاوى - معجم الأعلام -

استوعب فكر الشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وعكف على مطالعة الصحف والمجلات المصرية التى وجد فيها ثقافة علمية واسعة كما كان يرسل الى الجرائد المصرية بمقالاته وأفكاره .

فأهله هذا لتبوء مكانة علمية ممتازة فى مكة عندما عاد إليها ، فافتتح حلقة دراسية فى الحصوة التى أمام باب الزيادة .

وقد تقلد الشيخ صالح شطا عددا من المناصب فى العهد السعودى أعظمها منصب المستشار لنائب الملك فى الحجاز ، ثم منصب مدير المعارف ، ثم عضوية مجلس الشورى - وقد ظل الشيخ صالح شطا عالما يشار اليه بالبنان وعلميا من أعلام الحجاز المرموقين الى أن توفي صالح شطا فى ٢٩ من صفر سنة ١٣٦٩ هـ / سنة ١٩٥٠ م (١) . ومنهم الشيخ صالح بن على بن حسن السروجى الذى ولد بمكة سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٤ م . وقد نشأ الشيخ صالح السروجى نشأة علمية فحفظ القرآن وكثيرا من المتون ، وظل يعكف على طلب العلم حتى أجزى بالتدريس ، وشرع فى تأليف حاشية على (ملا مسكين على كنز الدقائق) فى الفقه الحنفى إلا أنه لم يتمكن من الانتهاء منها فقد اعتراه مرض فى عينيه منعه من التدريس والتأليف اضطره إلى السفر للعلاج فى مصر فشفاه الله فيها ، وعاد الى مكة حيث بقى بها إلى أن توفي سن ١٣٢٩ / سنة ١٩١١ م (٢) .

ومنهم : الشيخ عبدالرؤوف الصبان الذى ولد بمكة المكرمة فى سنة ١٣١٦ هـ / سنة ١٨٩٨ م فى أسرة عريضة الثراء ، وكان فريق من هذه الأسرة يسكن القاهرة ، ويعمل رجال هذا الفريق فى مجال نقل الناس من مكان الى آخر بالعربات التى تقودها الخيول قبل دخول الترام وانتشار السيارات ، وكانت هذه العربات تعرف بخطوط الصبان .

وأما الشيخ عبدالرؤوف الصبان فقد تلقى تعليمه الابتدائى بمكة المكرمة ثم ابتعثته أسرته الى مصر فى أول القرن العشرين إلى أن تخرج فى مدرسة دار العلوم .

ويُعد الصبان من أوائل المتعلمين الذين تلقوا دروسهم المنتظمة والعالية طبقا للمنهج الحديث خارج

(١) أنظر : عمر عبدالجبار - سير وتراجم - ص ١٢٤ وما بعدها ، وأنظر : محمد على مغربى - أعلام الحجاز -

ج ١ - ص ٥١ وما بعدها .

(٢) عمر عبدالجبار - سير وتراجم - ص ١٣١ .

الحجاز فى العهد التركى ، وعندما عاد من مصر إلى وطنه الحجاز أظهر ثورته على الجصور والخرافات التى ظهرت فى المجتمع الحجازى فى أواخر العصر العثمانى الهاشمى (١) وهاجر عبدالرؤوف الصبان من الحجاز الى مصر فى العهد الهاشمى حيث عمل هناك فى الدعاية للملك على بن الحسين (٢) أثناء الصراع بين السعوديين والهاشميين وعاش الصبان حتى أواخر السبعينيات من القرن الرابع الهجرى ، وتوفى بعد رحلتين له فى مصر ولبنان .

ومنهم : الشيخ عبدالمملك الفتنى بن عبدالوهاب بن صالح :

الذى ولد بمكة وحفظ بها القرآن الكريم كما طلب العلم بالمسجد الحرام على يد الشيخ جمال بن عبدالله الحنفى المفتى بمكة وشيخ علمائها ، وأخذ كذلك عن الشيخ العزب الدمياطى المدنى وغيرهم فأصبح بعد ذلك أهلاً للتأليف والتدريس ومن مولفاته :

- ١ - شرح نظم الشمسية للشيخ عمر الناسكورى فى المنطق .
- ٢ - " نظم متن السراجية " ثم شرحه " فى علم الموارث .
- ٣ - " نظم متن المنار " ويبلغ حوالى أربعمئة بيت . فى أصول الفقه .

ومن تلامذته الشيخ أحمد أبو الخير ، والشيخ طاهر سنبل عبدالمملك قلعى والشيخ محمد بن محمد صالح مرداد ، والذى يعنينا فى هذا المجال هو أن الشيخ عبدالمملك بعد أن اشتهر أمره فى التدريس رحل من الحجاز الى مصر واستوطنها ثم افتتح بها مكتبة زودها بالكثير من الكتب فى مختلف العلوم والفنون وعاش بمصر الى أن توفى بها سنة ١٣٣٢هـ / سنة ١٩١٤م (٣) .

ومنهم عبدالوهاب مظهر الأنصارى الذى ولد بالمدينة المنورة ، ورحل الى مصر صحبة والديه ، وهم فى معية والدته الخديوى عباس حلمى الثانى (والى مصر) فألحقته والدته الخديوى

-
- (١) محمد على مغربى - أعلام الحجاز - ج ١ - ص ص ١٠٣ ، ١٠٤ .
 - (٢) محمد علي مغربى - أعلام الحجاز - ج ١ - ص ١٠٥ .
 - (٣) عمر عبدالجبار - دروس من ماضى الحجاز وحاضره بالمسجد الحرام - ص ٢٨٤ .

عباس بمدرسة ببا قادن حيث تعلم فيها وفى مدارس أخرى بمصر حتى نال شهادة البكالوريا ثم التحق بالعمل الدبلوماسي فى المفوضية الهاشمية بمصر ، وأخذ بعد ذلك يرتقى فى المناصب حتى أصبح مستشارا بالسفارة السعودية فى مصر (١) .

ومتهم : محمد حامد بن أحمد عوض الحنفى : الذى ولد فى ضباء بشمال الحجاز فى سنة ١٢٧٧ / ١٨٦٠م فلما شب عن الطوق انتقل الى المدينة المنورة لطلب العلم بها ، ثم سافر الى مصر لإكمال دراسته حيث أخذ ينهل من علوم الأزهر على يد أساتذته ردحا من الزمن نال بعده الشهادة العالمية ومن تتلمذ عليهم فى الأزهر الشيخ محمد نجيب ، وعاد بعد ذلك الى جدة حيث تصدى للتدريس بمسجد السنوسى ، ومسجد عكاشة ومسجد العصارى ، ثم ارتحل الى مكة المكرمة ، وعاد مرة أخرى إلى جدة ليتولى منصب القضاء بها لمدة عامين فى عصر الحكومة الهاشمية ثم انتقل الى الهند وتوفى بها سنة ١٣٤١هـ / ١٩٢٢م (٢) .

ومتهم الشيخ محمد بن سليمان حسب الله الذى ولد فى سنة ١٢٣٣هـ/ سنة ١٨١٨م بالحجاز فلما شب عن الطوق أخذ العلم عن علماء الحجاز أمثال الشيخ عبد الحميد الشنوتى ، وعبد الحميد الدمياطى ، وأحمد بن محمد الدمياطى مفتى الشافعية بمكة ، وأحمد النحراوى ، وعبد الغنى الدهلوى ، وأحمد سنة الله الأزهرى وحسن بن إبراهيم المالكى وبعد أن نهل من علومهم شد رحاله الى مصر ، فأخذ العلم عن بعض علمائها أمثال الشيخ مصطفى المبلط والشيخ إبراهيم السقا فلما حصل على إجازاتهم عاد الى المدينة المنورة وأخذ عن كبار علمائها ثم تصدى للتأليف فألف حاشية على مناسك الحج للخطيب الشينى الكبير ، والرياضة البديعة فى أصول الدين وبعض فروع الشريعة ، وفيض المنان شرح فتح الرحمن وكانت وفاة الشيخ محمد فى

(١) محى الدين رضا - صور ومشاهدات من الحجاز - ص ١٤١ وانظر : فؤاد حمزة البلاد العربية السعودية - ص ١٢٢ .

(٢) عبدالقدوس الأنصارى - موسوعة تاريخ جدة - م ١ ص ٣٤٧ وانظر : عمر عبد الجبار سير وتراجم -

سنة ١٣٥ هـ / ١٩١٧ م رحمه الله (١) .

ومنهم : محمد صالح الكتبي : ولد بمكة المكرمة سنة ١٢٤٥ هـ / سنة ١٨٢٩ م وتربى على يد والده تربية دينية وعلمية حيث كان والده يعمل بالافتاء في مكة وكان محمد أميناً على فتاواه فجمعها ، كما جمع مؤلفات والده أيضاً التي كان منها حاشية على كتاب الوقف ، وحاشية على شرح العيني على الكنز ، وتولي محمد صالح منصب مفتي الحنفية بمكة وكان دائم التردد على مصر ، والاتصال ببعض الأسر المصرية بها حتى توثقت عرى الصداقة بينه وبين أفرادها . وتوفي الشيخ محمد صالح سنة ١٢٩٥ هـ / ١٨٦٨ م (٢) .

ومما هو جدير بالذكر أن آل الكتبي كان لهم رواتب مصرية خاصة تدل على عناية أولى الأمر في مصر بهم وبمكانتهم الطيبة في أم القرى فتفرغوا للعلم والفتوى والتدريس (٣) .

ومنهم الشيخ محمد طاهر الدباغ :

ولد الدباغ بالطائف سنة ١٣٠٨ هـ / ١٨٩٠ م من أسرة كريمة وتربى بين ربيع الطائف وحدائقه ، ثم شاء الله له أن ينهل من كعبة العلم (مصر) فسافر من الحجاز الى الاسكندرية - حيث التحق بمدارسها ونال منها الشهادة العالية وبعدها عاد الى مكة حيث أكمل بعض الدراسات بها على أشهر علماء عصره ، وعندما افتتحت مدرسة الفلاح عين مدرسا فيها للعلوم الرياضية ، ثم عين مديرا لها ، ثم تولى منصب مدير مالية جدة في عهد الملك الحسين بن علي ثم وزيرا للمالية في عهد الملك علي

(١) عمر عبد الجبار - سير وتراجم - ص ٢٢٩ وما بعدها ، وخير الدين الزركلي الاعلام ج ٦ ص ١٥٢ ط بيروت ١٩٨٠ .

(٢) عمر عبد الجبار - سير وتراجم - ص ٢٤٠ .

(٣) دار الوثائق القومية - الأمر التركي رقم ٦٤ - صفحة ٣٢ - قسم ثان - من الجنب العالي الى ناظر المالية

أحمد رشيد - (٦ من شعبان سنة ١٢٧٩ هـ) .

وانظر : ابراهيم رفعت مرآة الحرمين - ج ١ - ص ص ٣١٥ ، ٣٤٧ .

بن الحسين . وغير ذلك من المناصب حتي توفاه الله بمصر سنة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م .
ومن مؤلفاته المختصر فى السيرة النبوية والمختصر فى الحديث الشريف (الترغيب والترهيب)
وكانت له اليد الطولى فى تأسيس مدرسة (تحضير البعثات) بالحجاز ووضع مناهج المدارس المتوسطة
والتجارية واليلية لنشر التعليم بين كافة الطبقات (١) .

ومتهم الأمير الشيخ محمد بن على الإدريسي (٢) :

ولد محمد فى صيبا سنة ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م ، وتربى بها ثم رحل إلى مكة سنة ١٣١٣هـ /
١٨٩٥ وأقام بها وهو من المشاهير الذين أسهموا بتسقط وافر فى مجال نقل الفكر والعلم بين مصر
ومنطقة الحجاز وما حولها .
وأقام بها عدة شهور وخلال هذه الفترة نال قسما وافرا من التعليم على يد علماء مكة وسمع
بشهرة الأزهر وعلمائه واتساع العلوم التى تدرس فيه فشد رحاله الى مصر قاصدا أزهرها الشريف
وأخذ ينهل من علومه على يد علمائه فترة طويلة بلغت ست سنوات من سنة (١٣١٤هـ / ١٣٢٠هـ -
١٨٩٦م / ١٩٠٢م) وفى هذه السنوات التى قضاها بالأزهر اختلط بلفيف من الإيطاليين وبعض من
يخدمون سياستهم وأظهروا له الصداقة حتى مال اليهم وزيروا له أن يستحوذ على امارة عسير وتهامة
كما زيروا له أن يستولى على اليمن ليكون مناوئا بذلك للدولة العثمانية وبالفعل عاد الإدريس وجمع
كثيرا من الاتباع حوله حتي تمكن من تثبيت أقدامه فى منطقة عسير وصيبا والاستيلاء عليها وسبب

(١) عمر عبد الجبار - سير وتراجم - ص ٢٨٢ وما بعدها .

وأنظر : د / طالب وهيم مملكة الحجاز - ص ٧٩ .

(٢) جاء جده أحمد بن ادريس من فاس بالمغرب سنة ١٢٤٦هـ / سنة ١٨٣٠م ونزل فى مكة حيث جاور بها ثلاثون

عاما والتف حوله المريدون ، وكان متصوفا أسس الطريقة الأحمدية . ثم أنتقل من مكة الى صيبا فكثر
بها اتباعه وتوفى فيها سنة ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م وخلفه ابنه محمد الذى صار له ما يشبه الامارة وتزوج

بسودانية فولدت له على ، وتزوج بهندية فولدت له محمدا هذا .

أنظر : خير الدين الزركلى - الوجيز فى سيرة الملك العزيز - ص ١٥٣ .

وأنظر : دائرة المعارف الاسلامية - م ١٢ - ص ٢٨٦ .

كثيرا من المشاكل للدولة العثمانية والحجاز كما كان دائم الاتصال بالايطاليين في مصوع وعدن ، واستمر في منعة وقوة حتى وفاته سنة ١٣٤١هـ / ١٩٢٣ م (١) . ومحمد بن علي هو مؤسس دولة الأدارسة في صيبا بعسير (٢) .

ومنهم الشيخ : محمد علي زينل رضا الذي ولد بمدينة جدة سنة ١٣٠٠هـ / ١٨٨٣ . وتعلم مبادئ القراءة والكتابة في دار أبيه الذي كان من أكبر تجار جدة علي يد بعض العلماء الموجودين فيها حينئذ ، كما بدأ بتعليم الانجليزية والفارسية على أيدي من يعرفونها من عمال والده ، وقد ظهر عليه أمارات عزوفه عن مجال والده التجاري وشغفه بطلب العلم منذ الصغر خاصة علوم الدين ، الا أنه لم يجد في جدة ما يروى ظمأه ، فاستأذن والده للسفر الى مصر ليلتحق بالجامع الأزهر ، لكن والده رفض لاحتياجه إليه في التجارة الواسعة التي يديرها ، ولم يجد محمد أمامه بد من السفر دون أن يخبر والده فذهب الى مصر ، وأخذ يدرس بالأزهر فترة لم يطل به المقام خلالها فقد لحق به والده وأعادته الى جدة ، ليتولى إدارة تجارته الواسعة .

وفي تلك الأثناء ، نبتت في فكر محمد مكرمة علمية عظيمة فقد كانت جدة خلوا من مدرسة عربية اسلامية (٣) ، فعظم ذلك عليه ، وقرر انشاء مدرسة لتعليم أبناء جدة وسماها مدرسة الفلاح .

وقد بدأ الشيخ محمد علي مشروعه هذا منذ سنة ١٣٢٣ هـ وفي طي الكتمان لأن مثل هذا لم يكن مصرحا من قبل السلطات العثمانية فلما أصبح حقيقة واقعة لم تستطع السلطات العثمانية الغاءها ولم تجد مبررا للتصدي لها فشجع هذا الشيخ محمد علي وأعوانه على انشاء مدارس أخرى على غرار

(١) شرف عبدالمحسن البركاتي - الرحلة اليمنية - ص ص ٣ ، ٤

أنظر : حسين نصيف - ماضي الحجاز وحاضره - ص ص ١٨ ، ١٩ .

وانظر : فائق بكر الصواف العلاقات بين الدولة العثمانية وأقليم الحجاز (١٨٧٦-١٩١٦) ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨ م - ص ١٤٢ .

(٢) بسام الجابري - معجم الأعلام - ص ٧٦٢ .

(٣) كانت بجدة مدرسة ابتدائية أنشأها العثمانيون وهي المدرسة الرشيدية الا أنها كانت تركية لتخريج بعض

الموظفين من الأهالي لسد النقص الموجود في الحجاز من الموظفين اللذين يتطلب عملهم الامام بالتركية .

أنظر : عبدالفتاح حسن أبو عليه - تطور المجتمع السعودي - ص ٨٣ .

مدرسة الفلاح فى بلاد عديدة فى الحجاز وخارجه مثل مكه وعدن وبومبائى ، وهذا أعظم دليل على أن الفكر الاسلامى بمفهومه العظيم الشامل كان هو السائد بين الطبقة المثقفة وأن الفكر المحلى لضيق العقيم لم يكن قد شهر بعد .

وقد ظل الشيخ محمد على يتعهد مدارس الفلاح (١) الى أن توفى فى شعبان سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩ م (٢) .

ومنهم الشيخ محمد بن عمر نواوى الجاوى البهتقى الذى ولد فى سنة ١٢٣٠هـ / ١٨١٥ م وأخذ العلم فى مكة وهو صغير على يد السيد أحمد النحراوى والشيخ أحمد الدميّاطى وغيرها من علماء المسجد الحرام ، كما نهل من علماء المدينة المنورة مثل الشيخ محمد خطيب دوما الحنبلى ، وبعد ذلك شد السيد محمد رحاله إلى مصر فطلب العلم بها على يد أفاضل العلماء فى ذلك الوقت ، كما انتفع بعلماء الشام ، ثم عاد الى مكة فسكن بشعب على وأصبح من أكابر علماء التفسير والفقه والتصوف ، وتخرج على يديه الكثير من طلبته ومريديه وقد اهتم السيد محمد النواوى اهتماما عظيما بالتأليف بجانب التدريس حتى بلغت مؤلفاته فى شتى العلوم حوالى مائة مؤلف منها تفسير القرآن الذى سماه (التفسير المنير لمعالم التنزيل) . ومراح لبيد لكشف معانى القرآن المجيد " ومراقى العبودية " فى التصوف ، ومراقبة صعود التصديق فى شرح سلم التوفيق لابن طاهر " فى التصوف أيضا " وشرح بداية الهداية للغزالي " فى المواعظ .

(١) أنشئت مدرسة الفلاح بمكة سنة ١٣٣٠هـ / ١٩١٢ م وبومبائى سنة ١٣٥٠هـ ، وعدن ودهلي سنة ١٣٤٧هـ .

أنظر : عبدالقدوس الأنصارى - موسوعة م ١ - ص ١٩٥ ومحمد جمعان - جدة فى عهد الملك عبدالعزيز - ص ٦٤ .

(٢) محمد على مغربي - أعلام الحجاز ج ١ ص ٣١٧ وما بعدها ، وأنظر : محمد جمعان - جدة فى عهد الملك عبدالعزيز - ص ٦٢ ، وما بعدها .

وقامع الطغيان على منظومة شعب الايمان	في أصول الفقه .
وقطر الغيث في شرح مسائل أبي الليث	في الفقه .
عقود الجين في بيان حقوق الزوجين	في الفقه .
ونهاية الزين بشرح قرة العين	في الفقه .
ونفع الرحمن في القراءات والتجويد	
ونورالظلام في شرح قصيدة عقيدة القوام	
للمرزوقي	في التوحيد
وكاشفة السجا في شرح سفينة النجا	في أصول الدين والفقه .

وبما تقدم نري أن ابن عمر برع وألف في الفقه والتفسير والتصوف الاسلامي وكسنت وقاته سنة ١٣١٦هـ / ١٨٩٨ م كما جاء في أعلام الزركلي ، ومعجم أعلام الجاهلي ، أما عمر عبد الجبار فقد أرخ لوفاته بسنة ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م (١) .

ومنهم : الشيخ محمد نور فطاني : الذي ولد بالحجاز سنة ١٢٩٠هـ / سنة ١٨٧٣م وأخذ في تناول دروسه من والده ، ثم أتمها علي يد الشيخ عبدالحق مؤسس المدرسة الفخرية ، والشيخ عابد مفتي المالكية بمكة ، وعلى الرغم من حصوله على اجازة التدريس الا أنه تطلع للاستزادة من العلوم والمعارف فتاقت نفسه إلى مصر وأزهرها فشد إليها الرحال ، والتحق بالأزهر طالبا للعلم ، فتعلم العلوم الدينية على يد الشيخ محمد عبده ، والشيخ بخيت ، والشيخ الشرييني ، وتلقى علم الهيئة والتوقيت عن الشيخ حسن زائد صاحب المطلع السعيد ، وعندما حصل على الشهادة العليا من الأزهر عاد الى مكة ، وعقد حلقاته بالمسجد الحرام ، وفتح بيته على

(١) الزركلي: الأعلام - ج ٦ - ص ٣١٨ والمولى : مصطفى بن عبدالله ، حاجي خليفه : كشف الظنون عن أساس الكتب والفنون - ج ١ - طبع الاستمارة سنة ١٣٦٠هـ / سنة ١٩٤١م ص ٢٢٨ ، وعمر عبد الجبار - دروس من ماضى في الحجاز وحاضره بالمسجد الحرام - ط ١ سنة ١٣٧٩ - ٢٩٥ . وعمر بن عبد الجبار : سير وتراجم ص ٢٨٨ ، وسام الجاهلي - معجم الاعلام - ص ٧٦٦ .

مصراعيه لطلبه العلم ، وهو يتنقل بين المناصب التى كان جديرا بها الى أن توفى بمكة سنة ١٣٦٣هـ / ١٩٤٤م .

ومما يذكر للشيخ محمد نور أنه كان سلفى العقيدة ، وقد استقى بذورها الأولى على يد شيخ المصلحين الامام / محمد عبده (١) .

وبعد تلك النماذج التى سقناها لا أستطيع أن أقول الا أن هؤلاء القوم وغيرهم قد استفادوا وأفادوا ، فقد استفادوا من النهضة العلمية والتعليمية التى كان يتزعمها الأزهر بأروقتة المتعددة (٢) ، وما أدخله محمد على باشا وحفيده اسماعيل باشا فى مصر من نهضة علمية غربية حديثة واكبتها نهضة ثقافية وأدبية .

ثانيا : رحلات المصوبيين العلمية الى الحجاز :

وإذا كنا قد تعرضنا للتيار الحجازى الذى نال قسطا كبيرا من التعليم فى مصر وعاد لينقل ما ظفر به إلى ربوع الحجاز ، وليشارككم بذلك فى إثراء العلاقات الثقافية والعلمية بين القطرين الشقيقين مصر والحجاز فإن هناك تيارا مصريا جاء من مصر إلى الحجاز ليشرى تلك العلاقة وهذا التيار كان يأتي مفعما بحماس ومشاعر دينية متوهجة وأخوة صادقة .

- (١) عمر عبد الجبار - سير وتراجم - ص ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .
- (٢) كان بالأزهر عدد كبير من الأروقة اختلف المؤرخون والباحثون فيها فذكر لنا على مبارك أن عددها ستة وعشرون رواقا وعددهم د/ الشناوى تسعة وعشرين وأما محمد كمال فقد ذكر أن عددهم سبعة وثلاثون رواقا ، وعدتهم دائرة المعارف الاسلامية ستة وعشرين رواقا وعددها حسين حسان تسعة وعشرين رواقا .
- أنظر : على باشا مبارك - الخطط التوفيقية - ج ٤ - ص ٤٩ وما بعدها ود/ عبدالعزيز الشناوى -
- الأهر جامعا وجامعة - ص ٢٦٠ وما بعدها ومحمد كمال السيد - الأزهر جامعا وجامعة - ص ١١٧ وما بعدها .
- ودائرة المعارف الاسلامية مجلد ٣ - ص ١٨٧ ، ١٨٨ . وحسين حسان - الحركة العلمية والتعليمية فى الأزهر - ص ٥٧ . ويبدو أنه كان هناك بعض الأروقة قد اندثرت ، وبقي البعض الآخر فتضاربت بذلك الأعداد بين المؤرخين .

يقول أحد الباحثين الحجازيين (١) : " من المعلوم أن مصر ترتبط بالحجاز منذ القدم برباط الدين واللغة والأصل ، حيث يزور مكة كل عام آلاف المصريين من مختلف الطبقات لتأدية فريضة الحج ، ولهم أقارب وأصدقاء في الحجاز ، يدور بينهم النقاش والمباحثات في كل جديد يحدث في المجتمعين الحجازي والمصري ، وكثيرا ما يتخلف بعض الحجاج من المصريين في الحجاز لا يعودون إلى بلادهم حبا للسكن بجوار الحرمين الشريفين " .

كما يقول مؤرخ مكة أحمد السباعي (٢) " والذي أظنه أن المصريين من أقل الناس هجرة ، ولكن فتوحات محمد على باشا في مكة شجعتهم على الانتقال إلى مكة والاستيطان فيها ولا يبعد أن يكون أكثر المتقنين من أصحاب العلاقة بحيش محمد على ، وقد اختاروا الإقامة بعده لهذا ... ومن أشهر العائلات المصرية بيت القطان والزقزوق ، والرشيدي ، والمنصوري ، والدمهري " .

ويضيف إبراهيم الفوزان عائلتين أخريين هما : الشاكر ، والشوري (٣) والذي يبدو أن السباعي مبالغ في تصويره ، ولم يتحر الدقة المطلوبة لأن كتب التراجم زخرت بأمثلة كثيرة لمهاجرين مصريين إلى الحجاز دون أن يكون لهم ارتباط حكومي وإنما كان هدفهم التدريس أو السكنى بجوار الحرمين .

فمن هؤلاء : إبراهيم رفعت باشا :

وهو إبراهيم رفعت بن سويفى بن عبد الجواد بن مصطفى المليجي الذي ولد بمدينة أسيوط في ١٨ من جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ هـ / ١٤ من يناير سنة ١٨٥٧ م ، وقد تعهدته أمه بالرعاية والعناية بحفظ القرآن الذي أتمه قبل أن يتجاوز الرابعة عشر من عمره وأخذ ينهل علومه بعد ذلك بعدة مدارس حتى تخرج من الحربية في سنة ١٣٩٣ هـ / ١٨٧٦ م ونظرا لنشاطه وموهبته الفذة تدرج في الرتب العسكرية ، ومنح أوسمة عديدة مكافأة له على نجابته ، حتي عين في ٤ من رمضان سنة ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م رئيسا لحرس المحمل ، وبعد عام واحد تم تعيينه رئيسا للحرس

(١) د / إبراهيم الفوزان - إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة - ص ٢٦٥ .

(٢) أحمد السباعي - تاريخ مكة - ص ٥٦٩ .

(٣) د / إبراهيم الفوزان - إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة - ص ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

الخديوى فى شوال سنة ١٣١٩ هـ / ١٩٠٢ م وتولى فى سنة ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٣ م مسئولية إمارة الحج للمرة الأولى أما الثانية فقد كانت فى سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م وكانت إمارة الحج الثالثة له سنة ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ م والذي يعنينا فى هذا المقام ما ذكره - المترجم له عن نفسه : أنه يعلم من الحجاز وطرقه وأمراته وولاته والحج ومناسكه ما يعلمه كثير غيره " (١) .

وهذه حقيقة يعترف بها كل من يطلع على سفره العظيم "مرآة الحرمين " جمعه فى جزئين ، وانتفع به كل المؤرخين الذين تصدروا للكتابة التاريخية عن مصر والحجاز فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلادى ، ناهيك عن المتعة والاستفادة التي يغم بها القارئ العادى .

ولذلك فهو يعد بحق مرآة للعلاقات الاجتماعية والدينية بين مصر والحجاز فى هذه الفترة . وقد توفي ابراهيم رفعت باشا فى سنة ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٥ م .

ومن هؤلاء : الشيخ ابراهيم الشورى (بكسر الراء) : الذى قدم من دمياط إلى جدة وهو واحد من علماء عصره المشهود لهم ، وعندما استقر فى جده أخذ يلقى فيها دروسه حتى اشتهر أمره وعد من علماء جدة فى القرن الثالث عشر الهجرى ، وترسخت أواصر العلاقات الاجتماعية بأوثق سبلها بينه وبين أهل جدة عندما زوجه الشيخ عبدالله نصيف (جد آل نصيف وأحد رجالات جدة المعدودين من ابنته التى أنجب منها ، فبادر الشيخ عبدالله بوقف دار للسكنى على الشيخ وذريته وزوجه (٢) .

وقد كان للشيخ ابراهيم الشورى دور عظيم فى نهضة المملكة العربية السعودية فى النصف الأول من القرن العشرين ، وترك بصمات واضحة فى المعارف ، ووزارة الحج والمالية ، ونال مكانة طيبة فى مصر والسعودية معا (٣) .

(١) ابراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ٢ - ص ٣٦٥ وما بعدها .

وأنظر : بسام الجاهى - معجم الأعلام - ص ١٢ .

(٢) عبدالقدوس الانتصارى - موسوعة تاريخ جدة - ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ . وجدير بالذكر أن هذه الدار قد آلت إلى آل نصيف بسبب انقراض نسله (حسب شرط الوقف) .

(٣) محى الدين رضا - صور ومشاهدات من الحجاز - ص ١٣٩ .

وهـنـهـم الشـيـخ أحمد الحضراوي :

وهو أحمد بن محمد بن أحمد بن عبده الهاشمي الحضراوي الشافعي ونسبته (الحضراوي) تعود إلى بلدته الحضره التابعة للمنصورة .

ولد ود الحضراوي بأسكندرية سنة ١٢٥٢هـ/ سنة ١٨٣٦ م . تم رحل إلى مكة وعمره سبع سنوات حيث حفظ القرآن الكريم ، وتلقى علومه فيها عن مجموعة من العلماء منهم الشيخ عبدالغنى بن أحمد الفاروقى الطرابلسى ، وأجازه ، كما أخذ عن الشيخ عبدالرحمن الكزبرى والشيخ عبدالغنى الميدانى ، فصار عالما من علماء المسجد الحرام ، وله مؤلفات معظمها فى التاريخ والتراجم منها .

- " الفية فى السيرة النبوية - ومبادئ العلوم .
- " وبشرى الموحدين فى معرفة أمور الدين .
- " وتاريخ فى الحوادث جمعه فى ثلاث مجلدات عنوانه تاج تواريخ البشر من ابتداء الدنيا الى آخر القرن الثالث عشر وفصائل مكة والمدينه ، واللطائف فى تاريخ الطائف .
- " وتراجم أفاضل القرن الثانى والثالث عشر فى مجلدين .
- " وضاب سراج الأئمة فى تخريج أحاديث كشف الغمة للشيخ عبدالوهاب الشعرانى فى ثلاث مجلدات.
- " والعقد الثمين فى فضائل البلد الأمين .
- " (مختصر حسن الصفا) فىمن تولوا إمارة الحج .
- " ورسالة أدبية فى الحماسة على لسان أهل الطائف وجدة والمفاضلة بينهما عنوانها : المفاضلة بين جدة والطائف .

وقد توفى الشيخ الحضراوي سنة ١٣٣٧ / ١٩٠٩ وكان له ابن هو الشيخ محمد السعيد من علماء الحجاز .

وقد رحل الشيخ السعيد الى أندونيسيا وتوفي بها (١) .

ومنهم الشيخ أحمد بن محمد الزهرة الشافعى :

ولد بمدينة دمياط المصرية ، وأخذ بها علومه الأولية ثم تلقى علم القراءات ونال الشهادة العلمية ، ثم رحل الى الشام فى صدر شبابه وانتقل بعد ذلك إلى الحجاز فأقام فترة بالمدينة المنورة ثم ارتحل منها إلى جدة فى سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م .. وأقام بها روحا طويلا من الزمن بلغ أربعين عاما متوالية عمل خلالها بالتدريس فى مسجد الشافعى بعد صلاة المغرب يوميا كما كان يعقد حلقة علمية فى داره كذلك .

وكان الشيخ الزهرة كفيف البصر يرتدى القفطان والعمامة المصرية والمعروف أن هذا الزى هو زى العلماء المصريين .

وبالإضافة إلى عمل الشيخ بالتدريس كان قد اشتهر بتلاوة القرآن فى المحافل والمناسبات المختلفة ، ويبدو أنه جمع من هذه الأعمال أموالا كثيرة استثمرها فى شراء المنازل الكبيرة فى الوقت الذى كان يقترب فيه على نفسه ، ويقطل من مصاريفه إلا أن الشيخ رحمه الله - فاجأ الجميع فى مدينة جدة قبل وفاته بأنه وهب هذه البيوت الكبيرة لمصالح خيرية عظيمة .

فقد وهب البيوت الثلاثة الأولى لمدارس الفلاح وأوقفها عليها ، وهب البيت الرابع لمسجد الشافعى وأوقفه عليه ، فأنهى حياته هكذا بجليل الأعمال وأعظمها أنه تنازل عن ثروته التى جمعها خلال حياته المديدة للخير والبر بعد أن ضيق على نفسه وحرمها حرمانا متواصلا ومنهج هذا مستمد من منهج عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وقد توفي الشيخ أحمد الزهرة بالمدينة فى شهر رمضان سنة ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م عن عمر

(١) عمر عبد الجبار - دروس من ماضى الحجاز وحاضره بالمسجد الحرام - ص ص ٢٧١ ، ٢٧٢ وللمؤلف نفسه

سير وتراجم بعض علمائنا فى القرن الرابع عشر للهجرة - ص ص ٥٧ ، ٥٨ .

وأنظر : خير الدين الزركلى - الأعلام - ج ١ ص ٢٤ ، ومصطفى بن عبد الله ، حاجى خليفه : كشف

الظنون عن أسامى الكتب والفنون ج ٢ ص ١٤٩٢ .

ومنهم الشيخ خليل طيبة :

قدم الشيخ خليل من مصر إلى الحجاز قاصدا بيت الله الحرام ونظرا لعلمه الوفير وورعه وتقواه عقد حلقة العلمية بالمسجد الحرام ، وكان من بين طلابه الشيخ عبدالرحمن جمال والشيخ عباس بن صديق ، وقد بلغ من احترام الناس له وخاصة وجوه القوم أن كان الشريف منصور بن يحيى (٢) ينفق عليه وعلى أسرته تشجيعا له وتقديرا لعلمه الغزير ومكانته الطيبة لدى الناس .

وظل الشيخ خليل يؤدي رسالته ناشرا للعلم إلى أن توفاه الله سنة ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م (٣) .

ومنهم : الشيخ عبدالرحمن أبو حسين :

وهو من أسرة عريقة في مديرية المنوفية ، وقد رحل الشيخ عبدالرحمن في سنة ١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م إلى مكة المكرمة بنية الهجرة وطلب العلم من علماء مهبط الاسلام والهداية ، فالتقى في مكة بالعالم المصرى الكبير السيد محمد صالح الكتبي مفتي الحنفية فأخذ عنه العلم وعن غيره من علماء الحرم المكى ، وقد توسم الكتبي خيرا فى السيد عبدالرحمن فزوجه من حفيدته التى ولدت له فى سنة ١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م محمدا فرياه وأحسن تربيته فأبنت ثمرته ، وصار محمد من كبار علماء عصره حيث أجاز للتدريس فى الحرم ، ثم تولى القضاء بمكة خلفا لجدّه (٤) .

(١) عبدالقدوس الأنصارى - موسوعة تاريخ جدة - م ١ - ص ٣٤٧ وانظر تفاصيل أكثر عن حياته فى الحجاز عند محمد على مغرى : أعلام الحجاز ج ١ - ص ١١ وما بعدها ، وانظر : محمد جمعان دادا - جدة فى عهد الملك عبدالعزيز ص ٦٥ .

(٢) تولى الشريف منصور بن يحيى شرافة مكة سنة ١٢٦٧هـ / ١٨٥١م نيابة عن الشريف محمد بن عون الذى صدر له الأمر بالشىء توصى الى الأستاذة ، فامثل الأمر وحاول أعيان مكة تثبيت منصور بن يحيى إلا أن ذلك لم يصادف قبولا عند الدولة العلية بل وجهت الإمارة الى الشريف عبدالمطلب بن غالب فى رمضان من العام نفسه . أنظر : ابنى زنى دحلان - خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام ص ٣١٥ .

(٣) المصدر السابق - ص ٢٨٩ .

(٤) عمر عبدالجبار - سير وتراجم - ص ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

ومنهم : الشيخ محمد بن حسين ابراهيم المشهور بالفقيه :

ولد بمدينة دمنهور المصرية فى حوالى سنة ١٣٠٤هـ / ١٨٨٧م ثم قدم الى جدة ، وتعلم بها القراءات على يد الشيخ أحمد الزهرة - المصرى المتقدم ذكره وكان الفقيه حريصا على طلب العلم واقتناء الكتب الثمينة حتى أصبح عالما يشار إليه بالبنان ، وأخذ يدرس للناس علوم التفسير والحديث فانتفع بعلمه الكثيرون (١) .

ومنهم : الشيخ محمد العايش :

وهو من علماء الأزهر المجاورين بالمدينة المنورة ، ولم يذكر لنا المغربى من تفاصيل حياته فى كتابه أعلام الحجاز سوى أنه عده من مشايخ الشيخ ضياء الدين حمزة وجب المولود فى سنة ١٣٣٥هـ / ١٩١٥م (٢) .

ومنهم : محمد لبيب البتونى :

المنتسب إلى مدينة البتون بمديرية المنوفية بمصر ، وكان له اشتغال واهتمام بالأدب والتاريخ وشهرة بالرحلات وبخاصة رحلاته الى الحجاز وله مؤلفات منها : رحلة إلى الأندلس ، وتاريخ كلوت بك ، والرحلة الحجازية ، ورحلة الصيف إلى أوروبا والرحلة إلى أمريكا .

وقد دفعنى إلى عده من بين من شاركوا فى إثراء الحركة العلمية والثقافية بين مصر والحجاز ما كتبه فى وصف رحلة الخديو عباس حلمى الثانى إلى الحجاز كشاهد عيان ذا بصيرة وفطنة ، وقد تحدث عن رحلة الحج هذه بتفصيل وصف فيه المناسك والطرق وبعض الاجتماعيات ، فعد أحد رجالى ومؤرخى عصره وقد اعتمد البتونى على كتابات كثيرين من سبقه من المؤرخين والباحثين .

وظل شغوفاً بالتاريخ والرحلات والأدب إلى أن توفي البتونى فى سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م (٣) .

(١) عبدالقدوس الأنصارى - موسوعة تاريخ جدة - م ١ - ص ٣٥٠ .

(٢) محمد على مغربى - أعلام الحجاز - ج ١ - ص ٦٥ .

(٣) الزركلى - الأعلام - ج ٧ ص ١٥ ويسام الجابى - معجم الأعلام - ص ٧٧٤ .

ثالثا : رحلات المسلمين العلمية الى مصر والحجاز :

إذا كان فريق من طلبة العلم والعلماء الحجازيين قد نهلوا العلم من أساطينه في مصر ودرسوا في الأزهر ، وفريق من طلبة العلم والعلماء المصريين نهلوا العلم من مدرستهم الشريفة وحملوا علمهم الى ربوع الحجاز ، ودرسوا في مدارسهم وحلقاتهم ، فإن هناك طائفة أخرى من العلماء وطلبة العلم من أقطار إسلامية شتى شاركوا بهم في إثراء حركة العلم ونشر الثقافة بين مصر والحجاز في الفترة التي نحن بصدد دراستها .

فمن هؤلاء العلماء الأجلاء الذين قاموا بهذا الدور العظيم :

المولى / أحمد عارف حكمت بن إبراهيم بن عصمت بن اسماعيل رائف باشا (١٢٠٠-٢٧٥ م ويذكر انتهاء نسبه الى بيت النبوة من نسل الحسين بن علي ، وكان (إبراهيم عصمت باي) قاضيا للعسكر العثماني في فترة حكم السلطان العثماني سليم II (١٧٨٩-١٨٠٧) م (١٢٠٣ هـ - ١٢٢٢ هـ) (١) .

وبعد المولى أحمد عارف من الأتراك القليلين الذين جمعوا بين المناصب الرفيعة والعلوم المختة وإجادته اللغة العربية ، فمع تدرجه في مراتب العلوم والمعرفة تقلد عدة مناصب عالية في إسلاميه مختلفة .

فقد تولى أحمد عارف قضاء القدس الشريف ، ثم تولى قضاء مصر ، ثم تولى بعد قضاء المدينة المنورة ، ثم ارتقى سلم المناصب ليتولى مشيخة الاسلام بالآستانة في سنة ١٢٦٢م وقد ظل أحمد عارف في هذا المنصب سبعة أعوام ونصف العام ، ونحى عنه سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م ، ثم ترك المناصب ومشاغلا ، وتفرغ للعبادة والقراءة حتى توفاه الله بالآستانة بعد حياة حافلة بالانتاج العلمي والثقافي ولاشك في أن المثقفين في القاهرة والمدينة المنورة قد ان بعلمه وفضله ومن أشهر ما انتفع به طلبة المدينة وعلمائها والمثقفون الواردون عليها خزانة كتبه المشهورة والمعروفة باسم مكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة التي جمع فيها كنوز وأمهات المصادر والمراجع

ومؤلفاته العلمية والأدبية العظيمة التى جمعت بين النشر والنظم باللغات العربية والفارسية والتركية وقد شهد له علماء الأدب بأن له نظم جيد باللغة العربية على الرغم من تركيته (١) .

وهذه المكتبة الثمينة التى أنشأها عارف حكمت فى سنة ١٢٧٠هـ / ١٨٥٤م عند تفرغه للعلم والعبادة جمعت ثلاثة عشر ألف مجلد كلها مخطوطة منذ بداية التأليف فى العصر الاسلامى أقدمها تلك التى ألفت سنة ١٠٠هـ / ٧١٨م (٢) .

وبعد المولى عارف حكمت من مجموعة العلماء المرموقين الذين جاءوا فى أواخر الفترة الرومانسية ولعلهم أسماؤهم فى الثقافة الشرقية التى عمل هو على نشرها فى معظم أنحاء الامبراطورية العثمانية من عرب وترك (٣) .

وربما ساعده على ذلك ارتقاء المناصب الرفيعة فى بقاع عديدة من الامبراطورية المترامية مع إجادته اللغتين التركية والعربية التى نظم بهما أشعارا عظيمة وغالبا أجاد الفارسية لأن منهج علماء الترك الذى ظل سائدا هو أن العالم عندهم لا يطلق عليه عالم الا اذا أجاد مع التركية العربية والفارسية.

ومنهم : الشيخ الطيب أحمد بن على باصبرين الحضرمى :

الذى ولد بحضر موت فى حوالى سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م وتلقى علومه فى كل من حضر موت (مسقط رأسه) ، وجدة ، ومصر ، وفى مصر اقترن بإحدى المصريات ورزق منها بمحمد صالح الذى تركه أبوه مع والدته فأحسننت نشأته حتى صار طبيبا مشهورا بالأسكندرية ، وحصل على لقب بك ، وكان يذهب إلى الحجاز مندوبا عن الحكومة المصرية فى شئون الحج .

وبما هو جدير بالذكر أن الشيخ أحمد بن على عاد من مصر - بعد تلقى الكثير من علوم الدين -

(١) خير الدين الزركلى - الأعلام - ص ١٤١.

(٢) محمد الدين رضا - صور ومشاهدات من الحجاز - ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م - ص ١٦٧.

وانظر : بسام الجابى - معظم الأعلام - ص ٤٤ .

The Sate E.7.W. Gibb - History of Ottoman Poetry P.350.

(٣)

الى الحجاز ، وأخذ فى فى تدريس فقه المذاهب ، وألف فيه كتابا لا يزال مخطوطا ، وينبغى أن
نشير الى أن منهج الشيخ أحمد بن على موصول بمنهج كثيرين من علماء الإسلام فى مصر وغيرها ممن
درسوا وألفوا فى علوم الطب والرياضيات كما درسوا وألفوا فى علوم الدين واللغة سواء بسواء .
وكانت وفاته بعدن سنة ١٣٣٩هـ / ١٩٢١م (١) .

ومنهم : الشيخ شعيب الدكالى :

وهو شعيب بن عبدالرحمن الدكالى المغيرى الذى ولد بالمغرب فى ذى القعدة سنة ١٢٩٥هـ /
١٨٧٨م ، ونشأ نشأة علمية فى أسرة اشتهرت بالمحافظة على شعائر الدين وعلومه ، وأخذ العلم
من علماء المغرب وفى سنة ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م شد رحاله إلى مصر حيث التحق بالأزهر الشريف
والتقى بعلمائه وطلابه وقد أهلته العلوم التى استقهاها من بلده ومن الأزهر لأن يرحل إلى مكة
ويعتقد فيها حلقتين علميتين احدها صباحية فى حصوة باب الصفا ، والأخرى مسائية فى رواق
باب السلبمانية بالحرم المكى .

وقد اشتهرت دروسه فى التفسير والحديث حتى ذاع صيته ، وطابت له الاقامه فى مكة
فتزوج بها وواصل تدريسه حتى وفاة الشريف عون سنة ١٣٢٩هـ / ١٩١١ ، وقد كان مقربا منه ،
فأثر الرحيل الى بلاده ، وهناك تولى قضاء مراكشي ، ثم عين وزيرا للعدل فى سنة ١٣٣٠هـ /
١٩١٢م ، وتوفى فى سنة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م (٢) .

ومنهم : الشيخ / عبدالرحمن أبو حجر المالكى :

وهذا الشيخ ولد بالجزائر فى حوالى سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م ، ورحل إلى مصر طالبا للعلم
فى أزهرها الشريف فحصل فيه قدرا كبيرا على يد علمائه ثم شد رحاله الى السودان سعيا وراء

(١) خير الدين الزركلي - الأعلام - ج ١ - ص ١٨٣ والأنصارى - موسوعة تاريخ جدة م ١ - ص ص

٣٤٨ ، ٣٤٩ ومحمد جصمان دادا - جدة فى عهد الملك عبدالعزيز ص ٦٥ .

(٢) عمر عبدالجبار - سير وتراجم ص ١٢٣ .

رزقه فى مجال التجارة ، وعاد منه إلى مصر حيث بقى بها فترة أعقبها بالانتقال الى الحجاز ، فاستقر بعض الوقت فى مكة المكرمة ثم انتقل الى جدة وطاب له المقام فيها فاخترها موطناً له .
وقد كان الشيخ عبدالرحمن من علماء السنة المخلصين ، ويبدو أنه بات سلفي العقيدة نظراً لثقة الحكومة السعودية التى أولته اياها وعينته رئيساً لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بجدة ، وظل بها إلى أن توفي سنة ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩ م (١) .

ومنهم : الشيخ عبدالواسع بن يعقوب الواسعى اليمنى:

فقد رحل الواسعى من بلدة صنعاء باليمن إلى أقطار اسلامية عديدة كان على رأسها : مصر والحجاز ، وأخذ العلم عن كثير من شيوخها ، وأجاز ، وأجيز ودرس ودرس فى محافل العلم المختلفة ، وأبرز من أخذ عنهم الواسعى من علماء الحرمين الشريفين : العلامة حسين بن محمد الحبشى ، والشيخ عبدالله الزواوى ، والعلامة أحمد بن أبى بكر شطا المصرى الأصل وغيرهم .
وفى مصر أخذ الواسعى عن كوكبة من كبار علماء الأزهر كان على رأسهم : الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية ، والعلامة الشيخ يوسف الدجوى ، والشيخ عبدالمعطي بن حسن ، والشيخ محمد عبدالواحد المصرى .

وللواسعى مؤلفات :

" فرجة الهموم والحزن فى حوادث تاريخ اليمن " ، ومجموعة تشتمل على ثلاث رسائل ، اثنتان منها فى الحديث والثالثة فى فضائل اليمن واللطائف البهية فى شرح أربعين حديثاً لزيد بن عبدالله الودعانى ، وملحق لتاريخ اليمن والدر الفريد (٢) الجامع لمفردات الأسانيد ، ومختصر

(١) عبدالقدوس الأنصارى - موسوعة تاريخ جده - م ١ - ص ٣٥٠ .

(٢) يذكر الرزكلى اسم الكتاب : " العقد الفريد " والصحيح هو الدر الفريد لاطلاعى عليه واستفادنى منه فى بعض

الترغيب والترهيب فى الحديث ، وكنز الثقات فى علم الأوقات (١) .

ومنهم : الشيخ علي بن جنيد باصويرين الحضرمى الشافعى :

الذى رحل إلى جدة واتخذها موطناً له بعد أن نال قسطاً كبيراً من انتعاشه فى مصاعله يد علمائها مكنه من إلقاء دروسه على طلبة العلم فى جدة .

وقد اهتم الشيخ على بإيفاد ابنه أحمد - المتقدم ترجمته - إلى مصر لتلقى العلوم بها ، وأنفق عليه أموالاً كثيرة فى سبيل ذلك ، ولما رجع الإبن إلى جدة بعد تفقّحه أنابه والده عنه فى إلقاء بعض الدروس ثم سافر الأب إلى مصر ليستزيد من معارفها ، وليخاطب عقله عقول مشايخها وعلمائها .

وللشيخ على مؤلفات أشهرها : إتحاف الناقد البصير بقوى أحاديث الجامع الصغير للسيوطى عن الحسن والضعيف ، " وأئمة العينين فى بعض اختلاف الشيخين المشهورين : العلامة الشيخ أحمد بن محمد الهيتمى المصرى ، والعلامة الشيخ محمد بن أحمد الرملى المصرى " فى الفقه الشافعى ومن مؤلفاته أيضاً ك الجدول المشهور فى حساب الفلك لعرض جدة وقد توفى الشيخ علي بجده سنة ١٣٠٦هـ (٢) ١٩٨٩ م .

ومنهم الشيخ عمر بن حمدان :

ولد بتونس سنة ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥ م وبدأ رحلته العلمية منذ سنة ١٣٠٣هـ / ١٨٨٦ وهو

(١) عبدالواسع بن يحيى الواسعى - الدر الفريد الجامع لمفردات الأساتيد - ص ١١ وما بعدها .

وانظر : خير الدين الزركلى - الأعلام - ج ٤ - ص ١٧٨ .

(٢) عبدالقدوس الأنصارى - موسوعة تاريخ جدة - ١م - ص ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

فى الحادية عشر من عصره ، فاستقنى علومه من مصادر شتى وعلماء كثيرين أولهم علماء المدينة المنورة ثم علماء مكة وتونس ، ثم علماء فاس ، ثم علماء دمشق ثم علماء اليمن ، وحضر موت ، ثم علماء مصر وأزهرها الشريف .

وفى مصر أخذ العلم عن الشيخ عبدالمعطى السقا ، والشيخ عبدالرحمن عليش والشيخ محمد إبراهيم الحقا ، والشيخ محمود خطاب السبكي السلفى والشيخ أحمد رافع الطحاوى ، والشيخ أبو محسن على بن محمد البيلوى ، والشيخ محمد الشففى الطواهرى ، والشيخ عبدالرحمن قراغ - مفتى الديار المصرية ، والقاضي محمد بخيت المطيعى ، وشيخ الجامع الأزهر الخضر بن حسين التونسي ، وقد توفى بن حمدان بالمدينة المنورة فى ٩ من شوال سنة ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩ م (١) .

ومنهم الشيخ : محمد حبيب الله المخرى الشنيطى :

الذى كان نزىلا بالمدينة المنورة ، ثم تحول الى مكة حيث أقام بها - مجاورا ردحا من الزمن فأفاد واستفاد ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مصر فأقام بمدرسة الكلشنى بالقاهرة ، وكان يلقى دروسه فى مسجد الامام الحسين (رضى الله عنه) (٢) .

ومنهم : الشيخ / محمد الطيب المراكشى أبو عبدالله :

ولد بقرية منابرة من أعمال مراكش سنة ١٢٩٦هـ / ١٨٧٩ م ولما شب عن الطوق تعلم القرآن الكريم على يد خاله الشيخ / على بن أحمد البكرى / ثم تعلم الفقه والنحو ، وأخذ قسطاً وافراً من علوم الشريعة واللغة العربية على نخبة من علماء مراكش ثم أجزى من مجموعة كبيرة من العلماء فى المغرب العربى ، وبعد ذلك رحل الى مصر فى سنة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦ ليستزيد من علوم علمائها ، فأخذ عن السيد أحمد الرفاعى ، واجتمع بالشيخ الطاهر الجزائري وحصل منه على إجازة بما سمع منه من علوم .

(١) عمر عبدالجبار - سير وتراجم - ص ٢٢٩ وما بعدها .

(٢) عبدالواسع بن يحيى الواسعى - الدر الفريد الجامع لمتفرقات الأسانيد ص ٢١ .

وقد رحل المراكشي في سنة ١٣٢٨هـ / ١٩١٠ م إلى مكة ، وظل بها عامين يعلم ويتعلم ، ومنها انتقل إلى أندونيسيا سنة ١٣٣٠هـ / ١٩١٢ م حيث شارك في نشر العلم هناك فترة أقامته ، إلا أنه لم يطل به المقام فعاد إلى مصر ثانية سنة ١٣٣٩هـ / ١٩١٣ م ، ثم عاد إلى مكة بعد رحلة شملت عدة بلدان إسلامية شارك خلالها في إثراء الحركة العلمية بين أهالي هذه البلاد خاصة مصر والحجاز اللتين كان لهما النصيب الأوفر في رحلاته وجهوده العلمية حيث تكرر سفره إليهما .

وعندما رحل الشيخ المراكشي إلى مكة في سنة ١٣٣٢هـ / ١٩١٤ م تولى التدريس بمدرسة الفلاح حيث قام بواجبه خير قيام ثم عين مديرا لهذه المدرسة في سنة ١٣٥٠هـ / ١٩٣١ م ، وتوفي رحمه الله سنة ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥ (١) .

ومنهم : الشيخ الأديب الشنقيطي التركي :

وهو محمد محمود بن أحمد بن محمد التركي الشنقيطي الذي وصف بأنه علامة عصره في اللغة والأدب كان شاعرا أموي النسب عرف بابن التلاميذ (٢) ولد محمد في مدينة شنقيط بموريتانيا ، ورحل إلى المشرق فأقام بمصر فترة من الزمن ، ثم شدرحاله إلى مكة المكرمة ، واتصل بأميرها الشريف عبدالله الذي أكرمه ، واعتني بأمره لعلمه الذي بدا منه ، إلا أن شريف مكة لأمر صار يحرش بينه وبين علماء الحرم حتى حدثت بين الشنقيطي والعلماء بغضاء وتشاحن .

ونظرا لما اشتهر به الشنقيطي من العلم والأدب أرسلته الحكومة العثمانية في عهد السلطان عبدالحميد الثاني - إلى أسبانيا للاطلاع على مافيها من مخطوطات عربية ، ولمعرفة ما لا يرجد منها في الآستانة فقام بعمله الذي أنيط به خير قيام ، فلما عاد إلى الآستانة طلب مستحقاته عن هذا العمل وقبل تقديمه الأوراق فأهمل أمره ، فظلت تقاريره العلمية ومذكراته هذه عنده ، وسافر إلى المدينة المنورة فلم يطب له فيها المقام نظرا لعدم وفاقه مع علمائها الذين طلبوا إخراجه منها مما دفعه للرحيل إلى مصر ، وفي مصر نزل الشنقيطي ضيفا عند نقيب الأشراف السيد / محمد توفيق البكري الذي بالغ في تكريمه ، واستعان به على تأليف كتابه "أراجيز العرب" ، ثم طبع الكتاب

(١) عمر عبدالجبار - سير وتراجم - ص ص ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٢) اشتهر والده بالتلاميذ (وهو تصحيف للتلاميذ) فعرف محمد بابن التلاميذ لذلك .

منسوبا إلى البكرى وحده ، مما أغضب الشنقيطى ، ووصل الأمر بينهما إلى القضاء . ثم اتصل الشيخ الشنقيطى بالشيخ محمد عبده الذى واساه وسعى لتعيين مرتبات له بالأوقاف المصرية ، وهذا مما شجع الشنقيطى على الاستقرار بالقاهرة إلى أن توفى سنة ١٣٢٢هـ / ١٩٠٤ م .

ومن مؤلفات الشنقيطى : الحماسة السنية فى الرحلة العلمية اشتمل على بعض أخباره وقصائده ، وله : أرجوزة عنوانها : عذب المنهل ، وله " احقاق الحق " وهو حاشية على شرح لامية العرب لعاكش اليمنى .

وله أيضا : تصحيح الأغانى (١) بين فيه الأخطاء وصحح الأوهام الواقعة فى نسخة المطبعة البولاقية .

لقد ظهرت آثار هؤلاء وهؤلاء فى الحجاز وما نقلوه عن الحياة العلمية والثقافية بشكل عام فأخذ الأهالى الحجازيون فى إنشاء المدارس الأهلية فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الهجريين ، وكان من أوائل المنشئين للمدارس الأهلية فى الحجاز هؤلاء الصفوة الذين تعلموا فى الأزهر سواء أكانوا حجازيين أم كانوا مصريين ، كالشيخ أحمد شاهين المصرى الذى شارك فى إنشاء مدرسة النجاح الأهلية سنة ١٣١٧هـ / ١٨٩٩م ، والشيخ محمد على زينل الذى أسس مدارس الفلاح فى جدة سنة ١٣٠٠هـ / ١٨٨٣م (٢) .

كما اتسعت عملية التعليم فى الحجاز عن طريق الكتاتيب التى أنشئت على نخط الكتاتيب التى كانت سائدة فى مصر كما كان للدروس التى ألقاها العلماء فى الحرم المكى والحرم النبوى أعظم الأثر فى اتساع العملية التعليمية فعلى سبيل المثال : بلغت حلقات الحرم المكى وحده مائة وعشرين حلقة كان يتناوب العمل فيها الأساتذة فى أوقات الأصالة والبكور ، وفى أثناء الليل ، وأطراف النهار .

وقد ظهر التشابه وربما التطابق فى طريقة التعليم ، وتلقى العلم بين حلقات العلم فى مصر والحجاز حيث كان التعليم بالحرم يعتنى باللغة العربية ، وعلوم الدين عناية عظمى ، ويسير على

(١) خير الدين الزركلى - الأعلام - ج - ص ٨٩ .

(٢) أنظر : د / ابراهيم الفوزان - أقليم الحجاز ص ٢٨٩ وانظر : أحمد أبو بكر ابراهيم - الأدب الحجازى فى

النهضة الحديثة - مكتبة نهضة مصر ١٩٤٨م - ص ٥١ ، ٥٤ .

نفس منوال طريقة التعليم التي كانت متبعة في أروقة الأزهر الشريف (١) ، وحول أعمدته ، ولاغرر فقد كانت حكومات الحجاز تتصل بمصر ، وكان أكثر عنايتها بالجانب العلمى والثقافى مستهدف ترقية الثقافة والتعليم فى ربوع الحجاز وذلك بإرسال طلبة العلم الحجازيين إلى الأزهر الشريف واستقبال علمائه للاسهام فى الحركة العلمية والتعليمية فى الحجاز ، وكان علماء الأزهر فى هذه الفترة قد أسهموا بقسط وافر فى التعليم الحديث خاصة فى بداية النهضة فى الحجاز (٢) ومازالوا يؤدون واجباتهم فى هذا الميدان .

دور الصحافة المصرية فى تنمية العلاقات بين مصر والحجاز :

ولقد كان للصحافة المصرية تأثير فى مجتمع الحجاز لا ينكر ، وأول جريدة أنشئت فى الحجاز هى جريدة " الحجاز " التى صدر أول عدد منها فى ٨ شوال سن ١٣٢٦ هـ / ٣ من نوفمبر سنة ١٩٠٨ م بمكة ، وكانت تنشر الأوامر الرسمية والأخبار العالمية ، وبعض المقالات والقصائد الأدبية ، وقد شارك فى الكتابة فيها شعراء مصريون كان على رأسهم أمير الشعراء أحمد شوقى (٣) والشاعر الملهم حافظ إبراهيم (٤) .

(١) أنظر فى ذلك : د/ عبدالعزيز الشناوى - الأزهر جامعا وجامعة - ص ٢٤١ ومابعدها - وأنظر : محمد كمال - الأزهر جامعا وجامعة - ص ٣٠١ ومابعدها .

(٢) د/ إبراهيم فوزان الفوزان - إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة - ص ٢٦٧ ومابعدها .

(٣) هو أحمد شوقى بن على بن أحمد شوقى المولود سن ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م ، وبعد شاعر البلاد وأشهر شعراء عصره الحديث ، ويلقب بأمير الشعراء وقد حاول شوقى العمل فى المجال السياسى إلا أنه أخفق فى مسيرته فلزم الشعر حتى وفاته سنة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م أنظر : أحمد لطفى السيد صفحات مطوية - ص ٦٧ . وسام الجاوى - معجم الأعلام - ص ٤٣ .

(٤) هو حافظ إبراهيم محمد الشاعر والكاتب المصرى المولود بين عامى ١٨٦٩ م ، ١٨٧٢ م بمديرية أسيوط بالصعيد المصرى ، وقد نال حافظ قسطا من التعليم والتحق بالمدرسة الخيرية فى القاهرة ، ولكنه ترك الحياة العسكرية بعد أن عاشها وأتيحت له فرصة التلمذة على يد مصلح زمانه الشيخ / محمد عبده ثم انصرف بعد ذلك إلى الشعر حيث برع فيه ، وعُد من أعلامه حتى تولى سنة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ أنظر : دائرة المعارف الاسلامية م ١٣ - ص ٢٢٥ .

وكان مما نشره حافظ ابراهيم في جريدة " الحجاز " بمناسبة الاحتفال بالعام الهجرى سنة

١٣٢٧هـ / ١٩٠٩ م قوله :

أطل على الأكوان والخلق تنظـر
هلال رآه المسلمون فكبروا
سلوا الترك عما أدر كواقبه من منى
وما بدلوا في المشرقين وغيرو
سلام على عبد الحميد وجيشه
وأمته ما قام في الشرق منهرا (١)

كما كان لابراهيم المدني مقالات نارية على صفحات جريدة الحجاز ضد الاستعمار الفرنسى في

الجزائر (٢) .

بالاضافة الى المقالات الأدبية للنابغة عائشة التيمورية (٣) والتي ازدانت بها صفحات تلك
الجريدة مما يدلنا على عمق الروابط الاجتماعية ولا سيما الثقافية منها بين مصر والحجاز وقد
ساعدت الصحافة المصرية وما ينشر فيها من علم وأدب على ظهور النهضة الأدبية الحديثة في
الحجاز .

وتجيب الإشارة الى أن تأثير النهضة الأدبية المصرية في الأدب الحجازى قد استغرق نهاية
القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، ولم يؤت ثماره مباشرة الا بعد مرور فترة زمنية ربما استغرقت
الربع الأول من القرن العشرين .

حتى أن شعراء الحجاز منذ أن بدأت تظهر عندهم بوادر النهضة أخذوا يعالجون بأشعارهم
النواحي السياسية مثلما كان الوضع في مصر لأن طريقتهم كانت في أغلبها مصرية ، وهذا ما
عبر عنه الغزاوى (الشاعر الحجازى) في كثير من أبيات شعره كقوله .

(١) د/ ابراهيم الفوزان - أقليم الحجاز - ص ٣٠٢ .

(٢) د/ جلال يحيى - العالم العربى الحديث - ص ٣٥٠ .

(٣) هي عائشة عصمت بنت اسماعيلي باشا بن محمد كاشف تيمور المولود في سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م ، وهي

من أدباء مصر المرموقين الذين تبنوا مكانة أدبية رفيعة حتى توفيت في سنة ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م أنظر :

بسام النجاوي معجم الأعلام - ص ٣٧٣ .

يا مصر أنت وقد دأبت منارة
للمهتدين ، وسهيك المترمم
وكقوله :

يا مصر يا أم الحضارة والنهى
مهلا فحبك فى الجوانح مدغم (١)

ولم يكن حظ النشر فى الأدب الحجازى بأقل من حظ الشعر فى التأثر بالأدب المصرى ، وهذا لا ينفى أن الحجازيين كما تأثروا بأدباء مصر تأثروا أيضا بأدباء المهجر (٢) إلا أن عنايتهم بالأدب المصرى كان بشكل عام قد فاق عنايتهم بالأدب الأخرى (٣) .

وهذا يشير بلا ريب الى أنه كان هناك نشاط اجتماعي وحركة متبادلة تشمل سفر الأهالى بين القطرين الشقيقين للاقامة والعمل ، ونقل الفكر والثقافة الحديثة بين البلدين .

هجرة الأسر بين مصر والحجاز :

تحدثنا بعض المصادر عن عائلات اشتهرت بالعلم أوالتجارة انتقلوا فى هجرات غير منظمة بين البلدين ومن هؤلاء :

آل المنوفى : وهؤلاء ينتسبون الى إقليم المنوفية ، وقد حضر جدهم إلى مكة فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى ، واشتهر أمره بالتدريس ، وورث أبناؤه علمه مثل الشيخ / عبد الجواد ، ومحمد وأحفاده مثل زين العابدين ، وحسن أبناء سعيد بن محمد المنوفى وكان لهؤلاء مدرسة خاصة بهم فى مكة ، ثم انقرض نسلهم ولم يبق منهم الا امرأتان كانتا تتوليان نظارة رباط العباسية لصفا والمروه حتى القرن الرابع عشر الهجرى ، وكان فى حوزتهما سجلات سلطانية بأوقاف هذا الرباط (٤) .

(١) أحمد أبو بكر ابراهيم - الأدب الحجازى فى النهضة الحديثة - مكتبة نهضة مصر مصر سنة ١٩٤٨م - ص ١٠٢ .

(٢) المرجع السابق - ص ص ١٢١ ، ١٣٤ .

(٣) المرجع نفسه - ص ٥٩ .

(٤) أحمد السباعى - تاريخ مكة - ص ٤٦٧ .

كما حدثتنا تلك المصادر أيضا عن آل شطا فذكرت أن جدهم السيد محمد شطا زين العابدين بن محمود بن علي الشافعي قدم من ثغر ديباط بمصر الى مكة في أواخر القرن الثاني عشر الهجري ، وتولى أمر التدريس في الحرم ، وأنجب أولاده بمكة: السيد عمر ، والسيد عثمان ، والسيد بكرى ، وكان الأخير أكثرهم علما ، وله عدة مؤلفات .

كما أنجب السيد بكرى ثلاثة من العلماء وهم السيد / أحمد ، والسيد / حسن ، ثم السيد: صالح (١).

والسيد / أحمد بن بكر شطا هذا عده الشيخ عبدالواسع بن يحيى الواسعي (٢) صاحب الدرالفريد الجامع لمتفرقات الأسانيد - من بين شيوخه الذين تتلمذ علي أيديهم من علماء الحجاز ، وذكر الواسعي أنه قرأ على الشيخ / أحمد شطابن العشائين في صحن الحرم شمال الكعبة في كتاب الإحياء للغزالي (٣) .

وتشير اسماء عائلة شطا وتلقبهم بالسيد وحرصهم على العلم إلى أنهم من أشراف مصر البكرية ، وقد أكدت بعض المصادر أن سكان جدة " خليط من أجناس شتى مكيين ، وعينيين ، وحضرميين ، وهنود ، وترك ، وشوام ، ومصريين وقصيريين - من القصير (٤) .

وقد كانت هناك جاليات مصرية كبيرة تعيش في مدينة جدة ، وفي مدينة الوجه التي تقع في شمال الحجاز - وكان معظم سكانها البالغ عددهم خمسمائة من القصير ومن بلاد أخرى من الصعيد المصرى ، وكلهم قدموا إلى الحجاز عبر القصير ، وذلك في أوائل القرن العشرين (٥) .

(١) أحمد السباعي - تاريخ مكة - ص ٥٨٦ .

(٢) سبق الحديث عنه وذكر ترجمته في هذا الفصل .

(٣) عبدالواسع بن يحيى الواسع - الدرالفريد الجامع لمتفرقات الزسانيد - ص ١٢ .

وأنظر : عمر عبدالجبار - سير وتراجم - ص ١٢٤ وما بعدها .

(٤) ابراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ٢٣ .

(٥) ابراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ٤٩٠ .

كما أن معظم سكان مدينه يسي قد نزحوا من الصعيد المصري ، واستوطنوها في فترات مختلفة (١) ومن أشهر الأسر التي انتقلت من مصر الى اشجا: واستوطنته أسرة نصيف ذات الشراء العريض ، والشهرة العظيمة في المجالات الأدبية والعلمية والاجتماعية والسياسة ، فقد رحل جدهم من صعيد مصر إلى الحجاز ، واستوطنه كما يذكر ذلك أحد مشاهير عائلتهم وهو : محمد بن حسين بن عمر نصيف .

فقد سأل الزركلي محمدا هذا عن أصل نسبه فأجاب بأن الأصل من صعيد مصر ، وأن جماعة نصيف في الصعيد يدعون أنهم من قبائل حرب العربية إلا أن جده عمر كان يذكر بأنهم ليسوا عربا .

والذي يعنينا هو أن محمدا هذا كان عالم جده ، وصدرها في الفترة المديدة التي عاشها من سنة ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥ إلى سنة ١٣٩١هـ / ١٩٧١ من حيث كان له ولع بالكتب دفعه الى اقتناء مكتبة عظيمة ، وساعد على نشر الكثير من الكتب السلفية وغيرها ، وقد اطلعت على كتابات الكثيرين ممن اعتمدوا عليه كمصدر معاصر .

وقد كان الباحثون والكتاب يسألونه فيجيب من ذاكرته بأخبار من الأحداث السابقة وبشتى المسائل العلمية حتى عدوه دائرة معارف ناطقه وكان السيد محمد رشيد رضا يكتب عنه في " المنار " مادحا : فيقول " محمد نصيف نعم المضيف " (٢) .

وبما يجدر ذكره أن بيت آل نصيف في جده كان يعد مجلسا تعقد فيه الندوات العلمية والفكرية، وظل مفتوحا كذلك لطلبة العلم لينهلوا منه علومهم (٣) .

وفي المقابل كانت هناك أسر حجازية وأفراد حجازيون نزحوا إلى مصر والأقطار التابعة لها، وقد أشرنا الى بعض من نزحوا بها من أمثال الشيخ أحمد باصبرين ، وباعشن الذي تزوج بمصر ، وصار شهيداً للتجار في القاهرة وغير ذلك من الأمثلة .

(١) د/ عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم - الحجازيون في مصر في القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى - ص ١٥٧ .

(٢) خير الدين الزركلي - الأعلام - ج ٦ - ص ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٣) محمد جمعان دادا - جدة في عهد الملك عبدالعزيز - ص ٥٩ .

كما تشير الوثائق إلى نزوح أعداد كبيرة من عربان الحجاز من منطقتي رابغ وينبع إلى سواحل سواكن ومصوع ابان الحكم المصري لهما - حيث أقاموا بين ملاحه راوية وسواكن ، وبين جزيرة عقيق ومصوع ، واشتغلوا بالزراعة ، ورعى المواشى .

ويبدو أن هؤلاء العربان قد كانوا على خلاف مع أهالى تلك المنطقة فعملت الادارة المصرية فيها على دخولهم تحت طاعتها ، وتوطينهم فى الأراضى الصالحة للزراعة ، ثم فرضت الضرائب على زراعتهم ونظمت أحوالهم بانتخاب مشايخ لهم (١) .

كما أن هناك بعض العشائر العربية انتقلت من فترات سابقة من الحجاز إلى مصر واستوطنتها وأصبحت قبائل يمتد نسبها الى القبيلة التى انفصلت عنها بالحجاز والأمثلة على ذلك كثيرة : فمعظم عائلات العنقاوى التى تقيم فى قنا من بني الحسن (الأشراف) من عائلات العنقاوية فى المدينه المنورة ، كما أن لهم أقارب يعيشون فى وادي فاطمة شمال مكة المكرمة (٢) .

وقد استمرت تلك الهجرات العربية من الحجاز إلى مصر طوال العصر الاسلامى وحتى القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي .

واستقرت تلك القبائل المهاجرة فى الريف المصري، وبعض بلدان الصعيد ومن أشهر هذه القبائل : قبائل حرب ، وسليم ، وجهينة ، واستقر معظم فروعها فى بعض مناطق صعيد مصر كالنيل وأسيوط وسوهاج كما أن فروعا أخرى حجازية استقرت فى بعض مناطق الوجه البحري كالشرقية ، والغربية ، والقليوبية ، هذا بالإضافة الى بعض الجماعات العربية التى هاجرت إلى مصر وعاشت ومازالت تعيش على حياة الترحال والتجوال فى الصحراء وعلى هامش الريف المصرى وهم الذين يعرفون باسم : (عرب الخيش) لاستخدامهم الخيش فى صنع خيامهم ويصنعوها من صوف الأغنام (٣) .

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ١ مرور - صفحة ٩٠ - دفتر ١٨٥٩ معية من محافظ مصوع

وسواكن - بتاريخ (٢١ من ربيع الأول سنة ١٢٨٩هـ) .

(٢) مصطفى كامل الشريف - عروية مصر من قبائلها - ص ١٩٩ .

(٣) د / عبدالرحيم عبدالرحمن - الحجازيون في مصر - ص ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

ومن علائق النسب الواضحة التي جمعت بين الحجاز ومصر ما ذكر في ترجمة الشيخ محمد فالج أبو النجاشي الظاهري ، وهو أحد العلماء المحدثين من أهالي المدينة المنورة وأصله من عرب الظواهر بالحجاز .

فقد ولد الشيخ محمد في المدينة المنورة سنة ١٢٥٨هـ / ١٨٤٢م ونشأ فيها ، وتعلم وترقى مدارج العلم بها حتى أصبح من علمائها ، وله مؤلفات مطبوعة منها : صحائف العاهل بالشرع الكامل في الفقه ، والمنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، وحسن الوفا لإخوان الصفا ، وغيرها ، وتوفي الشيخ الظاهري بالمدينة في سنة ١٣٢٨هـ / ١٩١٠ م .

والذي يعني في هذا المقام أن الشيخ محمد الظاهري هو جد الدكتور الظاهري طبيب الأمراض الجلدية الفذ المصري المعروف (١) .

ويغلب على الاعتقاد أن الشيخ المذكور قد رحل إلي مصر ، وتزوج بها أو أن النسب قد جاء بصورة أو أخرى من صور العلاقات الاجتماعية الطبية بين مصر والحجاز . ومن هؤلاء أيضا : محمد مجدي باشا بن محمد بن صالح مجدي حفيد الشريف مجد الدين فقد كان محمد مجدي مكي الأصل وعالما بالقضاء إلا أن ولادته كانت بالقاهرة في سنة ١٢٧٥هـ / ١٨٥٨ م ، وكذلك كانت وفاته بها في سنة ١٣٣٩هـ / ١٩٢٠ م .

أما عن حياته العلمية ومناصبه فقد تعلم بمصر وأكمل تعليمه بفرنسا ثم أخذ يتقلب في المناصب الرفيعة التي يذكر منها : عضويته بمجمع العلوم النفسية بباريس كما عين مستشارا بمحكمة الاستئناف الأهلية بمصر ، وكان ضليعا في العلوم الشرعية ، والنفسية وعمدة كذلك في التاريخ الاسلامي ، والمصري القديم .

ومن مؤلفاته : الرهن العقارية في القوانين الفرنسية والروماني ، ورسالة في التوحيد ، والقول الفصل في العقوبة بالقتل ، ولؤلؤة تاج الملوك ، وبهجة الأطفال في أصول الدين وقواعد الاسلام ، وثمانية عشر يوما في صعيد مصر ، ورسالة باللغة الفرنسية بعنوان : " هل عبد العرب -

(١) عبدالسلام هاشم حافظ - المدينة المنورة في التاريخ - دار التراث - ط ٢ - القاهرة - ١٩٧٢م - ص

وقدماء المصريين إليها واحدا وأخرى بعنوان : تسع عشرة عائلة مسلمة في القرن الثامن للهجرة (١).

الوظائف والأعمال بين مصر والحجاز :

قد يتخيل البعض أن خروج محمد علي وجيشه وموظفيه من شبه الجزيرة العربية سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م قد قطع الصلة الإدارية بين القطرين ، ولم يعد أحد من مصر يتولى الوظائف الحجازية ، إلا أن الحقائق تشير إلى غير ذلك ، فلقد حوت المصادر التاريخية الكبرى كالثائق والموسوعات أمثلة عديدة تؤكد أن هناك بعض الأعمال كان يقوم بها كثيرون من المصريين في الحجاز ، وأن بعض الحجازيين كانوا يتولون أعمالا في مصر وما ألحق بها .

فعلى سبيل المثال نسوق بعض النماذج من كل طائفة مصرية عملت بالحجاز :

١ - الوظائف المصرية بالحجاز في المجال الديني والفكري :

فقد كانت مولوية مكة المكرمة (٢) يتولاها مصريون من ذوى المناصب الرفيعة وكان المتبع في ذلك أن يأتي الأمر بتعيين هذا المنصب وتوجيهه من السلطان العثماني مثال ذلك الأمر السلطاني الذي أصدره السلطان العثماني عبدالمجيد في ١٦ من ربيع الأول سنة ١٢٦٤هـ / ١٩٤٨ م بتولية السيد محمد أفندى قاضي مصر - حينئذ مشيخة مولوية مكة المكرمة ، وقد تضمن هذا

(١) خير الدين الزركلى - الأعلام - ج ٧ - ص ١٨ .

(٢) يرجع اسم المولوية الى طائفة من الصوفيين وفدوا الى مصر ضمن من وفد إليها من الطرق الصوفية في القرن ٧ هـ / ١٣ م ، وينسب أتباع هذه الطائفة إلى مؤسسها المتصوف جلال الدين الرومي في قونية ، وقد اتخذ هؤلاء من مدرسة سنقر السعدى مقرا لهم في عهد الناصر محمد بن قلاوون في الفترة ما بين ٧١٥هـ / ٧٢١ هـ .

انظر : د/ ربيع حامد خليفة - فنون القاهرة في العهد العثماني ١٥١٧ - ١٨٠٥م - مكتبة نهضة الشرق - القاهرة - ١٩٨٥ م ص ١٥٠ . ويبدو أن هذه الطائفة قد افتتحت لها فرعا ومقرا في مكة المكرمة فصار تعيين شيخها من مصر . أو لعلها من النظم الدينية التي أسندت الدولة إلى مصر الاشراف عليها .

الأمر حثا للسيد محمد أفندى على السفر من مصر إلى الحجاز ليتولى منصبه الجديد (١) .

أما قاضي مدينة الوجه بشمال الحجاز فكان يتم تعيينه من قبل مصر ، وقد ظل منصب قاضي الوجه يتولاه عالم مصرى حتى سنة ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٨ م عندما أصرت الخديوية المصرية بسحب القاضى المصرى بناء على الاتفاق الذي تم بين الدولة العثمانية ومصر ليتم إحلال قاض عثمانى مكانه (٢) .

وكان يدير خدمة الحرم النبوى الشريف والعناية بفرشة مصري ينوب عن خديوى مصر فى هذا العمل الجليل .

جاء فى وثائق سنة ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٢ م أن خدمة فراشة الحرم النبوى كان يتولاها فى عهد محمد سعيد باشا موظف مصرى يدعى محمد بدرى أفندى كوكيل من الوالى ، ولما توفى محمد بدرى فى عهد الخديو اسماعيل أصدر الخديوى اسماعيل أمرا كرميا باقامة الشيخ محمد الخطيرى على خدمة الفراش ، وخصص له مرتباته ، وقد جاء فى هذا الأمر الكريم ما يلى :

" أقمت الشيخ محمد الخطيرى مقامى فى أداء خدمة الفراشة فى الحرم النبوى نظرا لوفاء محمد بدرى أفندى وكيل عمنا سعيد باشا وخصصنا للمولى اليه مرتباته " (٣) .

وتشير المصادر إلى وجود بعض المصريين الذين رحلوا من مصر إلى الحجاز طواعية ، وتقلدوا فيه مناصب دينية علمية مختلفة كالإمامة والخطابة والتدريس والفتوى وبعد قيام علماء الأزهر المصريين بالتدريس فى مدن الحجاز ولا سيما فى الحرمين الشريفين من الأمور المعتادة طوال العصر العثمانى ، وفى عهد محمد علي بالحجاز ، مثال ذلك ما حدث فى سنة ١٢٣٨ هـ / ١٨٢٣ م : فعندما توفى الشيخ على الشرنوبى الذى كان يعمل مدرسا بالحرم النبوى الشريف أرسلت الإدارة

(١) الوقائع المصرية - العدد ١٠٥ (١٦ من ربيع الأول سنة ١٢٦٤ هـ) .

(٢) دار الوثائق القومية - محافظ مجلس الوزراء - رقم ١١/ج/١ - حربية - مستخرج من نوتة محضر جلسة ١٢ من مارس سنة ١٨٨٨ م .

(٣) دار الوثائق القومية - صورة الأمر الكريم رقم ٤ - صفحة ١ - دفتر رقم ١٩٠٣ أوامر كريمة - أمر كريم إلى شيخ فراشة الحرم النبوى (٢٢ من شعبان سنة ١٢٧٩ هـ) .

المصرية إلى على أغا محافظ المدينة المنورة لتعيين الشيخ حسن الأزهرى ليحل محل المتوفى (١).

ومن تولوا الامامة والتدريس والفتوى :

الشيخ حسين بن ابراهيم المكي الذي ولد في مصر سن ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧ م وتلقى العلم في الجامع الأزهر وثابر على تحصيله حتى صار علما من أعلامه وظهرت له مؤلفات عديدة ، كما عنى بكتابة عدة كتب بيده منها صحيح البخارى .

ثم سافر في رحلة إلى الحجاز واستقر في مكة المكرمة سنة نيف وأربعين ومائتين وألف هجرية فعنى به أمير مكة الشريف محمد بن عون وقريه ، ثم ولاه في إمامة الحرم وخطابته ، وكتب له تقريراً بذلك ، وعين له راتباً لهاتين الوظائفين ، فظل الشيخ يؤم الناس ، ويدرس بالمسجد الحرام حتى اشتهر أمره فتول الافتاء بمكة ، وعرف عنه عدله وتحريره الدقة في كل فتاويه .

ويغلب على الاعتقاد أن الشيخ قد سبقه إلى الحجاز شهرته وصيته اللامعان مما جعل أمير مكة يستقبله بالحفاوة ويكرمه بالوظائف الرفيعة القدر والمخصصات .

ومن مؤلفات الشيخ / حسين :

حاشية على الدردير ، ورسالة في مصطلح الحديث ، وشرح بانث سعاد وشرح الحكم لابن عطاء الله السكندري ، وموضح المسالك في مذهب الإمام مالك وقد توفي رحمه الله بمكة في ١٠ من ربيع الثانى سنة ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م ، وترك خمسة أبناء تولى أحدهم الافتاء في مكة مثل أبيه (٢) .

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ١٠١ - دفتر ١٤ معية تركى - الى على أغا محافظ المدينة (٦) من

شوال سنة ١٢٣٨هـ) .

(٢) عمر عبد الجبار - سير وتراجم ص ١٠٠ .

٣ - الوظائف المصرية بالحجاز في المجال الإداري والعسكري :

ومن أمثلة الوظائف الادارية التي تولها المصريون في جدة باشكاتبه مصالح جدة ففي سنة ١٢٥٧هـ / ١٨٤١م أصدر محمد علي باشا قرارا بتعيين وتثبيت الشيخ بدوي المرسل من مصر من قبل الوزارة المصرية ليعمل في (باشكاتبه) مصالح جدة في منصب مميز (١) .

وكانت واجبات صاحب هذا المنصب هي الاشراف والمراجعة على شئون الكتبة الذين يعملون في مجلس جدة المتكفل بإدارة مصالحها .

ومن الطبيعي أن يكون مدير العمارة الخيرية (التكية) المصرية التي أنشأها محمد علي باشا في المدينة سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٢م مصريا ، إلا أنه كان لوجهاء المدينة وأشرافها مشورة في تعيينه وعزله .

فقد جاء في أخبار سنة ١٢٩٦هـ / ١٨٧٩ م أن أعيان وجوه مكة رفعوا عريضة الى الخديوى اسماعيل بأنهم غير ممنونين من ناظر العمارة الخيرية ، وقد وقع عليها شريف مكة مع توقيعاتهم فصدر أمر الداخلية المصرية بتعيين رفعتلوا أسعد بك بدلا منه (٢) .

كما أنه كان بمنطقة الوجه في شمال الحجاز مجموعة من الموظفين المصريين وحامية مصرية كانت تقوم بالحفاظ على الأمن في المنطقة طوال العهد السابقة وقد ظل هؤلاء الموظفون ورجال الحامية العسكرية يؤدون أعمالهم بمدينة وميناء الوجه حتى سنة ١٣٠٥هـ / سنة ١٨٨٨ م عندما أمرت الخديوية المصرية بسحب الحامية المصرية وإحلال حامية عثمانية مكانها بناء على الاتفاق الذي تم بين الجهتين العثمانية والمصرية أما الموظفين المصريين في الوجه فقد صدرت لهم الأوامر أيضا في العام المذكور بترك وظائفهم ، وخيرتهم بين العودة إلى مصر أو البقاء والاقامة في هذا الثغر بعيدا عن مناصبهم التي لم تعد تابعة للإدارة المصرية (٢) .

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٤٤٤ - صحف - ٢٦٧ عابدين - من سليمان محفوظ جدة إلى

حضرة صاحب الدولة - بتاريخ (٩ من ربيع الثاني سنة ١٢٥٧هـ) .

(٢) الوقائع المصرية - العدد ٨١٠ - (٢٠ من جمادي الأول ١٢٩٦هـ) .

وفى أواخر العصر العثماني وأوائل الهاشمي في الحجاز (١) كان بالحجاز مجموعة من الشباب المصريين يتولون مناصب عليا في حكومة الحجاز الهاشمية ومن هؤلاء : محمد بك الحسيني الذي كان طبيبا خاصا للملك (الشريف) حسين بن علي ، ومنهم خليل بك الذي كان طبيبا خاصا للأمير علي بن الحسين ولي العهد ومنهم وهبي بك الذي كان مديرا للزراعة في الحجاز وغيرهم كانوا يتولون وظائف ذات مسئوليات جسيمة (٢) .

٣ - الأعمال المصرية بالحجاز في المجال المهني :

تعددت الأعمال المهنية التي كان يقوم بها مصريون في الحجاز ، ومن هذه الأعمال التي تجدر الاشارة بها ما قاموا به من دور في انشاء سكة حديد الحجاز الحميدية حيث كان السلطان عبدالحميد الثاني يعتزم تشغيل الخط بأيد إسلامية وبتسويل إسلامي كذلك ، إلا أنه اضطر أمام العمل الفني والتخصصات الدقيقة الى استخدام فنيين أجانب ، أما المصريون فانهم اقتصروا بالعمل في المجال المهني الذي يعد هيكل هذا المشروع وأساسه ، ولقد تم استخدام الصنائع المصريين بدلا من الأوربيين ابتداء من محطة الأخطر عند الكيلو ٧٦٠ جنوبى دمشق حتى بلغ الخط المدينة المنورة (٣) .

كما كان للأطباء والمهندسين والفنيين والعمال المصريين جهود أخرى في أعمال اصلاحية مثل م اصلاحات والانشاءات بالحرمين الشريفين وغيرهما سيأتى الحديث عنها فيما بعد بمشيئة الله .

أما عن أعمال الحجازيين في مصر وتوابعها فقد كانت هناك أمثلة ونماذج تقل في أعدادها كثيرا عن المصريين في الحجاز إلا أنها تؤكد على الاتصال الاجتماعى بين الجهتين الاسلاميتين بشكل طيب .

فقد لوحظ أن الادارة المصرية استعانت بخبرات بعض الحجازيين في بعض المهن ، فعندما قامت الادارة المصرية بإنشاء الأفران لحبز الجراية في سواكن للموظفين والجنود المصريين اتصلت

(١) أوائل القرن العشرين .

(٢) عبدالمعز صبرى بك - تذكارات الحجاز (خطرات ومشاهدات في الحج) - المطبعة السلفية بمصر -

١٣٤٢هـ - ص ٩٢ .

(٣) د / السيد محمد الدقن - سكة حديد الحجاز الحميدية - ص ٢٢٧ .

بوكيل القومانية العزيزة المقيم بجدة فى سنة ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥ م للبحث عن خباز لعدم وجود من يصلح لهذا العمل فى سواكن علي أن يكون للخباز حرية الإقامة الدائمة فى سواكن أو الإقامة فيها فترة تعليم عدد من العمال هذه المهنة ، ثم يعود إلى جدة مرة ثانية ، كما أرسلت الحكومة المصرية إلى قائمقام جدة رسالة حول هذا الموضوع (١) .

كما لوحظ أن بعض الحجازيين شغلوا بعض المناصب الاقتصادية الرفيعة فى مصر فقد تولى الشيخ على باعشن منصب رئيس التجار (شاه بندر التجار) فى مصر وزاول بها التجارة الواسعة ، وذلك فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى (٢) .

وهناك أمثلة كثيرة لأشخاص آخرين رحلوا إلى مصر ، وقاموا ببعض الأعمال فيها مثل الشيخ/ عبدالمك الفتنى بن صالح الذى رحل من الحجاز إلى مصر واستوطنها حيث افتتح بها مكتبة لخدمة العلماء والطلبة ، وظل يؤدى عمله إلى أن توفى فى سنة ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م (٣) .

مقارنة بين العادات والتقاليد فى القطرين المصوى والحجازى :

مما لا شك فيه أن المؤثرات المختلفة كالتقاليد والعادات والعلاقات المباشرة وغير المباشرة بين الشعبين فى مصر والحجاز انصهرت جميعها فى بوتقة واحدة لتنتج فى النهاية ظواهر شعبية متحدة أو متقاربة .

فقد أدى التزاوج بين الشعبين وعلاقات التجارة والاختلاط فى فترة الحج ، وغيرها ، والانتقالات المستمرة بين الجهتين عبر الطرق البرية والبحرية ، والعادات الرسمية والشعبية إلى تبادل العادات والتقاليد وانتشارها فى القطرين كمعادات المأكّل والمشرب والملبس والاحتفال بالأعياد ، والثقافات المختلفة ، وبعض الاحتفالات الدينية ، وسنعرض لتفصيل ذلك فيما يلى :

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٢٦٢ صفحه ١٤٤ - دفتر ص ١/٥/٢/٤ صادر سواكن ج ١ - حسابات - (١٢ من رجب ١٢٨٢هـ) وانظر فى ذلك : سعد الحلوانى - الحكم المصرى فى سواكن وملحقاتها - ص ١٣٣ .

(٢) عبد القدوس الأنصارى - موسوعة تاريخ جدة - م ١ - ص ٢٧٦ .

(٣) عمر عبد الجبار - دروس من ماضى الحجاز وحاضره - ص ٢٨٤ .

الملابس والأزياء :

يبدو بجلاء ووضوح أن ملابس أهل الحجاز متأثرة تأثراً عظيماً بالملابس المصرية ، يدل عليه هذا الاقتباس الواضح من ملابس مصر فإذا أخذنا شريحة من ملابس أهل الحجاز كملابس العلماء والتجار مثلاً نجد أنها متفقة فيما بينها تقريباً إلا في بعض اختلافات بسيطة بين لباس العلماء ولباس التجار ، وملابس هاتين الفئتين العلماء والتجار الحجازيين هي في مجموعها كملابس رجال الأزهر العلماء والطلاب في مصر .

ويحدثنا المغربي عن زى العلماء في الحجاز فيذكر (١) : أن العلماء الحجازيين كانوا يلبسون الثياب البيض من الكتان أو البفتة ، وفوقها الشاية وهو ثوب يربط من الوسط بحزام لقلقه ، ثم الحجة من فوقه ، أما الرأس فكان عليه العمامة (٢) .

وتتميز ملابس العلماء بأن قماشها بسيط لا مغالاة فيها خالية من الزينة أكمامها واسعة وكان بعض العلماء يستخدم شالاً من الصوف يطوق به عنقه خاصة في الشتاء ، وكانت ثيابهم تزود بجيوب متوسطة في الحجم في النصف الأدنى من الثوب ليضع فيها العالم منديله ومسبحته وكيس نقوده ، وما يقال في ملابس علماء الحجاز يقال أيضاً في ملابس تجار الحجاز مع اختلاف بسيط وهو اهتمام التجار بنوعية الأقمشة والزينة والتطريز وخلافه .

وهذا الوصف بلا شك ينطبق معظمه على زى علماء الأزهر الشريف وطلبته وعلي زى تجار مصر في تلك الحقبة .

أما طبقة العمال وصغار الباعة في الحجاز وهم الذين كانوا يسمون :
(أولاد الحارة) (٣) فكان لباسهم الثوب (الجلباب) وحزام يشدون به الوسط وكانوا يضيفون

(١) محمد علي مغربي - ملامح الحياة الاجتماعية - ص ص ٧٣ ، ٧٤ وأحمد السباعي - تاريخ مكة - ص ص ٥٧١ ، ٥٧٢ .

(٢) حول ملابس علماء الأزهر وغيرهم انظر : حسين حسان - الحركة العلمية والتعليمية في الأزهر - ص ٣٨٤ ، ود/ ربيع حامد خليفه - فنون القاهرة في العهد العثماني - ص ١٤٥ وما بعدها .

(٣) أن كلمة (أولاد الحارة) تعد من الألفاظ السائدة في المدن المصرية ثم أطلق على الحرفيين ومن على شاكلتهم بعد ذلك (أولاد البلد) وهي عبارة مصرية .

إلى الحزام صدرية (١) وهي نفس الصديري المصري ، وفيما عدا عقال الرأس الذى كان يرتديه بعض الحجازيين وبخاصة البدو ولا نجد فروقا جوهرية بين ملابس المصريين والحجازيين فى ذلك الوقت .

الاحتفال بختم القرآن الكريم :

كان نظام تحفيظ القرآن الكريم فى الحجاز يتم طبقا لنظام تحفيظ القرآن الكريم فى مصر حيث كانت الكتاتيب فى البلدين تجمع فيها الصبية ، ويتم تلقينهم آيات القرآن الكريم من الصفر (٢) .

وقد كان الاحتفال بختم القرآن الكريم من العادات الكريمة المشهورة فى الحجاز وظلت حتى النصف الأول من القرن العشرين ، فكان الطالب إذا أتم حفظ القرآن أقام له أهله حفلا يحضره الأهل والأصدقاء والمعلم الذى علمه وبعد الانتهاء منه يقدم الأهل الى المعلم نقودا ثم يتناولون معه الطعام .

الاحتفال بالحج والعمرة :

قد يرى البعض أن مثل هذا الاحتفال غريب فى أرض الحجاز على وجه الخصوص نظرا لأن الحج والعمرة من جدة أو الطائف أو أى بلدة فى الحجاز يكاد يكون أمرا متيسرا بلا شك لقرب المسافة، وانتفاء الغربة ، وغير ذلك فالمقيم بالحجاز يستطيع أن يؤدي العمرة عدة مرات فى السنة ، كما يستطيع أن يؤدي الحج عدة مرات فى العمر ، إلا أن التأثير المصرى فى مجتمعات الحجاز جعل أهالى الحجاز يقيمون أيضا احتفالات مشابهة للاحتفالات المصرية عند قدوم الحاج أو المعتمر من مكة (٣) عائدا الى موطنه .

(١) د/ الفوزان - إقليم الحجاز - ص ٢٤٥ .

(٢) أنظر : مجلة اقرأ - عدد خاص عن جدة - ص ١٧٤ - مقال بعنوان : هكذا عاش أهل جدة وهكذا كانت حياتهم عن المعاصر محمد عزابة .

(٣) أنظر تفاصيل ذلك عند : د/ الفوزان - إقليم الحجاز - ص ٢٤٨ ، وعن الاحتفال المصرى د/ ليلى عبداللطيف - المجتمع المصرى - ص ١٤٤ .

الزواج :

إن الدارس للمجتمعات فى مصر والحجاز يلاحظ اتفاق الكثير من التقاليد والعادات بين مصر والحجاز فى الزواج وما يتعلق به فعلى سبيل المثال : طريقة وإقام الخطبة لوحظ أن النساء فى اليمامة يقمن باتصالات قهيدية ، ثم يجتمع الرجال للاتفاق المبدئى ، ثم يتم عقد القران على يدي المأذون الشرعى الذى كان الحجازيون يسمونه " المملك " فكل هذه الخطوات متشعبة فى مبنائها ومعناها فى كل من مصر والحجاز حتى خطبة النكاح التى يتلوها المأذون فى الحجاز تشبه الى حد كبير الخطبة التى يتلوها المأذون فى مصر .

كما أن احتفالات ليلة دخول العروسين التى تسمى فى القطرين " الدخلة " تكاد تكون متشعبة فى كل من مصر والحجاز بشكل عام ، وكذلك ما يسبقها من : ليلة الحناء حيث يقوم النسوة بوضع الحناء فى يدي الزوجة ، أما الزوج فقد كان يضع فى إحدى يديه شيئاً من الحناء البسيطة (١) الرمزية وقد كانت هدية العروس الحجازية من الذهب وتستورد من مصر فى الغالب مثل الأسورة الذهبية والأسورة الشعبان وحول ذلك يقول المغربى (٢) :

" وقد حدث تطور فى البناجر أو الأسورة الذهبية ، بعد أن عرف الناس السفر إلى مصر وزيارتها للعلاج والاستشفاء ، أو لغير ذلك من الأغراض فوردت البناجر والأسورة من مصر وهى تختلف عن مثيلاتها التى تصنع محلياً " ويضيف المغربى فى حديثه عن الأسورة الشعبان قائلاً :

" كان السوار الذى يصنع فى مصر يصاغ على شكل شعبان وتطعم العينان بفصين صغيرين من الماس ، أو الياقوت وكانت الأسورة الشعبان فى وقت من الأوقات شائعة فى كل بيت وتهدى لكل عروس .

(١) عبدالقدوس الأنصارى - موسوعة تاريخ جدة - م ١ - ص ٢٤٥ وما بعدها .

(٢) محمد على مغربى - ملامح الحياة الاجتماعية - ص ٨٩ .

حفلة الختان :

كانت حفلة الختان فى الحجاز تمثل عادة حجازية مطابقة تماما لمثلتها فى مصر فقد كانت هذه الحفلة تقام عند ختان الطفل حيث يركبه أهله " فرسا " مزينا بأبهى زينة ، ويدورون به فى البلدة وهو فى أحسن الثياب ثم يجرى له عملية الختان (الحلاق) الذى يتردد عليه عدة مرات بعد ذلك لمعالجته (١) .

وهذا كله يحدث فى مصر مع بعض زيادات فى القرى امتازت بها عن المدن .

الأطعمة والأشربة :

على الرغم من تعدد الأطعمة فى الحجاز نظرا لتأثير موجات وافدة كثيرة من الحجاج فإن الشبه يتضح فى معظم أنواعها بينها وبين أطعمة مصر .

ونظام تناول الطعام فى الحجاز لا يكاد يختلف عنه فى مصر وذلك كنتقسيم الطعام الى ثلاث وجبات : فطور وغداء وعشاء .

ويتناول الحجازى فى فطوره : الفول المدمس ، والبيض ، والهريسة ، والعصيدة والعريكة ، والجبننة ، والزيتون ، وأنواع المربى ، والمعصوب ، والقشطة ، والذبدة والعسل ، والكوارع (٢) وهذه الأطعمة التى يتناولها الحجازى فى افطاره تتفق مع ما يتناوله المصرى فى افطاره عدا العريكة والمعصوب والكوارع أما الغذاء فإن أشهر ما يتناوله الحجازى فيه : الأرز واللحم المسلوق (٣) أو السمك المشوى إلى جانب بعض الخضروات على حسب طرق طهيها المتعددة ، ثم الفاكهة والمخلوى وهو متفق مع ما يتناوله المصرى .

(١) عبدالقدوس الأنصارى - موسوعة تاريخ جدة - م ١ - ص ص ٢٥٠ ، ٢٥١ وعن الختان فى المجتمع

المصرى أنظر : د/ لىلى عبداللطيف - المجتمع المصرى العصر العثمانى - ص ١٤٠ .

(٢) د/ ابراهيم الفوزان - إقليم الحجاز - ص ٣٥٤ .

(٣) وقد يكون السمك بديلا للحم خاصة فى مدينة جدة التى كان يصنع فيها أكالات السمك بأشكال متنوعة ==

وأما الحلوى فى الحجاز فمعظمها تشبه الحلوى فى مصر .
ويتحدث المفرى عن بعض هذه الحلوى وهى المشبك فيقول : " وقد رأيت يباع فى الأحياء الشعبية فى مصر مثل حى السيدة زينب ، وسيدنا الامام الحسين (رضى الله عنه) ، ولعله ورد إلى الحجاز من مصر أو الهند " ، ويغلب على الظن أنه ورد من مصر وليس من الهند إلى الحجاز لأن شكله يوحى بأنه طراز إسلامى .

ويكاد يكون العشاء قاسما مشتركا بين المصريين والحجازيين فهو يتكون من : الجبن والحلوى والطحينة واللبن والزبادى والهريسة والفاكهة (١) .

أما الخبز فانه يختلف فى الحجاز عن مثيله فى مصر بعض الاختلاف ، ومع ذلك فقد ذكر ابراهيم رفعت أن خبز الأهالى فى مدينة الوجه " شمس كالذى يصنعه أهل الصعيد (٢) .

وهذا يؤيد ما سبق ذكره وهو أن أهل الوجه من أصول صعيدية مصرية وأما المشروبات فأشهرها عند الحجازيين البن والشاى وهما المشروبان المنتشران فى المجتمعات المصرية (٣) .

٤ - الألعاب :

يتابعنى للألعاب التى كانت معروفة - فى تلك الحقبة التاريخية لاحظت أن القليل منها الذى كان يتفق والألعاب المصرية وهى : الورق (الكوتشينية) والشطرنج ، والمراجيح للصغار ، وركوب الخيل ، ولعب العصا ، والسباحة (٤) .

=====

أشهرها الذى يتفق مع الإعداد المصرى سمك الصيادية حيث توضع الأسماك خاصة (نوع القرموط) قطعاً متراصة فى صينية وعليه الصلصة ثم يوضع فى الفرن حتى ينضج . أنظر : محمد جمعان - جدة فى عهد الملك عبدالعزيز - ص ٢٧٢ .

(١) محمد على مفرى - أعلام الحجاز - ج ١ - ص ص ١٩٧ ، ١٩٨ وانظر : محمد جمعان دادا - جدة فى عهد الملك عبدالعزيز ص ٢٧٤ .

(٢) مرآة الحرمين - ج ١ - ص ٤٩٠ .

(٣) د / ابراهيم الفوزان - أقليم الحجاز - ص ٢٣ .

(٤) المرجع السابق - ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ : والأنصارى - موسوعة تاريخ جدة م ١ - ص ٢٦٤ وما بعدها .

٥ - العادات الأخوس :

كان من بين العادات السائدة فى المجتمع المصرى والحجازى شرب الدخان والزار بالشكل المعروف تماما فى مصر ، يقول المغربى أن الزار ربما تكون بدعته قد انتقلت مؤثراتها من بعض البلدان المجاورة للحجاز (١) ويغلب على الظن أنه انتقل الى كل من مصر والحجاز من الهند .

وتبدو الدهشة فى حديث مؤرخ مكة السباعى عن المؤثرات المصرية فى الحجاز حينما يقول (٢) " ومن الغريب أن الأهالى فى مكة والمدينة وجدة تأثروا بكثير من عوائد المصريين ونقلت الى لغتهم بعض الألفاظ التى لاتزال باقية إلى اليوم بعض آثارها " والحقيقة أنه لاغربة فى هذا التأثير خاصة وأن مصر كان لها هيمنة سياسية واقتصادية طوال قرون عديدة أدت إلى تلك المؤثرات الاجتماعية وهى نتيجة طبيعة للأسباب التى تجتمعت فى قطرين تجمعهما روابط اللغة والدين والعوامل الطبيعية الأخرى كالاتصالات البحرية والبرية .

ويضيف السباعى قوله عن أثر عادات المصريين :

" ولعل أثرها فى سكان الوجه وبلاد الشمال الحجازى أوضح منها فى غيرها ، والذي ألاحظه

====
بيد أنه كانت فى الحجاز بعض الألعاب الأخرى إلا أنها تختلف بعض الاختلافات مع الألعاب المعروفة فى مصر كلعبة (الاستغماية) التى لا تتفق مع اللعبة المصرية إلا فى اسمها حيث أن الاستغماية الحجازية تتم بثلاثة أشخاص حاملين معصوى الأعين وثلاثة محمولين ويدق أحد المحمولين ، وعلى الحاملين معرفته فاذا عرفوه تحول الحاملون الى محمولين وهكذا أما الاستغماية المصرية فهى أن يقسم اللاعبون فريقين فريق يحمى الجدار الذى يسمى " الأم " والفريق الآخر حر يحاول اقتحامه دون أن يُسك من المدافعين فإن تم تقييد أحد المهاجمين يشقلب المدافعون إلى مهاجمين وهكذا ، وهناك لعبة البرير الحجازية التى تتفق مع لعبة " الحجلة " المصرية التى يلعبها الصبية فى الحارات مع اختلاف فحواه أن الحجازيين يقدنون قطعة الفخار فى حفرة يقدمهم اليمنى بينما ينقلها المصريون من مربع إلى مربع آخر ، وفى كل يرفع اللاعب قدمه اليسرى إلى الركبة مع حفظ توازنه . أنظر فى ألعاب الحجاز : محمد جمعان - جدة فى عهد الملك عبدالعزيز - ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ومحمد على مغربى - ملامح الحياة الاجتماعية - ص ٢٢١ ومابعدها .

(١) محمد على مغربى - أعلام الحجاز ج ١ - ص ١٢ .

(٢) أحمد السباعى - تاريخ مكة - ص ٥٢٧ .

أن كثيرا من تقاليد الطبقات الشعبية القديمة في مصر كان يقابلها إلى عهد بعيد تقاليد مماثلة في الطبقة التي يسمونها في مكة والمدينة وجدة (أولاد الحارة) ، وأن كثيرا من ألعيب الأطفال في هذه المدن تتشابه مع مثيلاتها في مصر " (١) .

ومن المفارقات العجيبة تأثر المصريين بأهل المدينة في استخدام لفظ (قبلى) حتى أنهم نقلوا استخدامه خطأ لأن المدنيين يستخدمونه للدلالة على جهة القبلة وهي تقع بالنسبة لهم في الجانب الشرقى الجنوبي ، أما في مصر فقد استخدموا لفظ قبلى للدلالة على الجنوب مطلقا (٢) .

فكما تقدم نعلم أنه كان للعلاقات الاجتماعية الأثر البالغ في استمرار الاتصال المصري الحجازي طوال عهوده السابقة بعكس العلاقات السياسية التي كانت تتسبب أحيانا في قطع تلك العلاقات بين القطرين .

فباستثناء قضية تعدى العربان على القوافل المصرية نلاحظ استمرارية العلاقات الاجتماعية بصور شتى تظهر الحياة في كل قطر كأنها امتداد للقطر الآخر ، ولا أدل على ذلك من الأثر الثقافي والعلمي الذي طبعت به مصر بلدان الحجاز وتركت فوقها بصمات لا تنكر ، وقد تعددت الروافد التي شاركت في نهضة الحجاز في العصر الحديث كمايلي :

أولا : ما حدث من اختلاط اجتماعي بين الشعبين نتيجة للحملات التي بعث بها محمد علي فأطلع أهل الحجاز من خلالها على التيار الثقافي والعلمي الحديث .

ثانيا : الهزة العنيفة التي صنعتها دعوة بن عبد الوهاب في تبادل الفكر الديني بين الحجاز ومصر حيث ظهر المؤيدون والمعارضون ، وكل من الفريقين كان يقيم الحجج والبراهين على صحة فكره وسلامة دعواه ، وقد ساعدت مواسم الحج في تجمعاتها الكبرى على هذا التبادل الثقافي الفكري .

(١) المصدر السابق - نفس الصفحة .

(٢) البتتوني - الرحلة الحجازية - ص ٢٢٧ .

ثالثا : انتقال العلماء وطلبة العلم بين البلدين أتاح الفرصة لهذه الصفوة المثقفة إلى نقل كل جديد وانتشار حركة علمية لا بأس بها ليس على مستوى القطرين فقط بل تعادها إلى الأقطار الإسلامية . فقد كانت مصر بأزهرها ومعافلها العلمية ، والحجاز بحرميه الذى تهفوا إليهما قلوب المسلمين ، وبعدارسهما العريقة مركزى إشعاع علمى يشد إليهما رجال العلماء وطلبة العلم .

أما الانصهار الاجتماعى فقد بدأ فى أقوى مظاهره لاعتماده على الاسلام والعروة واللغة والتقاليد والعادات المتبعة وقد شجع هذا على قيام بعض المصريين بأعمال حجازية وقيام بعض الحجازيين بأعمال مصرية كما تقلد المصريون فى الحجاز وظائف قضائية ودينية وعلمية وإدارية رنيحة مثل :

الإمامة والخطابة فى المسجد الحرام بمكة وإدارة خدمة الحرم النبوى الشريف ومشيخة المولوية الصوفية فى مكة وقضاء مدينة الوجه وإدارة العمارة الخيرية (التكية) والطب ، وإدارة الزراعة ، هذا هذا المهنيين الذين شاركوا فى إنشاء السكك الحديدية الحديدية وغيرها .

ولا شك فى أن العوامل الاجتماعية السالفة الذكر أفرزت مجموعة من العادات والتقاليد واتفق فيها الشعبان مثل : الملابس والأزياء والاحتفالات التى كانت تقام فى مناسبات شتى ، الألعاب وغيرها مما كان نتيجة طبيعية لأواصر القرى والاتصال الدائم بين البلدين .

الفصل الخامس

موكب الحج المصرى وآثاره فى مصر والحجاز

زعميد :

لقد زادت مناسك الحج والعمرة من قوة الوشيجة الدينية بين الشعبين فى مصر والحجاز كما دعمت الروابط الاجتماعية وزادتها احتراماً واثراً ونشاطاً ، والمصريون يعتبرون الحج وهو الفريضة الخامسة قمة الرقي فى الدين ، ومن هنا تغلغل فى أعماقهم قدسية الحرمين الشريفين والقطر الحجازى ، وغما بين الشعبين المتجاورين المصرى والحجازى الاحترام العميق فى العلاقات هذا اذا غرضنا الطرف عن القبائل العربية المنتشرة فى الصحراء التى لم يسلم من اعتداءاتهم أي موكب من مواكب الحج القادمة إلى الحجاز برا فى مراحل التاريخ السالفة .

وتاريخ مواكب الحج المصرى له وجه دينى وأوجه أخرى سياسية وعسكرية واقتصادية .

فلقد كانت القبائل العربية المنبثقة فى بناء وشبه الجزيرة العربية طرفاً قوياً وخصماً عنيداً فى تاريخ موكب الحج المصرى الذى كانت تتبعه مواكب المغرب وأفريقيا ، وهذا الخصم العنيد كان أحياناً يخوض الحرب ضد موكب الحج المصرى وأحياناً أخرى كان يقبل الهبات والمنع مقابل التزامه بالسلم .

بيد أنه بظهور سفن القومبانية العزيزية المصرية فى البحر الأحمر تحول معظم الحجاج المصريين والمغاربة والأفارقة إلى السفر على ظهورها لكونها أكثر أمناً وسلامة من الطريق البرى .

وسنفصل فيما يلى تاريخ موكب الحج المصرى وأثره على العلاقات المصرية الحجازية إبان

فترة هذا البحث .

الاستعدادات لوحلة الحج فى مصر :

كان خروج الحجاج من مصر لأداء فريضة الحج تسبقه الاستعدادات وتواكبه شتى مظاهر الاهتمام وحفلات التوديع (١) .

كما كان يتم تعيين أمير للحج من الشخصيات البارزة فى الحكم ، ورئيس لحرس المحمل من الشخصيات العسكرية الكبيرة وذلك بعد تشكيل القوة العسكرية المرافقة للقافلة والتي كانت تتكون من حوالى مائة جندى وصف ضابط وضابط ومن بينهم أربعة عشر موسيقيا .

كما كان يتم تعيين إدارة للمحمل من موظفى الدولة المشهود لهم بالكفاءة والأمانة كأمين الصرة ، وكاتب الصرة وصراف الصرة واثنين من الكتبة المعاونين ، وكذلك كان يتم تعيين طبيب للمحمل وعدد من المرضين المعاونين له وتخصيص ما يلزم لعملهم من أدوية ووسائل طبية ، كما كان يتم تعيين آخرين للخدمات العامة حتى لقد بلغ جملة هؤلاء الموظفين والعسكريين والطبيين ٤٧٣ فردا حسب إحصاء سنة ١٣١٨هـ / ١٩٠٠ م (٢) .

وكانت القاهرة على مر العصور مركزا يتجمع فيه الحجاج المصريون والمغاربة وحجاج غرب ووسط أفريقيا وحجاج الأندلس وحجاج بعض جزر البحر المتوسط وحجاج دول البلقان وبعض دول أوربا، وهؤلاء جميعا كانوا يتجمعون فى أماكن شتى من القاهرة فى العشر الأخير من شهر شوال فى كل عام (٣) .

وقد كان الحجاج المسافرون على الطريق البرى يعانون من السفر البرى بالإضافة إلى المعاناة التى كان يلاقيها الحجاج المسافرون على الطريق البحرى فى ميناء جدة من الاجراءات البطيئة

(١) الدكتور / السيد محمد الدقن - سكة حديد الحجاز - ص ٧٠ .

(٢) ابراهيم رفعت باشا - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ٥ .

(٣) د / السيد محمد الدقن - سكة حديد الحجاز - ص ص ٤٧ ، ٤٨ ، وانظر دائرة المعارف الاسلامية - م

والانتظار الطويل (١) وهذا ما دعا حكومة مصر إلى اتخاذ اجراءات تخفف تلك المتاعب وتحمي الحجاج ففى سنة ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م قرر مجلس النظار المصرى فى ٢٢ من شعبان الاعلان بأن كل من يريد أداء فريضة الحج يجب عليه مرافقة قافلة المحمل ليكون تحت رعاية أميره وملاحظة حرسه .

كما تكفلت الحكومة بنقل الحجاج برا وبحرا من السويس إلى جدة وداخل الأراضى الحجازية لإتمام مناسك حجهم ، وتكفلت أيضا بنقلهم وهم عائدون في نظير أن يدفع كل حاج يركب الدرجة الأولى فى الباخرة سبعين جنيها على أن يخصص له خمسة جمال لحمل أمتعته وأن يدفع كل حاج يركب الدرجة الثالثة خمسين جنيها على أن يخصص له جملان لحمل أمتعته وهذا المبلغ ضمان للصرف منه على الحاج خلال رحلته وما يتبقى من هذه النقود يرد له بعد عودته (٢) ويدير بالذكر أن هذه القيمة التى فرضتها الحكومة المصرية على الحجاج نظير نقلهم برا أو بحرا تعد باهظة جدا مما قلل من عدد الحجاج فلم يتقدم للحج إلا نفر قليل بلغ ثمانية وعشرين حاجا من الأهالى (٣) .

طريق الحجاج فى الذهاب والعودة :

تعد وسيلة السفر وطريقها العنصران الرئيسيان اللذان يوفران عوامل الراحة والطمأنينة للحجاج اذا ما أعدا اعدادا جيدا .

وقد كانت الإبل هى الوسيلة المثلى لسفر الحجاج منذ فجر التاريخ حتى قرب نهاية النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجرى لأن الجمل سفينة الصحراء بلا منازع .

(١) ابراهيم رفعت باشا - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ص ١٤ ، ١٧ .

(٢) ابراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ٢ - ص ص ١ ، ٢ .

(٣) أنظر : المصدر السابق - ص ٨ .

ولقد أعد الناس الإبل كوسيلة للسفر اعدادا جيدا بما أدخلوه عليها من إمكانيات للراحة وحفظ الأمتعة فظهر هناك جمل الشقذ (١) ، جمل المحفة (٢) وجمل السحلية (٣) ، وجمل العصم (٤) ، وكيفما كانت وسيلة السفر فإن رحلة الحجيج كانت فى جميع الأحوال شاقة لطول السفر ووعورة الطريق وصعوبة الانتقال من مكان إلى آخر (٥) .

أما الطريق الذى كان للحجيج فقد قسم المؤرخون تاريخه إلى أربع فترات هي :

- (١) الشقذ ويسمى أيضا اليهودج ، وهو عبارة عن مجموعة من الأعواد الخشبية تلتف بطريقة متشابكة ثم تكتسى بقماش من صوف الإبل أو الفم ويتكون الشقذ من جزئين متقابلين يوضعان فوق ظهر البعير وله قاعدة خشبية تفرش بالبط والمخاد والأحفة ويمكن لشخصين النوم فيها . وكانت أجرة الشقذ فى سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م عن المسافة من مكة الى المدينة الى ينبع ٢٣ ريالا يضاف إليهما ريال للشريف وآخر للوالى، وثالث للمخرج ، رابع للمطوف أى أن مجموع أجر الشقذ ٢٧ ريالا . أنظر : محمد على مفرى - الحياة الاجتماعية فى الحجاز فى القرن الرابع عشرة للهجرة ص ص ١٨٠ ، ١٨١ وسيد عبدالمجيد بكر - الملامح الجغرافية لدروب الحجيج - تهامه - ط ١ - ١٤٠١هـ/١٩٨١م - جده - ص ٩٢ ، ومحمد جمعان دادا - جدة فى عهد الملك عبدالعزيز - ص ٥٨ .
- (٢) المحفة عبارة عن كرسيين من الخشب فيها راكبان جالسان وكانت أجرة المحفة عن المسافة من مكة إلى المدينة ثم إلى ينبع فى سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م ٢٢ ريالا وارتفع هذا الأجر فى سنة ١٣١٨هـ / ١٩٠٠ م فأصبح ٣٢ ريالا .
- أنظر : د / السيد الدقن سكة حديد الحجاز - ص ٦٤ .
- (٣) السحلية هى عبارة عن سرير يشد على ظهر الجمل مستعرضا ليست فوقه مظلة ويجلس فيه شخصان والسحلية مركب الفقراء .
- أنظر : سيد بكر - الملامح الجغرافية ص ٩٣ .
- (٤) جمل العصم هو جمل الحمل يركب عليه شخص واحد ، وكان أجره ثلث أجر الشقذ عن المسافة السالفة الذكر أى تسعة ريات .
- أنظر : سيد بكر - الملامح الجغرافية - ص ٩٣ .
- (٥) د/ السيد الدقن - سكة حديد الحجاز - ص ص ٦٢ ، ٦٣ .

الفترة الأولى :

من ٢٨٧هـ / ٩٠٠ م - ٤٥٥هـ / ١٠٦٣ م

الفترة الثانية :

من ٤٥٦هـ / ١٠٦٤ م - ٦٦٦هـ / ١٢٦٨ م

الفترة الثالثة :

من ٦٦٧هـ / ١٢٢٨ م - ١٣٠٠هـ / ١٨٨٣ م

الفترة الرابعة :

من ١٣٠١هـ / ١٨٨٣ م إلى نهاية الفترة التي يعالجها هذا البحث .

والذى يعيننا من تلك الفترات التاريخية الفترتان الأخيرتان لأنهما متعلقتان ببحثنا هذا.

فأما الفترة الثالثة وهى التي تبدأ من سنة ٦٦٧هـ / ١٢٢٨ م وتنتهى فى سنة ١٣٠٠هـ / ١٨٨٣ م فإن قوافل الحج المصرى والمغربى ، والإفريقى كانت تسلك خلالها الطريق البرى الذى يبدأ من (بركة الحج فى مصر وينتهى فى مكة المكرمة بالحجاز) .

ولابد لهذه القوافل من أن تمر على المحطات والبلدان التالية وهى :

البويب ، عجرود ، المنصرف (وادى الحاج) ، التبة ، ونخل ، والعقبة ، ظهر الحمار ، ومغاير شعيب ، عيون القصب ، المويلح ، الأزلم ، اصطبل عنتر ، الوجه والجزيرة ، أكرا ، الحوراء ، ينبع النخيل .

وقد كانت هذه القوافل تتحرك كل عام عبر هذا الطريق بعد العشرين من شوال حيث تصل إلى مكة بعد العشرين من ذى القعدة وتستغرق فى رحلتها من القاهرة إلى مكة المكرمة ما لا يقل عن شهر وتقطع هذه القوافل مسافة تصل الى ١٥٠٠ كيلومتر .

وقد ظلت قوافل الحج تطرق هذا الطريق خلال تلك الفترة التى زادت على الستة قرون حتى مطلع القرن الرابع عشر الهجرى سنة ١٣٠١ هـ / ١٨٨٣ .

وقد كانت آخر قوافل الحج البرية التى استخدمت الإبل تضم ألفا ومائة وسبعين حاجا (١) .

أما الطريق الذى كان يسلكه الحجاج المصرى إلى المدينة المنورة قبل دخولهم الحرم المكي فهو طريق البحر الأحمر من الوجه إلى المدينة المنورة - كما حدث فى زيارة والى مصر محمد سعيد باشا إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فى منتصف سنة ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م (٢) .

أما الرحلة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة فقد كان الحجاج يسلكون طريق ينبع حتى منتصف القرن التاسع عشر ، ثم توقف استخدام هذا الطريق حوالى ثلاثا وأربعين عاما حتى سنة ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٣ م (٣) .

وفى خلال هذه الأعوام كان ركب الحج يسلك الطريق المعروف باسم الطريق الشرقى وكان يبدأ من مكة ليصل إلى المدينة عبر محطات عدة هى :

بئر البرود ، وادى فاطمة ، وادى الليمون ، الحظائر (الغربية) ، محطة البركة ، محطة الغدير (المكروا المكير) ، محطة الهضاب ، صفيح ، السويرجية ، الحجرية ، الغديره المدينة المنورة (٤) .

أما طريق عودة ركب الحج المصرى من المدينة المنورة إلى مصر خلال السنوات السالف ذكرها ١٢٦٧ هـ / ١٨٥٠ - ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٣ م فإنه يبدأ من بئر سيدنا عثمان ثم بئر رومة ، فيبئر الطعيني -

(١) سيد بكر - الملامح الجغرافية - ص ٨٠ وأنظر د/ السيد محمد الدقن سكة حديد الحجاز - ص ص

٤٥ ، ٤٦ وقد أضاف البتونى بعض المحطات كما ذكر بعد ينبع النخيل المحطات التالية : السقيفة مستورة

- رابغ - بئر الهندى خليص عسفان وادى فاطمة - حتى يصل الركب إلى مكة المطهرة .

أنظر : الرحلة الحجازية - ص ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) كما سيأتى بيانه .

(٣) إبراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ٢ - ص ٢ .

(٤) المصدر السابق - ج ١ - ص ٣٦٩ وما بعدها .

فالملايح - فقصر عبلة (الشجرة) - فأبار الحلو - فالحفائر - فالفقير - فالعقلة - فالطر -
فالخوتلة - فالوجه ، ومن ميناء الوجه يستقل الحجاج البواخر إلى الطور بحرا حيث تتوقف للاستراحة
والتصوين ، ومن ميناء الطور تستأنف هذه البواخر رحلتها وعلى ظهورها الحجيج إلى السويس
بحرا وذلك لاستكمال إجراءات الحجر الصحى ، ومن السويس يتجه الحجيج إلى القاهرة بالقطار
لينطلق كل حاج الى بلدته أو قريته (١) .

وفى سنة ١٣٢٠هـ / ١٩٠٣م استخدم أمير الحج المصرى / ابراهيم باشا رفعت ورفقته قافلة
الحج المصرية طريق ينبع البحر (٢) فى انتقاله من مكة إلى المدينة المنورة بالإضافة إلى الطرق
البرية الأخرى .

وقد سلك الركب المصرى أولا الطريق البرى من مكة إلى جدة ثم ركب بعد ذلك البحر إلى
ينبع البحر ، ومنها اتخذ طريقا إلى المدينة المنورة يبدو أقل وعورة وأقصر مسافة من الطرق
الأخرى، فانتقل من ينبع الى المسيحلى ، فأرض الفجيج فبئر سعيد فالحجرة ، فبئر عباس ، فبئر
درويش ، فالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام . وقد ظهرت فى سنة ١٣٢٥هـ /
١٩٠٧م محاولات لاستخدام الحجاج المصريين والأفارقة والمغاربة إبان عودتهم لسكة حديد الحجاز
الحديدية وذلك عند تعذر وصول قوافلهم الى ينبع البحر للابحار منها إلى السويس نتيجة
لتعرضها لهجمات العريان الثائرين الذين ظلوا يحيطون ركب الحج المصرى بوابل من الرصاص على
مدى خمس ساعات ونصف الساعة ، مما أدى إلى موت جندي وإصابة ستة آخرين ووفاة أحد الحجاج ،
هذا بالإضافة الى إصابة بعض الخيول ونفوق البعض الآخر على الرغم من المحاولات المضنية التى
بذلها أمير الحج المصرى ابراهيم رفعت باشا ومحاولته إرضاء العريان بدفع أموال لهم ليخلدوا إلى
السكنة دون جدوى .

(١) ابراهيم رفعت باشا - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ٤٨٢ وما بعدها .

(٢) يقع ينبع البحر فى منتصف المسافة بين جدة والوجه ، وهى ميناء المدينة المنورة ويقع على بعد ٢٠٨ كيلو
منها ، وتطل على خليج تمتد من البحر الأحمر تحميه بعض الجزر ، وهناك ينبع النخيل وهى تقع على
بعد ٥٨ كيلو من ينبع البحر وتبعد عن المدينة بمسافة ١٥٠ كيلومترا وبها ٢١ قرية كانت كلها منتعشة
لمرور قوافل الحج عليها ولكنها مرت بفترة ركود بعد تحول طريق القوافل الى ينبع البحر . أنظر سيد
عبدالمجيد بكر - الملامح الجغرافية لضروب الحجيج ص ص ١٤٠ ، ١٤١ .

ويبدو وأن ثورة وهياج المربان - كانت بسبب نقصتهم على إنشاء سكة حديد الحجاز الحديدية فلم تنفع معهم كل محاولات الترضية (١) ، كما أخبر مندوب شريف مكة اهراسي للركب بأن هؤلاء المربان لن تجد معهم أية محاولات عسكرية أو مادية .

كما اضطر إبراهيم رفعت باشا إلى العودة إلى المدينة مرة ثانية بعد أن سار يومين كاملين في الطريق البري ، وقد أبقى إبراهيم رفعت باشا إلى ناظر الداخلية المصرية في ٢٥ من المحرم سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨ م حادث ، وطلب صخايرة الأستانة لتسهيل عملية سفر المحمل وقافلة الحج عن طريق الشام باستخدام الخط الحديدي الحجازي ، ثم تحرك بركب الحج المصري قاصدا رأس السكة الحديدية بالعلا (٢) قبل أن تأتيه موافقة الدولة على استخدام السكة الحديدية وقبل أن يصل رفعت باشا بالحجيج إلى رأس السكة الحديد جاءته إرادة سلطانية بمنع ركب المحمل من ارتياد الطريق الحديدي ، بحجة وجود نقص بالخط ، وعدم استعداده لنقل الركب المصري ، وأن على قافلة المحمل أن تسلك من الطرق الأخرى ما تشاء .

ويلقى إبراهيم رفعت باللوم في هذا المنع على كل من الحكومة المصرية والسلطات والانجليزية ويرجعه إلى أسباب سياسية .

وقد اضطر ركب الحج المصري والمحمل إلى العودة عن طريق المدينة الوجه برا وهناك أركب الحجاج الباقية المخصصة لنقلهم من الوجه إلى مصر (٣) .

(١) كان عربان الأحامدة الذين تزعموا هذه الثورة يعتقدون أن المشير كاظم باشا المسئول عن إنشاء السكة الحديدية الحجازي مصاحب لركب الحج فلذلك نعموا على الركب لأنهم كانوا يريدون الفتك به ، فقد كانوا يعتقدون أن سكة حديد الحجاز تقطع أرزاقهم ، وستكون سببا في تسلط الأجانب ولا سيما الألمان عليهم وعلى بلادهم. أنظر : إبراهيم رفعت باشا - مرآة الحرمين - ج ٢ - ص ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٢) تقع العلا قرب دائرة عرض ٣٨ - ٣٦ شمالا وخط طول ٥٥ - ٣٧ شرقا وتوجد على واد معروف (بواي العلا) في منطقة غنية بالمياه العذبة وفي سطحها واحة خضراء تحيط بها المرتفعات ، وتكثر فيها عيون الماء . أنظر : سيد عبدالمجيد بكر - الملامح الجغرافية لدروب الحجيج - ص ٢٠٦ .

(٣) إبراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ٢ - ص ٢١٠ وما بعدها ، وأنظر : د/ السيد الدقن - سكة حديد الحجاز الحديدية - ص ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

وقد استخدم ركب الحج المصرى فى بعض الأعوام التالية لسنة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م الخط الحديدى الحجازى فى رحلتى الذهاب والعودة .

كما استخدم الخديوى عباس حلمى الثانى هذا الخط الحديدى فى طريق عودته سنة ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م بعد أن أدى فريضة الحج . وقد بدأت رحلته من السويس ، بحرا إلى جدة ، ثم برا إلى مكة ، وبعد أن أدى الفريضة استخدم الخط الحديدى فى طريقه إلى المدينة المنورة ، وفى عودته منها (١) .

كما استخدم الحجاج التابعون لقافلة الحج المصرى الخط الحديدى فى رحلة العودة إلى مصر سنة ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م بعد أن أدى الحجاج مناسكهم فى مكة وأقوا زيارتهم للمصطفى صلى الله عليه وسلم . فقد ركب هؤلاء الحجاج ومعهم المحمل القطارات الحجازية من محطة المدينة المنورة إلى حيفا ركبوا سفينة المحروسة إلى الاسكندرية ومما هو جدير بالذكر أنه فى هذا الموسم (١٣٢٨هـ / ١٩١٠م) كان بالمدينة المنورة خمسون أسرة مصرية وشامية ومفريية وتركية انقطع بها الطريق بعد أن أدت مناسكها ولم تجد وسيلة لرجوعها إلى أوطانها فأمر الخديوى عباس بسفر هذه الأسر على نفقته فركبت هذه الأسر قطار المعية السنية الثانى من المدينة إلى حيفا وتوجهت الأسر الشامية إلى مواطنها بالشام وواصلت الأسر التركية سفرها إلى تركيا شمالا ، أما المصريون والمغاربة فقد سافروا من حيفا إلى بورسعيد على إحدى البواخر الخاصة بالشركة الحديدية بناء على تعليمات الخديوى (٢) .

وفى سنة ١٣٢٩هـ / ١٩١١م استخدم ركب الحج المصرى هذا الخط الحجازى الحديدى كذلك فى رحلة الذهاب فقط حيث استقل الحجاج البواخر من الاسكندرية إلى حيفا ومنها استقلوا قطار السكة الحديدية الحميدية إلى المدينة المنورة .

أما رحلة العودة بعد أداء مناسك الحج فقد سلك ركب الحج المصرى الطريق من مكة إلى جدة ، ومنها سلك الطريق البحرى على ظهور البواخر إلى الطور حيث الحجر الصحى (الكورنتينة) -

(١) محمد ليبى البتونى - الرحلة الحجازية - ص ١٨٨ وما بعدها .

(٢) تم انشاء السفينة الحربية " المحروسة " فى عهد الوالى المصرى إسماعيل باشا وكان تصنيعها فى لندن بالتجارتا خصيصا لركوب الوالى المصرى . أنظر جميل خانكى - تاريخ البحرية المصرية - ص ٣٩٨ .

وبعدها أبحر إلى السويس (١) - ثم اتجه الراكب برا من السويس إلى القاهرة حيث انطلق كل حاج إلى بلده أو قريته .

وأما الفترة التاريخية الرابعة من تاريخ طريق الحج المصري فقد ارتبط ظهورها بتطور المواصلات العالمية ، وظهور السكك الحديدية كوسيلة نقل سريعة ومتطورة حيث كانت مصر في مقدمة الدول التي ظهرت فيها السكك الحديدية بعد إنجلترا صاحبة الاختراع .

فلقد أدى ظهور الخط الحديدي بين القاهرة والسويس (٢) إلى مبادرة الحجاج باستخدامه كوسيلة سريعة وسهلة للانتقال من القاهرة إلى ميناء السويس ومن هذا الميناء كان الحجاج يكملون سفرهم على متن المواصلات إلى ميناء جدة (٣) .

ونستطيع تحديد هذا التغيير الواضح في طريق الحج ابتداء من عصر اسماعيل نظرا لأن الحديوي إسماعيل قد عمل على تسيير خطوط ملاحية منتظمة بين مصر والحجاز لنقل البضائع والبريد والحجاج أيضا .

وربما استخدم بعض الحجاج طريق السويس جدة البحري في رحلات ذهابهم وإيابهم قبل هذا التحديد ، إلا أن المقصود بتحديد عصر إسماعيل كبدية في استخدام هذا الخط هو أن استخدامه

(١) د/ السيد محمد الدقن - سكة حديد الحجاز الحيدية - ص ٣٠٤ وما بعدها .

(٢) إتهيل محمد سعيد باشا فرصة صدور فرمان السلطان سنة ١٨٥٦م الذي حث الولاة على تسهيل المواصلات وفتح الطرق ، وإزاء إلحاح القنصل الانجليزي على سعيد باشا للموافقة على مد خط سكة حديد بين القاهرة والسويس وافق محمد سعيد باشا على مد هذا الخط رغم معارضةفرنسا له التي كانت تخشى من ضرره على مشروع قناة السويس المرتقب ، وبالفعل تم إنشاء خط القاهرة السويس في سنة ١٨٥٨/١٢٧٥م بسرعة مذهلة ساعد عليها إلحاح إنجلترا على إقامة الخدمة مصاطها ، ومنها نقل جنودها إلى المستعمرات الانجليزية في الهند ، وكانت مصر تستفيد من ذلك إذ كانت تحصل على عائد قدره خمسة جنيهات عن كل جندي بريطاني يسير الأراضي المصرية . أنظر : محمد فهدى لبيبطة - تاريخ مصر الاقتصادي ص ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

(٣) د/ السيد محمد الدقن سكة حديد الحجاز - ص ص ٤٦ ، ٤٧ .

كان منظما وبشكل دائم ورسمي .

ويذكر السباعي (١) : " أن الحجاج ظلوا يسلكون إلى مكة طريق العقبة البرى أو طريق القصير البحري في المراكب الشراعية ، ثم بدأت البواخر تستعمل لنقلهم في أواخر سنة ١٣٠١هـ / ١٨٨٣ م ، فاتخذوا ميناء السويس بوابة بحرية لسفرهم على السفن التجارية الكبيرة إلا القليل منهم الذين كانت تنقلهم المراكب الشراعية من موانئ أخرى ، كما استعملت البواخر لنقل حجاج الشرق الأقصى والأوسط وبعض بلاد أوروبا . "

بيد أن وثائق هذه الفترة تشير إلى أن باواخر القومبانية العززية كانت تحمل الركاب من السويس إلى جدة في العقد السادس من القرن التاسع عشر ، ومن هذه الوثائق : ما عشنا عليه في محافظ العززية وقد تضمنت أمرا خديويا بإبطال مرور باواخر القومبانية العززية على مصوع وسواكن مؤقتا لتدارك الاستفادة من موسم الحج على أن تتولى باواخر الحكومة توصيل بريد سواكن ومصوع وذلك في سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م .

وعلى إثر ذلك رأى البدء بقيام الباخرة القصير من السويس إلى جدة مباشرة دون المرور على مصوع وسواكن ، ثم شمل هذا الأمر جميع باواخر القومبانية العززية حتى انتهاء موسم الحج بنهاية سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م (٢) أى قبل التاريخ الذى ذكره السباعي كبدية لاستعمال البواخر بأربعة عشر عاما تقريبا بل أن هناك اشارات تاريخية تلقى الضوء على محاولة لاستخدام هذا الخط البحرى لنقل الحجاج قبل ذلك وعلى وجه التحديد فى ٢٦ شوال سنة ١٢١٣ إبريل سنة ١٧٩٩ م أثناء وجود الفرنسيين فى مصر حيث يذكر الجبerty فى هذا التاريخ ما يلى نصه (٣) : " وفى يوم الثلاثاء نادو فى الأسواق والشوارع بأن من أراد الحج فيصح فى البحر من السويس صحبة الكسوة والصرة وذلك بعد أن عملوا مشورة فى ذلك أما محمد سعيد باشا فانه ارتاد طريق السويس جدة فى سنة ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م كما سيأتى .

(١) أحمد السباعي - تاريخ مكة - ص ٥٧٦ .

(٢) دار الوثائق القومية - محافظ العززية - (الوابرات ٦٩ - ٧٢) ، ملف عام (٣ محرم ١٢٨٦ - ٢٦

ذالحجة ١٢٨٦ هـ) ملف خاص وابرات - غرة رجب ١٢٨٦ / ٧ أكتوبر ١٨٦٩ الى ٢٤ رجب ١٢٨٦ /

٣١ أكتوبر ١٨٦٩ م .

(٣) الجبerty عجائب الآثار - ج ٣ - ص ٧٤ .

وتشير جريدة الوقائع المصرية إلى أن الحجاج المصريين استخدموا الطريقين البحرى والبرى معا فى عام واحد فتذكر الجريدة فى معرض حديثها عن وصول الحجاج فى سنة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م أنه حرر من السويس أن الظاهر تكامل عدد الحجاج من الحجاز وتوارد هم : فالوارد منهم بطريق البحر من جدة ٤٦٥٦ ، ومن ينبع ٩٤٢ فذلك ٥٥٩٨ ، وكشير من الحجاج سابق لقافلة الحج العظيمة المنتظر ورودها عما قريب من البر ^(١) وقد كان المتبع عند حلول موسم الحج أن تصدر الأوامر إلى البواخر المصرية بالاستعداد لنقل الحجاج من السويس إلى جدة مروراً بينبع فى الذهاب والإياب ^(٢) .

ولم يقتصر أمر نقل الحجاج بين السويس وجدة علي البواخر المصرية وإنما تعداها إلى البواخر العثمانية والأجنبية من مختلف الجنسيات .

فعلى سبيل المثال نلاحظ أنه فى سنة ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م ظهر فى البحر الأحمر مجموعة من البواخر العثمانية والأوروبية شاركت فى نقل الحجاج من جدة إلى السويس بعد أن أقوا مناسك حجهم فى مكة والمدينة .

فقد نقلت البواخر العثمانية بابل ومدار توفيق وطرابزون ١٩٥٠ حاجاً استقل الأولى منهم ٥٧٧ حاجاً واستقل الثانية ٨٢١ حاجاً واستقل الثالث ٥٥٢ حاجاً .

ونقلت البواخر الانجليزية سنيت وبارت اخوان وشيراز ٨٧٤ حاجاً استقل الأولى مها ٣٥٠ حاجاً واستقل الثانية ١٧٠ حاجاً ونقلت السفينة النمسية أبوللو ٦٤٨ حاجاً ، ونقلت السفينة القلمنكية منادو ٣١٤ حاجاً ، بينما نقلت البواخر المصرية مصوع وأوستريا والحجاز ١٨٨٣ حاجاً .

ويلغ مجموع من قدم من الحجاج حتى ٢٢ من المحرم سنة ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م خمسة آلاف وستمائة وتسعة عشر حاجاً (٣) .

(١) الوقائع المصرية - العدد رقم ٢٠٨ - بتاريخ ٢٠ من صفر سنة ١٢٨٥هـ / ١١ من يونيو سن ١٨٦٨م .

(٢) الوقائع المصرية - العدد رقم ٨٢١ - بتاريخ ٩ من شعبان سنة ١٢٩٦هـ / ٢٧ من يوليو سنة ١٨٧٩م .

(٣) قائع المصرية - العدد رقم ٤٠٣ - (٣ من محرم سنة ١٢٨٨هـ / ١٣ من إبريل سنة ١٨٧١م) .

ومما يجدر ذكره هو أن كثيرين من الراغبين في الحج كانوا لا يملكون مالا يمكنهم من السفر فكانت الحكومة الخديوية المصرية تصدر الأوامر بنقلهم علي حسابها مثلما حدث في عهد الخديوى إسماعيل عندما أمر في سنة ١٢٨٢هـ / ١٨٦٦م بنقل واحد وثمانين من فقراء المسلمين على الباخرة المصرية (مصوع) فنقلتهم هذه الباخرة من ميناء السويس إلى ميناء جدة (١) . دون أن يدفعوا شيئا وفي سنة ١٣١٨هـ / ١٩٠١م حج الخديوى عباس الثانى فسار مع ركب الحج المصرى في رحلة العودة تسعة وأربعون من فقراء المغاربة على الرغم من التنبيه عليهم بأن ركب المحصل لا يستطيع تحمل نفقاتهم ولا زادهم ، إلا أنهم ساروا معه حتى مدينة الوجه ، وهناك رفض ريان الباخرة التى ستقل المحصل والحجاج أن يحملهم فرجاه إبراهيم رفعت ومحافظ الوجه أن يعملهم مع الحجاج حسبة للده تعالى فوافق على نقلهم معه إلى السويس (٢) .

ولا شك فى أن الاحصاءات الدقيقة تلقي الأضواء على الحقائق التاريخية وتساعد على الوصول إلى نتائج أكثر دقة وسلامة فعلى سبيل المثال : نجد أن إحدى الاحصاءات تضمنت عدد الحجاج المسافرين للحج وعدد الحجاج العائدين منه خلال ثمانى سنوات من ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥م إلى ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢م تشير إلى أن عدد الحجاج العائدين يقل باستمرار عن عدد الحجاج المسافرين بمقدار يتراوح بين خمسمائة وسبعمائة حاج تقريبا بيد أن السنة الأخيرة ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢م ازداد فيها هذا النقصان فبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسا وثمانين حاجا - كما هو موضح فى الحاشية (٣) .

(١) الوقائع المصرية - العدد رقم ٢١ - بتاريخ ٤ من ذى الحجة سنة ١٢٨٢ هـ / ١٩ من إبريل سنة ١٨٦٦م

(٢) إبراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ٤٩١ .

(٣) الحجاج المتوجهون من السويس الحجاج العائدون إلى السويس السنة

١٢٨٢ هـ	١٨٦٥ م	-	١٨٤٩٠
١٢٨٣	١٨٦٦	-	١٢٨٨٧
١٢٨٤	١٨٦٧	٨٨٤٧	٨٣٤٧
١٢٨٥	١٨٦٨	٩٦٨٠	٨٠٧٤
١٢٨٦	١٨٦٩	١١٢١٢	١٠٧٢٤
١٢٨٧	١٨٧٠	٢٠٨٦٦	١٩١٠٩
١٢٨٨	١٨٧١	١٢٤٠٢	١١٦٣٧

أنظر الوقائع المصرية العدد رقم ٥٠٣ (١٨ من صفر سنة ١٢٣٠ هـ ١٥ من إبريل سنة ١٨٧٣ م) .

ويبدو أن هذا النقص كان سببه ما كان يعانيه الحجاج من مشاق ومخاطر جسيمه وأمراض كانت تودى بحياة الكثيرين منهم خاصة كبار السن والضعفاء أما النقص المروع الذى طرأ فى سنة ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م فأغلب الظن أن هذا العدد الكبير قد راح ضحية وباء من الأوبئة التى كانت تقضى على أعداد كبيرة من الحجاج .

وربما كان البعض يتخلف حبا فى الإقامة بالأراضى المقدسة ، وطمعا فى أن يدفن بها أجسادهم بعد موتهم (١) .

ويلاحظ أيضا ازدياد عدد الحجاج بعد افتتاح قناة السويس للملاحة حتى بلغت هذه الزيادة عددا كبيرا فى سنة ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٣ م .

فكان عدد المسافرين من السويس إلى جدة للحج فى البواخر الخديوية ٢٢٨٣٦ حاجا بينما كان عدد المتوجهين بالبواخر الأجنبية ١٤٤٦٠ حاجا وبلغ عدد الجميع ٣٧٢٩٦ حاجا مرثلتهم تقريبا من قناة السويس (٢) .

الطريق الذى سلكه محمد سعيد باشا لزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم :

عزم والى مصر محمد سعيد باشا على السفر إلى المدينة المنورة لزيارة قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم فى منتصف سنة ١٢٧٧ هـ (٣) / ١٨٦٠ م فأرسل مندوبه أحمد بك إلى الحجاز لإقامة

(١) ومن أشهر من توفوا فى مكة ودفنوا بمقبرة المعلى التى تقع خارج مكة زوجة محمد على باشا التى كانت قد حضرت إلى مكة للحج فى سنة ١٢٦٦ هـ / ١٨٥٠ م فماتت ودفنت هناك . أنظر : محمد لبيب البتنونى - الرحلة الجازية ص ٣٣ .

(٢) الوقائع المصرية - العدد رقم ٤٩٧ - بتاريخ ٥ من محرم سنة ١٢٩٠ هـ / ٤ من مارس سنة ١٨٧٣ م .

(٣) يذكر عبدالرحمن الرافعى أن ملابس رحلة سعيد باشا تدل على أن غرضها كان سياسيا نظرا لأنه لم يذهب فى موسم الحج وقنع بزيارة المدينة فقط مع تجريدة عسكرية صاحبتها ، ويعزى الرافعى سبب تلك الزيارة إلى طلب استدعاء الأستانة للوالى فرفض الحضور إليها واعتزم تلك الزيارة للحجاز ليجد مسوغا للرفض . أنظر : عصر اسماعيل - ج ١ - ص ٤٦ .

الاستعدادات اللازمة هناك وعلى رأسها إعداد الجمال التي أوصاه بجمعها في ينبع البحر وأمره ألا يقل عددها عن أربعة آلاف جعل علي أن تشمل مجموعة من الهجن ، وأرسل له مبلغا قدره عشرة آلاف فرانك معذرا إياه من أي تعسف يتم اجراؤه مع أصحاب الجمال ، وروعيه بحسن المعاملة لهم وجمع الجمال برضا كامل منهم (١) .

كما أرسل محمد سعيد باشا بخطابين إلى الحجاز أحدهما إلى شريف مكة والثاني إلى والي جدة وطلب منهما في هاتين الرسالتين مساعدة مندوبه (أحمد بك) على جمع واستئجار الجمال والهجن وكل ما يلزم احضاره لرحلة الوالي المصري (٢) .

إلا أن الأخبار ما لبثت أن وصلت إلى عريان تلك الجهات حتى كثرت الاشاعات والأراجيف ، وحدث للجميع وهم ورعب شديد من سفر والي مصر إلى هناك ، فقد تذكروا ما وقع عليهم في عهد محمد علي باشا واعتقدوا أن ذلك سيتكرر مرة ثانية .

لذلك أثر محمد سعيد تهذئة القبائل وأرسل إلى الشيخ سعد جزا شيخ عريان حرب أكبر القبائل بأنه عدل عن التوجه عن طريق ينبع البحر ، وصمم على اتخاذ طريق السويس البحري إلى قلعة الوجه ومنها سيتجه برا إلى المدينة المنورة على الطريق المعتاد للحجاج المصريين ، كما قرر أن يكون في معيته نحو ألف وخمسمائة من الجنود بالإضافة إلى حاشيته (٣) .

وقد بعث سعيد باشا برسالة إلى شيخ عريان حرب ببذل الهمة في نقل مهمات ومؤن قافلته من ينبع إلى المدينة المنورة عند وصولها على ظهور الجمال (٤) .

أما نقل تلك المؤن والمهمات من السويس إلى ينبع والعكس فلقد قامت بها شركة الشرق التي خصصت لها الباخرة (د. بونجيز) ، وقد بلغت التكاليف التي صدرت الأوامر بدفعها إلى الشركة عشرة آلاف وخمسمائة جنيه مصري ، كما وزع سعيد باشا خمسمائة وستة وثلاثين جنيها وعشرة شلنات على عمال وموظفي الباخرة على أن تحتسب هذه الأموال ديناً لمصلحة المرور والسكة الحديدية

(١) أمين سامي - تقويم النيل - ١م - ج ٣ - ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٢) أمين سامي . تقويم النيل - ١م - ج ٣ - ص ٣٦٠ .

(٣) يذكر الرافعي أن عدد الجنود والحاشية بلغ ألفي رجل من المشاة والفرسان والمدفعيين والأتباع .

أنظر : عصر اسماعيل - ج ١ - ص ٤٦ .

(٤) أمين سامي - تقويم النيل - ١م - ج ٣ - ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

نظرا لأن المصلحة ستقوم بتسوية هذه المبالغ بينها وبين شركة الشرق (١) .

وعلى الرغم من أن سعيد باشا سلك طريق السويس - الوجه (البحرى) ثم اتجه إلى المدينة المنورة برا فإنه عاد من المدينة المنورة إلى ينبع واستقل منها بالباخرة (نجد) إلى السويس ، وقد بدأ سعيد باشا رحلته من القاهرة فى ١١ من رجب سنة ١٢٧٧هـ / ٢٣ من يناير سنة ١٨٦١م وعاد إلى مصر فى ١٧ من شعبان سنة ١٢٧٧هـ / ٢٨ من فبراير ١٨٦١ (٢) .

وكان فى استقباله على أرض الحجاز الشريف عبدالله بن محمد بن عبدالمعين حيث احتفى به حفاوة عظيمة حتى أنه صاحبه عند عودته إلى مصر وظل بها الى شهر شوال من هذا العام (٣) .

ثالثا : معاملة العريان الجمالة للحجاج :

كان المسافر يتعرض فى كثير من بلدان العالم لكثير من المشاكل والصعوبات التي يلاقيها إما لوعورة الطرق أو لمعاملة القائمين على خدمة وسائل السفر للمسافرين بأساليب تظهر فيها ألوان من الطمع والجشع .

وهذا يعد هينا بسيطا اذا ما قورن بما كان يحدث من قبائل العريان المنتشرة حول الطرق والتي كان يرتادها الحجاج ، فهؤلاء العريان كانوا يقومون بتقديم الجمال التي يحتاجها ركب الحج المصرى نظير أجور يتم الاتفاق عليها بالاضافة إلى تقديم بعض الخدمات السريعة مثل المياه ، وبعض الطعام أحيانا وغيرها من الأمور التي يحتاجها الحاج وعلى الرغم من ذلك فان هؤلاء كانوا مشار وعقب وقلق شديدين للحجاج (٤) ، وذلك قبل عهد الملك عبدالعزيز بالحجاز (٥) .

(١) المصدر السابق - ص ٣٧٣ .

(٢) عبدالرحمن الرافعى بك - عصر اسماعيل - ج ١ - ص ص ٤٦ ، ٤٨ .

(٣) أحمد بن زنى دحلان - خلاصة الكلام - ص ٣٢٤ ، وأحمد السباعى تاريخ مكة - ص ٥٣٧ .

(٤) د / السيد محمد الدقن - سكة حديد الحجاز الحميدية - ص ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٥) ولد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود فى قصر أسرته بالرياض فى ٢٠ من ذى الحجة سنة ١٢٩٧هـ /

٥ من ديسمبر سنة ١٨٨٠ م ، وكان ترتيبه العاشر فى سلالة سعود الحاكمة ، وقد نشأ نشأة دينية ، وتنقل مع

أبيه إلى البحرين والكويت وغيرها ، حتى تمكن من استعادة ملك أباه وتم له فتح الرياض فى أربعين ==

اذ كانوا ينقلبون إلى قطاع طرق عندما يبخل عليهم الحجاج بما لهم وعطاياهم فيذيقونهم العذاب ألوانا ، بينما يحافظون على الحجاج متى غمروهم بعطاياهم من مأكولات ومشروبات خاصة الشاي الذي كان يسعد هؤلاء العربان كثيرا ، وتزداد عناية هؤلاء العربان بالحجاج متى وعدوهم بالكساوى وهى ثوب قطنى وعقال (كوفيه) لكل أعرابى .

ولقد تعددت كتابات الرحالة والكتاب والحجاج فى أسفارهم عما كان يعانيه الحجاج من سطو ونهب باستمرار يصل إلى حد القتل وسفك الدماء ، ومن هؤلاء الرحالة والكتاب محمد بيرم الخامس (١٢٥٦-١٣٠٧هـ) (١٨٤٠-١٨٨٩م) العالم والرحالة المؤرخ التونسى (صاحب كتاب : صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار) فيذكر محمد بيرم : أنه على الرغم من كل الاستعدادات الحربية التى كانت تصاحب ركب الحج إلا أن ذلك لم يكن يقي الحجاج من اعتداءات العربان :

== من رجاله سنة ١٣١٩هـ / ١٩٠٢ م ، وكانت هذه هى بداية تكوين وتوحيد المملكة السعودية على يديه ، فنصب سلطانا على نجد سنة ١٣٤٠هـ / ١٩٢١ ، كما نصب ملكا للعجاز سنة ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦ م ، وبعد -
فى نظرى - أحد رجالات الدهر بل وفى مقدمتهم .
أنظر :

Document No 57 / 1 / 1 Subject : Not Regarding the Kingdom of the Hejaz and Nagjd and its Dependenc from Fuad Hamza Act - Durector for forein affairs to the Secretary of State waskington . M.S.A. Foreign office Mecca Hejaz on 29 th Septimber 1928 .

أنظر الزركلى - الوجيز فى سيرة الملك عبدالعزيز - ص ١٧ ومابعدها وفؤاد حمزة - البلاد العربية السعودية - ص ١١ ومابعدها .

وسيد محمد ابراهيم - المملكة العربية السعودية - مكتبة الرياض الحديثة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م - ص ١٧٧ .
ود / ليلى عبداللطيف - الملك عبدالعزيز والاخوان ١٩١٢ - ١٩٣٠ م مجلة كلية الدراسات الانسانية العدد الخامس - ١٩٨٧م - ص ٢٠٧ .

ومحمد جمعان - جدة فى عهد الملك عبدالعزيز - ص ٩٧ .

وسام الجابى - معجم الأعلام - ص ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

وحمد ابراهيم الحقييل (القاضى) - عبدالعزيز فى التاريخ - ط ٣ - بيروت ١٣٩٧/١٩٧٧م - ص ومابعدها .

وكذلك أسهب إبراهيم رفعت باشا فى ذكر معاناة الحجيج ومعاناته هو نفسه فى رحلات حجه من العربان ، وخاصة الجمالة منهم ، كما وصف لنا محى الدين رضا (١) الكثير من تلك الاعتداءات والمصاعب المؤسفة .

ومع ذلك فقد كان لهؤلاء العربان بعض المواقف التي كانت تمتاز باللين والانسانية وترتبط ببعض المبادئ الاخلاقية التي كانوا يحافظون عليها من ذلك ما ذكره ابراهيم رفعت (٢) وهو أنه كان من عادة العربان اذا تناولوا طعاما مع الحجاج فانهم لا يخونونهم بل يشملونهم بالحماية اذا أراد معتد الاعتداء عليهم .

لذلك فقد كان الحجاج يهتمون فى الاستعداد لرحلتهم بسلاحهم الذى يصطحبونه معهم كأنهم سائرون الى دار حرب وليس الى دار أمان ، ولذلك كان الأهالى فى مصر ينتظرون حجاجهم فى ترقب وقلق شديدين حتى اذا أتت بشارت وصول الحجاج من الطور بسلامة الله عن طريق البريد أو البرق يستعد الأهالى لاستقبالهم بالبهجة والسرور معهم الطبول والزمر فيقيمون لهم الأفراح والليالى السامرة ابتهاجا بذلك (٣) .

ويبدو أن هذه المشقة وخطورة الطرق والمفاوز والعربان على الحجيج قد باتت أهون كثيرا فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين حيث أصبح طريق الحجيج فى تلك الفترة أقل صعوبة منه فى الفترات السابقة (٤) .

ومما تجدر الاشارة اليه هو أن تعسف العربان مع الحجاج والزيادة عليهم لم يكن خاصا بالحجاج وإنما كان يتعداه إلى مندوبى الحكومة المصرية كذلك مثلما حدث مع إبراهيم عفت الذى كان قائدا لحرس المحمل الشريف فى سنة ١٩٠١ م / ١٣١٨ هـ عندما استقبله مقوم المحمل (متعهد الجمال) بالترحات والأكرام إلا أنه كان يبنى من ذلك الحصول منه على شهادة مزورة فيها

(١) محى الدين رضا - صور ومشاهدات من الحجاز - ص ١٤٥ وإبراهيم رفعت باشا - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ٦٨ ، ج ٢ - ص ٧٠ ، ٧١ وسام الجاهى - معجم الأعلام - ص ٧٩٧ .

(٢) المصدر السابق - نفس الصفحة .

(٣) البتنونى - الرحلة الحجازية - ص ٢٣٩ .

(٤) المصدر والصفحة السابقان .

أعداد زائدة من الجمال عن المقرر لركب المحمل ليقدمها إلى المالية المصرية فيصرف قيمتها بدون حق، إلا أن إبراهيم رفعت رفض طلبه وأبى إلا أن تكون تلك الشهادة موافقة للواقع (١).

وقد كان المتبع أن تقوم خزانة جدة بالصرف على أجور نقل الذخائر والمهمات العسكرية والمؤن التي ترد من مصر إلى الحجاز لحماية قافلة الحج المصرية، وبعد انتهاء موسم الحج كانت خزانة جدة تستوفي مستحققاتها من الخزائنة الملكية المصرية بموجب دفتر رسمى يشتغل على مفردات المصاريف المشار إليها.

ويبدو أن الخزائنة المصرية لم تكن تبادر بحاسبة خزانة جدة وتسديد مستحققاتها فوراً وهذا مادعا خزائنة جدة في سنة ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦ م عندما أصابها الضيق إلى أن تتعجل استيفاء حقها البالغ ١١.٦٦٠ قرشا و ١٨ بارة منها ٨٥٨٦٧ قرشا وعشر بارات عن سنتي ١٢٦١هـ / ١٢٦٢هـ / ١٨٤٥ م : ١٨٤٦ م ومنها ٢٤٧٩٢ قرشا وبارة واحدة بقاءها من سنة ١٢٦٠هـ / ١٨٤٤ م (٢).

رابعاً : المكوس :

كانت المكوس من المشاكل التي عاني منها الجميع خاصة في العصور المتأخرة حيث كانت تؤخذ منهم في أشكال متنوعة فكان يؤخذ في جدة من البائعين على كل شقذ ستة قروش مصرية ونصف يضاف إلى ما يدفعه كل حاج، كما كان يؤخذ من أجرة الجمل الذي يقل الحاج من جدة إلى مكة ربالان للشراف، وأربعة قروش مصرية للحكومة الحجازية، وربال لوكيل المطوف ومتعهد الجمال تضاف كلها على ما يدفعه الحاج (٣).

ويذكر البتونوي وهو يتحدث عن حجة في سنة ١٩٠٩ م / ١٣٢٨هـ (٤).

-
- (١) إبراهيم رفعت مرآة الحرمين - ج ١ - ص ص ٧٠ ، ٧١ .
 (٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٨٧ - المحفوظة ١٨ بحرياً - من شريف محمد رائف إلى الجناب الخديوي - بتاريخ (٧ من جمادى ١٢٦٢هـ).
 (٣) د / السيد محمد الدقن - سكة حديد الحجاز - ص ٦٦ .
 (٤) الرحلة الحجازية - ص ١٧٨ .

المحتاج بن يوسف الثقفي بأمر عبد الملك بن مروان بديباج خراسان (١) .

أما العباسيون فقد بالغوا في العناية بكسوتها فكانوا يكسونها بالحرير الأسود (في الغالب) لأن اللون الأسود شعار العباسيين ، وكانوا يصنعونها بمدينة تنيس المصرية التي كانت ثغرا في شمال دمياط ، والتي كان لها شهرة عظيمة في صناعة المنسوجات الثمينة (٢) .

وقد اشترى الملك الصالح اسماعيل بن الملك الناصر قلاوون في سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م ثلاث قرى هي : بسوس - وسندبيس وأبر القبط .

من قرى القليوبية ودفع أثمانها من بيت مال المسلمين ثم وقفها على كسوتي الكعبة والحجرة النبوية الشريفة ، وزاد عليها السلطان العثماني سليمان المشرع فاشترى عدة قرى بمصر ثم أضافها إلي القرى الثلاث السابقة في سنة ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م (٣) .

ويروي أن السلطان سليم بن سليمان المشرع كان أول من بدأ تطريز كسوة الكعبة الشريفة بالطراز المذهب ، وكان قبل ذلك يطرز بحرير أصفر (٤) .

وفي السنوات ١٢١٣ - ١٢١٥هـ / ١٧٩٨ / ١٨٠٠م توقف إرسال الكسوة إلى الكعبة ، كما سبق أن ذكرنا - بسبب أحداث الحملة الفرنسية على مصر . وعند جلاء هذه الحملة عنها حتي سنة ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م حيث توقف إرسالها من مصر مرة أخرى بسبب استيلاء السعوديين على مكة في سنة ١٢١٣هـ ومنعهم دخول المحمل المصري مكة محتجين بأن صورته منافية للشريعة الإسلامية .

ويروي أن السعوديين لما استولوا على مكة في سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م أخذوا يكسون الكعبة بحرير أسود كالكسوة العباسية ، من غير كتابة عليه مدة سبع سنوات (٥) .

(١) محمد علي مغربي - أعلام الحجاز - ج ٢ - ص ٩٠ .

(٢) البتنوني - الرحلة الحجازية - ص ص ١١٠ - ١١١ .

(٣) د/ السيد الدقن - كسوة الكعبة المعظمة - ص ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٤) أنظر : حسين عبدالله باسلامه - تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها - تهامة ط ٢ - سنة

١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ص ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٥) حسين باسلامه - تاريخ الكعبة - ص ٢٨٤ .

أن المكوس التى كانت تأخذها الحكومة الحجازية على الجمال الخارجة من مكة أو جدة أو المدينة أو ينبع كانت على ما يبدو رباين عن كل جمل .

ولم تكن هذه هى كل المعوقات التى كان يعانى منها الحجيج - فضلا عن مشاق السفر ووعورة الطرق ومعاملة العربان والمكوس كانت تقابل الحاج مشاكل أخرى عديدة ، وخاصة الموظفين منهم فى الأعمال الأميرية فقد كان المتبع - حتى سنة ١٢٧٩هـ / ١٨٦٢م أن من أراد الحج من الوطنين المصريين يتم طرده من عمله مباشرة ويستبعد نهائيا من وظيفته ، وذلك كان الحال بالنسبة لمن أراد السفر لزيارة أحد أقربائه فى الحجاز (صلة للرحم) إلا أن هذه المشكلة قد تم حلها فى شهر شعبان سنة ١٢٧٩هـ عندما صدر الأمر بشأن الذين يعملون فى الوظائف الأميرية فى مصر بأن تعطي لهم أجازة محددة لأداء مناسك الحج ، أو السفر لصلة الرحم ، ولا يتم طردهم من أعمالهم إلا بانقطاعهم عن العمل بعد فترة الأجازة ، كما شمل الأمر نصا قضى بضرورة إلحاق من تم فصلهم فى السابق لهذين السببين بأعمالهم مرة أخرى أو إلحاقهم بأعمال غيرها تحتاج إليها الحكومة (٢) .

٢ - المحمل وكسوة الكعبة :

لم تكن كسوة الكعبة من ابتكارات العصر الحديث ، إنما هى سنة عن المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث تساهوا فى عهده بالثياب اليمانية (٣) . ثم كساه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم بثياب تسمى القباطى (٤) كانت ترد من مصر وكانت مشهورة فى تلك الأزمنة ، ثم كساه

(١) الرحلة الحجازية - ص ١٧٨ .

(٢) دار الوثائق القومية - ملخص ١٠٦ - المحفظة ٢ ذوات تركى - من الجناح العالى إلى رئيس مجلس مصر (١٩ من شعبان سنة ١٢٧٩هـ) .

(٣) ذكر البتانونى : (أن أول من كسا الكعبة هو أبو بكر أسعد (ملك حمير) فى نحو سنة ٢٢٠ قبل الهجرة وكان يهوديا كساه بالجلد وقلده فى ذلك خلفاؤه من بعده فكانوا يكسونها بالقباطى . انظر : الرحلة الحجازية ص ١١٠ .

(٤) القباطى جمع قبطية وهو ثوب من ثياب مصر الرقيقة ، نسبة الى القبط والقبط بلدة بمصر ينسب اليها أقباطها - ابراهيم رفعت - مرآة الحرمين ج ١ - ص ٢٨٢ .

وانظر : د / محمد بدیع شریف - فى مهبط الوحى - دار الفكر - ص ٢ - القاهرة ص ١١٤ ، ١١٤ .

فلما قضى (محمد على باشا) على سلطان السعوديين فى الحجاز استأنفت مصر إرسال الكسوة فى عام سنة ١٢٢٨هـ / ١٨١٣ م فى إطار نظام جديد هو الصرف على شئون الكسوة من الخزانة المصرية مباشرة بعد أن كان ينفق عليها من أوقاف الحرمين الشريفين .

وقد ذكر استاذنا الدكتور مصطفى رمضان :

أنه ابتداء من سنة ١٢٢٨هـ / ١٨١٣ م استولى محمد على باشا على أوقاف مصر كلها وأدخل أوقاف الحرمين إلى خزنة الروزنامة المصرية (١) .

كما يذكر أستاذنا الدكتور الدقن (٢) : أن محمد على قد استولى على أوقاف مصر كلها بما فى ذلك الكسوة ، وأوقاف الحرمين وأدخل إيراداتها فى الخزانة المصرية ، وبذلك دخلت تلك الأوقاف فى دائرة سياسية .

وهذا صحيح بالنسبة للقرى التى أوقفت على الكسوة والأوقاف الأميرية إلا أن الحقيقة فيما يبدو أن استيلاء محمد على لم يشمل كل الأوقاف ، وإنما شمل تلك القرى التى أوقفها الملك الصالح اسماعيل وسليمان المشرع أما الأوقاف الأهلية والخيرية فلا أعتقد أنها دخلت كلها ضمن ما استولى عليه محمد على ودلى فى ذلك : ما ذكره التبنونى فى بيان مصاريف المحمل ومرتبات مكة والمدينة المطلوبة وأنها ثلاثة آلاف جنيه (٣) تصرف سنويا من أوقاف الحرمين والأوقاف الخصوصية والأهلية والخيرية ومن الخاصة الخديوية والمالية .

وهذا الحديث عن أوائل القرن العشرين أى بعد محمد على بستة عقود تقريبا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن إيرادات الأوقاف التى استولى عليها محمد على لم يضمها كلها إلى الخزانة المصرية ، وإنما ضم بعضها إلى ممتلكاته الخصوصية فتذكر إحدى الوثائق ما يفيد : بأن محمد على

(١) د/ مصطفى رمضان :

وثائق مخصصات الحرمين الشريفين فى مصر إبان العصر العثمانى وأهميتها فى تاريخ الجزيرة العربية سنة

١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م - الرياض - ص ٧ .

(٢) د/ السيد الدقن - كسوة الكعبة - ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٣) الرحلة الحجازية - ص ١١٩ والتبنونى كان يتحدث فى أعقاب رحلة الحج عام ١٩٠٩ .

قد طلب من السلطان العثماني الموافق على تحويل الأراضى المطلوب وقفها على عمارة المدينة الخيرية (التكية) فصدر الأمر السلطاني بتمليكها لمحمد على حتى يتسنى له وقفها كما يشاء (١) .

كما أن كثيرا من الأوقاف الأهلية كانت تظل بيد أصحابها يتوارثون رعايتها وجمع حصيلتها لترسل إلى وجهتها فى مواعيدها .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه باستيلاء الدولة العثمانية على مصر فى سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م وحتى الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجرى اختصت الدولة بكسوة الحجرة النبوية الشريفة بالإضافة إلى كسوة الكعبة الداخلية ، بينما اختصت مصر بكسوة الكعبة الخارجية مضافا إليها ستارة لبابها ، وأخرى لباب التربة ، وثالثة لباب المنبر (٢) .

وقد كان من المعتاد فى مصر إعداد برقع وكيس لفتح الكعبة وغطاء لمقام إبراهيم عليه السلام - وستارة له قد خُطت عليها آيات شريفة بخط أمهر الخطاطين وآخرهم فى تلك الحقبة الخطاط الماهر الشهير فى ذلك الوقت عبدالله بك زهدى (٣) وقد كان كل هذا يرسل مع كسوة الكعبة المشرفة رفق قافلة المحمل المصرى ، وقد بلغت تكاليف تجهيزه الكسوة التى تصرف ميزانيتها من وزارة المالية المصرية أربعة آلاف وخمسمائة جنيها مصريا فى سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م (٤) .

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ١١ - المحفوظة ٨ بحري من محمد نجيب إلى الجناب العالى - (١١) من رجب سنة ١٢٣٨هـ) والوثيقة مستخرجة من محفوظة ٢ الحجاز) .

(٢) إبراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ٢٩١ . ولزبد من التفاصيل عن الكسوة وشكلها وأجزائها . أنظر : ص ٧ وما بعدها ، وص ٢٩١ وما بعدها - وأنظر : البتونى - الرحلة الحجازية - ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) الوقائع المصرية - العدد ٤٨٥ - ٨ من شوال ١٢٨٩هـ / ٩ من ديسمبر ١٨٧٢م .

(٤) بيانها كالتالى :

جنيه

٥١٥ ثمن مخيش فضة محاط بالذهب وقدره ١٤٨٣٥ مثقالا ، ومن الفضة البيضاء

٣٨٠٥ مثقالا .

١٦٦٤ أجره عمال الزركشة وعددهم ٤٧ نفرا .

ويبدو أن تكاليف الكسوة لم تتجاوز حدود هذا المبلغ إبان تلك الأعوام الأولى من القرن العشرين .

فقد بلغت تكاليف الكسوة في سنة ١٣١٨هـ / ١٩٠١م أربعة آلاف ومائة وثلاثة وأربعين جنيهاً (١) .

كما بلغت تكاليفها في سنة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٨ م ٤٠٨٤ جنيهاً وهو مبلغ قريب أيضاً من المبلغين السابقين الذكر .

جنيهاً

١١١١	ثمن حرير وأجرة نسيج ، وعدد من يعملون به ٧٠ نفراً .
٢٠٠	ثمن أدوات التشغيل مثل البقعة وخلافها .
١٥٠	مصاريف ليلة الاحتفال المعتاد عمله لموكب الكسوة السنوي .
٦٠	عوائد تصرف للعاملين يوم انتهاء عمل الكسوة .
٨٥٠	مرتبات الموظفين وخدمة إدارة الكسوة .
٤٥٥٠	الجملة

أنظر : البتنوني - الرحلة الحجازية - ص ١١٣ .

(١) جنيهاً

٣٠٠	مرتب مأمور الكسوة .
٢٠٤	مرتب كاتب ومخزني الكسوة .
١٢٩	مرتبات خدمة سائرة .
٣٥١٠	نفقات صنع الكسوة كثمن الحرير ، والمخيش الفضة والملبس الذهب وأجرة العمال ، ونفقات الاحتفال .
٤١٤٣	الجملة

أنظر حسين باسلامة - تاريخ الكعبة المعظمة - ص ٢٨٧ .

وكان إرسال الكسوة من مصر يبدأ باحتفال بهيج فى ديوان محافظة مصر بدعى اليه المحافظ والعلماء من شتى التخصصات كما يدعوا اليه عليه القوم والمعتنن بشئون الحج والأمور الدينية بتذاكر خاصة فإذا ما اكتمل نظام الحفل تحيي ليلته بالقرآن والأذكار والأوراد ، ثم ترسل كسوة الكعبة فى فجر ذلك اليوم فى موكب عظيم من ميدان محمد على باشا (الرميلة) إلى مسجد الامام الحسين رضى الله عنه (١) .

وبعد ذلك يجتمع الناس فى ميدان محمد على ويصطف الضباط والعساكر السوارى والبيادة فى حضور المأمورين والعلماء انتظارا لقدم المحمل من مسجد الامام الحسين رضى الله عنه فإذا ما حضر يقوم الخديوى بتسليم زمام الجمل الحامل للمحمل إلى السرسوارى فيسير وأمامه جم غفير من مشايخ الطرق ومريد بهم حاملين الأعلام (٢) .

وتجدر الاشارة إلى أن خروج موكب الحج المصرى كان عادة فى الأسبوع الأخير من شهر شوال ، وكانت رحلته من مصر الى مكة تستغرق سبعا وثلاثين يوما تقريبا (٣) .

وعندما يعود المحمل كان يقام له احتفال عظيم (٤) أيضا بلغ من اشتغال الناس به فى القاهرة حدا توقفت فيه حركة الحياة اليومية حتي أن صحيفة مثل الوقائع المصرية كانت تتوقف أيضا عن الصدور فى يوم الاحتفال هذا وفى ذلك تقول الصحيفة .

" لم تطبع صحيفتنا فى يوم الثلاثاء الماضى لعودة المحمل والناس مشتغلون بالتفرج على موكبة لأنه كان فى انتظام زائد " (٥) .

(١) الوقائع المصرية - العدد ٣٩٠ - (١٣) من شوال سنة ١٢٨٧هـ / ٥ يناير ١٨٧١م) .

(٢) الوقائع المصرية العدد ٣٩٢ بتاريخ ٢٧ من شوال سنة ١٢٨٧هـ / ١٩ من يناير سنة ١٨٧١م .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية - مجلد ١٣ - ص ٣٣٨ .

(٤) كان أول من ابتدع الطواف بالمحمل وكسوة الكعبة بالقاهرة هو الظاهر بيجرس البندقارى فى سنة خمس وسبعين وستمائة هجرية .

أنظر : على باشا مبارك - المخطوط التوفيقية لمصر القاهرة - ج ١ - ص ٨٦ .

(٥) الوقائع المصرية - العدد ٤٣٨ - ٢٣ من شوال سنة ١٢٨٨هـ / ٤ من يناير سنة ١٨٨٢هـ .

وقد كان هذا الاحتفال ذو شقين الأول : نابع من تعلق الانسان المصري المتدين ببطيمه بالأراضى المقدسة التي تضم قبلة المسلمين ومشوي الهادي الأمين صلى الله عليه وسلم - والشق الثانى : العناية الزائدة بأمر المحمل والكسوة وترك الأشغال ، وإهمال الأعمال للوقوف ساعات طويلة للتبرك بهذه الأشياء التى ستشرف بدخول مكة وحرمتها والاتصاق بالكعبة البيت الحرام ودخول المدينة ومسجدها وذلك - فى نظرى - ابتعاد عن آداب الدين وجهل بما ينفع ويضر من الأعمال (١) يساعد عليه حكام جهلوا أحكام الدين (٢) ، وتفاضى عنها بعض العلماء سامحهم الله . وقد استمر الحال على هذه العناية وهذا الاحتفال الشعبى والرسى قبل خروج المحمل وبعد عودته ولم تنقطع تلك الاحتفالات السنوية خلال فترة الدراسة الا فى سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨ م .

فقد حدث فى هذا العام عند خروج المحمل على عادته أن أمرت الحكومة المصرية بإغلاق مقاهى القاهرة وحاناتها بقوة الشرطة ، ومنعت الناس من الوقوف فى الطرق التى يمر منها المحمل ، كما منعت كل التجمعات التى ظهرت فى الشوارع للمشاركة فى الاحتفال بمرور المحمل ، ومحاولة لمسّه والتبرك به .

وقد قام جنود الشرطة بضرب الناس فى الشوارع ، وايدانهم ، وكان السبب فى هذا الموقف - ما حدث يوم نقل الكسوة الشريفة حيث تجمع الشباب والأهالى وأخذوا ينادون بالدستور حيث صاح الجميع : " ليحى الأمير ليحيى الدستور " فخشبت الحكومة من المظاهرات التى قد تنشأ من اجتماع الناس بأعداد غفيرة للاحتفال بالمحمل وقد نجحت الشرطة فى منع عامة الناس من حضور هذا الحفل .

(١) فقد كان لهذا المحمل تجميل وتعظيم بلغ بالناس وبالحكام والأمراء حد الوقوف احتراماً وتقديساً لهذا المحمل عند مروره من أمامهم ، والجميع يحاول لمسّه والتسّيح به تبركاً .

أنظر : د/ ربيع خليفه - فنون القانون فى العهد العثمانى - ص ١٥٤ .

(٢) بلغ من اشتغال الحكام بأمر المحمل وعنايتهم به أن خصص الخديوى عباس حلمى الثانى وقتاً لزيارة المحمل فى منطقة جرجول بأطراف مكة عند حج الوالى المصرى سنة ١٣٣٧ هـ / ١٩١٠ .

أنظر : محمد لبيب البتوني - الرحلة الجازية - ص ٣٤ وكأنه ذاهب لزيارة نبى أو رسول أو عالم من علماء الأمة ، وماهى إلا أصنام صنعت بأيديهم .

فتم الاحتفال الرسمي - دون الشعبي - بحضور الخديوي عباس حلمي الثاني والأمراء والعلماء ووجوه القوم (١) .

وقد كان المتبع عند وصول الكسوة الى مكة أن تسلم وتوايعها إلى الشيخ الشيبى - سادن الكعبة - بمقتضى إشهار شرعى يحضره العلماء والوجهاء ثم يقوم بحفظها فى بيته القريب من الصفا حتى يعين يوم النحر ، والحججاج عني فيقوم ومعه جمع كبير من الناس باللباس الكعبة كسوتها وتثبيتها عليها بحلقات من النحاس الأسفر .

أما الكسوة القديمة فيرسل المقصب منها عادة إلى شريف مكة ، وإذا كان الحج يوم جمعة فكان من المعتاد أن يرسل هذا المقصب إلى السلطان العثماني ، أما غير المقصب من الكسوة فيأخذه الشيخ الشيبى ليبيعه للحجاج (٢) .

وجدير بالذكر أن الشيخ أحمد بن محمد الشيبى كان سادنا للكعبة قبل سنة ١٢٧٤هـ/ وتولى بعد وفاته - فى هذا العام - أخوه على بن محمد الشيبى سادنة الكعبة (٣) ، ثم تولى بعده عبدالرحمن بن عبدالله الشيبى إلى أن عزله السلطان عبدالحميد الثانى وولى مكانه محمد بن صالح بن أحمد بن محمد الشيبى الذى استمرت سدائته أربعاً وعشرين عاماً (٤) .

وصول ركب الحاج الى مكة :

يُعد وصول المحمل وقافلة الحج كل عام حادثاً عظيماً يهز مشاعر أهل مكة فيستقبلونه بالترحاب والود والتكريم ، ويحتفلون بقدومه ، أما القافلة فإنها تضرب خيامها في أماكن مختارة خارج مكة ، ومن المعتاد أن يكون وصول القافلة قبل الحج بعدة أيام ، إلا أن بعض الحججاج يبادرون بالحضور إلى مكة فى شهر رمضان ويبقون بها إلى أن يتموا شعائر الحج ، بل إن بعضهم

(١) أحمد لطفى السيد (باشا) صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية ص ٥١ .

(٢) حسين باسلامة - تاريخ الكعبة المعظمة - ص ٢٨٨ .

(٣) محمد بن عبيد آل عبدالمحسن - تذكرة أولى النهى والعرفان - ص ١٠٥ .

(٤) المصدر السابق - ص ٣٠٠ .

يبتقون بعد الحج مجاورين إما لنيل بعض الدراسات العلمية على يد علماء الحرمين أو للتدريس في مكة إذا كانوا من العلماء ، أو للمبادأة والنسك فترة تطول أو تقصر أو لتحقيق أمنية غالية وهي أن يلقوا ربهم وهم بالأراضى المقدسة ظاهرين مطهرين بجوار بيت الله الحرام .

ومن المعتاد أيضا أن يزداد عدد ركب القافلة المصرية عندما يكون يوم الحج الأكبر (التاسع من ذي الحجة) موافقا يوم الجمعة (١) .

وثمة كلمة خاصة بكتابات ابراهيم رفعت باشا أرى من الواجب التعرض لها فعلي الرغم من أن ابراهيم رفعت أسهب في وصف قافلة الحج ومحركاتها وتحدث عن الصرة والمحمل ومكوناتهما والكسوة وتوابعها ثم تحدث عن الترتيبات الرسمية ومثيلاتها من القاهرة إلى السويس ثم تحدث عن إبحار القافلة إلى جدة بتفصيل فإنه لم يتعرض من بعيد أو قريب إلى الحديث عن الحجاج وهم العنصر الأساسي اللهم إلا من خلال إشارات ثلاث لا تتناسب وقدر الموضوع .

الإشارة الأولى هي : قوله (٢) (وقد أخذ من كل حاج بالسويس ٣٢ مليصا ضريبة البحر الصحي بها وقد استنفذ ذلك كثيرا من وقت الحجاج) .

والإشارة الثانية هي : حديثه عما عاناه الحجاج في ميناء جدة من إجراءات بطيئة وانتظار طويل .

والإشارة الثالثة هي : ذكره أن عدد الحجاج الذين نزلوا من الباخرة زاد على ستمائة حاج (٣)

وحبذا لو أنه فصل الحديث عن اجتماع الحجاج بمصر قادمين من كل فج عميق وحبذا لو تحدث عن أحوالهم وملابسهم ومسكنهم فترة تجميعهم وتكاليف تنقلاتهم ، وما كانوا يلاقونه من صعاب عديدة بتفصيل أكثر خاصة وأنه فصل في موضوعات كثيرة أقل من موضوع الحجاج .

فمما تقدم نرى أنه كان لرحلة الحج المصرية آثار متباينة الواقع في مصر والحجاز على

(١) دائرة المعارف الاسلامية - م ١٣ - ص ٣٣٩ .

(٢) ابراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ١٤ .

(٣) المصدر السابق - ص ١٧ .

المستوى السياسى والاجتماعى ، فلقد عضدت رحلة الحج المصرية العلاقات بين القطرين وأذكت روح الأخوة بين الحجاج المصريين وأهل الحجاز ، فتبادلوا المنافع ووقع التزاوج بين الشعبين . وكانت هناك صور سلبية قشلت فى همية العربان وجشعهم وقطعهم لطرق الحج وفرضهم الاتاوات على قوافله .

هذا بالإضافة إلى ابتزاز بعض الأشراف وأتباعهم للحجاج بصور شتى وإزاء هذه الأشكال المتباينة والصور المختلفة فى العلاقات عملت الحكومات المصرية على تنظيم قافلة الحج ودعمها وحمايتها فعينت لها الأطباء والمرضى ، وخصصت لها فرق عسكرية قوية لحراستها والدفاع عنها وأعدت من السفن البخارية التابعة للشركات المصرية لنقل الحجاج وأمتعتهم من مصر والسودان إلى الحجاز والعكس كما عُنيت كذلك بتجهيز القلاع على طول طريق الحج وزودتها بالجنود والأسلحة وحفرت بجوارها الآبار ليتزود منها الحجاج بالمياه ، وليجدوا في تلك القلاع الأمان والنجدة إذا ما داهمتهم شراذم العربان أو قطعت طريقهم ، هذا بالإضافة إلى أن الحكومة المصرية خصصت لعربان القبائل العربية رواتب سنوية لتأمين شروهم التى قد تقع على قافلة الحج، وليقدموا مزيدا من العناية والرعاية لحجاج تلك القافلة ، ومع ذلك فإن هؤلاء العربان لم يؤدوا تلك الرعاية حق أدائها بل كثيرا ما كان الحجاج يتعرضون لهجماتهم ويسلبونهم .

وكثيرا ما كان هؤلاء العربان - يطمعون فيما كانت تحمله القافلة من مخصصات وأموال أميرية للحرمين وللحجاز ، كما كانوا يطمعون فى زاد كل حاج ومتاعه وقد استمر هذا الحال حتى بداية الربع الثانى من القرن العشرين عندما بدأت الحجاز تنهض نهضتها الحديثة على أيدي آل سعود .

الفصل السادس

المخصصات المصرية للحجاز

تقديم :

ظل الحجاز طوال القرون الماضية يعتمد اعتمادا كبيرا علي ما كانت ترسله مصر كل عام من مخصصات وخيرات عامة للحرمين الشريفين وللأشراف وللقبائل العربية وكان يطلق على هذه المخصصات أموال الحرمين الشريفين والصرة الشريفة (١) ، ولكل من الأموال والصرة موارد ومصارف

(١) كان عمرو بن العاص رضي الله عنه أول من أرسل الفلال المصرية في العصر الاسلامي إلى الحجاز عندما أعاد عمرو بن العاص فتح قناة تراجان باسم خليج أمير المؤمنين سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م لكي يمر عن طريقها عشرون سفينة محملة بالفلال من ميناء باليلين النهرى إلى القلزم ومنه إلى ميناء الحجاز بالحجاز. وبعد المقتدر العباسي أول من أرسل صرة النقود إلى الحرمين الشريفين (٢٩٥-٣٢٠ هـ) ، ومن سلاطين ابن عثمان محمد خان (٨١٦ - ٨٢٤ هـ) ثم من بعده ، وكانت تسمى أيضا الصدقة الرومية ، وزاد عليهم السلطان سليم خان (٩١٨-٩٢٦ هـ) بعد أن قرر لجماعة من المجاورين بالحرمين مائة دينار لكل شخص تدفع إليهم من خزانة مصر ، وسمي هذا (مال النخيرة) كما كان السلطان سليم أول من رتب (صدقة الحب) لأهل الحرمين حيث أرسل من السويس مجموعة من السفن تحمل سبعة آلاف أردب من القمح خص منها مكة خصص ، وخص المدينة المنورة منها باثنتين .

أنظر : تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقرئ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - ج ١ - ط القاهرة ١٢٧٠ هـ - ص ٧١ .

وأبراهيم رفعت - مرة الحرمين - ج ٢ - ص ٣٠٩ .

ومحمود نعناع - إسرائيل والبحر الأحمر - دار مكتبة الفكر - طرابلس ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م - ص ١٤ .
ومحسن عبد الله أبو ركة - مقال بعنوان : جدة العاصمة التجارية - مجلة اقرأ - عدد خاص بعنوان جدة في مطلع القرن الخامس عشر الهجرى - ١٠ من جمادى الثانية سنة ١٤٠١ هـ / ١٤ من أبريل سنة ١٩٨١ م

خاصة (١)

وفى عهد محمد على تحملت مصر تبعات حكمها لشبه الجزيرة العربية مشحولا بالسيادة العثمانية .

وقد شملت هذه التبعات الشؤون الادارية والاقتصادية والدينية وغيرها وظل هذا النظام إلى أن أرغم محمد على على سحب قواته وموظفيه من شبه الجزيرة العربية ومنها الحجاز تنفيذا لاتفاق لندن سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠ م .

وهذا لم يكن معناه قطع الصلة بين مصر والحجاز تماما فلقد ظلت بعض الصلات قائمة بين القطرين تعتمد على روافدها الحية وهي : الدين والادارة والمجتمعات .

وكان من أبرز هذه الصلات المخصصات المصرية للحجاز التى قامت مصر بأدائها إلى الحجاز فى صور شتى وبسخاء إسلامى أخوى كسخاء نهر النيل .

المخصصات المصرية العامة للحجاز

كانت هذه المخصصات تشتمل على أنواع كثيرة عينية ونقدية ، وكانت إنفاقاتها معرفة ببند متميزة ، وعلى الرغم من خروج القوات المصرية من الحجاز ، وسائر أقطار شبه الجزيرة العربية فإنها ظلت ترسل المخصصات والتعينات الخاصة بجنود الدولة العثمانية المكلفين بالمحافظة على الأقطار الحجازية كل عام ، بالإضافة إلى الحبوب والغلال المرتبقة لأشراف وشيوخ العربان والحج والتى كانت ترسل إليهم كل عام من المحاصيل المصرية (٢) .

فلقد بقى فى الحجاز بعد خروج جيش محمد على منه حامية عثمانية تتكون من الجنود

(١) حسين أفندى الروزنامة - ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية - ص ٢ ، ٥ مخطوط بدار

الكتب بالقاهرة - رقم ٨٨٧٣ .

(٢) د / شوقي الجمل - سياسة مصر فى البحر الأحمر - ص ٣١١ ، ٣١٢ .

النظاميين ، والطوبجية (١) السلطانية ، وعساكر الفرسان ، والمشاة المرتزقة .

وكانت هذه الخاوية تعولى أمر المحافظة على الأقطار الحجازية ، وقد حملت مصر على عاتقها واجبات ترتيب وإعداد تجهيزات ولوازم هذه الخاوية نظرا لبعدها المسافة بين الحجاز والعاصمة العثمانية ، هذا بالإضافة إلى الخبواب والغلال المرتبة للتعج والأشراش وشيوخ العربان كما ذكرنا وكلها كانت ترسل بموجب أمر سلطاني ، ثم يتم بعد وصولها إلى الحجاز اتصال من الجهات الإدارية فى الحجاز بوزارة المالية العثمانية لإثبات وصول هذه المخصصات وبيان مقاديرها كوارداات وبيان كيفية توزيعها كمنصرفات .

وبعد أن تتم إدارة الحجاز تسجيل هذه البيانات فى كشوف خاصة كانت ترسل إلى الأستانة ليتم خصم هذه الأموال من قيمة الوريكو المصرى (٢) السنوى المقرر سداده للدولة العثمانية .

جاء فى فرمان سنة ١٢٥٦ هـ / ١٣ من فبراير سن ١٨٤١ م أنه : " يرسل ريع إيرادات الحكومة المصرية الحاصل من دخل الجمارك والخراج والضرائب إلى خزانة الباب العالى ، ويخصص الثلاثة الأرباع الأخرى لشئون مصر كنفقات الجباية والادارة العسكرية والمدنية ، وحاجات الحكومة ، والغلال التى ترسل سنويا الى مكة والمدينة " (٣) .

وقد تغير هذا الوريكو عدة مرات خلال القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى فلمس هذا فى فرمان سنة ١٢٥٧ هـ / يونيو ١٨٤١ م والذي تضمن تعديل الوريكو السنوى ليصبح ثمانين ألف كيس أى ما يوازى أربعين ألف جنيه مصرى (٤) .

وقد ارتفع مقدار هذا الوريكو السنوي فأصبح مائة وخمسين ألف كيس فى مقابل صدور فرمان

(١) المدفعيون ، وكلمة طوبجى جاءت من التركية طوب أى المدفع ، وجى هى أداة النسب التركية الى الصنعة.

أنظر : دار الوثائق القومية قسم الارشاد . ود / أحمد السعيد - تأصيل ما ورد فى الجبرتى من الدخيل - ص ١٤٣ .

(٢) الأموال المقررة على مصر للدولة العثمانية .

(٣) عبدالرحمن الرافعى - عصر محمد على - ص ٢٦٤ .

(٤) المصدر السابق - ص ٢٦٧ .

تغيير نظام وراثته الحكم في مصر في ١٢ من المحرم ١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م (١).

وفي بعض السنوات كانت الأموال المخصصة لولاية جدة (الحجاز) يتأخر وصولها فتتأثر خزانة جدة بهذا التأخير مما يضطر الحكومة الحجازية إلى الاقتراض من التجار الموردين في مدينة جدة على أن يقوم وكلاؤهم في القاهرة بصرفها من الخزانة المصرية مثال ذلك :

ما حدث في التاسع من رجب سنة ١٢٦٢ هـ / ١٨٤٦ م حينما بعث الشريف محمد بن رائف إلى محمد علي باشا رسالة يخبره فيها بعدم وجود مبالغ نقدية في خزانة جدة مما اضطر الشريف إلى اقتراض ألف ريال من التاجر سعيد بندقجي ، وقد طلب الشريف محمد تسديد هذا المبلغ إلى وكيل التاجر المذكور بالقاهرة على أن يتم خصم الألف ريال من مرتبات سنة ١٢٦٢ هـ / ١٨٤٥ م بالحجاز (٢).

كما بعث الشريف محمد رائف إلى محمد علي برسالة أخرى في صفر سنة ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٦ م أخبره فيها بأنه اضطر أيضا إلى اقتراض ستة آلاف ريال من الحاج /يونس كازيط التاجر بجدة وأنه يرجو محمد علي باشا أن يسدّد هذا المبلغ لوكيل التاجر يونس كازيط في القاهرة على أن يخصم هذا المبلغ كذلك من مرتبات سنة ١٢٦٢ هـ / ١٨٤٥ م الخاصة بالحجاز (٣).

كما كانت العادة المتبعة أن يتم تخصيص الغلال المرسل من مصر إلى الحجاز من أنقى الأنواع المصرية ، ثم يتم شحنها في مواعيد منتظمة من ميناء القصير (المصري) إلى مخازن ميناء جدة ، وميناء رابغ (٤) ، وميناء ينبع البحر .

(١) د/ شوقي الجمل - سياسة مصر - ص ٣١٣ .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٨٨ - المحفظة ١٨ بحري - من شريف رائف إلى الجناب العالي - ٩

من رجب سنة ١٢٦٢ هـ .

(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٣ - المحفظة ١٢ بحري - من رائف محمد شريف إلى (٩) من

صفر سنة ١٢٦٣ هـ .

(٤) رابغ إحدى إمارات الحجاز التابعة للمدينة المنورة وتقع على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر في شمال

مدينة جدة ، ويمتاز ثغر رابغ بالخصائص الطبيعية التي تلزم للمرفأ بصفة عامة فغوره عميق وشعابه قليلة ==

وقد تضمن كشف الأرزاق المرسلة الى الحجاز فى سنة ١٢٦٤هـ / ١٨٤٤ م ما هو خاص بميناء جدة ، وما هو خاص بميناء رابغ ، وما هو خاص بميناء ينبع البحر .

فأما ما هو خاص بميناء جدة : فقد بلغت مقادير الأرزاق المرسلة إليه هذا العام ستة عشر ألف أردب من الحنطة وثلاثين ألف أردب من الشعير ، وثمانية آلاف أردب من الفول ، وألف أردب من البقسماط (١) ، وعلى ذلك يكون مجموعها خمسة وخمسين أردبا من الغلال والبقسماط حملتها البواخر المصرية من ميناء القصير إلى جدة ، وتم نقلها بعد ذلك إلى مكة المكرمة .

وأما ما هو خاص بميناء رابغ فقد بلغت الأرزاق التى حملتها البواخر المصرية إليه فى هذا العام أربعة آلاف أردب من صنف الحنطة ، وخسة عشر ألف أردب من الشعير ، وخسة آلاف أردب من البقسماط ، فيكون مجموعها أربعة وعشرين ألفا وخمسمائة أردب من الغلال والبقسماط .

وأما ما هو خاص بميناء - ينبع البحر فقد بلغت الأرزاق المرسلة إليه فى هذا العام على البواخر المصرية خمسة الاف أردب من الحنطة ، وخسة آلاف أردب من الشعير ، وألنى أردب من

يمكن تفاديها ، ويوجد بمدينة رابغ مزارع نخيل واسعة ، ويزرع بأرضها البطيخ ، ونبات (دم الأخوين) الذى يجعلونه للتداوى من بعض الأمراض ، أما المياه فيستخرج بعضها عن طريق حفر الآبار لمسافة قليلة ، والبعض الآخر من الآبار الدائمة ويوجد بالمدينة خزانات للمياه ، وكان بمدينة رابغ مركزا لتجميع الذخائر والمؤن التى تلزم للمحامل حين المرور بها ، وفى سنة ١٣١٩ هـ / ١٩٠١ م كانت رابغ تحتوى على ١١٦ منزلا ، وخسة مساجد ، وعشرة صهريج ، كان بها فى هذا العام رئيس مائة ، ومائة جندي عثماني ، وملازم ، وطبيب ، وبعض الذخائر والمؤن .

أنظر : عمروضا كحالة - جغرافية شبه الجزيرة العربية - ص ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

(١) البقسماط : لفظة يونانية وتركية وفارسية ، وفى الأخيرة بقسمات وتعنى الخبز الجاف الذى يحمله المسافرين

ليتزود به .

أنظر : د/ أحمد السعيد تأصيل ما ورد فى الجبرتي - ص ٤٢ .

القول ، وخمسمائة أردب من البقسماط (١) فيكون مجموعها اثني عشر ألف وخمسمائة أردب من الغلال والبقسماط .

ومما يجدر ذكره أن المينائين الأخيرين ، رابغ ، وبنبع البحر كانا مينائى المدينة المنورة ، وكانت الغلال والبقسماط التى تودع بمخازنهما تخص المدينة المنورة .

وبذلك يكون مجموع ما أرسلته مصر من الغلال والبقسماط الى الحجاز فى سنة ١٢٦٤هـ / ١٨٤٤ م اثنين وتسعين ألف أردب .

ومقارنة ما أرسلته مصر إلى الحجاز من الغلال فى هذا العام ١٢٦٤هـ / ١٨٤٤ بما أرسلته مصر بعد ذلك الى الحجاز من الغلال فى سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨ م نجد أن هناك فرقا كبيرا بين الكميتين المرسلتين فتل فى هذا التحدى الحاد الذى ظهر فى الكميات التى أرسلت فى سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨ .

ذلك أن مجموع ما أرسلته مصر فى سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨ م لم يتجاوز عشرين ألف أردب ومائتين وخمسة وثلاثين أردبا (٢) ، أى بنقص حاد بلغ مقداره واحدا وسبعين ألفا وسبعمئة وخمسة وستين أردبا ، وهو نقص كبير لا نستطيع أن نعزیه إلا أنه أثر من آثار الاحتلال البريطانى على مصر .

فلقد تعمدت السلطات البريطانية فى مصر تقليل غلال الحجاز ومرتباته وإبقائها عند أدنى المقادير التى أرسلت فى الماضى .

فلقد كانت الحالات فى مصر نفسها لا تخلو من الأزمات والصعوبات التى كانت تمر بها البلاد فضلا عن انخفاض منسوب النيل فكان هذا يؤدى الى تخفيض مقادير الغلال التى سترسل إلى الحجاز ، وكان الباب العالى يضطر إلى الموافقة على تخفيض الغلال .

ففى سنة ١٢٧٩هـ / ١٨٦٢م صدرت أوامر الخديوى إلى نظارة المالية المصرية مشمولة

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٩٨ - المحفوظة ١٨ بحري من وإلى إيالة جدة الشريف محمد وائف

إلى الجناب العالى (محمد على باشا) من محرم سنة ١٢٦٤هـ / ١٨٤٧ م .

(٢) ابراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ٢ - ص ٣١١ .

بموافقة الصدر الأعظم على تخفيض مقدار الغلال التى ستُرسل إلى الطيماز لتصبح ٢٠٩٥٦ أردبا اشتملت على ٥٢٦٧ أردبا من الحنطة و ١٣٢٤٧ أردبا من الشعير و ٢٤٤٢ أردبا من انغول على أن ترسل تلك الكمية إلى الحجاز فوراً دون تأخير (١) .

ومن الواضح أن هذه الكميات يبدو فيها التدرج إلى مستوى خطير من التدهور والنقص إذا ما قورنت بالكميات التى أرسلت فى سنة ١٢٦٤هـ / ١٨٤٤ م .

فمجموع تلك الكميات التى أرسلت فى سنة ١٢٧٩هـ / ٢٠٩٥٦ هو أردبا بينما كان مجموع الكميات التى أرسلت فى سنة ١٢٦٤هـ / ٩٢٠٠٠ أردب أى أن مجموع النقص الذى حدث فى سنة ١٢٧٩هـ هو ٧١٠٤٤ أردبا مع ملاحظة أن الكميات التى أرسلت فى سنة ١٢٧٩هـ / ١٨٦٢م تكاد تساوى الكميات التى ترسل إلى الحجاز إبان الاحتلال البريطانى لمصر كمتلك الكميات التى أرسلت فى سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨ م والتى بلغت ٢٠٢٣٥ أردبا .

وما تجدر الإشارة إليه هو أن كمية الغلال والحبوب التى كانت ترسلها مصر إلى الحجاز سنوياً لم تكن ثابتة عند مقدار معين ، كما لم يكن إرسالها محددًا بيوم معين فأحياناً كان إرسال هذه الحبوب يتأخر بسبب انخفاض النيل الذى كان يتسبب فى انخفاض إنتاج الأراضى الزراعية فتشع الأوقات فى مصر وترتفع أثمانها (٢) .

وهذا يؤدى بالضرورة الى ظهور صعوبات جمة فى جميع الكميات المطلوبة للحجاز ويؤدى بالتالى إلى تأخر إرسالها ، كما يؤدى إلى انخفاض مقاديرها .

بيد أن هذا كان يدفع ولاية مصر إلى إضافة مقادير أخرى من الغلال إلى الكميات المقررة فى الأعوام التالية ، فكانوا يزدونها وبخاصة عند ظهور القحط أو الغلاء فى الأراضى الحجازية مثلما حدث فى سنة ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م عندما اشتدت المجاعة فى الأقطار الحجازية بسبب قلة الغلال ، قلة الحبوب التى وردت إلى التجار من اليمن ، فتضرر من ذلك أهالى مكة تضرراً بالغاً ، وعلى الفور أصدر الخديوى اسماعيل أمره فى ربيع الثانى سنة ١٢٨٢هـ . مارس سنة

(١) دار الوثائق القومية - ملخص ترجمة الأمر التركى رقم ٦٣ - صفحة ٣٢ - القسم الثانى الدفتر ٥٢٥

معية تركى - من الجناح العالى إلى أحمد رشيد بك ناظر المالية (٥ من شعبان سنة ١٢٧٩هـ) .

(٢) د / مصطفى رمضان - وثائق مخصصات الحرمين - ص ١٤ .

١٨٧٥ م بإرسال ألف أردب من القمح ، وألفى أردب من الشعير على وجه السرعة إلى جدة ، وقد تم شحن هذه الغلال على متن الباخرة (دسوق) مع مأمور خاص لتوزيعها على المحتاجين في الأراضي الحجازية مجاناً (١) .

وقد بلغت تكاليف أثمان هذه الحبوب ومصاريف نقلها ٤٣٦١٠٥ قرشاً وكسور وصدرت الأوامر بخصم هذه من أعبادية مصلحة الأشوان الملكية (٢) .

ولا شك في أن هذا الموقف من المواقف المجيدة في تاريخ مصر وتاريخ واليها الخديو إسماعيل وهو موقف لا يمكن تجاهله أو الإقلال من قدره المعنوي .

وما لا ريب فيه أن تدنى كميات الغلال المرسلة من مصر إلى الحجاز لا يمكن أن يكون يعزل عن التأثير بديون مصر التي حدثت في عصر إسماعيل ، بالإضافة إلى انخفاض منسوب النيل .

وقد كان كل هذا تمهيداً لتحويل الالتزام بإرسال الغلال المخصصة للحجاز من ولاية مصر إلى باشوية بغداد ، فلما اكتملت أسباب هذا التحويل لدى الباب العالي وافق في سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م على تحويل الالتزام بإرسال الغلال المخصصة للحجاز من مصر إلى بغداد حيث صدرت الأوامر من الأستانة بتكليف بغداد بإرسال تلك المخصصات من الغلال إلى الحجاز ابتداءً من هذا العام .

ومع ذلك فإن هذا لم يعف مصر من إرسال بعض الأرزاق إلى الحجاز إذ أن تحويل هذه الالتزام إلى بغداد لم يؤد إلى كفاية حاجات الحجازيين من الغذاء ، فأخذ الأهالي والأعيان يرسلون بشكاواهم المتتالية إلى مصر مما يشير بجلاء إلى اشتداد الأزمة في الحجاز ، فلم يسع الخديوى إسماعيل إزاء تلك الاستغاثات العديدة إلا أن يأمر بإرسال كمية من الأرزاق إلى أهالي الحجاز للتخفيف من وطأة الأزمة عليهم (٣) .

(١) الوقائع المصرية - العدد ٦٠٦ ١١ من ربيع الثانى سنة ١٢٨٢هـ / ١٦ من مارس سنة ١٨٨٥م .

(٢) أمين سامى - تقويم النيل - م ٣ - ج ٣ - ص ١٣٢١ .

(٣) دار الوثائق القومية - مكتوبة رقم ١٣٧ - دفتر عابدين - صادر إلى كامل بك القبر كتحذا - (غابة

ربيع الأول سنة ١٢٨٠هـ) .

وانظر : د / شوقى الجمل - سياسة مصر في البحر الأحمر ص ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

وهذا يشير إلى أن التزام باشوية بغداد بإرسال الغلال المخصصة إلى الحجاز لم يؤد إلى توقف مصر عن إرسال المخصصات السنوية التي كانت ترسلها إلى أهالي الحرمين الشريفين كما أنه يدل دلالة قاطعة على باشوية بغداد كانت ترسل غلالاً أقل من المقادير المطلوبة بكثير أي أنها لم تنفذ التزامها ولو بالقدر الذي يجنب الحجاز المجاعة والتهلكة .

ولقد ظلت مصر تتحمل الأعباء الملقاة على عاتقها حتى بعد التزام بغداد بهذه الواجبات في سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م .

كما ظلت مصر ترسل الأموال والمخصصات كعادتها إلى التكية المصرية في المدينة المنورة ، بيد أن الأهالي هناك استولوا على تلك المخصصات بالقوة وتخطفوها بدون نظام ، وهذا ، أغضب الطديري فأرسل إلى الباب العالي يشكو إليه ما حدث ويطلب صدور الأوامر إلى وإلى جدة ومشيفة الحرم النبوي الشريف لمنع الأهالي من ذلك وإرغامهم على اتباع النظام المتبع كل عام (١) .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على اشتداد الأزمة الطاحنة وصعوبة الحصول على المؤن من الأسواق الحجازية مما دفع الأهالي إلى مهاجمة التكية المصرية للحصول على أنصبتهم من تلك المخصصات .

وعلى الرغم من أن الأهالي ما هاجموا التكية إلا بدافع من ضروراتهم القاتلة فإن أساليبهم هذا فتح الباب على مصراعيه للمستغلين والصوص ، وحرم معظم الضغفاء والمرضى من أنصبتهم ، ولم يستمر هذا الأمر طويلاً فقد تدفقت المكاتبات العثمانية من الأستانة ومن الحجاز على مصر في سنة ١٢٨١هـ / ١٨٦٤م تقضى بضرورة تحمل مصر أعباءها بإرسال جميع المؤن والتعيينات المخصصة إلى الحجاز بصفة دورية خاصة بعد أن خفت حدة الأزمة الاقتصادية فيها فاستمرت مصر في إرسال المخصصات كل عام بصفة دورية طبقاً للنظام الأصلي المقرر من قديم الزمن ولم تتوقف عن إرسال تلك المخصصات حتى في سنة ١٢٨١هـ / ١٨٦٤م التي قرر الباب العالي فيها أن يقوم العراق بإرسال هذه المخصصات بدلاً من مصر ، ولو توقفت مصر عن إرسال مخصصات الحجاز في هذا العام لوقع الحجازيون وسائر المناطق التابعة له في برائن مجاعة مهلكة . فكما أن مصر ظلت تؤدي واجبها الإسلامي نحو الحجاز (طوال تاريخها السابق) فإن العراق عجز عن أداء هذا الواجب أو جزء منه في سنة واحدة وتلك مقارنة ينبغي التأمل فيها طويلاً ولم تجنح مصر

(١) دار الوثائق القومية . إفادة رقم ١٨٤ - دفتر ٢١ عابدين - إلى الباب العالي (٦ من جمادى الأولى سنة ١٢٨٠هـ) .

إلى التخلي عن واجباتها الإسلامية حتى إبان اشتداد أزماتها. ففي سنة ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦ أرسلت الحكومة المصرية إلى الباب العالي تشكو من الزيادة المطردة في المؤن المرسلة إلى الحجاز سنة بعد أخرى في الوقت الذي ظل مقدار الخصم فيه من الوريكوالسنوى كما هو ٢٠.٠٠٠ كيس مع زيادة المصاريف السنوية على المؤن سواء في ذلك أنماها أم تكاليف نقلها أم أجور الموظفين مما أدى إلى تراكم مبالغ كبيرة في ذمة الخزانة السلطانية لحساب الخزانة المصرية بلغت ٥٣.٠٠٠ كيس .

هذا في الوقت الذي تدفع فيه مصر فوائد طائلة على ديونها القديمه مما يؤثر على الخزانه المصرية ويصيبها بأضرار فادحة .

ويضاف إلى تلك العقبات ما كان يهدده مندوبو الحجاز - المكلفون باستلام المؤن من تعنت وتعللات كثيرة تؤدي الى نزاع مستمر يقع بينهم وبين مندوبى مصر أثناء تسليم الغلال .

ومن أجل ذلك طلبت الادارة المصرية حسم هذا الأمر واقترحت بأن تكفى مصر بإرسال ما كانت ترسله من قبل وهو غلال الجراية والصدقة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة أما باقى المؤن والتعيينات الأخرى فتترسلها باشوية بغداد على أن تقوم مصر بسداد مبلغ ٢٠.٠٠٠ كيس للخزانة السلطانية أو جدة نقدا (١) بيد أن هذا الاقتراح لم يدخل فى طور التنفيذ وظل مجرّد فكرة .

وفى سنة ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦ م عندما جهزت الدولة العثمانية أول ميزانية لولاية الحجاز منذ سنة ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠ م ظهرت مقترحات تقضى بأن يتم استيراد الثلثين من المرتبات القيفية (الغلال) المخصصة لجدة من البصرة (ولاية بغداد) والثلث الباقي يتم استيراده من مصر باستثناء الفول الذى يجب أن يتم استيراده كاملا من مصر ، أما مرتبات المدينة المنورة فإنه يجب استيرادها من مصر كاملة عن طريق ميناء ينبع نظرا لبعده المسافة على البواخر القادمة من البصرة (٢) وهذه العلة ليس لها قدمان تقف عليهما إذ لا فرق بين جدة والينبع بالنسبة لسفينة قادمة من الخليج فهي ظاهرة تخفى وراءها سببا حقيقيا ودر تكميل مصر بالقدر الأعظم من مخصصات الحجاز .

ويذكر الدكتور الجدل (٣) : أنه قد أحيل أمر المؤن والتعيينات - للمرة الثانية إلى

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٧٢ - سجل رقم ٢٤ عابدين - الى الباب العالي - (١٥ من ربيع الثانى سنة ١٢٨٣ هـ) .

(٢) د/ محمد عبدالله آل زلفه - ميزانية ولاية الحجاز واليمن - ص ٣٥٥ .

(٣) الوثائق التاريخية - ص ٤٢٤ .

باشوية بغداد إلا أنها لم تستمر في إرسال ما يحتاجه الحجاز من مؤن في حممه فأعيد مرة أخرى لمصر وهكذا فشلت محاولة الباب العالي تحميل العراق بعض مخصصات الحجاز للمصرة الثانية ونرى الأمر على ما هو عليه وظلت مصر هي المعطاة لما وهبها الله من الخير والفضل والبر والاحسان .

ولم تقف مسئوليات مصر عند هذا البر والاحسان فقد كانت الحكومة المصرية تتكفل كذلك بمسئوليات أخرى خاصة بالحجاز نذكر منها على سبيل المثال : ما حدث في سنة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٩م عندما أرسلت الدولة العثمانية فرقة عسكرية إلى الحجاز واليمن لخمسة ثورات العسبيرين فقد طلب الباب العالي من مصر إرسال ما مقداره خمسمائة وخمسة وسبعون ألف أقة من المُن منها خمسمائة ألف أقة من الأرز وخمسين ألف أقة من السمن ، وخمسة وعشرين ألف أقة من السكر ، فأصدر الخديوي اسماعيل أوامر مشددة للمختصين بتجهيزه وتجميع تلك الكميات المذكورة وإرسالها بحيث يستقبل نصفها ميناء الجديدة أما النصف الآخر فيرسل إلى المكان الذي يحدده (رديف باشا) قائد الحامية العثمانية هناك ، على أن تقوم مصر بتأمين هذه الأشياء ومصاريفها وترسل كشفها بها إلى الأستانة لادخاله في الحسابات المتداولة بين مصر والدولة العثمانية ولم يقتصر الخديوي اسماعيل على المسارعة بتلبية ما طلبته الدولة وإنما عرض عليها استعداداه لتلبية أي طلبات تريدها السلطنة العثمانية (١) .

المخصصات المصرية للحرميين الشريفين :

كانت مصر تتكفل بالإضافة إلى تلك المخصصات العامة للحجاز السالف ذكرها بإرسال الحصر والشموع والسكر المرتبة لحفلة الاسراء والمعراج حيث كان يقام احتفال كل عام في ليلة الأسراء والمعراج ، فعلى سبيل المثال نجد أن مدير الحرم النبوي أرسل إلى محافظ المدينة المنورة في سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠م يخبره بأن الحصر المرتب إرسالها من مصر كل سنة لم يبق منها شيء ، وأنه قد حل ميعاد إرسالها هي والزيت والشمع العسلى والقناديل المرتبة للحرم النبوي الشريف وطلب المدير من المحافظ الكتابة إلى ديوان الخديوي ليتم إرسالها .

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ١٢٧٢ المسجل رقم ٢٤ عابدين من الديوان الخديوي الى الباب

العالي (١٨ من ذي القعدة سنة ١٢٨٧هـ) .

فكتب المحافظ على عريضة المدير برسالة إلى معاون الخديوى الذى عرضها بدوره على الخديوى ، فأصدر أوامره بأعداد المطلوب من الجهة المختصة ليتم إرساله علي عجل إلي المدينة المنورة (١).

وفى سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م حدث أن وصلت العوائد السنوية المخصصة للحرم المدني ما عدا صندوق الشموع وأقفاص السكر حيث أخبر أمين الصرة أنها غرقت في البحر ولذا فقد أرسل علماء وأعيان مكة إلى والى مصر محمد سعيد باشا يرجونه إرسال غيرها حتى لا يحضر الناس فيجدون الاحتفال دون عادة كل عام فتحدث بليلة على حد قولهم (٢) .

كما كانت هناك أشياء أخرى بسيطة لها قيمتها المعنوية تقوم مصر بإرسالها إلى الحجاز مثل ما حدث عندما ظهر أن بيرق الحرم المكى قد بلى ، ولم يعد صالحا للاستعمال ، فصدرت أوامر الخديوى اسماعيل بصنع غيره وإرساله تبركا بما يهدى إلى الحجاز (٣) .

ولئن كانت قيمة هذا البيرق المادية قليلة بحيث يمكن لأى فرد أو جماعة حجازية إعداده لكن هذا يشير إلى مدى اعتماد الحجاز على مصر فى عظيم الأمور وصغيرها كما يشير إلي أن مصر ظلت مصدر الرئاستين المعنوية والمادية ، فكان ورود البيرق النبوى الشريف من مصر يضى عليه من الهيبة والاحترام ما لا يضاف عليه وروده من أى مكان آخر .

كما تكفلت مصر كذلك بصرف رواتب الكثيرين من القادة والموظفين الحجازيين وعلى رأسهم شريف مكة .

فقد جاء فى وثائق سنة ١٢٧٩هـ / ١٨٦٢م ما يشير إلى أنه قد صدرت أوامر الآستانة بتحويل راتب الشريف عبدالله بن الشريف عبدالمطلب - بن غالب - البالغ ستة آلاف قرش فى

(١) دار الوثائق القومية - ملخص الوثيقة التركية رقم ٨٣ حمراء - المحفوظة ٢٦٩ - عابدين - من محمد

شريف رائف مدير الحرم النبوى إلى محرم محافظ المدينة المنورة (١٧ من جمادى الأولى سنة ١٢٥٦هـ .

(٢) دار الوثائق القومية الوثيقة رقم ١٢٧ - المحفوظة ١٨ بحري - من بعض علماء وأعيان مكة الى الجناب

العالى (٢٠ من المحرم سنة ١٢٧٣هـ) .

(٣) الوقائع المصرية - العدد ٧٠٥ - (ثمرة ربيع ثانى سنة ١٢٩٤هـ / ١٥ من أبريل سنة ١٨٧٧ م) .

الشهر ليصرف من الخزانة المصرية من مخصصات الحرمين الشريفين ومن أجل ذلك أصدر خديوى مصر تعليماته إلى ناظر المالية أحمد رشيد بصرف راتب الشريف عبدالله السالف ذكره كل شهر من خزانة مصر على أن يسلم الراتب اليه بعد أن يوقع على سند يفيد امتلاعه (١) وهناك مرتبات أخرى كانت تتولي مصر دفعها إلى موظفى الحرمين الشريفين منها مرتب مفتى الحرم المكى السيد حسين الكتبى البالغ مائتين وخمسين قرشا ولما توفى السيد حسين تم تحويل مرتبه الى السيد محمد الكتبى (٢) مفتى مكة الجديدة .

وقد خصصت الحكومة المصرية لورثة المفتى المتوفى ستة وعشرين جنيها وستين مليما سنويا (٣).

ومنها : راتب المؤذن بالحرم المكى الذى بلغ فى سنة ١٢٧٩هـ / ١٨٦٢م مائتين وخمسين قرشا بعد أن كان قبل هذا التاريخ مائة وخمسين قرشا .

هذا بالإضافة إلى ما كان ينعم به الخديوى من مرتبات على المجاورين الذين أثروا البقاء بجوار الحرمين الشريفين ليحيوا حياة النسك والظاهرة ولينعموا ببركات هذه البقاع وليتعلموا العلم.

وأحيانا كان بعض من لا رواتب لهم من هؤلاء المجاورين يرسلون إلى خديوى مصر باحتياجهم الى مرتبات تقيم أودهم نظرا لاتقطاعهم للعبادة أو للتدريس أو لتلقي العلم في الحرمين وبعض هؤلاء أقعدهم الكبر أو المرض عن مزاولة أى عمل يكسبون به رزقهم ورزق من

(١) دار الوثائق القومية - ملخص الأمر التركي - رقم ٦٥ - صفحة ١٢ القسم الثانى الدفتر ٥٢٥ معية تركي - من الجانب العالى إلى ناظر المالية أحمد رشيد فى ٦ من شعبان سنة ١٢٧٩هـ .

(٢) دار الوثائق القومية - ملخص الأمر التركى رقم ٦٤ - صفحة ٣٢ - قسم ثان دفتر ٥٢٥ معية تركي - من الجانب العالى إلى ناظر المالية أحمد رشيد (٥ من شعبان سنة ١٢٧٩) .

(٣) ابراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ٢ - ص ٣٤٧ .

ويبدو أنه كان لبعض أفراد أسرة الكتبى مرتبات أخرى غير هذه إذ أنه بالاطلاع على مخصصات سنة ١٣٢١هـ / ١٩٠٣م نجد بعضا من أسرة الكتبى قد قيد لهم مخصصات ومثال ذلك تخصيص خمسين قرشا شهريا لمحمد طاهر الكتبى .

يعولونهم فكان الخديوى يصدر أوامره على الفور إلى نظارة المالية المصرية لتخصيص رواتب شهرية لهم ومن أمثلة ذلك : تلك الرسالة التى بعث بها أحد المجاورين بمكة ويدعى سرور في ٢٣ من المحرم سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م إلى الخديوى والتى ذكر فيها أنه رجل عاجز وفقير وعليه دين لذا فهو يلتبس من الخديوى تخصيص مقدار ما يكفيه من راتب أو تعيين أو صدقة ليتمكن من الاتفاق على من يعول (١) .

كما أرسل آخر ويدعى فاتح برسالة الى الخديوي في ٣ من المحرم سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م يخبره فيها برغبته فى التوجه من مصر إلى مكة المكرمة ليقيم فيها فترة عام أو يبقى مجاورا بمكة طوال حياته كما يتمنى . ويأمل من الخديوى الموافقة على ذلك الأمر الصادر بإقامة تلك المقارئ يقتضى قيام المعينين فى هذه المقارئ بقراءة بعض السور عدة مرات فى أوقات مختلفتيوميا وتفويض السيد / محمد المنتظر للنظر فى شئون المعينين لقراءة القرآن من حيث تنصيبهم وعزلهم وتعيين بدل من يتوفى منهم فيكون النظر فى هذا الموضوع بكامله لهذا الوكيل وحده (٢) .

ومن هؤلاء أيضا الخديوى اسماعيل الذى أرسل أمره الكريم إلى نظارة المالية فى الخامس من جمادى الآخرة سنة ١٢٨٧هـ وقد جاء فيه أنه :

" قد اقتضت ارادتنا ترتيب ألف قرش شهرى الى الشيخ منتظر من المجاورين بجهة الحجاز إحسانا من لدنا وفى كل سنة يرسل له استحقاقه مع الصرة ولهذا لزم اصداره لكم لتجروا مقتضاه اعتبارا من تاريخه حسبما تعلق به ارادتنا " (٣) .

وعندما ^{توفي} الشيخ منتظر - المذكور - صدر أمر الخديوى إسماعيل فى جمادى الأولى سنة ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م بتخصيص كمية من الغلال قدرها ثلاثة أراش حنطة شهريا إحسانا إلى السيد

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٥٩ حمراء من مكة - المحفوظة رقم ٢٦٦ - عابدين ، عريضة للجناب العالى الخديوي من المدعو سرور والمقيم بمكة (٢٣ من المحرم سنة ١٢٥٥هـ) .

(٢) رفعت - مرآة الحرمين - ج ٢ ملحق رقم ٣٤٠ (وقفية لقراءة قرآن ويغارى بالمسجد النبوى) .

(٣) أمين سامى - تقويم النيل - م ٢ - ج ٣ - ص ٨٠ (دفتر ١٩٣٠ عربي - صفحة ١٨٩ - أمر كريم صادر للمالية بتاريخ ٥ من جمادى سنة ١٢٨٧هـ) .

محمد خير الدين نجل المتوفى الشيخ منتظر بالمدينة المنورة ولأسرته ، وأن يتم إرسال الخنطة المذكورة مع الخنطة الجارية إرسالها صدقة لأهالي الحجاز (١) .

ولم يقف مرتب السيد محمد خير الدين عند هذا القدر وإنما ترقى في الأعوام التالية إلى أن بلغ في سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨ م أي بعد ثلاثة وثلاثين عاما من فرضه ستة وثلاثين أردبا من القمح (٢) .

والراجع عندي أنه في خلال هذه السنوات المديدة ، ومع كثرة الأولاد طلب محمد خير الدين زيادة له ولأولاده من القمح فزيد له وإن من يطلع على وثائق تلك الفترة يجد كثيرا من التماسات المجلورين للحرمين الشريفين يطلبون فيها زيادة معاشاتهم بسبب الحاجة وكثرة العيال وغير ذلك .

تكييتا مكة والمدينة المصريتان وخيراتهما :

أولا : (تكية مكة المكرمة)

أنشأ هذه التكية محمد علي باشا في سنة ١٢٣٨ هـ / ١٨٢٢ م وتقع بشارع جواد في المكان الذي كانت فيه دار السعادة (التي كانت مقرا لحكومة بنى زيد من الأشراف) .

وقد خصص محمد علي باشا هذه التكية لخدمة فقراء الحرم المكي من جميع الجنسيات والشعوب المختلفة الذين أعوزتهم الحاجة ولا يجدون مأوى يأوون إليه ولا يجدون طعاما يقيمون به أودهم .

وكان كثيرا من نساء مكة وجواربها الفقراء يتعيشن بما يحصلن عليه من هذه التكية اكتفاء به عن مسألة الناس ، هذا بالإضافة إلى بعض المجاورين ، والفقراء من السودانيين (التكارنة) ، والمغاربة وغيرهم .

(١) المصدر السابق ج ٣ - ص ١٣٥٧ ، (دفتر عربي بدون رقم - صفحة ١٥٠ - أمر كريم للمالية - ٢٠٠٠) بتاريخ ١٨ جماد أول سنة ١٢٩٣ هـ .

(٢) إبراهيم رفعت باشا - مرآة الحرمين - ج ٢ - ص ٣١١ .

ويتولى تشغيل التكية والقيام على خدمة الفقراء بها مجموعة من الموظفين والعمال على رأسهم الناظر والمعاون وبعض الكتاب . وكان هؤلاء الموظفون والعمال يتم تعيينهم من قبل مصر وإشرافاً مصري كاملاً . وكانت من مهامهم أيضاً بناء لهم بأسيوط من مصر إلا أن وجهاء مكة والمدينة كانوا يمدون رأيهم في هؤلاء الموظفين ، وإذا قصروا في أداء واجباتهم يرسل هؤلاء الوجهاء برأيهم إلى والى مصر لتغييرهم (١) .

وكان لهذه التكية طاحونة يقوم بإدارتها أربعة بغال بالتناوب لطحن القمح وبها مطبخ واسع يشتمل على ثمانية مواضع في آنية من الحجم الكبير (قلدان) ، كما كان يوجد بها مخبز لصناعة الخبز ، ومخزن ، وغرف للموظفين وبها أيضاً دورات مياه ، وصنابير للمياه النقية ، وبركة ماء صناعية (فسقية) وحولها مكان مفروش للجلوس علمه والتمتع بالنظر إلى ماء البركة الصناعى ، وكان أمير الحج وأمين الصرة لصرف المخصصات وأتباعهم يجلسون حولها وفي فترة الحج كان يسكن التكية بعض مرافقى المحمل كالطبيب ، والصيدلى ، وكاتب القسم العسكرى وغيرهم (٢) .

وكان يصرف يوميا من المخصصات المصرية لإطعام فقراء هذه التكية ما يقرب من أربعمئة أقة من الخبز ، وهو حاصل خبز ثلاثة أراذب من القمح ، ويصرف كذلك لهذا الهدف مائة وخمسون أقة من الأرز هذا فى جميع أيام الأسبوع عدا الخميس الذى كانت حصته من الخبز والطعام يزداد عليها مائة أقة من اللحم وحصته من الأرز يزداد عليها مائتان وسبعون أقة من الأرز لترتفع من مائة وخمسين أقة إلى أربعمئة وعشرين أقة .

أما شهر رمضان فقد كانت أيامه كلها على غرار أيام الخميس فيصرف للتكية فى كل يوم منها ما يصرف لها فى أيام الخميس من خبز وطعام وأرز ولحسم ويزاد عليها بعد ذلك فى كل يوم خمسون أقة من الحمص .

هذا بالإضافة إلى ما يصرف فى عموم أيام السنة من السمن الذى يكفى لطبخ تلك

(١) الوقائع المصرية - العدد ٨١٠ - (٢٠ من جمادى الأولى سنة ١٢٩٦هـ) .

(٢) إبراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

المقادير وكان عدد الأشخاص المستفيدين يوميا من التكية المصرية في مكة - في الأيام العادية - أكثر من أربعمائة شخص . ويزداد هذا العدد في شهر رمضان وما يليه حتى آخر ذي الحجة ليصل إلى أربعة آلاف شخص في اليوم الواحد (١) .

ثانيا : تكية المدينة المنورة :

بناها إبراهيم باشا بن محمد على باشا في عهد أبيه في منطقة المناخة على يسار الداخل من باب العنبرية ، ويبلغ طولها تسعة وثمانين مترا ، وعرضها خمسين مترا وقد ذودت هذه التكية بالمخازن والأقراص والمطابخ ، وكان يأتيها رزقها رغدا من القمح والأرز واللحم وغير ذلك من ديوان الأوقاف بمصر ، وكذلك كانت تأتي مرتبات الناظر والموظفين الذين يعينون من قبل الحكومة المصرية وكانت هذه التكية تفتح أبوابها يوميا للفقراء بدون استثناء (٢) .

وقد حظيت تكية المدينة المنورة بالعناية التي خصها بها وإلى مصر محمد سعيد باشا إذ أصدر أمره في شهر شعبان سنة ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م بزيادة مرتباتها من اللحم والأرز والغلل وغير ذلك وزيادة مرتبات بعض موظفيها على أن يرسل جزء من هذه الزيادات إلى هذه التكية نقودا للاتفاق على مرتبات التكية من الطعام وزيادة رواتب من يستحقون الزيادة من موظفيها ، وقد اشتملت أوامر والي مصر على أن تجمع تلك التقديرات من إيرادات بعض أملاكه الخاصة وهي الخزان الموجود في مديرية البحيرة ، أما الغلال فتُرسل من الأرض التي يملكها (٣) في

(١) إبراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٢) إبراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ٤٢٤ .

(٣) بلغت أملاك محمد سعيد باشا ستا وأربعين ألف فدان وستمائة وخمسة عشر فدانا وبلغت أملاك الأسرة الحاكمة سنة ١٢٦١هـ / ١٨٤٥م (في عهد محمد علي باشا) ستمائة وسبعا وسبعين ألف فدان على الرغم من أن محمد علي باشا وأسرته قد جاءوا من بلادهم (ألبانيا) لا يملكون شيئا .

أنظر : الكسندر شولسن - مصر للمصريين ، أزمة مصر الاجتماعية والسياسية (١٨٧٨-١٨٨٢)

تعريب د/ روف عباس - دار الثقافة العربية القاهرة - ١٩٨٣م - ص ٣٠ .

فارسكور ، أما الأرز فيرسل من زراعة ديروط ، كما اشترطت أوامر الوالى المصرى أن تكون مصاريف النقل مأخوذة من إيراد خزان البحيرة السالف ذكره .

وقد بلغت مساحة الأراضى الموقوفة على هذه الأمور الخيرية أربعة آلاف وسبعمئة وواحد وخمسين فدانا (١) .

وبعد وفاة محمد سعيد باشا طلب الروزنامجى (٢) من وزارة المالية أن تعرض على الخديوى اسماعيل أمر الزيادات التى خصصها المرحوم محمد سعيد لتكية المدينة المنورة ، وهل يستمر ارسالها أم تتوقف فأصدر الخديوى اسماعيل أمره باستمرار إرسال ما أمر به محمد سعيد باشا من الأموال نقدية ومحاصيل الأقطان التى خصصها لتلك التكية (٣) .

وقد يتبادر إلى الذهن تساؤل هو لماذا اختص محمد سعيد باشا تكية المدينة المنورة بهذه الزيادة الكبيرة دون أن يخص بمثله تكية مكة ؟

والإجابة - تظهر إذا علمنا أن محمد سعيد باشا كانت له زيارة خاصة الى المدينة المنورة فى ١١ من رجب سنة ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠ م لزيارة مقام المصطفى صلى الله عليه وسلم (٤)

(١) دار الوثائق القومية - الأمر الكريم رقم ٢٣٩ - صفحة ١٥٥ - الدفتر رقم ١٩٠٨ أوامر عى - بتاريخ (٢ من ربيع الآخر سنة ١٢٨١هـ) .

(٢) الروزنامجى : هو رئيس الروزنامة من كبار الأفندية بمنزلة نصف بك أو نصف سنجق فى الترتيب الوظيفى العثمانى ، وأطلق عليه الترك فى بادئ أمره كاتب اليومية ، أما ديوان الروزنامة فى مصر فهد ديوان مالى يختص بجباية الضرائب ، وعليه مسئولية العناية بتجهيز الكسوة الشريفة ، والانفاق على قلاع الحجاز ، ومرتبات مجاورى الحرمين الشريفين ، وغير ذلك ، وكلمة الروزنامة تعنى فى التركيبة التقرير اليرمى .

أنظر : دار الوثائق القومية - قسم الارشاد .

ود/ أحمد السعيد - تأصيل ما ورد فى الجبرتى - ص ١١٧ ، ١١٨ .

(٣) أنظر الوثيقة السابقة رق ٢٣٩ .

(٤) أنظر : عبدالرحمن الرافعى - عصر اسماعيل - ج ١ - ص ٤٦ .

وقد عاد من هذه الزيارة فى ١٧ من شعبان وتاريخ الأمر الذى استقيت منه بيانات الزيارة التى أمر بها محمد سعيد هو شعبان سنة ١٢٧٧هـ/ أى نفس الشهر الذى عاد فيه محمد سعيد من المدينة مما يدل دلالة قاطعة على أن تلك الزيارة التى قررهما ترتبط ارتباطا وثيقا بتلك الزيارة فى الوقت الذى لم يزر فيه مكة فى فترة ولايته كله ويغلب على الاعتقاد أنه أثناء زيارته للمدينة المنورة رأى وسمع عن حاجة المجاورين والأهالى والحجاج لمزيد من العناية والرعاية التى تقدمها التكية المصرية بالمدينة .

ويبدو أن أعمال البر والاحسان لمجاورى الحرمين الشريفين وحجاج بيت الله الحرام كان ميدانا استيق فيه أمراء البيت الحاكم فى مصر فقد كان لعباس حلمى الثانى (والى مصر) فضائل أخرى على تكية مكة المكرمة فقد كان مكتوبا على بابها بالخط الثلث الجميل البيتين التاليين :

لعباس مولانا الخديوى فضائل عليها دليل كل يوم مجدد
رأيناه قد أحيا تكية جدة فقلنا أعباس بنى أم محمد (١)

وقد استنتجت من البيتين أنهما مدح لعباس الثانى الذى كان له لقب الخديوى أما عباس الأول فلم يكن قد حاز هذا اللقب ، كما أن المقصود بمحمد فى نهاية الشطر الثانى من البيت هو محمد على باشا الذى أمر ببناء التكية سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٢م .

نفقات كسوة الكعبة وركب الحج المصرى وما يحمله معه من أموال الى الحجاز :

بلغت تكاليف قافلة الحج المصرية وكسوة الكعبة الشريفة ومخصصات الحرمين الشريفين فى

= و : أمين سامى - تقويم النيل - م ١ - ج ٣ ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

و : أحمد بن زنى دحلان - خلاصة الكلام - ص ٣٢٤ .

و : أحمد السباعى - تاريخ مكة - ص ٥٣٧ .

(٢) إبراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ١٨٦ .

سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م خمسا وأربعين ألفا وتسعمائة واثنى عشر جنيها وسبعمائة وأربعة وثمانين مليما أنفق منها على إعداد الكسوة الشريفة أربعة آلاف وسبعمائة جنية شملت أثمان القماش وما ألحق به وأجور الصنائع والاحتفالات الخاصة في القاهرة بالكسوة (١) .

وأنفق منها على القسم العسكري لقائد الحج ألف ومائتان وستة وتسعون جنيها شملت مرتبات الجنود، وتكاليف الحراسة التي كان يقوم بها الجند لقائدين القافلة من جنود قطاع الطرق والأعراب .

وأنفق منها لمرتبات وتجهيزات أمير الحج ، وأمين القصر ، وموظفي المحمل وعماله الرسميين ألف ومائتان وثمانية وخمسون جنيها .

وأنفق منها لمرتبات وتجهيزات عريان القلاع الحجازية سبعمائة وأربعة وتسعون جنيها ومائتي مليم . كما أنفق منها لمرتبات وتجهيزات عريان الصحراء الحجازية ألفان وثلاثمائة وأربعة وتسعون جنيها وهذه المبالغ وإن كانت تروى لعريان الحجاز قصت مسبقا حفظهم لأمن الطريق ومساعدة قافلة الحج إلا أن الحقيقه التي لا مرأ فيها هي أن هذه المبالغ ما كانت تدفع للعريان إلا لدفع غيلتهم ومحاولة تجنب ضرورهم ، فهذه المبالغ تمتد بمثابة فدية تفقد بها قوافل الحج أمنها وسلامتها وبالإضافة إلى ما تقدم فقد كان نصيب أشراف الحجاز من تلك المخصصات ألفا وأربعمائة وثلاثة وتسعين جنيها .

كما أنفق من تلك المخصصات لمرتبات خاصة بأهالي مكة المكرمة والمدينة المنورة بلغت ثلاثة آلاف وسبعمائة وتسعة جنيها ت وزعت عليهم حسبما كان بأيديهم من صكوك وما اعتادوا عليه طوال السنوات السابقة كذلك أنفق في تكييتي مكة والمدينة من تلك المخصصات ثلاثة آلاف ومائتان وستة وستون جنيها ، وكانت مصر تتكفل بجميع النفقات اللازمة لهاتين التكييتين بالإضافة إلى مرتبات موظفيها كما سبق أن ذكرنا وقد زادت نفقات التكييتين فخصصت لها الحكومة المصرية مبالغ ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين جنيها في سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م أي بزيادة قدرها مائتان وأربع وتسعون جنيها عن المخصص لهما سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م .

وأنفق من تلك المخصصات لمرتبات قاضي مكة وقاضي المدينة (٢) وقد بلغت هذه المرتبات في السنة المذكورة سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م أربعمائة وخمسة وخمسين جنيها وخمسمائة وأربعة وخمسين مليما .

(١) إبراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ٢ - ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٢) كما كان قاضي مدينة الوجه الحجازية يعين من قبل الحكومة المصرية وبالتالي تتولي مصر رفع مرتباته - انظر دار

الوثائق القومية - محافظ مجلس الوزراء - رقم ١ / ١١ - حربية - مستخرج من نوتة معضر جلسة (١٢)

من مارس سنة ١٨٨٨ هـ .

وكان لقمح الصدقة الذي يوزع في مكة والمدينة النصيب الأكبر من هذه المخصصات إذ بلغت قيمته اثنين وعشرين ألفاً وبلغت أجور الحمالين والحيوانات والأمتعة «بعمائة جنيه» وتفاضت السكك الحديدية المصرية ثلاثمائة جنيه وتفاضت الباخرة التي أبحرت بالحجاج من السويس إلى جدة ذهباً ثلاثمائة جنيه ، وتفاضت الباخرة التي أبحرت بالحجاج عائدة من الوجه إلى السويس ثلاثمائة جنيه .

أما أجر الجمال التي أقلت الحجاج عبر صحراء شبه الجزيرة العربية فقد بلغت ألفين ومائتين وثمانين جنيهاً بتقاضاها الجمالون أجراً لجمالهم .

كما أنفق من هذه المخصصات مائة وستة وثمانون جنيهاً مكافأة للمتعهدين ، وأنفق مائتان وأربعة عشر جنيهاً إنفاقاً احتياطياً لهم .

وأنفق في إرسال البرقيات وتجديد الخيام ، وضمن شمع وقناديل (١) التي أعدت لحفل الاسراء وانصراف مائتان وعشرون جنيهاً (٢) .

وهناك اتفاقات أخرى ثرية بلغت مائتين وخمسة وستين جنيهاً .

ويمكن عمل مقارنة بين المخصصات التي تم إنفاقها في سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م والمخصصات التي تم إنفاقها في سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م ، وذلك بعد سرد المخصصات التي تم إنفاقها في سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م .

في سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م كانت مرتبات وتعيينات أمير الحج ومسندهمي المحصل ألفاً ومائتين وثمانين جنيهاً ، وكانت مرتبات العربان ألفين وخمسمائة وأحد عشر جنيهاً ، وكانت مرتبات الأشراف في مكة والمدينة ألفاً وأربعمائة وثلاثة وتسعين جنيهاً ، وخصص للتكيتين في مكة والمدينة ألف وتسعمائة وواحد وستون جنيهاً .

أما المرتبات الخاصة بأهالي مكة والمدينة فقد بلغت ألفين وثمانمائة وتسعة وسبعين جنيهاً وبلغت أثمان القمح وتكاليف نقله اثنين وعشرون ألفاً وخمسمائة جنيه .

أما أثمان الشمع والقناديل فقد ارتفعت ارتفاعاً ملحوظاً في هذا العام فبلغت ألفاً وستمائة وتسعة وعشرين جنيهاً ، كما بلغت أجور النقل البري والبحري بما فيها أجور الجمال أربعة آلاف ومائتين وثمانية وأربعين جنيهاً ، وبلغ ثمن الخيام مائة وخمسة وخمسين جنيهاً ، وبلغت مرتبات المستحقين من أهالي مكة والمدينة من أوقاف الحرمين الخصوصية والأهلية والخيرية ، ومن الخاصة الخديوية والمالية مبلغاً وقدره ثلاثة آلاف جنيه .

(١) إبراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ٢ - ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثائق التركية رقم ٨٣ حمراء - محفوظة ٢٦٩ عابدين من محمد شريف رائف مدير الحرم النبوي إلى محرم المدينة المنورة (١٧ من جمادى الأولى سنة ١٢٥٦ هـ) .

أما ما كان يرسل من زيوت الاضاءة والحصر واخلانها إلي الحرمين الشريفين من ديوان الأوقاف فقد بلغت أثمانه في هذا العام ستة آلاف وأربعمائة وعشرين جنيها (١) .

وبذلك بلغ مجموع المنصرف في هذا العام (١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م) خمسين ألف جنيه مصري .

وقد لوحظ أن اتفاقات سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م قد زادت عن اتفاقات سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ بمقدار ٤٠٨٧ جنيهاً تقريباً علي الرغم من أنها لم تشمل نفقات الكسوة الشريفة التي بلغت تكاليفها في سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م ٤٦٠٠ جنيهاً .

كما يلاحظ علي قافلة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م أنها لم تشمل أيضاً نفقات القسم العسكري الذي بلغ في سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م ١٢٧٦ جنيهاً ولم تشمل أيضاً مرتبات عزيان قلاع الحجاز التي بلغت في سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م ٧٩٤ جنيهاً .

ولم تشمل مرتبات قاضي مكة والمدينة والتي بلغت في سنة ١٣٠٧ هـ ٤٥٥ جنيه ولم تشمل مكافآت المتعهدين والتي بلغت في سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م ٤٠٠ جنيه ويلاحظ أيضاً ارتفاع ثمن الشموع والقناديل ارتفاعاً كبيراً في سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ إذ بلغ ١٦٢٩ جنيهاً بينما لم يتجاوز في سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م خمسين جنيهاً .

وقد ورد في مصروفات ركب الحج لسنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م مبلغ خاص بالزيوت والحصر وخلافها قدره ٦٤٢٠ جنيهاً وهو مبالغ فيه ولم يرد في مصروفات ركب سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م .

ومع ذلك فهناك أوجه اتفاق تام بين بعض الاتفاقات في سنتي ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م و ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م نراها في :

١. ثمن الصدقه الذي بلغ ٢٢٥٠٠ جنيهاً في السنتين .

٢. المصاريف النثرية التي بلغت ٢٦٥ جنيهاً في السنتين .

وثنمن الخيام والقرب وخلافها والذي بلغ ١٥٥ جنيهاً في الستين .

ومرتبات الإشراف والتي بلغت ١٤٩٣ جنيهاً في الستين .

كما وجد تقارب بين بعض بنود الانفاقات في الستين السالفي الذكر مثل مرتبات ومكافآت أمير الحج ومستخدمي المحمل والتي بلغت سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م ١٢٥٨ جنيهاً وفي سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م ١٢٨٢ جنيهاً ، ومثل مخصصات تكييتي مكة والمدينة والتي بلغت في سنة ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م ٣٢٦٦ جنيهاً وفي سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م ٣٦١٨ جنيهاً ومثل أجرة النقل البري والبحري والتي بلغت في ١٣٠٧ هـ / ١٨٨٩ م ٤٢٨٠ جنيهاً وفي سنة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م ٤٢٤٨ جنيهاً .

والذي يبدو لي هو أن البتوني قد أجمل بعض الأنواع في البعض الآخر في الوقت الذي فصل فيه ابراهيم رفعت بنود مصاريف قافلة الحج بشكل أوضح .

الهدايا والمنح المصرية للحجاز :

لم يقف أمر انفاقات مصر علي الحجاز عند المخصصات فهناك هدايا قيمة كانت ترسلها ولاية مصر إلي الحرمين الشريفين وإلي الأشراف في مكة والمدينة والذين كانوا يفوزون بنصيب الأسد من تلك الهدايا .

فعلي سبيل المثال : أرسل الوالي المصري عباس باشا الأول بإرادة الي كتخدائي مصر ومأمور أشغال السفن المصرية بجدة في ربيع الأول سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م فحواها : أنه قد أنعم علي نجل شريف مكة بالسفينة الفرقاة عطية الرحمن ، وعلي المسئولين تسليم هذه السفينة بجميع محتوياتها للمندوب الذي بعثه الشريف ، وعليهم أن يقوموا بحو اسم السفينة من سجل البحرية المصرية .

ومما تجدر الإشارة إليه هو أن تلك الفرقاة — عطية الرحمن — كانت من أكبر السفن الحربية المصرية في البحر الأحمر ، وقد شيدها محمد علي باشا ، وأنفق عليها أموالاً طائلة وساعدته كثيراً في جرويه بالحجاز وباليمن (١) .

(١) أمين سامي - تقويم النيل - م ١ - ح ٣ - ص ١٦ (الدفتر الافتراضي - صفحة ٢٤٦ ادارة الكتخدائي مصر - المأمور أشغال السفن المصرية بجدة بتاريخ ٢٩ من الأول سنة ١٢٦٥ هـ) .

فلما تولي عباس الأول أهمل أمر الجيش والبحرية فكان تبرعه بهذه السفينة لنجل شريف مكة متمشياً مع منهجه (١) .

ويبدو أن ارسال الفرقاة كهدية الي نجل شريف مكة جاء في اطار الهدايا المتبادلة بين الطرفين علي الرغم من الفارق الكبير بين الهديتين .

فقد أهدي شريف مكة جوادين كريمين بسميان السقلاوي والأحمراني إلي نجل الوالي المصري عباس باشا (٢) .

لكن شتان بين الهديتين فهدية مصر قلعة تمجوب البحر وهدية الشريف فرسان اقترسهما المرض فيما بعد .

قضية المخصصات والمنح والصدقات المرسلة الى الحجاز

ويعتينا الآن مناقشة قضية لها خطرها طرحها مؤرخ مكة السباعي علي بساط البحث التاريخي فلقد عاب السباعي (٣) علي العثمانيين ، وعلي المصريين ارسالهم المخصصات والمنح والصدقات والهدايا الي أهل الحجاز ثم قال : ان هؤلاء الخيرين قد أساموا الي أهالي الحجاز أكثر مما أحسنوا اليهم ، فهم قد عودوهم بذلك علي قبول الإحسان بما في هذا القعود من ضلوع وكسل وقد ساعد هذا علي تنشئة أجيال متعاقبة تعودت علي اقتناص الهبات والصدقات وطرحت الأعمال والطموحات.

(١) وما يؤكد عدم إكترائه بالبحرية ورغبته في التخلص منهباتها انه عندما سافر الي جزيرة رودس علي متن الباطرة المصرية (الشرقية) للاجتماع بالسلطان العثماني هناك أهدى سفينة الشرقية الي هذا السلطان الذي ضمها الي العمارية التركية تحت اسم / مخبر سرور

انظر : جميل خانكي - تاريخ البحرية المصرية - ص ٣٤٣ .

(٢) أمين سامي - تقويم النيل - م ١ - ص ٣ - ص ١٩

وقد جاء ذكر هدية شريف مكة الي نجل عباس الأول - عرضا - في ذكر اسباب اغلاق مدرسة الطب البيطري وتسريع الاطباء بها لعدم اهتمامهم بالجياد والحيوانات التي فقد كثير منها ومن بينهما الجرادان اللذان أهداهما شريف مكة الي نجل عباس الأول .

(٣) أحمد السباعي - تاريخ مكة - ص ٤٦٢ .

حقيقة أن هذه المخصصات من مرتبات وصدقات وهبات قد أقعدتهم عن الجد والعمل واستغنوا بها عن خوض معترك الحياة.

لكن يجب أن نضع في حسابنا أن بعض الحجازيين كانوا أهل عمل اشتغلوا بالتجارة والصناعة والزراعة والسفن وكثير من الأعمال المنتجة بالإضافة إلى اشتغالهم بالعسكرية والعلوم، وتهافت الكثير منهم على المخصصات والهبات والهدايا إنما جاء من طبيعة بلادهم التي وصفها الله تعالى بأنها " غير ذي زرع " وهذا لا يكفي كدليل على اتهامهم كامة بالكسل والركون الي الدعة واقتناص الصدقات، وما الأعراب الذين حصلوا أنصبتهم من الخيرات وأموال ركب الحجاج . بعد الحسام إلا نتيجة طبيعية لحال الأرض الجدياء.

فما لا شك فيه أن المخصصات والهبات والخيرات كانت لتكملة العجز الاقتصادي الطبيعي في أرض الحجاز ولعلاج تلك الأحوال السيئة

(ألا تقوم الولايات المتحدة الان بتوزيع المنح علي البلدان الفقيرة ويتقبلها العالم المتحضر وغير المتحضر الآن بنفس راضية) .

اذ الاسباب الحقيقية لركون كثيرين من الحجازيين الي الدعة إنما هي نقص الموارد الطبيعية وعدم وجود منافذ للعمل وطلب الرزق في تلك الحقب .

والمخصصات كانت صورة من العلاج ولم تكن بدعة عثمانية أو مصرية فأول من فرضها عمر بن الخطاب ثم من جاء بعده من الخلفاء والسلاطين العظماء كسياسة تضامنية ناجحة يحث عليها الاسلام ويؤيدها منطق الرقي والتحضر أما عدم ترشيد استخدام هذه المخصصات فتلك قضية أخرى.

ولما جاءت الدولة السعودية ظلت في حالة اقتصادية متواضعة الي أن اكتشف البترول ولو لم يكشف لأصبح من الضروري ومن لب الشريعة والتحضر أن يقدم الي الحجاز من سائر الأمم الاسلامية معونات اقتصادية .

فحديث السباعي حديث من أخذته العزة الاقليمية والنمرة القطرية ، ولم يضع في حساباته نظام التكافل الاسلامي وهو حق وواجب أصبح الآن من أولى واجبات دول البترول والذهب للنهوض بالأمم الاسلامية ودعم دفاعاتها ضد عدو متربص (اسرائيل) يسري بعدو انه في قلب الأمم الاسلامية وبخاصة دول المواجهة سريان المرض المتنامي.

إلا أننا لا نستطيع أن نعيب على المحسن لإحسانه ونترك من تقبلوا إلا حسان مع القدرة على العمل ، وحتى هذه لا نجد فيها غضاظة إلا قليلا نظرا لظروف الحجاز الطبيعية من نقص الموارد وخلافه وإنما العيب - فى اعتقادى - هو عدم محاولة أولى الأمر - الأشراف - استثمار تلك المخصصات الكبيرة من أموال النقدية أو تعيينات وجارية أو هدايا لو استغلت فى إنشاء أعمال نافعة مثل زراعة الأراضى وحفر الابار وإقامة صناعات مختلفة لآتت تلك المشروعات فى النهاية ثمارها واستغنت بها منطقة الحجاز عن قبول هذا العطاء الذى هو ليس إحسانا وإنما هو تضامن لازم وبهذا يمكننى أن ألقى بعض المسؤولية على كاهل الأشراف الذين كانت لهم الزعامة والرياسة فى تلك المنطقة الحيوية قروناً عديدة فقد كان أهالى الحجاز يحتاجون إلى القدوة الصالحة التى تسير بهم إلى الأفضل والأحسن فلم يجدوا ، ونظر الناس فوجدوا أشرافهم ينتظرون وصول الصرة والمخصصات المختلفة والحجاج .

وصار إرسال البرقيات إلى الأستانة والقاهرة طمعا فى زيادة المخصصات وألهاث وسيلة مثلى لتحقيق الزواج ، أما (العربان) فى داخل الحجاز وخارجه فقد كانوا يحصلون على انصبتهم بعد الحسام - كما ذكرنا - فإذا أعطوا من المخصصات لآنت قناتهم وإن منعوا منها أعلنوا الحرب وأدخلوا الرعب فى نفوس الأمنين من حجاج بيت الله الحرام .

وقد أدركت الحكومتان المصرية والعثمانية بأن استرضاء هؤلاء العربان هو أسلم الحلول وأقربها لهذا خصصت لهم الحكومة المصرية فى بنود مصروفات الحج أنصبة وافية تحت عنوان مرتبات العربات أو مرتبات عربان القلاع .

ولا يستطيع باحث أن ينكر أو يقلل من شأن الأموال والمخصصات التى كانت تصب فى الحجاز من مصر والدولة العثمانية وبعض البلاد الإسلامية كالهند ، فلقد كانت الهند ترسل هى الأخرى أموالا بسطاء زائد لو استثمرت استثمارا جيدا لأصاب الحجاز خير عظيم .

فعلى سبيل المثال حضر إلى الحجاز فى سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م أحد وزراء . . . ملوك الهند يسمى على خان عن طريق جدة مع تابع له وقدم إلى شريف مكة عشرين ألف ريال فرنسى لإصلاح وتنظيف الأبار الكائنة بين المدينة المنورة ومكة المكرمة ، كما وعد بأنه سيرسل عشرين ألفا من الريالات لصرفها فى هذا المجال (١) وهناك أمثلة كثيرة للهدايا والأوقاف الخيرية وغيرها التى خصصت للحجاز تناثرت أخبارها فى بطون المصادر .

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة التركية رقم ٢١٩/٤٢ المحفوظة ٢٦٩ عابدين - من محرم محافظ المدينة المنورة إلى صاحب الدولة والعناية باشمعاون الجتاب العالى بتاريخ (١٦ من جمادى الثانية سنة ١٢٥٦ هـ)

ومما يجدر ذكره أن زيع المخصصات والرواتب كانت تتم بطريقة مجحفة انتقصت بها حقوق البعض وأعطى بها البعض الآخر ما زاد على حقوقهم ولم يراع الدقة والعدل الضرورين - فقد كان من المفروض أن يتم الصرف للمستحق بمقتضى الإذن الذى يوقعه أمين الصرة ، وأمير الحج ، والكاتب الاول للصرة دلاكة علي أن الصرف قانونى غير أن هذا لم يراع فى كثير من الاحوال .

فعلي سبيل المثال عندما شرع الكاتب فى صرف المخصصات والرواتب سنة ١٣١٩هـ / ١٩٠١م حضر أمامه كم غفير من الناس فسألهم الكاتب : هل أنتم أصحاب المرتبات ؟ فقالوا : لاولكتنا موكلون فى تسليمها كل عام فطلب منهم التوكيلات المعهدة فلم يجدوها لديهم غير أنهم احتجوا بأن أصحاب المخصصات توفوا (١) من زمن بعيد ولا أثر لوارثيهم وأنهم احق الناس بميراثهم ثم ادعى الجميع أنهم متفقون فيما بينهم علي ذلك عندما اخذ الكاتب بتلوا عليهم الأسماء أخذ كل منهم يخطف ما يستطيع الحصول عليه من أذونات الصرف حتي كان الواحد يستولي علي الخمسين الي الستين منها ثم يتسلم قيمتها كما ان الاشراف المقيدة أسمائهم فى كشوف المخصصات بعضهم قد توفي ومع ذلك كانت تصرف مرتباتهم لمن يعينهم شريف مكة كركلاء عنهم (١).

وهذا يشير الي أنه كان غالبا ما يحصل على المخصصات والرواتب من كان صاحب قوة بدنية او صاحب جاه ونفوذ كبير أما المقعدون والمرضى والارامل واليتامي ومن لا يسألون الناس الخافا فيبدو أن انصبتهم من المخصصات كانت قليلة أو مفتالة . ومن خلال استقراي لمثل هذه المواقف ظهر لى ان الاشراف كانوا ضالعين بشكل او باخر فى هذه التجاوزات ، وكانت لهم مصلحة كبيرة فى مرور عملية تسليم المخصصات بالشكل الذى أوردنا وصفه آنفا .

ولا أدل على ذلك مما جاء فى التقارير الامريكية التى كان يبعث بها القناصل الامريكيون فى عدن والقاهرة إلى وزارة الخارجية الامريكية عن احوال الشريف الحسين بن علي (٢) وقد استقت تلك التقارير بعض معلوماتها من أحد قضاة عدن ويدعى ياسين وكانت السلطات الانجليزية قد أرسلته الي جدة ومكة والمدينة لكتابة تقرير خاص عن الحالة فى الحجاز ، وتعدده القنصلية الامريكية من المصادر الموثوق بها ولا يرقى اليه شك .

(١) ابراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ٧٣ .

(٢) ولد الشريف الحسين بن علي سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣م بالعاصمة العثمانية استانبول وعاش فيها الى حين تولى = =

فقد وصفته تلك التقارير بأوصاف شنيعة أربأ عن ذكرها لأن الماضي الأمريكي اشد شناعة واعظم سؤا واكتفى بذكر مايعد موضوعا تاريخيا قابلا للمناقشة وهو ان الشريف حسين كان دائب العمل في سبيل الحصول على الاموال بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة وارهاق الاهالي ، وابتزاز اموالهم باساليب وطرق عنيفة (١) .

فما جعل الجميع يشكون منه ويتظلمون إلى حاكم عربي يحرمهم من نيره واستعباده (٢) بعدما هاد عن سيرة جده الأعلى صلي الله عليه وسلم والسلف الصالح .

ولم تكن هذه هي كل التجاوزات في المخصصات والهبات المصرية للحجاز ، وإنما كانت هناك تجاوزات اخرى أشد وأنكى حدثت في حقبة سابقة .

والده شرافة مكة فراققة إليها وظل بمكة إلى سنة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م عندما تم إبعاد الحسين إلى استانبول التي بقي بها حتى عين لاماره مكة سنة ١٩٠٨ ومن حينها أخذ في التمكين لنفسه حتى خلع طاعة العثمانيين بشورته العربيه عليهم سنة ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م وطرد الحامية العثمانية من الحجاز كله .
انظر في ترجمته : د / محمود صالح منسى - حركة اليقظة العربية - ص ١٩٢ ومابعدها . وانظر عمر رضا كحالة - العالم الاسلامي - ط ٢ - ٣ - دمشق ٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ ص ٦٠
وانظر : أمين الريحاني - الاعمال العربية الكاملة ملوك العرب - م ١ - ١ - ط ٢ ١٩٨٦ م - ص ٥٨ ومابعدها .

وغير الدين الزركلي - الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز - ص ٧٩ .

ود / جلال يحيى - المدخل إلى تاريخ العالم العربي الحديث - دار المعارف مصر ١٩٦٥ م - ص ٥٠٣ ومابعدها .

- (1) Doument no 163, file no 800 .subject the 1922 pilg - rimage to mecca farm ruymond David the American to Gonsui to secretery of state washington Aden Arapia in November 6, 1923.
- (2) Document No (Number mentioned) ,File No . 800 , Subject Attitude of transjordanian to words Hejaz from gerusalem C.cobb the American nice consul in charge jerusalem Balestine in November 6,1923.

ففي شوال سنة ١٢٥٦ هـ \ ١٨٤٠ م أرسل محمد علي باشا مفتشاً للحسابات علي رأس لجنة مصريه لجرد حسابات المدينة المنورة وجرايات الصدقة ، وغير ذلك من المصالح ، وقد ظهر في بداية الجرد زيادة ملحوظة اثبتتها المفتش علي أمين الخزانة وكاتبها في المدينة المنورة وقد بلغت هذه الزيادة عشرين ألفاً (١) ، كما أثبت المفتش تجاوزات كثيرة في بند المشتريات بل أثبت ما هو أكثر من ذلك وهو تواطؤ محافظ المدينة المنورة مع وكيله علي ابتزاز مستحقات الأهالي والمحتاج من المخصصات المصرية علي الرغم من أن هؤلاء كانوا يحملون سندات واجبة الدفع وقد حدث هذا التواطؤ بحيلة متفق عليها بين المحافظ ووكيله ، اذ يأتي حامل السند ليصرفه من المحافظ فيجيبه المحافظ بعدم وجود نقدية في الخزانة اليوم ، وعلي صاحب السند الانتظار لليوم التالي ، وهكذا حتي يمل حامل السند فيذهب الي وكيل المحافظ ويبيعه السند بربع قيمته الحقيقية ثم يقوم الوكيل بصرف قيمة السند الحقيقية من المحافظ مباشرة (٢) بعد أن يتخلص من صاحب السند .

تكفل مصر باستقبال ونقل الموظفين العثمانيين الي الحجاز وكبار الشخصيات المسافرين أو العائدين منه :

كان من المعتاد أن تتكفل مصر باستقبال العثمانيين الموظفين الذين يأتون من الاستانة إلي الحجاز أو العكس سواء كانوا مكلفين بواجبات رسمية أم كانوا يبعثون الحج والعمرة ، وغالباً ما كان هؤلاء ينزلون بالمسافر خانة الخديوية مدة استراحتهم في مصر ، ومن هؤلاء علي سبيل المثال: عز تلود أنس بك أفندي أمير الاي (العساكر الشاهانية المقيمة بالمدينة المنورة ، وقد كان عز تلو بك راجعاً من الحجاز وقاصداً الي الأستانة (٣) .

(١) تفيد الوثيقة التي بين ايدينا ان هذا المبلغ أشيع بأنه يخص المحافظ وان زيادته في الحسابات جاء نتيجة للتلاعب والتحايل علي نهب اصحاب السندات .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة التركية رقم ٦٢ حمراء - محافظة ٢٦٩ عابدين من أحمد لبيب الي باشمعاون جناب الخديوي - بتاريخ (١١ من شوال سنة ١٢٥٦ هـ) .

(٣) الوقائع المصرية- العدد ١٢٠- بتاريخ ٦ من ربيع الأول سنة ١٢٨٤ هـ / ٨ من يوليو سنة ١٨٦٧ م.

كما كانت الحكومة المصرية تتكفل بنفقات سفر الموظفين المتجهين إلي أعمالهم في الحجاز ونفقات سفر أتباعهم ونفقات حمل ما معهم من منقولات فعلي سبيل :

عندما حضر علي رضا أفندي قاضي المدينة المنورة وإبراهيم أفندي قاضي مكة المكرمة من الاستانة في سنة ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٦ م قاصدين الحجاز تم ترحيلهما من السويس إلي جدة علي نفقة الحكومة المصرية، وصدرت الأوامر إلي نظارة المالية بغضم مبلغ ٢٠٠٠ ١٩٩٦ قرشا - قيمة تكاليف سفرهما من مالية الديوان حيث أنه كان قد تم صرفه من محافظة السويس علي حساب المالية (١) .

وقد كانت في عناية مصر بأمر المسافرين إلي الحجاز وكرمها في الاتفاق عليهم مشارا لأطعام البعض فكانوا يتقدمون بمطالب زائدة عن الحد الممكن بعجة اعانتهم علي سفرهم إلي الأراضي الحجازية المقدسة لأداء ما أنيط بهم من واجبات مثل السيد مصطفى الذي حضر إلي مصر في سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م حينما من قبل الدولة العثمانية لتولي منسب القضاء في مكة المكرمة وقد طلب هذا القاضي من الحكومة المصرية إعطاء إحددي السفن البخارية المنشأة حديثا ليسافر علي متنها إلي جدة أحسانا من الحديري ، وتعلل بأن الوقت شتاء والسفر البحري بالسفن العادية يكون فيه مشقة غير أن طلبه قوبل بالرفض ولم يجب اليه (٢) .

ولم يقتصر الأمر علي ضيوف الأستانة فلقد شمل كرم مصر ضيوفا من جنسيات أخرى كانوا يسافرون إلي الحجاز عن طريق مصر فتتكفل مصر بإكرامهم وبعض نفقات سفرهم مثال ذلك ماحدث سنة ١٣١٩ هـ / ١٩٠١ م من إكرام لسلطان المكلا والشحر (٣) عوض بن عمر القعيطي في رحلته إلي الحج

(١) أمين سامي - تقويم النيل - ٣ - ح ٣ - ص ١٣٢١ ، ١٣٢٢ (دفتر بدون رقم - صفحة ١١٠ - أمر كريم للمالية - بتاريخ ٢٤ من ربيع الاول سنة ١٢٩٣ هـ) .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة التركية رقم ٦٠ حمراء المحفوظة ٢٦٩ عابدين من السيد مصطفى قاضي مكة المكرمة الي سامي بك بتاريخ (١٠ من شوال سنة ١٢٥٦ هـ) .

(٣) المكلا و الشحر ثفران في جنوبي بلاد العرب يقعان علي ساحل المحيط الهندي بينهما وبين عدن مسيرة ٢٤ ساعة في الباخرة .

انظر : إبراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ١ - ص ٤٠٠ .

حيث كان في صحبته حرس بلغ عدده تسعين جنديا وحاشية كبيرة وقد رافق ركبهم المحمل المصري من مكة الي المدينة فقدم له ركب المحمل خدمات عديدة منها:

ان رئيس المحمل المصري عين قسمن من الجنود ليحاذوا ركب السلطان القبطي في تحويل الأمثلة لما تكاثرت العربان على ركب السلطان القبطي طعنا في ماله ، ولشهرت مفهم نوايا النذر به في الطريق ، وأشار عليه قائد قافلة الحج المصرية بموافقتهم حتي يرفق له الركب المصري الأمن والحماية ففعل بعد ان ندم علي مايلذه للأشراف من أمزال كثيره ذهبت كلها أدراج الرياح (١).

وقد قدم الركب المصري لركب السلطان القبطي خدمات عديدة طوال الرحلة من المدينة الي ان وصلوا الي الوجه ، ولندرة مرور البواخر علي ميناء الوجه فقد تم اعداد أماكن للسلطان وحاشيته علي ظهر احدي السفن المصرية علي الرغم من قلة الأماكن المتاحة ليهيأ (٢) ، ونقلته السفينة الي السويس فظل بها حتي سافر الي بلاده .

ومن قنعوا بكرم مصر وعنايتها ابان رحلتهم الي الحجاز السلطان علي شاه (شاه ايران السابق) الذي رغب في السفر الي الحجاز عن طريق السويس في سنة ١٣٢٥هـ / ١٨٣٩م ، وما أن علم محافظ السويس بذلك حتي بادر بطلب اثني عشر ثوبا من قماش الشيت لفرش القصر الخاص بهالي مصر في السويس ليتم استقبال (السلطان علي) فيه ، غير أن الحكومة المصرية ردت عليه بأن يصرف النظر عن موضوع الشيت نظرا لأن السلطان عليا متوجه الي الحجاز عن طريق القصير (٣) .

ثم صدرت الي محافظ القصير الأوامر بضرورة استقبال الشاه علي بالحفاوة والتكريم هو وحاشيته البالغ عددها خمسين فردا ، وأن يتم حجز احدي السفن المناسبة لسفرهم فرد محافظ القصير بأنه قد استعد بالفعل لاستقبال الشاه ومرافقيه وأنه خصص السفينة فضل الباري (الكرويت) لسفرهم ، واذا حضرت

(١) ابراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ٤٠١ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق - ص ٤٨٤ وما بعدها.

(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة العربية رقم ١٨٤ حمراء المحفوظة ٢٦٦ عابدين من قاسم أمين كمرق ومحافظ السويس

الي باشمعارون جناب داوري بتاريخ (٢٩ من ذي القعدة سنة ١٢٥٥هـ).

سفينة أخرى أفضل منها سيتم تخصيصها لهم وتسريع الأولي (١) . وقد تم استقبال الشاه علي في السويس والقصور بمنتهي التكريم وظلت عناية مصر تحفه حتي أتم سفره هو وحاشيته الي الحجاز حيث كان يخدمه فيها آلاي مصري كامل يرأسه نعمان بك فلما أتم الشاه علي حجه بعث برسالة شكر الي محمد علي باشا والي مصر وهو عائد الي وطنه في ١٩ من ذي الحجة سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩م علي الحفاوة والتكريم التي لقيها من رجال الادارة المصرية في القصور ومكة وخاصة قائد الالاي نعمان بك وقد طلب الشاه علي في رسالته هذه من محمد علي باشا أن يمنح نعمان بك قائد الالاي رتبة قائمقام (٢) .

رواق (٣) الحوامين الشويخين - (٤) بالازهر الشريف:

يقع رواق الحرمين الشهيدين داخل باب المقصورة الجديدة بالازهر عن يمين المتجه ناحية المنبر (٥) . وكان هذا الرواق من أصغر الاروقة ، وأقلها طلابا مجاورين ، ويحتوي الرواق علي قاعة سفلية يعلوها ثلاث غرف لسكني الطلاب ، الذين يقدون الي الأزهر من مكة والمدينة وجدة والطائف والبلدان الحجازية الاخرى (٦)

(١) دار الوثائق القومية- الوثيقة رقم أصلية - حمراء- المحفوظة رقم رقم ٢٦٦ عابدين ملف القصور- بتاريخ (غرة ذي القعدة سنة ١٢٥٥هـ) .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة التركية رقم ٢٥١ حمراء- المحفوظة ٢٢٢٦ عابدين ترجمة عربية لترجمة تركية عن أصل فارسي من السلطان علي شاه إلي محمد علي باشا- بتاريخ (١٩ من ذي الحجة سنة ١٢٥٥هـ) .

(٣) الرواق كان يعد بمثابة منزل به كافة احتياجاته من غرف ودواليب وخزائن ، وكان لكل طائفة أو ملتب من المذاهب رواق خاص ينفق عليه من أحباس جملها أصحابها- تقرباً الي الله- وفقاً علي مصالح أهل الرواق من مأكول ومشرب وملبس وغير ذلك، وكان لكل رواق شيخ يدير شؤونه.

انظر: محمد كمال - الأزهر جامعاً وجامعة- ص ١١٠ .

(٤) كان يطلق علي هذا الرواق أحياناً: رواق المكاوين إلا أن هذه النسبة خاطئة لأن الذين يؤمنون هذا الرواق من بلاد الحجاز المختلفة .

انظر: د/ عبد العزيز الشناوي- الأزهر جامعاً وجامعة - ص ٢٦٣ .

(٥) حسين حسان - الحركة العلمية والتعليمية في الأزهر - ص ١٣٢ .

(٦) دار الوثائق القومية سجل ٣٣ من سجلات تعداد المحقق نسبتهم للأزهر - ص ١٩٢ (١٢٩٩هـ) . وانظر: د /

عبد العزيز الشناوي - الأزهر - ص ٢٦٣ .

الا أنه من الملاحظ قلة عدد المجاورين في هذا الرواق من طلبة العلم الحجازيين حيث تراوحت أعدادهم في الفترة من سنة ١٣٠٤هـ / ١٨٨٦م الي سنة ١٣٠٨هـ / ١٨٩٠م بين مجاورين وخمسة (١) . ويعزو مجموعة من الباحثين سبب قلة المجاورين من أهل الحجاز في رواقهم الي أن معظم أهالي الحجاز كانوا يفضلون المجاورة بأحد الحرمين الشريفين في مكة المكرمة أو المدينة المنورة (٢) .

الا أن هناك سببا آخر لمسته من خلال متابعتي لأخبار طلبة العلم الحجازيين في الأزهر - خاصة إبان القرن التاسع عشر - هو أن معظم هؤلاء كانوا من الموثرين الذين أرسلهم أهلهم علي نفقتهم فكانوا يفضلون السكني علي نفقتهم الخاصة في منازل القاهرة ، وكثير من هؤلاء كانوا إما من الأسر التجارية أو من الأشراف أمثال محمد علي ، زيتل ، ومحمد نصيف ، وعبد الرؤوف الصبان ، طاهر الدباغ وغيرهم . أما سائر الاهالي الحجازيين الفقراء فان الذين أقعدهم عن التعليم في الأزهر هو عدم تمكنهم من الاتفاق عاي سفرهم الي مصر فقتنوا بالمجاورة في الحرمين .

ومما تجدر الإشارة إليه هو ان شيخ رواق الحرمين كان من الحجازيين مثل الشيخ محمد عبد الله الطائفي في اواخر القرن التاسع عشر (١٣١٤هـ / ١٨٩٦م) وكان يصرف لهذا الرواق جراية من الخبز قدرها اثنا عشر رغيفا كل يومين (٣) . فمما تقدم نري أن تعدد أوجه البر المصرية التي خصصت للحجاز للحرمين الشريفين في صورة رواتب عينية ونقدية اعتمدت علي الاوقاف الاميرية ، وكان الهدف منها هو كفالة شئون الحجاز ورعاية أمرائه وعلماؤه .

فقد حملت مصر علي عاتقها الالتزام بإرسال مخصصات الحجاز والحرمين الشريفين ، وتعينات ومؤون أفراد الحماية العثمانية التي كانت ترابط في الحجاز بعد خروج جيش محمد علي من شبه الجزيرة العربية ، وكانت هذه المئون تؤخذ من أجود المحاصيل المصرية وترسل عبر مينائي القصير والسويس الي مواني الحجاز المختلفة مثل جدة ، ورابغ ، وينبع البحر .

(١) دار الوثائق القومية - الأزهر الشريف السجل رقم ٢ من سجلات الميزانية والمصروفات والايادات ص ٥٢

(١٨٨٥ - ١٨٨٨ م) (١٣٠٢ - ١٣٠٥هـ)

(٢) انظر : علي باشا مبارك - المخطط التوفيقية - ص ٥٢ . ود/ عبد العزيز الشناوي - الأزهر جامعا وجامعة - ص ٢٦٣ . وحسين حسان - الحركة العلمية والتعليمية في الأزهر - ١٣٢ .

(٣) دار الوثائق القومية - الأزهر الشريف - سجل ١٦ من سجلات الجرايات ص ٣٨ (١٣١٤هـ / ١٨٩٦م) . وعلي

باشا مبارك - المخطط التوفيقية - ح ٤ - ص ٥٢ .

و كانت مصر تتأثر كثيرا بتأخر فيضان النيل . وبعض الصعوبات الاقتصادية الطارئة عاجلها تطالب الدولة العثمانية بالزام باشورية بغداد بإرسال التعينات والمؤن المخصصة للحجاز ، علي أن تكتفي مصر بالأوقاف الخيرية ، وكسوة الكعبة ، وعلي الرغم من صدور الأوامر لولاية بغداد بذلك إلا أنها لم تكف الحجاز مثولته فعادت المسئولية مرة أخرى الي مصر فواصلت مصر مسئوليتها تجاه كفاية الحجاز والحرمين ، ولم تقتصر مصر علي ذلك وإنما اضطلعت بأعباء أخرى مثل إرسال احتياجات الحملات العثمانية لاختفاء ثروات العسيريين .

وكانت هذه المخصصات المصرية العثمانية تنفق في مرتبات الأشراف ، وبعض الموظفين في الحجاز وللمجاورين وعلماء الحجاز ، والعربان ، وتنفق في فرش الحرم المدني ، وإثارة بالشموع .

كما تكلفت مصر بالاضافة الي كل ماتقدم بتسهيل نقل الموظفين العثمانيين وكبار الشخصيات المتجهين للحجاز أو العائدين منه مع استقبالهم ، واستضافتهم في مصر . كما خصص في أوزقة الأزهر رواقا لأهل الحرمين الشريفين مع مخصصات له وبعض الاوقاف . ولقد كان للعمارة المصرية (التكيتان المصريتان) في مكة المكرمة والمدينة المنورة أثر عظيم في اقامة أود الفقراء حيث كانت كل تكية تصرف طعاما وشرابا كل يوم علي مدار العام مع زيادة مخصصات المواسم ، وأيام الخميس ، وأيام شهر رمضان .

ولم يكن كل ماتقدم من الامور التي احست مصر بانها مفروضة عليها بل كانت واجبات خيرية أحس المصريون وحكوماتهم بشرفها وعلو قدرها فأوقفوا عليها أوقافا الي جانب أوقاف السلاطين العظماء تقريبا لله وشعور بمبدأ الاخاء الاسلامي وزادت هذه الاوقاف ونمت علي مر القرون حتي من الله علي جزيرة العرب كلها بالرخاء والاكتفاء زاد الله الحجاز وأهله نعيما وتشريفا وجعله دائما ملجأ العابدين والقانتين والتائبين والعائدين والركع السجود .

الفصل السابع الاصلاحات والتنمية المصرية في الحجاز

تقديم

اعتنت مصر عناية عظمى متواصلة بالاصلاحات التي احتاجها الحرمين الشريفان بصفة خاصة والحجاز بصفة خاصة ، وقد شملت الاصلاحات ترميمات وبناء الاماكن العامة والمقدسة ، وإنشاء وإصلاح المواني ، والطرق ، والسكك الحديدية ، والقلاع التي تحرس طرق الحج ، وإعداد مصادر المياه واصلاحها .

ولم تتوقف الاصلاحات والترميمات والتحسينات في الحرمين الشريفين طوال القرون الماضية (١) وهي اصلاحات تجل عن الحصر اذ كانت السيول والعوامل الطبيعية تؤثر تأثيراً مباشراً علي الحرمين خاصة في مكة المكرمة .

والتأثير الشديد للسيول علي الحرم المكي يرجع الي جغرافية الحرم نفسه إذ يقع في منطقة منخفضة تحيط بها الجبال والمناطق المرتفعة مما يؤدي الي تدفق السيول بشدة إلي داخل الحرم فتؤثر علي جدران الكعبة المشرفة والمسجد ودور مكة .

ومن الأمثلة التي حفظها لنا التاريخ علي تلك الاصلاحات :

التمميزات والاصلاحات المصرية في الحرم المكي سنة ٨٢٥ هـ / ٨٢٦ هـ / ١٤٢٢ م التي قام بها الأمير المصري زين الدين مقبلا القديدي في عهد الأشرف برسباي ، ومنها : اصلاحات سنة ٨٥٣ هـ / ١٤٤٨ م علي عهد السلطان جقمق كما كانت هناك اصلاحات في الحرم المدني أشهرها اصلاحات سنة ٨٨٢ هـ / في عهد السلطان قايتباي (٣) . ومنها ماحدث في ٩٥٩ هـ / ١٥٥٢ م عندما أصابت

(١) أنظر : تفاصيل ذلك عند السباعي . تاريخ مكة - ص ٤٧٤ وما بعدها .

(٢) . ابراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ٢٤١ .

(٣) المصدر السابق - الصفحة نفسها .

الأمطار سقت الكعبة بالخلل فبعث علماء مكة وأعيانها الي والي مصر علي باشا برسالة شرحوا فيها ما آل اليه حال الكعبة ، وأرفقوا بها فتوي مفتي الحرم المكي ابن حجر الهيتمي المصري فبادر علي باشا يعرض الأمر علي حكومة استانبول ففوضته في العمل علي اصلاح ما وهي من الكعبة فبعث الي مكة بالفنيين والآلات والأموال لاصلاح ماصدعته الامطار من الكعبة المشرفة (١).

ومن الاصلاحات ما كان في سنة ٩٧٩ هـ / ١٥٧١ م في عهد ولاية سنان باشا علي مصر حينئذ أرسل المعلم أحمد بك الذي اصطحب شيخ المهندسين بمصر محمد المصري (٢).

ومن ذلك ما حدث في سنة ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ م عندما هطلت الأمطار بكثرة وطففت المياه علي المسجد الحرام حتي بلغ ارتفاعها باب الكعبة فتهدمت بعض حجارة الكعبة الشريفة بسبب ذلك ، فقام أعيان مكة وعلي رأسهم أميرهم بإرسال مندوب ليخبر والي مصر بما حدث ليتصل بدوره بالحكومة العثمانية في الأستانة حول هذا الشأن .

وبعد أن أتم والي مصر محمد باشا قول الإجراءات الادارية ، واعتمد علي الفتاوي الشرعية بعث علي الفور إلي الحرم أربعة من المهندسين المصريين يعاونهم ثلاثة من متعهدي البناء في مكة ، وقاموا بهدم جميع جدران الكعبة وأقاموها من جديد بمساعدات عثمانية مصرية (٣) .

الاصلاحات المصرية في الحواصين الشويخين :

لقد ظل دور مصر العظيم في تعمير الحرمين الشريفين واصلاح ما وهي من بنائها طوال القرون الماضية كما كان دورها رائداً في القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي .

ومن أعظم الشواهد التاريخية ترميم أعمدة الحرم المدني بعد تحللها وتآكلها بمرور الزمن عليها ، فعندما علم بأمرها السلطان العثماني عبد المجيد خان في سنة ١٢٧١ هـ / ١٨٥٤ م أرسل إلي قاسمقام

(١) الشيخ : شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي المصري (مفتي الحرم المكي) المناهل العنبة في اصلاح ما وهي من الكعبة - الورقات ١٤٥ - ١٤٧ مخطوطة بدار الكتب رقم ٢٤٣٤٠ ب مجاميع .

(٢) الاسحاقي - أخيار الأول - ص ١٥٠ .

(٣) ابراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ص ص ٤٨١ ، ٤٨٢ .

جدة بأنه لا يجوز بقاء المكان الذي هبط عليه الوحي خالياً من الزينة ويجب إقامة أعمدة جديدة للمسجد النبوي الشريف محلاة بالمرمر .

وقد عينت الدولة العثمانية علي الفور أميناً لمباني المسجد النبوي الشريف هو حافظ إبراهيم أفندي للإشراف علي هذا العمل ، كما أمر السلطان العثماني بإرسال سفينة الي مصر لتتقل منها مواد البناء ومواد التحلية المطلوبة ، والاتصال بكل من والي مصر ووالي جدة لتسهيل هذا العمل والاهتمام به (١) .

وقد أرسلت وزارة المالية العثمانية إلي الحجاز عن طريق الخزانة العثمانية مبلغاً قدره اثنان وسبعون كيساً من النقود ليصرف منها رواتب عمال البناء العشرين الذين بعثت بهم مصر للعمل في عمارة المسجد النبوي الشريف علي أساس أن يحصل كل عامل مصري علي أجر يومي قدره سبعون قرشاً ، وليصرف منها علي تكاليف شراء وإرسال مواد البناء والتجميل المزمع إرسالها من مصر إلي المدينة المنورة ومنها شراء مائة صندوق من الزجاج (٢) .

ولم تقتصر القوي المصرية العاملة في الحرم النبوي علي العشرين عاملاً السالف ذكرهم ، فقد جاء في وثائق سنة ١٢٧٢ هـ / ١٨٥٦ م أن عدداً كبيراً من العمال المصريين وصلوا إلي المدينة المنورة وأن العمال المصريين بلغوا خمسة وتسعين عاملاً شاركوا بجهود عظيمة في تعمير الحرم المدني الشريف (٣)

(١) دارة الملك عبدالعزيز بالرياض - الوثيقة رقم ٥٤٩٣ من مجموعة الوثائق التركية (٣/م - ٢٨) من السلطان الي القاتمقام - بدون تاريخ .

(٢) دارة الملك عبدالعزيز بالرياض - الوثيقة رقم ٦٩ - من مجموعة الوثائق التركي (٢ / ٣ م - ٦٢) من رئيس الكتاب محمد بك الي الصدارة العظمى - (١٨ من صفر سنة ١٢٧١ هـ) والوثيقة رقم ١٣٥١٠ - من مجموعة الوثائق التركي (٣/٢ - ٣٩) من مجلس الشورى الي الصدارة - (٢٥ من صفر سنة ١٢٧١ هـ) .

(٣) دارة الملك عبدالعزيز بالرياض الوثيقة رقم ٧٠٨ - من مجموعة الوثائق التركية (٣/٢ م - ٦٧) من الدفتر الوارد الي الصدارة بدون تاريخ .

وقد بادر اثنان من أعيان المدينة المنورة وأشرافها هما السيد عمر الجفري ، والسيد أحمد الرفاعي الملازم للحرم النبوي الشريف بإرسال عدة رسائل إلى الصدارة العظمى ووزارة الأوقاف العثمانية وقد شملت هذه الرسائل رؤيتهما وأفكارهما ، ومقترحاتهما حول التغيير المطلوب في شكل وهيئة مباني الحرم النبوي الشريف (١).

كما تراءى لشيخ الحرم وقاضي المدينة اهتبال فرصة وجود العمال والمهندسين الممارين المصريين في تعمير وتجديد قبر عثمان بن عفان رضي الله عنه وطلباً من الأستانة صدور أمر سلطاني بذلك فصدر الأمر السلطاني بأن يتم تعيين مهندس لمعاينة المكان وتقرير اللازم له (٣) .

وقد قام العمال المصريون بواجباتهم خير قيام في مختلف أنواع المهن التي استلزمها تعمير المسجد النبوي الشريف من بناء وتجارة وطلاء ونقاشة وغير ذلك كما ثبت أن هؤلاء العمال بذلوا أقصى جهدهم في ذلك حتي حازوا إعجاب كل المسؤولين العثمانيين والأشراف ، فطلبوا لهؤلاء العمال زيادة في أجر يومياتهم ونظراً لوفاء سبع وسبعين عاملاً منهم وقيام التسعة عشر عاملاً الباقين بعمل الجميع علي خير وجه قرر والي مصر رفع أجر كل عامل منهم عشرين قرشا زيادة علي الأجر الاصلي وقدره ستون قرشا ، الا أن الغلاء والقحط اللذين كانت تعاني منهما المدينة المنورة جعلاً هذا الأجر لا يفي بمصاريف العمال مما اضطرهم الي الاستدانة من الحجاج في موسم الحج ، وعندما علم المسؤولون العثمانيون بذلك أصدروا تعليماتهم الي والي مصر لاعطاء كل عامل من عمال البناء والنقاشة والطلاء ثلاثمائة قرشا واعطاء كل نجار مائتين وخمسين قرشا ، علي أن يتم سداد الأجر اليومي عند عودتهم الي مصر بحيث يتقاضي كل عامل ماهر ستين قرشا ، ويتقاضي كل نجار اربعين قرشا .

وقد التمس العمال بالاضافة الي ما تقدم - السماح - لهم بصرف يوميات السفر ذهاباً وإياباً نظراً لانها غير محسوبة في الأجر (٣) .

(١) دارة الملك عبدالعزيز بالرياض - الوثيق رقم ٤٨١٧١ - من مجموعة الوثائق التركية - (٣/٢) م -

(٤٨) من سيد أحمد الرفاعي وسيد عمر جفري (١٤ من ربيع الأول سنة ١٢٧٢ هـ) .

(٢) دارة الملك عبدالعزيز بالرياض - الوثيقة رقم ٢٦٨٢٢٢ من مجموعة الوثائق التركية (٣/٢) م -

(٤٠) من شيخ الحرم النبوي وقاضي المدينة ورؤساء الأغوات الي الصدارة - بدون تاريخ .

(٣) دارة الملك عبدالعزيز بالرياض - الوثيقة رقم ٧٠٨ من مجموعة الوثائق التركية (٣/٢) م - (٦٧)

من الدفتر دار الصدارة - بدون تاريخ .

كما تقدم العمال بعريضة يلتمسون فيها طلب منحة سلطانية كريمة من السلطان عبد المجيد خان ، وعودتهم الي أعمالهم في أماكن إقامتهم بمصر (١) .

وهناك أمران مشيران للعجب والدهشة وردا في الوثيقتين السابقتين لابد من رصدتهما والتدقيق فيهما :

الامر الاول : ما جاء في الوثيقة الاولى (٢) وهو أنه " لما توفي من هؤلاء العمال ست وسبعون قام التسعة عشر الباقون بعملهم "

ومشار العجب هنا أن عدد المتوفين يعد كبيرا بشكل غير عادي ولا يحدث مثله الا في الكوارث ومع ذلك فلم تذكر الوثيقة لفظ المرض وإنما ذكرت لفظ الوفاة وهو ما يشير الي أنهم توفوا وفاة طبيعية .

والذي أرجحه هو أن هؤلاء العمال قد صادفوا وباء وقع في المدينة فترة إقامتهم فيها فأودي بحياة الكثير منهم حتي أن الخمسة والتسعين عاملا لم يبق منهم إلا تسعة عشر عاملا فقط .

والامر الثاني : ما جاء في الوثيقة الثانية (٣) " من عودة حوالي سبعة وأربعين عاملا مصريا من النقاشين والبنائين والنجارين الي بلادهم "

إذ أن ذلك العدد الذي عاد الي مصر يتعارض مع الباقي من العمال بعد وفاة الستة والسبعين عاملا فالباقي كما جاء في الوثيقة الاولى تسعة عشر عاملا بينما العائدون الي الوطن كما جاء (في الوثيقة الثانية) سبعة وأربعون عاملا .

والذي ترجع عندي هو أن حالات الوفاة عندما زادت وتفشيت في العمال ولم يتبق منهم إلا النذر اليسير بادر والي مصر الحديوي عباس باشا الاول بارسال أعداد أخرى من العمال المصريين لسد النقص الحادث من الوفاة .

(١) دارة الملك عبدالعزيز بالرياض - الوثيقة رقم ٧٠٨/٤ - مجموعة (٣/٢ م - ٧٠) من رئيس

الكتاب الي الصدارة - بدون تاريخ .

(٢) الوثيقة رقم ٧٠٨ - من مجموعة الوثائق التركيه ٣/٢ م - ٦٧ .

(٣) الوثيقة رقم ٧٠٨/٤ - من المجموعة ٣/٢ م - ٧٠ .

ومما يشير العجب عدم تعرض المؤرخين والباحثين لعمارة المسجد النبوي علي الرغم من استغراقها أربع سنوات اللهم إلا بأشارة واحدة مختصرة جاءت في كتاب أحد المؤرخين الحجازيين وقال فيه (١) .

ثم دخلت سنة ١٢٧١ هـ (١٨٥٥ م) وفيها شرع في عمارة المسجد النبوي وكان الذي تولي ذلك السلطان عبد الحميد خان ، واستمرت هذه العمارة نحواً من أربع سنين ولم يقدم بأشارته السابقة سوى معلومة واحدة وهي استمرار عمارة المسجد النبوي أربع سنوات ، واستغراق العمارة هذا الوقت يدل علي أن هذه العمارة قد شملت نواح كثيرة في المسجد ، وأنه تم فيها عمل ضخم وجليل ، كان لابد أن يستحسن هم المؤرخين ويشعز أفكارهم ويجري بالتسجيل أقلامهم .

وبالإضافة الي ما تقدم من جهود مصرية نحو تعميم الحرمين والعناية بهما كانت هناك أدوار أخرى غير منظورة ، وربما أخذت شكلاً هامشياً إلا أنها تؤكد عناية مصر وأهتمامها الدائم بأمر الحجاز العزيز .

فمن أسئلة ذلك :

أنه في سنة ١٢٥٨ هـ / ١٨٤٢ م وأرسل شيخ الحرم النبوي الي السلطان العثماني باحتياج الكتب النفيسة التي في الحرم النبوي الشريف الي ترميمات واصلاحات كما أن هناك بعض الاصلاحات اللازمة للحرم النبوي ذاته .

وعلي الفور بادرت الحكومة العثمانية بارسال ثلاثين صندوقاً بداخلها احتياجات الحرم من جلود ومواد أخرى لترميم الكتب والاثاث وتحقيق الغرض المطلوب ، وقد أرسل ناظر الاوقاف السلطانية الي محمد علي باشا والي مصر بضرورة العناية بتلك الصناديق التي ستصل الي الاسكندرية علي متن سفينة تجارية وحشه علي المبادرة الي ايصال الصناديق الي الحجاز ، واتخاذ ما يلزم نحو إقام هذا العمل الجليل علي أكمل وجه (٢) .

(١) ابراهيم بن عبيد آل عبدالمحسن - تذكرة أولى النهى - ج ١ - ص ١٠٠ .

(٢) دار الوثائق القومية - مرقق الوثيقة رقم ٨٣ - المحفوظة ١٨ بحرياً - من رؤوف الي

بتاريخ (١٩ من شوال سنة ١٢٥٨ هـ) .

ويمكن استنتاج حقيقة حضارية من خلال رسالة ناظر الاوقاف السلطانية العثمانية الي محمد علي التي تضمنت التأكيد علي (محمد علي) باتخاذ اللازم لاتمام هذا العمل وهي أنه يتعين علي (محمد علي) إرسال المجلدين المهرة المصريين الي الحجاز بصحبة صناديق المهمات اللازمة مما يؤكد هذا الاستنتاج أن التأثير المصري في فن تجليد الكتب يظهر بوضوح في التجليد العثماني للكتب في هذا العصر وأن ارتفاع فن تجليد العثماني قد جاء نتيجة لارسال السلطان العثماني سليم الاول المجلدين المصريين اللذين برعوا في هذا المجال إلي اسلا مبول (١).

هذا بالاضافة إلي أن رسالة الاوقاف لم يظهر فيها أية اشارة عن مصاحبة فنيين عثمانيين للقيام بعمل التجليد لتلك الكتب النفيسة (٢) ، كما أن الحجاز لم يكن به من يقوم بهذا العمل فكان لابد من إرسال الفنيين المصريين (٣).

ومن الامثلة التاريخية الدالة علي العناية المصرية بتجميل المدينة ما حدث في سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨١م عندما أراد السلطان العثماني - عبد الحميد الثاني إنشاء حديقة جميلة حول مقام السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها وأرسل السلطان الأزهار المراد غرسها من الاستانة إلي المدينة .

لأنها لم تثبت هناك لاختلاف تربة الاستانة ومناخها عن تربة المدينة المنورة ومناخها لذا فقد اقترح الفنيون الزراعيون إحضار الأزهار من مصر حيث يمكن أن تثبت في تربة المدينة (٤) المتورة ، ولذلك فقد صدرت الأوامر العثمانية إلي الادارة المصرية بإرسال الأزهار المطلوبة إلي المدينة المنورة ، وقد بادرت مصر إلي إرسالها .

(١) د/ ربيع حامد خليفة - فنون القاهرة في العهد العثماني (١٥١٧ - ١٨٠٥) ص ٢١ .

(٢) انظر : الوثيقة السابقة .

(٣) وصل عدد المجلدين في مصر في العهد العثماني سنة ١٦٧٢م الي ١٥٠ مجلدا للكتب . انظر د/ ربيع حامد خليفة فنون القاهرة في العهد العثماني - ص ٢٣ .

(٤) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٢/٢١ - محفظة ١٦٤ - ملك ثابت باشا - بتاريخ (٢٠ من صفر سنة

الإصلاحات فى ميناء جدة :

ساهمت مصر بدور بارز فى عملية إعداد ميناء جدة لاستقبال البواخر التى تنفذ اليه فى شتى البقاع خاصة من الموانئ المصرية .

فتدلا حظت الحكومة المصرية فى سنة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م أن ميناء جدة غير ملائم لرسو واستقبال السفن إذ كانت السفن تجد صعوبة شديدة فى دخول الميناء نظراً لضيقه ، وقد عانت سفن الشركة العزيزية فى أثناء شحن البضائع وتفريغها كثيراً من المصاعب البحرية عند الرسو على رصيف ميناء جدة أو الاقلاع منه .

هذا بالإضافة الى اقتتار ميناء جدة الى منار يساعد على إرشاد السفن مع خطورة ولوج السفن فيه ، وذلك لكثرة الصخور والتتروات الظاهرة والمستترة تحت سطح الماء .

من أجل ذلك إستأذنت الحكومة المصرية الحكومة العثمانية فى عمل عدة إصلاحات وتوسعات فى هذا الميناء وفى بناء مرساة علي نفقتها الخاصة ، فلما أذنت لها الدولة بذلك نشطت الحكومة المصرية فى إرسال العمال والمهندسين المصريين المتخصصين فى مثل هذه الأعمال ، كما بادرت مصر بإخطار والى الحجاز ليتخذ اللازم نحو تيسير الأعمال المنوطة بهؤلاء العمال والمهندسين فى ميناء جدة (١)

ثالثاً : الدعم المصرى للقلاع والموانئ المصرية الحجازية

اهتمت الادارة المصرية بأمر القلاع الحجازية على طول الطريق المشترك بين مصر والحجاز لحماية أمن الحجاج وقافلة المحمل التى ترتاد هذا الطريق .

وقد اتفقت الحكومتان المصرية والعثمانية على أن تكون الاتفاقات على إصلاح تلك القلاع وتحصينها أمراً مشتركاً بين الدولتين يسد من أموال الخزانة المصرية والتركية على أن يكون التنفيذ مصرياً .

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٣٤٩ - دفتر رقم ٢٢ عابدين - إلى والى الحجاز - بتاريخ (٥ من رمضان

وأعظم القلاع التى حظيت بالاصلاحات والتعصينات المصرية هى قلاع العقبة والمويطح وضياء
والوجه ذلك حتى سنة ١٣٠١ هـ / ١٨٨٤ م حينما استحوذ العثمانيون على قلعتى العقبة والوجه ثم
ألحقوها بإمارة مكة (١) .

وقد انصرفت الجهود المصرية فى تلك الحقبة الى رعاية وترميم القلاع الحجازية بشكل ملحوظ وفى
عهد محمد سعيد باشا سنة ١٢٧٥ هـ / ١٨٥٨ م برزت حاجة القلاع الحجازية إلى الترميم والتعمير ،
فصدرت الأوامر من الحكومة المصرية إلى المهندسين الخبراء بعمل الدراسات والمقاييس اللازمة وقد
أوضحت هذه الدراسات أن تكاليف هذه الاصلاحات والانشاءات تقدر بمبلغ ألف وثلاثمائة وثمانية
أكياس (٢) ومائتين وستين قرشا .

وعلى اثر ذلك تم تجهيز الأدوات والمعدات اللازمة لتعمير تلك القلاع واصلاحها إلا أن والى مصر
محمد سعيد باشا صرف النظر عن تلك العمارة وأصدر أوامره بوقف هذا العمل وتأجيله .

وفى بداية عهد إسماعيل باشا سنة ١٢٨٠ هـ / ١٨٦٣ م أعيد النظر فى موضوع عمارة تلك القلاع
الحجازية المشار إليها ، وكان الخراب قد ظهر فيها بشكل سافر نتيجة لإهمال والى المصرى محمد سعيد
باشا لشأنها حتى أن المختصين بشئون القلاع أعلنوا خشيتهم على تلك القلاع من الهدم ، من أجل ذلك
التمست نظارة المالية المصرية زيادة الاعتمادات المالية المخصصة لتلك القلاع بحيث يرتفع مقدارها على
ماحدد فى سنة ١٢٧٥ هـ / ١٨٥٨ م نظراً لاتساع الخرق ، واحتياج القلاع إلى ترميمات واصلاحات
غير قليلة .

فصدرت أوامر الخديوي إسماعيل بالبدء فوراً فى تعمير واصلاح تلك القلاع مع الاستعانة بتلك
الأدوات والمعدات التى سبق تجهيزها لهذا الغرض ، ونفس الاعتمادات المالية الأولى إلى أن يظهر مدى
احتياج تلك القلاع لمخصصات أو اعتمادات أكثر فيتم حينئذ تداركها ، وقد تضمنت تعليمات الخديوي

(١) أحمد السباعى - تاريخ مكة - ص ص ٤٦٣ ، ٤٦٤

(٢) الكنيسة حافظة نقود كانت تساوى خمسمائة قرش أى خمس جنيهات مصرية انظر : هيلين آن ريفلين - الاقتصاد

والادارة فى مصر - ص ٤٣٢ .

اسماعيل أن يتم سفر العمال والمهندسين فوراً دون تأخير الي مواقع عملهم في مناطق القلاع (١)
السالف ذكرها .

وقد كانت العناية بتلك القلاع تابعة لعناية مصر بشكل عام بسواحل البحر الاحمر وموانيه وقلاعه
والعناية بأمر الحجاز والطرق المؤدية اليه ، فأنشأت مصر بتلك الثغور فئارات لتساعد علي هداية السفن
المصرية التابعة للقومبانية العززية وغيرها من سفن الدول الأخرى إلي مواني تلك الثغور ، ثم دعمت
هذه الفئارات وفرضت لها الأنظمة الإدارية والمالية لتنميتها والحفاظ عليها .

ومن هذه الفئارات التي تقع في الطريق الساحلي بين السويس والمواني الحجازية فئار رأس
الزعفران ، وفئار زنوبيا ، وفئار رأس غريب .

ففي شهر المحرم سنة ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م أصدرت الحكومة المصرية أمراً الي محافظ مصر
بتعيين معاون وبعض الحراس لاستلام وحراسة الفئار الموجود بمنطقة رأس الزعفران بجهة السويس وما
يتبعه من منشآت حتي تتم الاستعدادات لإدارته وألزمت المحافظة بقيد استحقاقات هؤلاء المعينين بديوان
المحافظة للصرف (٢) من خزائنه .

كما ابتاعت الحكومة المصرية في المحرم سنة ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م فئار زنوبيا الذي كان تابعاً
للقومبانية العززية بجميع لوازمه بمبلغ وقدره أربعمائة جنيه (٣) .

(١) دار الوثائق القومية - الأمر الكريم رقم ١٧ - صفحة ٣٣ - الدفتر رقم ١٩٠٧ أوامر كرام - بتاريخ)
٧ من جمادى الأولى سنة ١٢٨٠ هـ (.

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٩٥ - صفحة ١٨٣ - الدفتر ١٨٩٤ أوامر أمر إلى محافظ
مصر - (٨ من محرم سنة ١٢٧٧ هـ) .

(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ١٦٥ - صفحة ١٦٢ - دفتر ١٩٣٥ أوامر أمر إلى الداخلية
- (٢٧ من المحرم سنة ١٢٨٨ هـ) .

كذلك قامت الحكومة المصرية بتركيب فئار برأسه في ١٠ / ١٢ / ١٨٧٥ م وقد تولي تركيبه أحد المهندسين الأجانب إندي يدعي بركار ، فلما انتهى من تركيبه صرحت له الحكومة المصرية مبلغاً قدره ١٧٧٨٦ فرنكاً فرنسياً نظير قيامه بتركيب هذا الفئار بعد موافقة المجلس الخصوصي عليه (١) .

أما ميناء الوجه - الواقع في شمال الحجاز - فقد قامت الحكومة المصرية بعمل المقايسة الخاصة بإنشاء فئار ثابت له (٢) .

وفي سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م تم تركيب هذا الفئار وهو في شرقي ساحل مدخل ثغر الوجه وقد امتاز هذا الفئار بلونه الأبيض الناصع البياض وبلغ ارتفاعه من سطح البحر إلى ذروته ١٠٦ أقدام إنجليزية ، ووصلت أضواؤه إلى بعد بحري قدره أربعة عشر ميلاً .

وتقرر أن تقوم إدارة الفئارات المصرية بتحصيل العوائد الرسمية وقدرها عشرون نصفاً من الفضة عن كل ترناطة من حمولة كل سفينة تدخل ميناء الوجه ابتداءً من سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م ، وتم تبليغ قناصل الدول التي لها سفن في البحر الأحمر لتقوم سفنها بدفع هذه العوائد المقررة كلما رست في هذا الميناء (٣) .

وما يثير العجب هذا الفرق الشاسع بين تحديد عوائد سنة ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م وتحديد عوائد سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م علي السفن في ميناء الوجه فبينما حددت الحكومة المصرية أربعة قروش وخمسة وثلاثين فضة عن كل ترناطة في حمولة كل سفينة سنة ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م (٤) نجد أنها قد حددت

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٢٣٢ - صفحة ١٦٤ - دفتر رقم ٧٨ - المجلس الخصوصي (من المجلس الخصوصي الى المعية بدون تاريخ) .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٤ - ص ٦٥ - الدفتر ٤١ المجلس الخصوصي (من المجلس الخصوصي بختم سعادة المستشار الى قلم الأشغال بالجهاديه بدون تاريخ) .

(٣) الوقائع المصرية - العدد رقم ٦٠٤ - (١٩ من ربيع الأول سنة ١٢٩٢ هـ / ٢٤ من إبريل سنة ١٨٧٥ م) .

(٤) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٨٠ - ص ٧٨ - دفتر ٧٤ - المجلس الخصوصي (١٩ من ربيع الأول سنة ١٢٨٥ هـ) .

عشرين نصف فضة عن كل ترناطة في حمولة كل سفينة سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م عن السفن التي تنتفع بفنار ميناء الوجه أي أن الخفض في العوائد وصل في هذه السنة إلى أربعة قروش وخمسة عشرة فضة عن كل ترناطة ، وهو خفض كبير جداً ، وغير معقول ربما بدفعنا إلى القول بأن التحديد الذي استمر فيما يبدو - سبع سنوات قد تم بشكل عشوائي دون دراسة وتدقيق مما دفع السفن المارة على نهر الوجه إلى التعظم والشكوى فعدل عن هذه العوائد لتصل إلى هذا الحد .

وهناك احتمال آخر يرقى إلى درجة الترجيح ، وهو أن العوائد التي فرضت في سنة ١٢٨٥ هـ وهي أربعة قروش وخمسة وثلاثون فضة إما هي على السفن التي تستفيد بفنارات البحر الاحمر بشكل عام ، أما عوائد سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م وهي عشرون نصف فضة) فهي خاصة بالسفن التي تستفيد بفنار الوجه ومينائه فقط فإذا عرجت هذه السفن على الموانئ الأخرى فإنها تصبح ملزمة بدفع العوائد كلها وقدرها أربعة قروش وخمسة وخمسون فضة ربما لأن فنار الوجه كانت له تكاليف أكثر فزيد بذلك عائدته على العائد الأصلي (١) .

وجدير بالذكر أن هذه الفنارات كانت تنقلب بتبعيتها بين الحين والآخر بين المصالح والادارات المصرية المختلفة ، خاصة بعد ازدياد عدد الفنارات المصرية على ساحلي البحر الاحمر بدخول مناطق جديدة من سواحل البحر الاحمر الغربية تحت السيطرة المصرية . ولذلك فقد صدرت الاوامر الداخلية بضرورة الاطلاع على النظم السائدة في إدارة سواحل الدول الاوربية حتي يتم انتقاء أفضل الطرق والسبل المناسبة التي تصلح لتطبيقها على الفنارات المصرية الحجازية الكائنة على ساحل البحر الاحمر والتي أصبحت تابعة للحكومة المصرية (٢) .

وقد بدأت التنظيمات الادارية المصرية للفنارات بشراء الحكومة المصرية كل الفنارات التي كانت تحت إدارة القومانية العريضة لتتولي الحكومة بدورها إدارة أشغال تلك الفنارات (٣) .

(١) دفعني إلى هذا الترجيح أن الوثيقة التي اعتمدت عليها في تحديد عوائد سنة ١٢٨٥ هـ كانت تتحدث عن عوائد فنارات البحر الاحمر ، بينما تحدثت الوثيقة الخاصة بسنة ١٢٩٢ هـ عن عوائد فنار الوجه .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ١ - صفحة ٢٧ - الدفتر ١٩٠٧ أوامر - أمر إلى ديوان الخارجية - (٢٤ من ربيع الثاني سنة ١٢٨٠ هـ) .

(٣) دار الوثائق القومية رقم ١٦ - ص ٥١ - الدفتر ١٩٠٤ أوامر - أمر إلى محافظ السويس - ١٢ من محرم سنة ١٢٨٠ هـ .

وبازدياد عدد الفئارات التابعة لمصر أصدرت الحكومة المصرية أمرا بتكوين إدارة خاصة سميت باسم (مصلحة الفئارات والليمانات) (١) وعهد بإدارتها الي ماكيلوب بك (٢) الذي كان احد ضباط البحرية الانجليزية ، كما كان ناظرا للمدرسة البحرية بالاسكندرية قبل أن يتم تعيينه في وظيفة مدير مصلحة الفئارات والليمانات (٣) وبعدها فصلت مصلحة الفئارات عن مصلحة الليمانات (المواني) وأصبحت كل منهما مصلحة مستقلة وقائمة بذاتها - بناء علي اقتراح ماكيلوب بك الذي تولي إدارة المصلحتين معا علي الرغم من انفصال كل منهما عن الاخرى - وأصبح ماكيلوب بك رئيس عموم مصلحتي الليمانات والفئارات المصرية (٤) .

وفي سنة ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م قدم ماكيلوب بك اقتراحا للحكومة المصرية بجعل كل مصلحة من المصالح الثلاثة التي بدأت تتضارب اختصاصاتها وهي الليمانات ، والفئارات ، والجمارك وحدة مستقلة عن الاخرى فوافقت الحكومة علي اقتراحه (٥) .

ومع ذلك ففي سنة ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م ظهرت مشاكل بين المصالح الثلاثة وتضاربت بينهم الاختصاصات فصدرت الاوامر بتحديد اختصاص كل مصلحة وفصلها علي حدة والتزام كل مصلحة بما

(١) المقصود بالليمانات هنا المواني .

(٢) كان ماكيلوب بك ضابطا برتبة كابتن في البحرية البريطانية .

(٣) أنظر : بيركرابيتس - اسماعيل المفتري عليه - ترجمة فؤاد صروف - دار النشر الحديث - ١٩٣٧م - ص ١٠٥ .
(٤) وفي الوقت الذي تم تعيين ماكيلوب بك الانجليزي فيه لرئاسة المصلحتين عينت الحكومة المصرية انجليزيا آخر هو المسترجسى ملاحظا لفئارات البحر الأحمر برتب سنوى قدره مائة جنيه .

أنظر / دار الوثائق القومية - الوثيقة التركية رقم ١٣ - ص ٥٣ - الدفتر ٥٤٩ معية تركي - من المعية الى الخارجية (١٢ من جمادى الأولى سنة ١٢٨١هـ) .

(٤) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٣٠٥ - ص ٥٨ - الدفتر رقم ١٨ مجلس خصوص من المجلس الخصوصى إلى ديوان الداخلية - (٦ من جمادى الأولى سنة ١٢٩٠هـ) .

(٥) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ١٠٥ - صفحہ ٥٩ - الدفتر ١٩٤٧ أوامر أمر إلى المالية

(٤ من المحرم سنة ١٢٩١هـ) .

يعنيها فقط . وبهذا النظام الجديد تم تخصيص السواحل التي تشرف عليها مصلحتا الليمانات والفنارات ، وتخصيص السواحل التي تشرف عليها مصلحة الجمارك (١) .

وفي سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م أضيفت الي مصلحة الليمانات والفنارات مصلحة أخرى تم انشائها حديثا بناء علي اقتراح ماكيلوب بك مدير مصلحة الليمانات والفنارات وهذه المصلحة هي مصلحة خفر السواحل ، وتم ترتيب مصاريف ومرتبات الموظفين بهذه المصلحة الجديدة (٢) .

أما بخصوص تشغيل الفنارات الساحلية علي مواني البحر الاحمر فقد كان تشغيلها يتم بزييت يسمى (زييت كلزه) ، وكان المتبع كل عام أن يتم طرح مناقصة عامة تنشر أخبارها في الصحف والوقائع المصرية عن توريد الكميات اللازمة لاثارة هذه الفنارات ، ومن يفوز بالمناقصة يتم الكشف علي الزيت الذي عرضه ويتم تجريته قبل استلامه حتي يكون مطابقا للمواصفات المطلوبة (٣) .

وقد عيّنت الادارة المصرية بتعريف طلبة المدارس البحرية بشغور وسواحل البحر الاحمر ، وخاصة تلك الشغور المؤدية الي بلاد الحجاز علي هذا البحر .

تضمنت مناهج دراستهم النظرية والعملية جمع المعلومات المتعلقة بهذه الشغور .

ففي سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م شمل برنامج دراسات طلبة المدارس البحرية زيارتهم لمواني الطور وجزيرة شدوان ، والمويلح ، والوجه والقصير وينبع وجده وغيرها وقد استقل هؤلاء الطلبة باخرة الصاعقة ، واتجهوا بها الي المواني لدراساتها علي الطبيعة دراسة ميدانية تعد جزءا من منهجهم العلمي والعملية المقرر عليهم (٤) .

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٣٢٠ - صفحة ٦٣ - الدفتر ٥ معية عربى من سعادة مهر دار خديوى الى الخقانية والتجارة - (١٦ من جمادى الأولى سنة ١٢٩٢ هـ) .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٨٠ - صفحة ٦٨ - الدفتر ١١ معية عربى من سردار خديوى (عابدين) الى المالية - (٢٨ من ذى الحجة سنة ١٢٩٢ هـ) .

(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٣٥ - صفحة ٧ - الدفتر رقم ٥ المجلس الخصوصى - (١٣ من المحرم سنة ١٢٨٩ هـ) .

(٤) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ١٧ - المحفظه ٥٢ معية تركى ، جدول يتضمن أسماء البلاد والأماكن المقتضى التوجه اليها بوابر الصاعقة لأجل سياحة تلامذة المدرسة البحرية - (١٣ من المحرم سنة ١٢٩٢ هـ) .

رابعاً : محاولة مصر انشاء سكك حديدية في الحجاز :

ظهرت في أواخر سنة ١٢٨٣هـ ، وأوائل سنة ١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م فكرة مد خط حديدي من جدة الي مكة .

وقد كانت الشركة العزيزية المصرية تتمتع بإمكانات ضخمة تؤهلها للقيام بمثل هذه المشروعات ، لهذا تقدمت بالتماس الي الخديوي عن طريق القبروكتخذاً لمنحها هذا الامتياز فرفع الخديوي التماسها الي الباب العالي ، وقد تمت مناقشة هذا الموضوع في الباب العالي وتداولت بشأنه الآراء التي انتهت بابداء بعض المحذورات ورفض منح الامتياز للشركة العزيزية في الوقت الذي وافق فيه الباب العالي علي منح شركة المجليزية امتياز قديد هذا الخط .

وعقب ذلك نشرت جريدة الحوادث العثمانية الصادرة في شهر المحرم سنة ١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م بأنه قد تكونت شركة المجليزية بغرض مد خط حديدي بين جدة ومكة .

وقد استشاط الخديوي اسماعيل غضبا عند سماعه هذا الخبر ، وكتب الي الاستانة علي الفور ، متعجبا من عدم الامتياز للشركة العزيزية التي تحمل العلم العثماني وتساءل أيضاً هل عدم منحها الامتياز كونها شركة اسلامية ، وقد طلب الخديوي من القبروكتخذ أن يتحري الحقيقة في هذا الموضوع ويحيط بجميع جوانبه في الاستانة ويبرق له علي وجه السرعة حتي تتمكن مصر من التصرف في الوقت المناسب .

ومع ذلك لم ير هذا المشروع النور في ذلك الوقت ، ولم تنفذه الشركة المجليزية مما يدل علي أن هناك تياراً قوياً مناوئاً للخديوي اسماعيل في دار الخلافة العثمانية وتياراً قوياً مناوئاً للمجليز أيضاً ، فعلي الرغم من أن الخديوي نجح في حجب هذا المشروع عن الشركة عندما احتج بحجته القوية فإنه لم ينجح في إسناد هذا المشروع الي الشركة العزيزية المصرية (١) .

(١) دار الوثائق القومية - وثيق رقم ٤٥ - سجل ٢٤ عابدين - إلي القبروكتخذ (١٦) من المحرم سنة

كما ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي فكرة المجلزية أقيمت عليها بعض الدراسات لد سكك حديدية بين السويس والهند عبر أراضي الحجاز ، وذلك فيما يبدو لربط أهم مستعمرات لإمجلترا في الشرق وهي مصر وعدن والهند مع ما يصاحب ذلك من إحكام قبضة إنجلترا علي مستعمراتها في الشرق ، وتسهيل انتقال قواتها ومصالحها الإقتصادية بينها وبين رأس الإمبراطورية في الجزر البريطانية نفسها .

إلا أن هذا المشروع قد اعترضته بعض العقبات التي كانت علي رأسها صعوبة اختراق الخط الحديدي لبلاد الحجاز التي يسكنها قبائل عنيفة صعبة المراس قد جبلت علي التمرد بما يخشى منه علي سلامة وأمن الخط الحديدي بالإضافة إلي مصاعب أخرى خاصة بمرور الخط علي بلاد عديدة يصعب الاتفاق معها كاليمن ، وكذلك كانت هناك معارضة روسية شديدة للمشروع ، مما اضطر إنجلترا إلي صرف النظر عنه (١) .

خامسا : جهود مصر في تنمية الموارد المائية في الحجاز :

كان لمصر مشاركة إيجابية جادة في تذليل مشكلة المياه التي كان الحجاز يعاني منها طوال عهده المختلفة حتي أوائل القرن العشرين (٢) .

وفي العصر الحديث ، وعلي وجه التحديد في سنة ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٦ م عني محمد علي باشا باصلاح وترميم القنوات التي كانت تجري فيها المياه الي مكة بعد أن خربتها السيول فأرسل لها عمالا ومهندسين عمروها ، وأجروا فيها الماء بعدما انقطع عن مكة فترة من الزمن .

(١) جريدة الأخبار - العدد ١٢٥ - السنه الأولى بتاريخ ٢ من شعبان سنة ١٣١٤ هـ ٥ من يناير ١٨٩٧ .

(٢) يبدو أن الاهتمام المصري بأمر احتياجات الحجاز من المياه قديم جدا حيث تحدثنا المصادر عن كثير من

المشاركات المصرية في هذا المجال الحيوي ومثال ذلك : اهتمام السلطان المصري قانصوه الغوري في أوائل

القرن العاشر الهجري بمعالجة مشكلة نقص المياه في جدة ، فلقد أمر الغوري بجلب المياه اليها من عين تقع

في وادي قوص شمال الرغامه ، شرقي جده الجنوبي ، عبر قنوات موصولة وذلك بعد دراسات واسعة

عن أفضل السبل لجلب تلك المياه وقد أنفق في ذلك أموالا طائلة .

أنظر : عبدالقدوس الأنصاري - تاريخ العين العزيزة - جدة - ص ٤٥ .

كما كان لمصر مشاركة قوية في اصلاح عيون المياه الحجازية ففي سنة ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨ م تم تشكيل لجنة لجمع المعونات من جميع البلدان الاسلامية ، وعلى وجه الخصوص مصر والهند لاتفاقها علي اصلاح عيون المياه التي قد مكة باحتياجاتها .

وقد تمكنت اللجنة من عمل دراسات علي كيفية الاصلاح ، وقامت بجمع أموال كثيرة ساهمت فيها مصر بخمسة وعشرين ألف جنيه تم ارسالها الي اللجنة مع أحد معاوني الداخلية يرافقه أحد المهندسين لمباشرة أعمال العمارة الجارية في عيون المياه التي تستمد منها مكة المكرمة (١) حاجاتها .

وقد كانت المياه التي يستعملها الحجاج والأهالي في مدينة ينبع الحجازية ملوثة وغير صالحة للشرب ، وهذا مادعا الحكومة المصرية إلي تكليف أحد أطباء مجلس الصحة بالاسكندرية في ذي الحجة لفحص هذه المياه وكتابة تقرير عنها .

ولقد أشار الطبيب في هذا التقرير إلي ندرة المياه الصالحة للشرب في الحجاز بشكل عام ، وطلب في تقريره بشدح الهم لتنقية المياه ونظافتها حتي تصلح لاستخدام الاهالي والحجاج في ينبع (٢) .

وقد ابتكر ابراهيم رفعت - أمير الحج المصري - في سنة ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٢ م تقليداً جديداً وعملأ خيراً حول المياه ، وهوانشاء مستقي خيري .

فقد لاحظ ابراهيم رفعت ابان حجه في سنة ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٢ م أن هناك فقراء أو رؤساء من الحجاج على جوانب الطرق انقطعت بهم السبل ، بعضهم كان يحج مشياً على الأقدام ، والبعض الآخر كان يتعرض لفقد ماله ومتاعه ، فتألم إبراهيم رفعت لهؤلاء ، وخطب بشأنهم الخديوي عباس حلمي الثاني الذي أصدر أمراً في ٦ من شوال سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م ٢٦ من ديسمبر سنة ١٩٠٣ م الي مدير الأوقاف بعمل مستقي خيري يرافق المحمل ، ويشتمل على الماء للشرب ، بالإضافة الي البقسماط للزاد ،

(١) ابراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيق رقم ٣٩١ - السجل رقم ٢٤ عابدين - إلى قائمقام ينبع - في ٢٥ من

كما تم صرف مبلغ مائتى جنية خصص منها مائة وخمسون جنيها للسقى الخيرى وخمسون جنيها لشراء سجادات تفرش للصلاة فى المسجد الحرام (١) .

ولم تقتصر مجهودات مصر فى تنمية الموارد المائية فى الحجاز على الحرمين الشريفين وإنما شملت حل مشاكل المياه فى مدن الحجاز المختلفة ، مثال: أنه فى سنة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨١ م استحكمت مشكلة المياه فى مدينة الوجه بشمال الحجاز فأصبحت المياه الصالحة للشرب فيها نادرة وقد دفع هذا الموقف الحكومة المصرية إلى إرسال ماكينة تقام فى ميناء الوجه لتقطير وتصلية مياه البحر ، وتحويلها إلى ماء عذب يصلح للشرب ولما لم تكف تلك الماكينة (٢) حاجات أهل الوجه بادرت الحكومة المصرية بإرسال ماكينتين أخريين إلى الوجه وصار يشقر الوجه وحده ثلاث ماكينات لتقطير المياه هى : ديب البحر - الزقازيق - الطور (٣) .

الجهود المصرية فى ميدان الرعاية الصحية :

ظلت منطقة الحجاز تعاني من آثار تفشي الوبئة بها طوال القرون الماضية ولا يكاد يمر عام دون حدوث وفيات عديدة بين الحجاج من مختلف الجنسيات ومن الحجازيين كذلك .

ويرجع هذا إلى أسباب عديدة أبرزها ما يلي :

أولاً : اختلاط أجناس الأمم المختلفة بأعداد كثيرة وتزاحمهم فى الأماكن المقدسة كان يؤدي كل عام إلى نقل العدوى من المريض إلى السليم فبفتشي المرض وتنتشر الوبئة .

(١) ابراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ط ١ - ص ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٢) كان أقصى انتاج تستطيع الماكينة الواحدة تقطيره وتصفيته من المياه ثلاثمائة طن تقريباً فى اليوم الواحد .

أنظر : عبدالقدوس الانصارى - تاريخ العين العزيزة - ص ٤٩ .

(٣) الوقائع المصرية - العدد ١٢٨٦ - السنة الحادية والخمسون - بتاريخ ٢٨ من المحرم سنة ١٢٩٩ هـ /

٢٠ من ديسمبر سنة ١٨٨١ م .

وانظر بالوقائع المصرية - العدد ١٢٩١ - السنة الحادية والخمسون بتاريخ ٥ من صفر سنة ١٢٩٩ هـ

/ ٢٦ من ديسمبر سنة ١٨٨١ م .

ثانياً: ذبح الاضاحي بأعداد كبيرة وتركها في العراء أو ترك فضلاتها يئني حتي تتعفن وتتولى الرياح نقل الميكروب الي الحجاج وأهالي الحجاز

ثالثاً: وخامة الجوفي مكة وجدة (١) ووجود مستنقعات مائية متخلقة عن الامطار تتكاثر فيها الحشرات والميكروبات.

رابعاً : قلة مصادر المياه في منطقة الحجاز ، وندرة الحصول على المياه مما قلل من فرصة النظافة بشكل عام ، واضطرار الحجاج إزاء ذلك الى الشرب من المستنقعات التي لا تصلح للشرب الأدمى، أو من الصهاريج التي لا تظهر فيها الاعتناء بجوانب النظافة أو الناحية الصحية .

خامساً : استغلال بعض العربان لمصادر المياه على الطرق الموصلة الى الاماكن المقدسة بحثاً عن مقابل فاحش لإمداد الحجاج بالمياه .

وقد عملت الحكومة المصرية جاهدة على درء هذا الخطر الذي يهدد أمن البلاد من الناحية الصحية كل عام في فترة الحج ، وفي غيرها طوال العام .

فقد عيّنت الادارة المصرية عناية بالغة بأمر الحجر الصحي (الكورتينية) على مرانيء الوصول المصرية وبخاصة السويس والقنصر .

ففي سنة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م إنتشرت الأخبار المرجفة بتفشى وباء الكوليرا في كل من جدة ومصر ، وعلى الفور قرر (كلوجي بك) رئيس مجلس الصحة في مصر إيفاد طبيين أحدهما الى جدة والآخر الى مصر للبحث عن حقيقة ما يشاع عن تفشى هذا المرض .

وكاجراء وقائي أيضا تقرر وضع حجر صحي لمدة عشرة أيام علي البواخر والسفن من جهتي جدة ومصر الي السويس والقنصر حين ورود تقرير من الطبيين الموفدين وكفي الوقت نفسه اجريت الحكومة

(١) ذكر أحد المعاصرين أن هواء جدة تكثر به الرطوبة التي تصاحب ارتفاع درجة الحرارة ، مما يؤدي إلى توقع مزاج النازل فيها ، ويسبب اضطراب أعصابه ويقلل من همته ونشاطه حيث أن هواء جدة غير صالح للإقامة ولا سيما إذا أضيف إلى ذلك قذارة الأكل ورداءة المشرب .

أنظر : عبدالعزيز صبرى بك - تذكارات الحجاز ص ٦٢ .

المصرية تحريات واسعة واتصالات مكثفة للاطمئنان علي الحالة الصحية في تلك المناطق التي ذاع أن الوباء داهمها فجاءت التأكيدات بعدم وجود أي نوع من الأوبئة وأن الحالة الصحية في جميع تلك المناطق علي ما يرام (١)

ما إن وصلت تقارير الطبيين المصريين مطابقة لتقارير أطباء البلدان ويعرضها علي الجمعية العمومية لمجلس الصحة في مصر تقرر عدم فرض الحجر الصحي علي السفن التي تأتي من مصوع فأرسلت الأوامر بذلك الي كل من محافظة السويس والي مديرية قنا التي يتبعها ميناء القصير (٢)

ومع ذلك فقد عرض علي مجلس الصحة لمصري في ٢١ من رجب سنة ١٢٨٢ / ١٨٦٥ م مسألة ما إذا وردت شائعات أخرى عن تفشي الوباء مرة ثانية هل يعاد عمل الحجر الصحي أم لا ؟ مع العلم بأن الحجر الصحي يتسبب في تعطيل حركة التجارة والسياحة وسيؤدي الي بقاء البلاد في حالة من الخوف والرهبة بصفة مستمرة وقد يحدث كل هذا بدون مبرر .

كما عرض علي المجلس في نفس اليوم إجراءات أخرى يمكن إحلالها محل الحجر الصحي وقهوي هذه الإجراءات هي تكليف طبيب بالعمل في جدة بشرط أن يكون أحدهما من أولاد العرب (٣) ليتسنى له دخول مكة والمدينة وكتابة التقارير الصحية عنها .

(١) دار الوثائق القومية رقم ٣٦ - ص ٤٩ - الدفتر رقم ٥٥٧ معية تركي الي : ناظر الداخلية - بتاريخ

(٢١ من رجب سنة ١٢٨٢ هـ .)

(٢) دار الوثائق القومية - التلغراف العربي ١٢٦٦ - الدفتر رقم ١ عابدين - وارد تلغرافات - من مجلس

الصحة إلى سعادة رياض باشا - بتاريخ (١١ من شعبان سنة ١٢٨٢ هـ) .

(٣) كان الفرض من اشتراط أن يكون أحد الطبيين عربيا أنه سيتعين علي أحدهما الذهاب من جدة إلى كل من

مكة والمدينة للاطمئنان علي الحالة الصحية بهما وكتابة التقارير عنهما ، لأنه لا يسمح لغير المسلم بالدخول

الي المدينتين كما جاء في الوثيقة الآتية ذكرها .

أنظر : دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٣٦ - ص ٤٩ - الدفتر رقم ٥٥٧ معية تركي - إلى

ناظر الداخلية بتاريخ (٢١ من رجب سنة ١٢٨٢ هـ) .

وبالإضافة الى ما تقدم فقد صدرت التعليمات المصرية أيضا بتكليف ثلاثة أطباء معتمدين للعمل في ينبع ، وسواكن ، ومصوع ، وقد أمر هؤلاء الأطباء بأن يبقوا في أماكن أعمالهم بصفة مستديرة ، كما أسند اليهم بالإضافة الى أعمالهم الصحية منح تصاريح المرور للبواخر والسفن التي ترد الى تلك الموانئ السالف ذكرها .

وقد تقرر أنه في حالة حضور سفينة أو باخرة الى السويس أو القصير لا تحمل مثل هذا التصريح يطبق عليها اجراء الحجر الصحي .

وقد أمر هؤلاء الأطباء بدوام التقصي عن حقيقة الأحوال الصحية في جهات إقامتهم لتكوير اليهم معرفة تامة بها ، وليقدموا عنها كل أسبوع تقريراً وافياً الى مجلس الصحة بمصر (١) .

غير أنه في العام التالي سنة ٢١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م صدرت الأوامر من الادارة المصرية بمجمل الحجر الصحي ، وتقرر حجز القادمين الى مصر والعائدين اليها من الحجاز عن طريق منطقة عيون موسى للكشف عليهم من قبل القومسيون الطبي الموجود هناك .

أما القادمون من الحجاز الى مصر عبر الطريق البري فكان يتم الكشف عليهم في منطقة الوحة الواقعة في شمال الحجاز ولا يعبر منطقتي الحجر الصحي السالف ذكرهما - أي مسافر- قبل الاطمئنان علي حالته الصحية (٢)

ومما يجدر ذكره أن الحجر كان لا يطبق إلا على من يظهر بينهم حالات مرضية أما الاصحاء فتد كان يفرج عنهم بعد اتمام الكشف عليهم ، والتأكد من خلوهم من الامراض .

كما كانت اجراءات الحجر الصحي تصدرها أوامر عندما يتفشي الوباء فقط في الاراضي الحجازية وما حولها حتي إذا زال الخطر يتوقف أمر الحجر الصحي ويدل علي ذلك تكرار صدور الأوامر بالحجر الصحي مثل الأمر الذي صدر بتاريخ ٢ من محرم سنة ١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م بشأن عمل الحجر الصحي في عيون موسى وكالامر الذي صدر في ذي الحجة سنة ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م الي محافظي السويس وسواكن ومصوع بعدم دخول أية سفينة الي مواني محافظاتهم قبل أن تكون قد أتمت اجراءات الحجر الصحي علي

(١) أنظر : الوثيقة السابقة .

(٢) الوقائع المصرية - العدد ٢٤ بتاريخ ٢ من محرم سنة ١٢٨٣ هـ / ١٧ من مايو سنة ١٨٦٦ م .

ركابها في منطقة عيون موسى علي أن يبقى ركاياها بالمحجر خمسة أيام قبل السماح لهم بالدخول (١).

وقد ذكر إبراهيم رفعت في حجة سنة ١٣١٩هـ / ١٩٠١ م أنه قد أمضى يوما واحدا في التوجه وبعدها توجه بقافلة الحج بحرا الى مرسى الطور وكان في استقبالهم طبيب الحجر الصحي الذي كشف بدوره علي الحجاج ، وأمر بنزولهم الي الحجر الصحي وتبخير أمتعتهم وبعد حجزهم بالمحجر ثلاثة أيام أطلق سراحهم وصرح لهم بالسفر الي حيث استقلوا الباخرة الي ميناء السويس وهناك استقبلهم طبيب آخر اطمأن على حالتهم الصحية ثم سمح لهم بالدخول الي الرصيف (٢).

وهذا يوضح لنا أنه قد تم نقل المحجر الصحي من مرسى عيون موسى الي الطور (٣).

وبالإضافة الى الأطباء السالف ذكرهم قررت الحكومة المصرية في رمضان سنة ١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م إرسال طبيب ليقوم في مكة المكرمة إقامة دائمة وهو الدكتور محمد واصل أفندي ، ثم بعثت الي والي الحجاز وأمير مكة برسائلها لمساعدته في كل ما يطلبه مما يرتقى بالشئون الصحية (٤).

كما أرسلت الحكومة المصرية في شوال سنة ١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م طبيبين أولهما حسن أفندي الألفي للإشراف على الشئون الصحية في جدة وثانيهما محمد أفندي السكري للإشراف على الشئون الصحية في ميناء ينبع.

(١) دار الوثائق القومية - صورة البرقية العربية رقم ٦٧٠ - صادر بقرقيات الدفتر رقم ١٤ عابدين - من خبري

باشا الي محافظ سواكن ومصرع والسويس بتاريخ (٤ من ذي الحجة سنة ١٢٨٩ هـ).

(٢) إبراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ص ٤٩١ ، ٤٩٢ .

(٣) أنشأ المحجر الصحي بالطور الوالي المصري محمد سعيد باشا سنة ١٢٥٨ م / ١٢٧٥ هـ أنظر : سالم

اليمني - سيناء الأرض والحرب والبشر ص ١٧ .

(٤) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٢٩٣ سجل ٢٤ صادر عابدين - الي والي الحجاز وأمير مكة بتاريخ

(٢٣ من رمضان سنة ١٢٨٣ هـ) .

ثم أيرق الخديوى اسماعيل على أثر سفرهما الى والى جدة ليعاون الطبيب حسن أفندى السالف ذكره ، وليتصل بحافظ ينبع ليوصيه خيرا بالطبيب محمد أفندى السكرى الذى عينته الحكومة المصرية لميناء ينبع (١) .

ويبدو أن مستوى الشئون الصحية فى بلاد الحجاز لم يكن على الصورة المنشودة فقد أرسل الطبيب محمد السكرى المعين للاشراف على الشئون الصحية فى ينبع إلى مجلس الصحة المصرى برسالة فى ذى الحجة سنة ١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م شكا فيها من سوء حالة المياه وعدم صلاحيتها فى ينبع للشرب ، كما شكا من قلة اللحوم فى الميناء نظرا لأن حيوانات ينبع هزيلة ، وكذلك شكا من عدم وجود أماكن فى ينبع مخصصة لاقامة مرضى الحجاج ، وعدم وجود مراحيض صحية بها .

ثم طلب فى رسالته العناية بأمر تنقية المياه ، ونظافة البلدة واعداد مكان لاقامة مرضى الحجاج (٢) .

غير أن الحكومة المصرية لم تدخر جهدا فى سبيل ترقية الشئون الصحية بالحجاز وفرض الوقاية من الأمراض .

فلم تكتف باجراءات الحجر الصحى بل كانت تقوم بارسال بعثة طبية كل عام إلى جدة للاعتناء بصحة الحجاج خاصة بعد اقامتهم مناسك الحج وعودتهم .

وعلى سبيل المثال أرسلت الحكومة المصرية فى سنة ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م بعثة طبية مولفة من ثلاثة أطباء هم د / يتستين ، د / غالياردو ، د / أباطة (٣)

وقد ضمنت البعثة كما نرى طبيبا عربيا مسلما طبقا للنظام الذى أسلفنا ذكره ليتمكن من دخول مكة والمدينة وليتابع شئونها الصحية فى موسم الحج .

(١) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٣١٤ - سجل ٢٤ صادر عابدين - من خديوى مصر إلى والى جدة - بتاريخ ٢٤ من شوال سنة ١٢٨٣ هـ .

(٢) دار الوثائق القومية - الوثيقة ٣٩١ - السجل ٢٤ صادر عابدين الى الى قائم مقام ينبع - بتاريخ ٥ من ذى الحجة سنة ١٢٨٣ هـ .

(٣) الوقائع المصرية - العدد ٤٠٠ - بتاريخ ٢ من محرم سنة ١٢٨٨ هـ / ٢٣ من مارس سنة ١٨٧١ م .

ولقد كانت الظروف الصحية تضطرني بعض الأحيان مأموري الموانئ في الحجاز الى منع مرور البواخر المصرية على سواحل الحجاز مثلما حدث في سنة ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م عندما انتشر الوباء في مكة المكرمة ، وامتد أثره الى مينائي جدة والحديدة فمنعت البواخر المصرية لذلك من المرور على المينائين (١) .

وفي هذا العام عندما تحقق المسئولون من وجود بعض الاصابات بالوباء بين الجنود الموجودين بالحجر الصحي الطور صدرت الأوامر للداخلية بحجز الحجاج الواردين من جدة بمدينة الطور لمدة عشرين يوما ، وألا يصرح لهم بدخول مصر الا بعد التأكد من خلوهم من الوباء (٢) .

وكما حدث في سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م عندما تفشى الوباء في منطقة الحجاز فقد قرر مجلس الشئون الصحية بالاستانة إرسال الباخرة العثمانية (القرقول) لتبحر الى جدة في يوم محدد أسبوعيا ولتكون واجباتها هي توصيل التلغرافات التي ترسل من ادارة الحجر الصحي بجدة الى مركز التلغراف بسواكن والعكس ، ولذلك بادر الخديوي توفيق بالتأكيد على محافظ سواكن بأن يعتنى بأمر الباخرة السلطانية (القرقول) بأبلغ عناية ، وأن يقدم لها كل المساعدات الممكنة لتأدية واجباتها (٣) .

وقد يتبادر الى الذهن تساؤل وهو : كيف ينقل التلغراف عن طريق الباخرة ؟ والمعروف أن التلغراف يرسل عبر الأسلاك لا على ظهور السفن .

والحقيقة هي أنه وحتى سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م لم يكن في الحجاز كله خطوط برقية فان أول خط برقي تم تقديمه بين الحجاز والعالم الخارجى هو الخط البحري السلكى (الكابل) بين

(١) دار الوثائق القومية - صورة التلغراف العربي رقم ٥٦ - وارد تلغرافات الدفتر رقم ٤٩ عابدين - من مدير واهرات البوستة الخديوية باسكندرية الى سعادة خيرى باشا - بتاريخ (٤ من محرم سنة ١٢٩٥هـ) .

(٢) أمين سامى - تقويم النيل - م ٣ - ج ٣ - ص ١٥١٩ .

(٣) دار الوثائق القومية - ترجمة الكتاب رقم ٢١٧ / ٣٨ مسلسل (وصلى - السجل رقم ٢٩ - صادر عابدين

- بند الباب العالى من الخديو الى الباب العالى بتاريخ (ذى الحجة سنة ١٢٩٨هـ) .

سواكن وجدة (١) وقد تم الاتفاق علي انشاءه بين الحكومة المصرية والحجازية في هذا العام المذكور ١٢٩٩هـ / ٢ / ١٢٨م (٢) ، ولذلك فان الباقية القرائن كانت قبل هذا العام تحصل علي عاتقها نقل للزيقات من جدة إلى سواكن ليتم إرسالها عن طريق مكتب تلفراف سواكن الذي أنشأته الحكومة المصرية إلى القاهرة ، وما تجدر الإشارة اليه في مجال الاتصالات أن البريد الخاص بالحجاز بل والمملكة النجدية ظل حتى سنة ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ لا يصل إلى الخارج إلا عن طريق السويس سواء في ذلك الخطابات العادية أم المسجلة (٣) .

وفي أواخر سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م اشتد وباء الكوليرا في الحجاز بشكل مخيف ، وأصاب عددا كبيرا من الحجاج مما دفع الحكومة المصرية إلى اتخاذ تدابير وقائية وصحية واسعة كان علي رأسها تشكيل لجنة علي أعلى مستوى برئاسة رئيس النظار - شريف باشا - ونظر الداخلية ، وقد قررت هذه اللجنة إرسال الأطباء والصيادلة والمرضين والأدوية ، كما بادرت حكومة مصر بإرسال ماكينة لتقطير مياه البحر إلى الوجه لتكفي حاجة الحجاج من الماء الصحي وقت الحجر الصحي ، كما قامت حكومة مصر بإرسال كميات كبيرة من الأغذية المختلفة والملابس إلى مدينة الوجه ، وهناك قامت الإدارة المصرية بتوزيعها على الحجاج وغيرهم .

(١) توبشيل - المملكة العربية السعودية - ص ١٥٨

ونظر : عبدالقدوس الانصاري - موسوعة تاريخ جدة - م ١ - ص ٣٧٦ .

(٢) تم تجديد اتفاقية ملكية الخط البحري السلكي في ١٨ من ديسمبر سنة ١٩٢٦م بين الحكومة السعودية والسودانية على أن تقوم شركتان بصيانته وضمان تشغيله وهما : الشركة الشرقية لأعمال التلفراف ، وشركة أعمال اللاسلكي والكوابل وهما انجليزيتان .
أنظر :

The Agreement between the Sauda Arab and sudo governments owners of jeddeh - Port sudon sea cable and the Eastern telegraph campony LTd. The coble and wireless LTD and their successore or Assigns on April 17 the 1935 .

(٢) عبدالقدوس الأنصاري - موسوعة تاريخ جدة - م ١ - ص ٣٧٦ .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أنشأت اللجنة على عجل تكية بلغت امكاناتها إطعام خمسمائة شخص من الفقراء (١).

وقد شملت الاستعدادات الصحية في ميناء الوجه لاستقبال الحجاج ستة أطباء ، ووكيلين ، وكاتباً أول ، وتسعة كتاب ، وثلاثة صيادلة ، ورئيس محرضين ، واثنين وعشرين ممرضاً ، وعشرة سائقين ، وتسعمائة جندي وجنديا ، كما حشدت الحكومة المصرية من بواخر التقطير ثلاثة لخدمة الحجاج وهى : ديب البحر ، والزقازيق والطور لكفاية الحجاج وأهل الوجه من الماء النظيف الصحى.

هذا بالإضافة إلى معدات أخرى كثيرة للاعاشة والاقامة التى تلزم فترة الحجر الصحى وغيره ، وقد شملت هذه المعدات ألفاً وأربعمائة وخمسين خيمة ، ومائة صهريج لحزن المياه ، ومائة وخمسين قرية لتوزيع المياه ونقلها ، كما شملت أدوات أخرى لخدمة خمسة عشر ألفاً من الحجاج والأهالى (٢).

وعلى الرغم من كل هذه الجهود التى بذلتها الادارة المصرية لراحة الحجاج ولا سيما فى فترة انتشار الوباء فان السلطات العثمانى عبد الحميد قد أبدى استياءه من الضيق الذى كان يعاني منه الحجيج بسبب استغلال بعض البائعين المحتكرين لتجارات معينة ورفع أثمان بضائعهم التى يبيعونها للحجاج مما دفع الخديوى توفيق إلى بذل الهمة ومداركة هذا الأمر لتخفيف أعباء الحجاج من جشع المستغلين .

وكان الخديوقد بعث برقية الى الباب العالي يطلب فيها تقليل المدة الزمنية التى تستغرقها عملية الحجر الصحى فجاءه الرد بأنه ليس من حق الخديوى التدخل فى تحديد مدة الحجر الصحى المتبعة ، وأن السلطان عبد الحميد مستاء لمعاناة الحجيج من جشع البائعين الذين يستغلون حاجة الحجاج وكثرتهم فيبتزون أموالهم (٣) .

ومما يجدر ذكره - فى هذا المجال - أن الحجاج كانوا يعانون كثيراً من اجراءات دفع الرسوم

(١) الوقائع المصرية - العدد ١٢٨٦ - بتاريخ ٢٨ من محرم سنة ١٢٩٩ هـ / ٢٠ من ديسمبر سنة ١٨٨١ م.

(٢) الوقائع المصرية - العدد ١٢٩١ - بتاريخ ٥ من صفر سنة ١٢٩٩ هـ / ٢٦ من ديسمبر سنة ١٨٨١ م .

(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة ٢/٢١ - محفظة ١٦٤ عابدين - ملف ثابت باشا بتاريخ (٢٠ من صفر

سنة ١٢٩٩ هـ) .

الخاصة بالحجر الصحي خلال مرتين المرة الأولى : في السويس عند ذهابهم إلى البواخر فكان يؤخذ من كل حاج اثنين وثلاثين مليما ضريبة الحجر الصحي (١) .

والمرة الثانية : عند وصولهم إلى جدة فكان يؤخذ من كل حاج منهم ثمانية قروش برسم الحجر الصحي أيضا ، وكان تحصيل رسوم الحجر الصحي في جدة يستمر ليلة بأكملها يضطر معه الحجاج إلى اقتراض الأرض الرطبة والانتظار حتى تتم إجراءات الدفع والتحصيل ..

إلا أن إبراهيم رفعت عندما عين أميراً للحج في سنة ١٣٢٠هـ / ١٩٠٣م اتفق مع محافظ جدة (على يمين بك) علي أن يأذن للحجاج ومرافقي المحمل بالمرور وسيتولى الأمير دفع الرسوم المستحقة عليهم دفعه واحدة تخفيفاً على الجميع (٢) .

ولا شك في أن هذا العمل الجليل الطبيب قد أضفى على إبراهيم رفعت أمير الحج أعظم صفة يجب أن يتحلى بها زعيم الركب ألا وهي تخفيف بعض الأعباء عن ضيوف الرحمن وهي جزء من الرعاية الواجبة لهم في حلهم وترحالهم .

وقد كان المتبع عند وصول أية باخرة لنقل الحجاج إلى جدة أن يصعد إليها طبيب الحجر الصحي للكشف على الحجاج ومرافقي المحمل (٣) ، ثم يسمح لهم بعد ذلك بالمرور إذا خلت جموعهم من الأمراض أو يبقون في الحجر مدة للوقاية والعلاج إذا اكتشفت بهم حالات مرضية .

خامساً : التنقيب المصري عن المعادن بالحجاز :

تحدثت المصادر التي بين يدي عن محاولات عديدة مصرية للتنقيب عن المعادن في الحجاز ، ومنها الفحم من الحجاز وتوابعها مما يدل على عناية مصر برقى هذه المنطقة ، والبحث فيها عن ما طبيعى تساعد الأمة الإسلامية سواء في الحجاز أم في مصر أو غيرها على مسايرة التطور والتقدم الذي أخذ ايقاعاً سريعاً في القرن التاسع عشر كان بحق مقدمه للتطور المذهل في القرن العشرين .

(١) إبراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ج ١ - ص ١٤ .

(٢) إبراهيم رفعت - مرآة الحرمين - ص ١٦ ، ١٧ .

(٣) المصدر السابق - ص ١٦ .

وأبرزها تلك الرسالة التي بعث بها وكيل محافظ مكة المير لواء محمد أمين إلى محمد علي باشا في ربيع الأول سنة ١٢٥٥ هـ والتي قال فيها :

" معلوم بالتحقيق عند جميع الناس أن بلاد الحجاز كثيرة الجبال المتصلة والروابي والوديان ، وإننا لم نل من البحث والتنقيب ، وسؤال أرباب المعرفة وقتا بعد وقت عما إذا كان يمكن ظهور معدن في بعض الجهات من بين تلك الجبال " ؟ .

وسياق الرسالة يظهر مدي الاهتمام المصري بأمر البحث والتنقيب عن المعادن حتى أنه سمع من بعض الناس أنه على بعد ست ساعات بسير الأبل من منطقة الجعرانة موضع العصرة القديم كما تذكر الرسالة - يوجد المعدن (١) .

ولذلك انتقل وكيل محافظ مكة مع كبير الأطباء القائمقام شافرو ، ورئيس الصيدالة نوبار لاكتشاف المكان فوجدوه جبلا عاليا كثير المنحدرات وأخذوا منه عينات من الأحجار من عدة جهات ، وتم وضعها في صندوق ، وأرسل إلى محافظ جدة ليرسله بدوره إلى السويس حتى يتم فحصه في مصر بواسطة المختصين ، ومعرفة ما تحتوي عليه هذه الأحجار من معادن .

كما أشار وكيل المحافظ إلى أنه عثر على بثر غزير طعمه طيب في هذه المنطقة ذاتها (٢) .

كما أرسل محمد شيرين ميرالاي الآلاي الواحد والعشرين بالحجاز - إلى محمد علي باشا رسالة في ١٩ من رمضان سنة ١٢٥ هـ / ١٩٣٩ م ، وأرفق معها ثلاث قطع من الرخام مختلفة الألوان والاشكال ، وأشار في رسالته إلى أن هناك معادن أخرى مختلفة إلا أن تحديدها يتوقف على وجود مختصين بهذه الأمور كالجيوولوجين وما يستلزم من وجود معدات البحث ولوازمه .

وهذا الرخام اكتشفه محمد شيرين في قرية تعرف بذى عين أو (موزكولى) حسب تسمية المصريين لها ، وتقع هذه القرية في جهة عقبة الباحة .

(١) دار الوثائق القومية - وثيقة رقم ٦ أصل / ١٧١ حمراء - محفوظة ٢٦٦ عابدين من المير لواء محمد أمين وكيل محافظة مكة إلى صاحب الدولة - بتاريخ (٣ من ربيع الأول سنة ١٢٥٥ هـ) .

(٢) أنظر : الوثيقة السابقة .

وقد شاهد محمد شيرين هناك كثيرا من الرخام السطحي الذي يمكن نقله بسهولة إلى ثغر القنفذة أو إلى ثغر جدة ومنه إلى السويس أو إلى الحرمين الشريفين مباشرة فان هذا الرخام يصلح لكثير من الأغراض ، وهو يمتاز عن الرخام المصري بتعدد ألوانه - حسبما ذكر محمد شيرين - ولا يستلزم نقله مشقة كبيرة (١) .

أما عن الفحم الحجري فقد شاع وجوده بمنطقتين أحدهما منطقة حدة (٢) الواقعة بين جدة ومكة المكرمة ، والأخرى في منطقة الحديدية .

فعندما علم الخديوى إسماعيل باشا بما تردد عن وجود الفحم الحجري في منطقتى حدة والحديدية أرسل إلى والى اليمن بأن ذلك لو كان صحيحا لكان له أبعاد الأثر في انعاش البلاد ود الخير على الخزانة الجليلة (خزانة الباب العالى) .

وقد اختتم الخديوى إسماعيل رسالته هذه بضرورة تسهيل مهمة البعثة العلمية التي سيرسلها وإسداء المعونة إليها .

ثم لم يلبث الخديوى أن أرسل باخرة خاصة على متنها بعثة علمية برئاسة أمين بك هدفها التنقيب ، والبحث عن هذا الفحم فاذا تأكد من وجوده رفع تقريراً بذلك إلى حكومة مصر لتقوم هذه الحكومة بالاتصال بالباب العالى ليأذن لها باستخراج الفحم واستغلاله لصالح الدولة (٣) .

ويغلب على الاعتقاد أن الخديوى لم يكن كل همه متجها نحو مصلحة الباب العالى افا كان همه متجها الى ما سيذره عليه هذا الاكتشاف من خير عظيم يفي باحتياجات مصر من الفحم الذى كانت تستورده من إنجلترا بأسعار عالية .

(١) دار الوثائق القومية ترجمة الوثيقة رقم ١٣٩ حمراء - المحفوظة ٢٦٧ - من محمد شيرين بتاريخ ١٩ رمضان ١٢٥٥ .

(٢) حدة منزل في واديين جدة ومكة في أرض تهامه فيها حصن ونخل وماء عين جارية . أنظر ياقوت بن عبدالله الحموى - معجم البلدان - ج ٢ - ط بيروت - ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ص ٢٢٩ .

(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٢٠٤ - الدفتر رقم ٢٢ - صادر عابدين إلى والى اليمن - بتاريخ ١٠ من جمادى الثانية سنة ١٢٨٢ هـ .

كما أرسل الخديوي اسماعيل رسالة أخرى إلى اسماعيل صادق بك قائد الجيش المصري المتأهب بالحجاز لاختاد ثورة عسير - التي تزعمها محمد بن عائض - وكانت أوامر الخديوي إلى قائد جيشه واضحة بضرورة العناية بتجهيز وتخصيص بلوكين من الجنود النظامية المصرية التي تحت قيادته ليكونا بحماية أمين بك واللجنة التي بصحبته ليظلا معه وتحت أمره طوال فترة الحجاز أعماله التي كلف بها ، وهي التنقيب الأولى عن الفحم في منطقتي حدة والحديدة (١) .

كما بعث الخديوي إلى والي الحجاز برسالة قال فيها : أنه إن صح وجود هذا الفحم بالحجاز فإنه سيوفر الكثير من المنافع على الحجاز وغير الحجاز من أجزاء الدولة (٢) .

وقد أراد الخديوي أن يتأكد من وجود هذا الفحم في منطقة حدة فأرسل إلى أمين بك الموجود بالحديدة للقيام بإجراءات هذا الكشف ثم حث والي الحجاز على أن يسهل له أعماله وأن يعاونه بكل ما يحتاج إليه من شتى المعونات (٣) .

إلا أن هذه الجهود كلها لم تكلل بالنجاح ولم يتم اكتشاف الفحم الذي ظلت مصر تعلق عليه آمالا عظيمة ، لأن ذلك سيقلل من اعتمادها على الفحم الإنجليزي الذي كانت تستورده من إنجلترا بأسعار وتكليف نقل باهظة فظلت احتياجات مصر من الفحم الإنجليزي في ارتفاع مستمر حتى أنها أرسلت مندوبا من قبلها ليقیم في لندن إقامة مستديرة ليرعى حاجتها من الفحم وليشرف على سرعة إرساله (٤) .

(١) دار الوثائق القومية الوثيقة رقم ٢٠٦ - دفتر ٢٢ صادر عابدين إلى : صاحب المزة اسماعيل صادق بك قائد

العساكر المصرية بالحجاز - بتاريخ (١٠ من جمادى الثاني سنة ١٢٨٢ هـ) .

(٢) لعله يشير بمقولته " وغير الحجاز من أجزاء الدولة " إلى مصر التي كانت في أشد الحاجة إلى الفحم .

(٣) دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٢٤٧ - دفتر رقم ٢٢ صادر عابدين - إلى والي الحجاز - بتاريخ

(٩٥ من رجب سنة ١٢٨٢ هـ) .

(٤) د/ شوقي الجمل - الوثائق التاريخية - ص ٤١٠ .

تنظيم البريد بين الحجاز والعالم الخارجى عن طريق مصر :

تعد مسألة البريد بين الحجاز وخارجه ، ولاسيما العاصمة استانبول مشكلة كبرى فى حد ذاتها اذ كان البريد يستغرق وقتا طويلا فضلا عن اعتراض قطاع الطرق من العربان والبدو على طول الطريق الموصل بين مكة والقاهرة .

فلم يكن أمام الحجاز من سبيل لتوصيل البريد الى جهاته سوى نقله عبر البحر الأحمر إلى السويس ومنها كانت ترسل الرسائل الى الجهات المراد إرسالها إليها حسب العناوين المكتوبة عليها . وقد اقتضى النظام فى الدولة العثمانية وولاياتها أن لا يتم البت فى أمر من أمورها إلا بعد العرض على الباب العالى فى استانبول وصدر الأوامر والتعليمات الخاصة بالولايات والتي كان يحملها البريد فكان من الطبيعى أن يتأخر البت فى القضايا بسبب انتظار وصول البريد من الباب العالى عبر الولايات المترامية الأطراف وسبب هذا النظام العقيم عانى الحجاز من تأخر البت فى قضاياها نظرا لبعده المسافة بينه وبين العاصمة استانبول .

فعلى سبيل المثال كان فى عهد محمد على باشا ملاحه بحرية مستمرة بين مصر والحجاز لنقل الجنود والعتاد بين السواحل المصرية والحجازية ، وبالطبع كانت تنقل معها البريد الحجازي ، إلا أنه بعد خروج جيش محمد علي من الحجاز (١) هبطت الملاحه إلى مستواها الأدنى فلم تبق هناك ملاحه منتظمة بين السويس وجدة إلا من خلال سفينة واحدة تعمل بقوة ستين حصانا وتستغرق رحلتها من جدة إلى السويس حوالى عشرين يوما (٢) .

(١) كان ذلك قبل انشاء الشركات الملاحية المصرية مثل الشركة المجيدية والشركة العزيزية . وقد أنشأت الأولى سنة ١٢٧٤هـ / ١٨٥٧م ، وقامت بمهمة الملاحه فى البحر الأحمر خاصة موانئ مصر والحجاز أما الثانية فقد أسست سنة ١٢٧٩هـ / ١٨٦٣م وزادت من نشاطها وعدد سفنها عن الشركة الأولى، وتولت مهمة نقل البريد الحجازي الى مصر ومنه كان يرسل الى استانبول .
أنظر : دار الوثائق القومية - الوثيقة رقم ٦٤٠ - ص ١٠٠ - دفتر ١٩٠٧ - أوامر - بتاريخ (٣) من شعبان سنة ١٢٨٠هـ .

وانظر : الوثيقة رقم ٣٨٠ - دفتر ٢١ عابدين - بتاريخ (١١ من ذى القعدة سنة ١٢٨٠هـ) .

(٢) محمد عبدالله آل زلفه - اصلاحات حسيب باشا - ص ٨٠ .

ولذلك فقد تم الاتفاق بين الحكومة المصرية فى عهد عباس باشا الأول وولاية جدة فى عهد

الوالى حسيب (١) على تنظيم رحلات برية للبريد وتنظيم محطات تقام عبر أراضى البلدين ،
وقد تم تقسيم هذا الطريق على مرحلتين : الأولى تبدأ من مكة المكرمة وتنتهى عند قلعة الوجه ،
والثانية تبدأ من قلعة الوجه وتنتهى عند باب النصر بالقاهرة .

أما المحطات التى يمر عليها ركب البريد فى المرحلة الأولى بعد خروجها من مكتهى :
عسفان ، فخليص ، فرايخ ، فمستورة ، فينيج البحر ، فحوراء ، فقلعة الوجه ، ويقطع
ركب البريد هذه المرحلة فى ثلاث وثمانين ساعة .

وأما المحطات التى يمر عليها ركب البريد فى المرحلة الثانية بعد خروجه من الوجه فهى :
المويلح ، فالعقبة ، فالطور ، فعمير ، فمصر ، ويقطع ركب البريد هذه المرحلة فى تسع وتسعين
ساعة .

وقد تم تخصيص ثلاثة من الهجين مع ثلاث من الهجانة لنقل البريد وعين لكل هجان معاش
شهري مائة وخمسة وعشرين قرشا ونفقات للطعام قدرها اثنان وعشرون قرشا ونصف قرش ونفقات
لعلف الهجين من الفول قدرها مائة واثنان وثلاثون قرشا (٢) ، وقد استمر الحال على ذلك حتى أنشئت
الشركات الملاحية المصرية ، وتم تسيير خطوط منتظمة تحمل البريد والتجارة والركاب فى
مواعيد أسبوعية محددة بين موانئ الحجاز والموانئ المصرية على طول البحر الأحمر (٣) .

لقد كانت عناية مصر بالمخصصات واحتياجات الحرمين الشريفين ، وأهل الحجاز من
الانشاءات والاصلاحات الضرورية نابع من التدين والالتزام الاسلامى تجاه البقعتين المقدستين فى
مكة والمدينة وأهلها .

(١) تولى حسيب باشا ولاية فى سنة ١٢٦٥هـ / ١٨٤٩ م ، واستمر بها لمدة عامين حيث عزل منها فى سنة

١٢٦٧هـ / ١٨٥١ م .

أنظر : عبدالقدوس الأنصارى - موسوعة تاريخ جدة م ١ - ص ٣٢٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٨١ ص ٨٢ .

(٣) انظر تفاصيل ذلك فى الفصل الثالث من هذا البحث .

وكانت عناية مصر بالحرمين الشريفين تصل الي زروتها عندما تتصدى لحماية الحرم المكي من السيول أو العوامل الطبيعية الأخرى كالعواصف والأمطار التي كانت تؤثر فيه فتشمر عن سواعد الجهد لاصلاح ما أفسدته تلك العوامل ، وكذلك كانت عناية مصر بأمر الحرم المدني تبلغ زروتها عندما تبرز حاجاته إلى العمران والاصلاح وإقامة الأعمدة ، وما يستلزم ذلك من صناعات مصريين في مجالات البناء والتجارة ، والطلاء والنقاش وغير ذلك ، كما حملت مصر على عاتقها الاصلاحات والانشاءات المتعلقة بالموانئ والفنارات والقلاع الحجازية سواء منها ما كان في الحجاز نفسه أم في الطريق الموصل اليه .

ولقد امتدت يد الاصلاح والخدمات المصرية إلى مجال توفير المياه في المدن والثغور الحجازية نيفاً من حدة مشكلة المياه التي عانى منها الحجازيون طوال عصورهم السابقة ، فساعدت مصر ، الاصلاحات على توفير المياه النظيفة للحجاج وأهل الحجاز سواء بحفر الآبار أم بجلب (الكنداسات) ماكينات تقطير مياه البحر وتحريكها إلى مياه عذبة .

أما الرعاية الصحية فقد عمدت الإدارات المصرية المتعاقبة على درء أخطار الأوبئة عن الحجاز والحجاج ، ومعالجة ما قد يصيب الحجاج وأهل الحجاز من أخطار المرض وخطوبه ، والتي كانت تؤدي بعبء الكثيرين من الحجاج وأهل الحجاز ، لهذا حرصت على إقامة المعاجر الصحية، وتعيين الأطباء والممرضين فيها للكشف على الحجاج ومعالجة المرضى منهم ، ومداركة ما يحتاجه هؤلاء المرضى من الأدوية والطعام ، والاقامة .

كما ظهرت في الحجاز جهود مصرية للتنقيب عن المعادن في مناطق عديدة ومحاولات لانشاء سكة حديدية بين جدة ومكة ، إلا أن هذه الجهود لم تسفر عن نتيجة ملموسة اللهم إلا الدلالة على العناية المصرية بأمر الحجاز وأهله ، والعمل على النهوض بمدته وقراءه من منطلق وحدة إسلامية تقودها خلافة إسلامية رشيدة .

والله ولي التوفيق ،،،

الخاتمة

بعد ذلك، بعد أن انتهت بحمد الله من هذه الدراسة أن أميط اللثام عن الحقائق التاريخية الهيمية التي أدها هذا البحث والتي تعد بحق ثروة علمية هائلة ، وإن أجروا النتائج التي برزت من خلال العمل التاريخي العلمي في اختصار شديد .

أولاً : أظهر هذا البحث حقيقة فخرها أن مدن وتري مصر قد باتت مبدلتا مفتوحا عند العصر الإسلامي الأول إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري لآباء شبه الجزيرة العربية خاصة يؤمنونها كما أن المصريين لم يلقوا يؤمن الحجاز بحرمه حجا ومجازة وإقامة .

ثانياً : انتهت الدراسة إلى أن الأشراف الذين باتوا يسيطرون على مكة من منتصف القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي إلى بداية القرن الرابع عشر الهجري الربع الأول من القرن العشرين قد عدوا أنفسهم حكاما محليين يدينون بالولاء للدولة العظمى التي تسيطر على القاهرة - في أغلب الأحوال .

ثالثاً : أوضح البحث بجلاء دور الحجازيين العظيم في مساندة المقاومة المصرية إبان الغزو الفرنسي لمصر ، وما قاموا به من أعمال بطولية ملين داعي الجهاد بعد أن تجمع الآلاف منهم في الموانئ الحجازية وركبوا البحر إلى القصير حيث وقفوا مع إخوانهم في مصر صفا واحدا لقتال الفرنسيين جهادا في سبيل الله وإعلاما لكلمته .

رابعاً : ظهر من خلال الدراسة أن المصريين قد نالت منهم حروب محمد علي في شبه الجزيرة مثلما نالت من آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب والسعوديين ، كما تبين أنه من الخطأ التاريخي نسبة القتل والتنكيل في شبه الجزيرة إل المصريين والمصريين منه براء ، حيث أكد البحث على عدم وجود جنود مصريين قد حملوا السلاح في وجه إخوانهم في شبه الجزيرة ، إفا تكون جيشه من مرتزقة وجنسيات أخرى غير مصرية ولم تشتمل حملات (محمد علي) على مصريين سوى بعض الخدماء الذين أخذوا قسرا من الصعيد المصري بعد أن سلبت أقتواتهم وأملأهم في تجهيز تلك الحملات .

خامساً : أثبت البحث بما لا يدع مجالا للشك أن الهيمية المصرية على الحجاز في أشكال مختلفة استمرت حتى بعد خروج جيش محمد علي من شبه الجزيرة وظهر ذلك في تدخل مصر لدى

الدولة العثمانية في عزل وإلى جدة عثمان باشا تاتار سنة ١٢٦٩ هـ / ١٨٤٥ م ، والبقاء على الشرف محمد بن عون الموالي لمحمد علي ، على الرغم من ميل الدولة العثمانية إلى عزلة .

سادساً : ظل الحجازيون يستعملون مصر كلما كانت تحقق بهم بعض الخطر مثل الاعتداءات المسيحية على البطلان الحجازية فكانت مصر ترسل الحملات لرد المسيحيين وتستخدم معهم أساليب التهذيب والترهيب .

سابعاً : أوضع البحث اليهود المصرية التي بلغها ولاية مصر خاصة محمد علي وأسماعيل باشا الذين حاولوا وصولهم إلى مصر بعد انتزاعها من إيالة جدة وقد كان لنجاحهما في ذلك أثر على حكم مصر قبضتها على السودان وتوسيع التجارة السودانية من خلال ميناء سوان التي باتت تشارك سوان في السويس وجدة وغيرها في مصر والحجاز في إثراء الحركة التجارية بين البلدان الثلاثة مصر والحجاز والسودان .

ثامناً : أرخ البحث للجذور الحقيقية لمشكلة طابا ورد على المزاعم التي تمسك بها والد الحجاز في تأليه للدولة العثمانية على مصر منعياً أن مصر تحاول التمكن لنفسها من قلاع شمال الحجاز في حين أن الحقيقة لم تتجاوز مجموعة الإصلاحات والاهتمامات المصرية بأمر الخليج والاهالي الحجازيين في تلك القلاع والتي كانت تقوم بها الإدارة المصرية منذ زمن بعيد بين الحين والآخر للعمل على راحة الحجاج ورعاية حالتهم الصحية ودرء الأخطار عنهم ، إلا أن وجود الاحتلال الإنجليزي لمصر قد زاد المخاوف عند الحجازيين والدولة العثمانية فعملوا على إزاحة مصر عن تلك القلاع خوفاً من التسلل الإنجليزي إليها كما بين هذا بجلاء أن مطالبات الدولة العثمانية بسيادة كلها ، ونزول قواتها إلى منطقة طابا لم يكن إلا مناورة سياسية أرادت أن تكسب بها أرضاً للمفاوضة عليها بحيث تنتهز المفاوضات عند غشها الأساسية وهي الاحتفاظ بقلم شمال الحجاز التي تعد ضرورة لحزمة خط سكة حديد الحجاز المزمع إنشاؤه من معان إلى العتبة هذا في الوقت الذي كان فيه التيار الشعبي في مصر مندأ لمطالبات الدولة العثمانية ، وضد مطالب الحكومة المصرية التي اعتقد بأنها مدمجة من الاستعمار الإنجليزي .

تاسعاً : أرخ البحث لقضية الثغرى بين القطرين في القرن التاسع عشر للمذنبين والمعارضين ، وهذا يزيد حقيقة اجتماعية وهي امتداد كل قطر منهما ليكمل الآخر .

عاشراً : فصل هذا البحث أوجه التبادل التجاري بين مصر والحجاز وما قامت به الإدارات المصرية من تشجيع لهذه التجارات وذلك بإنشاء الشركات الملاحية العديدة وتيسير الخطوط الملاحية لنقل

الركاب والتجارة مع تجاراتهم والتي غشلت في البن والملح والفلال والحبات والجلود والقطن ، والسكر والشح والسمكي ، والنيلة وغيرها مما أثرى التبادل التجاري بين القطرين والذي أدى إلى رواجه .

سادس عشر : يرى هذا البحث المواقف التي حثت بشأن أثر الفتح قناة السويس للسلي على الحياة المصرية ، وما كانت النتيجة حول هذه المسألة أن الفتح قناة السويس "لقد أضافت إلى الحياة المصرية" إلا على أسطول جند البحري والذي لم يستطع مسايرة السفن البخارية الحديثة ، وتسبب ذلك في التناقص في حين تشتت التجارة على جند بسفن مصرية وعثمانية وأوروبية وغيرها .

سابع عشر : يرى هذا البحث الجوانب الفكرية والاجتماعية التي جمعت بين الشعبين في بورتقة واحدة ظهر فيها التأثير والتأثر . وكان أوضحها انتقال دعوة ابن عبد الوهاب الإصلاحية إلى مصر ، واعتناق كثير من المثقفين المصريين لهذه الدعوة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ظهر تأثير الحجازيين بالنهضة العلمية المصرية التي لمعت بمصر في عهد محمد علي ، وتأثرهم بالنهضة الثقافية التي ظهرت في عهد اسماعيل باشا وقد انتقلت هذه المؤثرات العلمية والثقافية عن طريق الحج والعلماء وطلبة العلم الذين كانوا في رحلة مستمرة بين القطرين كما لعب الأزهر في هذا الميدان دوراً عظيماً وشارك بهم وأثر في تخريج مجسوة من العلماء الذين قاموا بتدريس في الحرمين الشريفين ، وفي استقبال طلب العلم الحجازيين وغيرهم في مصر .

ثالث عشر : تضمن البحث دور الصحافة المصرية في تنمية العلاقات المصرية الحجازية وثثير من الجوانب الثقافية في ربيع الحجاز بما كان يطلع عليه الحجازيون ويقرأونه في تلك الصحافة بالإضافة إلى كتابات الكثيرين من الأدباء والمفكرين المصريين في الصحافة الحجازية أمثال أحمد شوقي ، وحافظ إبراهيم وعائشة التيمورية وغيرهم .

رابع عشر : أوضح البحث دور الهجرات المتبادلة للأفراد في انصهار الشعبين المصري والحجازي بسبب التزاوج والمصاحبات المختلفة كما كان لشغلي الموظفين المصريين الكثير من الوظائف والأعمال في الحجاز أثر في اذكاء وتنمية هذه العلاقات ، كذلك كان هناك تيار مقابل من بعض الحجازيين الذين عملوا في مجال التجارة وغيره بمصر ، ذكى روح التألف بين الشعبين .

خامس عشر : ظهر من خلال الدراسة أثر العوامل الاجتماعية السابقة وما نتج عنها من تأثير وتأثر في إنتاج عادات وتقاليد مشتركة وضحت في الجوانب المختلفة للحياة اليومية من مأكول ومشرب وملبس واحتفالات ومناسبات شتى .

سادس عشر: تعرض البحث للتأريخ لمركب الحج المصري ، وما كان يتعرض له من مشاكل وخطوب كانت تنشأ من خصومة عنيدة يفرضها عربان الطرق المؤدية إلى الحرمين في مكة والمدينة طمعا في أموال الصرة وممتلكات الحجاج وأموالهم مما كان يضطر الحكومات إلى تسليم قافلة الحج بتجريدة عسكرية ترافقها ، وإقامة للسلام وتجهيزها بالعتاد على طول الطريق ، ومع ذلك فلم تسلم القوافل الحج من اعتكالاتهم فبلغت مصر إلى أسلوب آخر وهو تعيين مرتبات خاصات لفرقة المشرك وإعطاء حرس العريان وما هي في حقيقة الأمر إلا اتاوات .

سابع عشر : تناول هذا البحث التكاليف المالية لإعلاء الكسوة ومفردات حلة التكاليف ومسيرة المحمل ضمن مركب الحج المصري ، بالإضافة إلى المخصصات والمرتبات الأخرى التي كانت تجتمع بها حنوها مع صرة الحرمين للتشرين وكانت حلة المخصصات تشمل مرتبات تكفي مكة والمدينة ، ومرتبات المواطنين المصريين في الحجاز ومرتبات العريان (الاتاوات) ومرتبات مؤن الحامية العشائية الموجودة بالحجاز ، بالإضافة إلى مخصصات الفقراء والمجاورين كما وصف هذا البحث كيفية وصول هذه المخصصات وصرة الحرمين الشريفين إلى مكة والمدينة وكيفية استقبالها قبيها .

ثامن عشر : أبرزت الدراسة في هذا البحث ما قامت به مصر من إصلاحات كبيرة في الحرمين الشريفين بمكة والمدينة ، والأعمال الفنية والمعمارية التي عنت بإقامتها في ميناء جدة ليسع السفن والبواخر الكبيرة التي تنقل الحجاج والتجارة الدولية بين الحجاز والعالم الخارجي ، كما عني هذا البحث بإبراز الجهود المصرية العديدة في مجال دعم القلاع والنفارات في الوادي والسواحل الموجودة على طول الطريق بين السويس والحجاز ، كما عني بإبراز جهود مصر الفذة حول مزارع المياه لحل مشكلة ندرتها وسوء تخزينها ، وتعد موضوع المياه لبشمل الاهتمام والعناية بالرعاية الصحية وابتعاث الأطباء إلى الحجاز ، ومراقبة البعض منهم مع مساعدهم لركب الحج المصري .

تاسع عشر : لم يغفل البحث تلك المحاولات المصرية لإنشاء سكة حديدية في الحجاز بين جدة ومكة ، ولم يغفل أيضا المحاولات المصرية الأخرى للتنقيب عن المعادن والتي توقفت عند خطواتها الأولى .

عشرون : بين هذا البحث عناية مصر الفائقة بتنظيم البريد بين الحجاز والعالم الخارجي لنقل الخطابات والبرقيات التي كان يرسلها الحجازيون والحجاج والتجار إلى أوروبا والدولة العثمانية ودول إفريقيا وغيرها وكانت جميع هذه الأسلاك والبرقيات ترسل إلى سائر الدول عن طريق مصر .

والله ولي التوفيق ،،،

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : الوثائق العربية غير المنشورة

أ - دار الوثائق القومية بالقاهرة :

- ١ - أبحاث السودان : المحفظة ١٧ .
- ٢ - الأهر الشريف : سجل ١٦ من سجلات الجراية
سجل ٣٣ من سجلات تعداد المحقق نسبتهم للأهر .
- ٣ - أوامر عربي : دفتر رقم ١٨٩٤ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٤ ، ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ ، ١٩١٢١ ، ١٩٢١ ، ١٩٣٠ ، ١٩٣٥ ، ١٩٤٧ .
- ٤ - بحري : المحفظة ٣ ، ٤ ، ٨ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ .
- ٥ - ديوان جلالة الملك : مجموعة الفرمانات الشهبانية .
سجل ٦ من (١٨٦٣ - ١٨٧٩) .
- ٦ - ديوان خديوى : الدفتر ٦٠٩ .
- ٧ - ذوات تركى : المحفظة ٢ .
- ٨ - عابدين : الدفتر ١ ، ٢ ، ٣ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣١ ، ٤٩ ، ٥٩ ، ٦٦ .
و : المحفظة ٢٢٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ .
و : محفظة سايرة .
و : سجل ٢٤ ، ٢٩ .
- ٩ - القومبانية العزيزية : محفظة قرارات مجلس الإدارة (ملف قرارات سنة ١٢٨٣ هـ) .
و : ملف وإبورات سنة ١٢٨٦ هـ .

- ١٠ - مجلس ملكي : الدفتر ١٥٦ .
- ١١ - المجلس الخصوصي : الدفتر ٥ ، ٤١ ، ٧٤ ، ٧٨ .
- ١٢ - مجلس الوزراء : ١ / ح / ١١ حريمه .
- ١٣ - محافظة سواكن : الدفتر ١ / ٥ / ٢ / ٤ صادر .
و : ٢ / ٥ / ٢ / ٤ صادر
و : ١١ / ٦ / ٢ / ٤ ج ٢ وارد
و : ٣٥٤٣ صادر .
- ١٤ - معية تركي : الدفتر ١ ، ٥ ، ٦ ، ١١ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٢٥ .
٥٤٩ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ١٨٤٧ ، ٢٨٥٩ .
- ب - دارة الملك عبدالعزيز بالرياض (الوثائق السعودية) وقد اعتمدت فيها علمي الوثائق
الآتية :

١٥ - ٢ / ٢ - ك - ١٢٢ .

١٦ - ٦ / ٢ - ٣

١٧ - ٣ / ٢ - م - ٣٨

١٨ - ٣ / ٢ - م - ٦٢

١٩ - ٣ / ٢ - ٣٩

٢٠ - ٣ / ٢ - م - ٤١

٢١ - ٣ / ٢ - م - ٤٠

٢٢ - ٣ / ٢ - م - ٦٧

٢٣ - ٣ / ٢ - م - ٧٠

ج - مكتبة رفاعة الطهطاوي بسوهاج :

٢٤ - مجموعة وثائق رفاعة الطهطاوي ورسالة علماء مصر وأعيانها الى سلطان الدولة العثمانية.

د - الوثائق الأمريكية :

وثائق وزارة الخارجية الأمريكية للسنوات من ١٩١٠ م حتى ١٩٤٤ م

Documents of Us Department of State from 1910 - 1944 -

- 1 - Document No (Number mentioned File N 800 . in November 6, 1923.
- 2 - Document No 163 file No 800 November 6 . 1923.
- 3 - Document No 57 - 1 - 1 Mecca Hejaz on 29 the September 1928 .
- 4 - The Agreement between the Sauda Arab and Sudan governments owners of Jedde'h - port suddon sea Cable and the Eastern tefegraph Campany LTD . The Cable and wirelles LTD . and their Successore or Assigns on April 17 th 1935 .

ثانيا : الوثائق المنشورة :

- ٢٩ - رئاسة مجلس الوزراء - السودان من ١٣ فبراير ١٨٤١ الى ١٢ فبراير ١٩٥٣ م - المطبعة الأميرية - ١٩٥٣ م .
- ٣٠ - مجموعة المنشهر الصادرة من الإمام المهدي (محمد أحمد) .

ثالثا : الزيارات العلمية :

- ٣١ - زيارة علمية قمت بها الى المملكة العربية السعودية بدعوة وزارة التعليم العالي السعودية في سنة ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م وزرت خلالها مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة في الحجاز - كما زرت الدوعية ، والرياض وغيرها في نجد وتفقدت في هذه المدن المعالم الحضارية ومواقع الأحداث وأطلعت على ما احتوته مكتبات : الملك عبدالعزيز ، ودائرة الوثائق ، وبعض الجامعات ولاسيما جامعة الملك سعود بالرياض ، وقد استغرقت الزيارة ١٠٠ يوم .

رابعاً المخطوطات :

- ٣٢ - أحمد الرشيدى - حسن الصلح والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج رزقة ٨٥ - مخطوطة مكتبة رقاعة الطهطاوى بسوهاج - رقم ٨٢ بتاريخ .
- ٣٣ - أحمد بن زنى دحلان (من علماء مكة) اجازة علمية إلى الشيخ عبدالفتاح بن عبدالرحمن النا اللمياطى مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٢٤٦ مصطلح الحديث .
- ٣٤ - حسين أفتدى الرزنامة - ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية مخطوط بدار الكتب بالقاهرة رقم ٨٨٧٣ .
- ٣٥ - الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى المصرى (مفتى الحرم المكة) المناهل العزبة فى إصلاح ما وهى من الكعبة - الورقات ١٤٥ - ١٤٧ - مخطوط بدار الكتب رقم ٤٣٤٠ ب مجاميع .

خامساً : المصادر والمراجع العربية :

- ٣٦ - إبراهيم جمعة (دكتور)
الأطلس التاريخى للدولة السعودية - مطبوعات دار الملك عبدالعزيز ط ١ - ١٩٧٩ م .
- ٣٧ - إبراهيم رفعت (باشا)
مرآة الحرمين - دار المعرفة - بيروت .
- ٣٨ - إبراهيم بن صالح بن عيسى النجدى الخنبلى (الشيخ)
عقد الدرر فيما وقع فى نجد من الحوادث فى آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر تحقيق عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ - ط وزارة المعارف السعودية .
- ٣٩ - إبراهيم بن عبيد آل عبدالمحسن (الشيخ)
تذكرة أولى النهى والفرقان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان ج ١ - ط ١ .
- ٤٠ - إبراهيم فوزان الفوزان (دكتور)
إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة - الرياض - ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م

- ٤١ - إبراهيم فوزى (باشا)
السودان بيندي غوردون وكشنر - ط ١ - القاهرة ١٣١٩ هـ .
- ٤٢ - أحمد أبوبكر إبراهيم .
الأدب الهجازى فى النهضة الحديثة - مكتبة النهضة مصر - مصر - ١٩٤٥ م .
- ٤٣ - أحمد أمين
وعنت : الإصلاح فى العصر الحديث - ط ١ - القاهرة ١٩٧٨ م .
- ٤٤ - أحمد بن حجر بن محمد آل أبوطامى
الشيخ محمد بن عبد الوهاب عقيدته السلطنة ودعوته الإصلاحية وثناء العلماء عليه -
مطبوعات الجامعة الإسلامية - - للهيئة المنورة .
- ٤٥ - أحمد بن زنى دحلان (الشيخ)
خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة -
١٣٩٧ هـ .
- ٤٦ - أحمد السباعى (المؤرخ)
تاريخ مكة - مطبوعات نادى مكة الثقافى - ط ٦ - ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
- ٤٧ - أحمد السعيد سليمان (دكتور)
تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل - القاهرة - ١٩٧٢ م .
- ٤٨ - أحمد عبداللله عبدالجبار
عادات وتقاليد الزواج فى المنطقة الغربى - ط ١ ج ١ - ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- ٤٩ - أحمد عبدالرحيم مصطفى (دكتور)
علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩ (- دار المعارف -
القاهرة - ١٩٦٧ .
- ٥٠ - أحمد عسمة
معجزة فوق الرمال - ط ٣ - ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .
- ٥١ - أحمد بن على (تقي الدين المقرئى) المؤرخ
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار - ج ١ - القاهرة - ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٤ .

٥٢ - أحمد لطفي السيد (باشا)

صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر من مارس ١٩٠٧ الى مارس ١٩٠٩ م.

- مكتبة النهضة المصرية - مصر - ١٩٤٦ م .

٥٣ - اسماعيل حقي أنور جادو

أصراء مكتبة في . العهد الملكي - ترجمة د/ خليل علي حجاز - مركز الدراسات بجامعة

البصرة - ١٩٨٥ م .

٥٤ - الكسندر ستولسن

مصر للمصريين أزمة عصر الاجتماعية والسياسية (١٨٧٨ - ١٨٨٣) م - تعريب د/

رؤف عباس - دار الثقافة العربية - القاهرة - ١٩٨٤ م .

٥٥ - أمين الريحاني (المؤرخ .

الأعمال العربية الكاملة ملوك العرب - المجلد الأول - ط ٢ - ١٩٨٦ م .

٥٦ - نجد وملحقاته وسيرة عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل ال سعود ملك الحجاز ونجد

وملحقاتها - منشورات الفخري - ط ٥ - الرياض - ١٩٨١ م .

٥٧ - أمين سامي (باشا)

تقويم النيل وعصر عباس حلمي الأول ومحمد سعيد باشا - مطبعة دار الكتب المصرية - ١٣٥٥ هـ

١٩٣٦ م .

٥٨ - أنور الجندي

أعلام القرن الرابع عشر - المجلد الاول - أعلام الدعوة والفكر - الأناجيل المصرية - ١٩٨١ م .

٥٩ - بسام الجبابي

معجم الأعلام معجم تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمسلمين والمستشرقين . - الجفان

والجبابي للطباعة والنشر - ط ١ - دمشق - ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

٦٠ - بيير كرايبتنس

اسماعيل المفتري عليه - ترجمة فؤاد صروف - دار النشر الحديث - القاهرة ١٩٣٧ م .

٦١ - جلال يحيى (دكتور)

- المختصر . تاريخ العالم العربي الحديث - دار المعارف - ١٨٦٦م .
- ٦٢ - جمال قس (دكتور)
الأسسول التي ريفية للعلاقات العربية الأفرقية - معهد البحوث والدراسات العربية - ١٩٧٥م .
- ٦٣ - جميل خانكم
تاريخ البحرية المصرية - مطبعة دار الكتب - القاهرة - ١٩٤٨م .
- ٦٤ - حافظ وهبه (الوزير)
جزيرة العرب في القرن العشرين - ط ٢ القاهرة - ١٣٦٥ / ١٩٤٦م .
- ٦٥ - حسن صبري الخولي (دكتور)
سياسة الإستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين - المجلد الأول
دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٣م .
- ٦٦ - حسين عبدالله باسلامة (الشيخ)
تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها - تهامة - ط ٢ - ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م .
- ٦٧ - حسين بن محمد نصيف (الشيخ)
د. ن. حجاز وحاضره - ح ١ - ط ١ - مكتبة خضير - مصر - ١٣٤٩ / ٨٢ م .
- ٦٨ - حمد إيداد - الحقييل (القاضي)
عبد العزيز في التاريخ (تاريخ وأدب) - ط ٣ - بيروت - ١٣٩٧ / ١٩٧٧م .
- ٦٩ - خير الدين بن محمود بن علي الزركلي (العلامة)
الوفاي سيرة الملك عبد العزيز - دار العلم للملايين - بيروت ط ٤ - ١٩٨٤م .
- ٧٠ - الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعمرين والمحتشركين - دار العلم
للملايين - بيروت - ١٩٨٠م .
- ٧١ - راشد البراوي (دكتور)
المركز الدولي لمصر والسودان - قناة السويس - ح ١ - ط ١ - القاهرة ١٩٥٢م .
- ٧٢ - ربيع حامد خليفه (دكتور)
فنون القاهرة في العهد العثماني (١٥١٧ - ١٨٠٥) - مكتبة نهضة الشرق القاهرة - ١٩٨٤م .

- ٧٣ - زينب عصمت راشد (دكتورة)
 . الصهيونية دراسة تاريخية وفكرية - القاهرة - ١٩٧٥ م
- ٧٤ - سعود بن جلوي (الأمير)
 . تاريخ ملوك آل سعود - ط١ - الرياض - ١٣٨٠/١٩٦١ م
- ٧٥ - سعيد بن علي الغفري (الشيخ)
 جبهة الأخبار في تاريخ البحار - تحقيق عبد المنعم عامر - منشورات سلطنة عمان - ١٣٩٩/
- ١٩٧٩ م
- ٧٦ - السيد وجب هراز (دكتور)
 التوسع الإيطالي في شرق إفريقيا ، وتأسيس مستعمرتي أوتريا والصومال - مطبعة جامعة القاهرة
 - ١٣٦٠ هـ .
- ٧٧ - سيد عبد المجيد بكر
 الملامح الجغرافية لبلدروب الحبيج - تهامة - ط١ - ١٤٠١/١٩٨١ م
- ٧٨ - السيد محمد حسن الدتن (دكتور)
 دراسات في تاريخ الدولة العثمانية - ١٤٠٦/١٩٨٥ م
- ٧٩ - سكة حديد الحجاز الحديدية - دراسة وثائقية - ط١ - ١٤٠٥/١٩٨٥ م
- ٨٠ - السلطان الأشرف طومان باي والمقاومة المصرية للفوز العثماني - القاهرة ١٩٧٩ م
- ٨١ - كسوة الكعبة المعظمة عبر التاريخ - ط١ - ١٤٠٦/١٩٨٦ م
- ٨٢ - السيد يوسف نصر
 الدور الحضاري للجيش المصري في القرن التاسع عشر في آسيا وأفريقيا - مكتبة مدبولي - ط١
 - القاهرة - ١٩٨٣ م
- ٨٣ - شرف عبدالمحسن البركاتي (الشريف)
 الرحلة البصانية لصاحب الدولة والسيادة الأمير الشريف باشا أمير مكة المكرمة - مطبعة السعادة
 - مصر - ١٣٣٠/١٩١٢ م

- ٨٤ - شوقي عطاالله الجمل (دكتور)
تاريخ السودان وادي النيل - ح ٢١ - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٦٩م .
- ٨٥ - دورمصر في إفريقيا في العصر الحديث - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م .
- ٨٦ - سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٣٩٤/١٩٧٤م .
- ٨٧ - الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر (١٨٦٣ - ١٨٧٩) - مطبوعات الجمعية التاريخية - ١٩٥٩م .
- ٨٨ - الصفصائي أحمد المرسى (دكتور)
قاموس تركي عربي - القاهرة - ١٩٧٩م .
- ٨٩ - صلاح الدين الشامي (دكتور)
المواني السودانية - سلسلة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الإجتماعية - مصر - ١٩٦١م .
- ٩٠ - صلاح الدين المختار
تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها - م ١ - منشورات دار مكتبة الحياة .
- ٩١ - طالب محمد وهيم (دكتور)
مملكة الحجاز (١٩١٦ - ١٩٢٥) دراسة في الأوضاع السياسية - منشورات مركز دراسة الخليج العربي بجامعة البصرة - ط ١ - البصرة ١٤٠٢/١٩٨٢م .
- ٩٢ - عائشة بنت عبدالله باقاسي
بلاد الحجاز في العصر الأيوبي - دار مكة للطباعة - ط ١ - ١٤٠٠ - ١٩٨٠م .
- ٩٣ - عبد الجواد صابر اسماعيل المصري (دكتور)
دور مصر في الحرب العثمانية اليونانية (١٨٢١ - ١٨٢٣) ط ١ - القاهرة ١٤٠٤/١٩٨٤م .
- ٩٤ - عبدالرحمن بن حسن الجبرتي (المؤرخ)
عجائب الآثار في التراجم والأخبار - مطبعة الأنوار المحمدية - القاهرة .
- ٩٥ - عبدالرحمن الرافعي (بك)

- تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر - مكتبة النهضة المصرية - ط ٣ - ١٣٧٨ هـ .
- ٩٦ - عصر اسماعيل - دار المعارف - ط ٣ - القاهرة - ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- ٩٧ - عصر محمد علي - مكتبة النهضة المصرية - ط ٣ - القاهرة - ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م .
- ٩٨ - مصر في مواجهة الحملة الفرنسية - مركز النيل للإعلام - القاهرة .
- ٩٩ - عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (المؤرخ)
- العبر وديوان المبتدأ والخير - ح ٤ - ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .
- ١٠٠ - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور)
- الدولة السعودية الأولى - مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ط ٢ -- ١٩٧٥ م .
- ١٠١ - عبد السلام هاشم حافظ
- المدينة المنورة في التاريخ - دار التراث - ط ٢ - القاهرة - ١٩٧٢ م .
- ١٠٢ - عبد العزيز حافظ ددنيا
- سليم الحجازي من أعلام الجيش المصري في القرن التاسع عشر - دار النهضة العربية - مصر - ١٣٨٣ هـ
- ١٠٣ - عبد العزيز صبري (بك)
- تذكار الحجاز (خطوات ومشاهدات) المطبعة السلفية - مصر - ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م .
- ١٠٤ - عبد العزيز محمد الشناوي (دكتور)
- الأزهر جامعا وجامعة - ١ - مكتبة الأنجلو المصرية - ط ١ - القاهرة ١٩٨٣ م .
- ١٠٥ - الدولة العثمانية دولة مفتري عليها - الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٨٠ م
- ١٠٦ - عبد العزيز نوار (دكتور)
- تاريخ العراق الحديث في نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا - دار الكاتب العربي
- القاهرة - ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- ١٠٧ - عبد الفتى اسماعيل النابلسي (الشيخ)

الحقيقة والمجاز في المرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز - الهيئة المصرية العامة للكتاب -

١٩٨٦م.

١٠٨ - عبد الفتاح حسن أبوعلية (دكتور)

الدولة السعودية الثانية (١٢٥٦ هـ - ١٣٠٩) - الرياض - ١٣٩٤ - ١٩٧٤م.

١٠٩ - عبد القدوس الأنصاري (المؤرخ)

تاريخ العين العزيزية .

١١٠ - موسوعة تاريخ جدة - المجلد الأول - دار مصر للطباعة - ط ٣ - القاهرة ١٤٠٢ / ١٩٨٢

١١١ - عبد الكريم الغرابية (دكتور)

قيام الدولة السعودية - مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٨٤ .

١١٢ - عبد الله حسين

السودان من التاريخ القديم الي رحلة البعثة المصرية - ح ١ - المطبعة الرحمانية بمصر - ط ١ -

١٣٥٤/١٩٣٥ م .

١١٣ - عبدالله العثيمين (دكتور)

تاريخ المملكة العربية السعودية - ح ١ - ط ١ - ١٤٠٩ هـ .

١١٤ - عبدالله بن علي بن مسفر (الشيخ)

السراج المنير في سيرة أمراء عسير - مؤسسة الرسالة - ط ١ - ١٣٩٨/١٩٧٨م .

١١٥ - عبدالمعتال الصعدي (دكتور)

المجددون في الإسلام من القرن الأول إلي الرابع عشر - مكتبة الآداب .

١١٦ - عبدالواسع بن يحي الواسعي (المؤرخ)

الدر الفريد الجامع لمتفرقات الأسانيد - القاهرة - ١٣٥٧ هـ .

١١٧ - عثمان صالح سبي

تاريخ ارتريا - دار الكنوز الأدبية - ط ١ - بيروت - ١٩٨٤م .

١١٨ - عزيز محمد حبيب

المملكة العربية السعودية - الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٧٥م .

١١٩- علي مبارك (باشا)

المخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة - الهيئة المصرية العامة

للكتاب - ط ٢ - ١٩٨٠ م .

١٢٠- عمر رضا كحالة (العلامة)

جغرافية شبه جزيرة العرب - الناشر/فؤاد هاشم الكتبي - دمشق - ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥ م .

١٢١- عمر عبد الجبار

دروس من ماضي الحجاز وحاضره بالمسجد الحرام - ط ١ - ١٣١٩هـ .

١٢٢- سير وتراجم بعض علمائنا فى القرن الرابع عشر للهجرة تهامة - ط ٣ جدة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢

م .

١٢٣- فائق بكر الصواف (دكتور)

العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز - (١٨٧٦ - ١٩١٦) م

١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

١٢٤- فؤاد حمزة (الوزير)

البلاد العربية السعودية- مكتبة النصر الحديثة - ط ٢ - الرياض - ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨ م .

١٢٥- قطب الدين الحنفى (القطبى)

الاعلام بأعلام بيت الله الحرام - مكتبة الكليات اغلازهرية - مصر ١٣٠٥هـ /

١٢٦- كريستوفر هير ولد

بونابرت فى مصر - ترجمة فؤاد أندرواس - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ م .

١٢٧- المملكة العربية السعودية وتطورات مصادرها الطبيعية - ترجمة شكيب الأموى دار احياء الكتب

العربية - القاهرة - ١٩٥٥ م .

١٢٨ - ليلى عبد اللطيف أحمد (دكتورة)

الصعيد فى عهد شيخ العرب همام - الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة ١٩٨٧ م .

١٢٩ - المجتمع المصرى فى العصر العثماني - دار الكتاب الجامعي - ط ١ - القاهرة - ١٤٠٧ هـ /

١٩٨٧ م .

- ١٣٠ - مجموعة رسائل لأحد أدباء مصر
السودان المصري والانجليزى - الأهرام - الإسكندرية - ١٨٩٦ م .
- ١٣١ - محمد بن أحمد (ابن إياس) المؤرخ
بدائع الزهور في وقائع الدهور - تحقيق محمد مصطفى - ج ٥ - الهيئة المصرية العامة للكتاب
ط ٣ - القاهرة - ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ ..
- ١٣٢ - محمد بن أحمد الحسيني (الفاسي) الشيخ
العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين - مؤسسة الرسالة - ط ٢ - ج ١ - بيروت ١٤٠٦ هـ /
١٩٨٦ م .
- ١٣٣ - محمد أحمد الرويشي (دكتور)
المرافىء الطبيعية علي الساحل السعودى الغربى - مطبوعات دار الملك عبد العزيز - الرياض -
١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- ١٣٤ - محمد أديب غالب
من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي - دار اليمامة - ج ١ - ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .
- ١٣٥ - محمد أنيس (دكتور)
الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ - ١٩١٤ - ٩) الأنجلو المصرية - ١٩٨٥ م .
- ١٣٦ - محمد بديع شريف (دكتور)
في مهبط الوحي - دار الفكر - ط ٢ - القاهرة - ١٩٧٨ م .
- ١٣٧ - محمد حسين هيكل - تراجم عربية وغربية - مطبعة مصر مذكرات في السياسة المصرية ج ١ -
دار المعارف - القاهرة - ١٩٥١ م .
- ١٣٨ - محمد رشيد رضا (الشيخ)
تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبدة - ج ٢ - مطبعة المنار - ط ٢ - مصر - ١٣٤٤ م .
- ١٣٩ - محمد رفعت رمضان
علي بك الكبير - دار الفكر العربي - ١٩٥٠ م .

١٤٠ - محمد السراج

شقانق النعمان في حياة المهدي ووقائع السودان - مطبعة دار إحياء الكتب العربية - القاهرة -
١٩٤٧ م .

١٤١ - محمد صالح ضرار

أمير الشرق (عثمان دقنه) - الدار السودانية للكتب - الطبعة الأولى .

١٤٢ - تاريخ سواكن والبحر الأحمر - الدار السودانية للكتب - ط ١ - الخرطوم ١٩٨١ م .

١٤٣ - محمد عبد الله آل زلفة (دكتور)

إصلاحات حسيب باشا في ولاية الحجاز كما جاء في الوثائق العثمانية كمشورات مركز الدراسات
والبحوث العثمانية - زغوان - ١٩٨٨ م .

١٤٤ - محمد عبد المعطي بن أبي الفتح بن أحمد (الاسحاقى) المؤرخ-أخبار الأول فيمن تصرف في
مصر من أرباب الدول - المطبعة الشرفية القاهرة - ١٣٠٣ هـ .

١٤٥ - محمد عبدة (الشيخ)

رسالة التوحيد - طبعة دار المنار - ط ١٧ - مصر - ١٣٨٦ هـ .

١٤٦ - محمد علي الآسي

الدرارى اللامعات في منتجات اللغات - ط بيروت - ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م .

١٤٧ - محمد علي مغربي

أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة - ط ٢ - ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

١٤٨ - ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر الهجرى - دار العلم للطباعة والنشر -
ط ٢ - جدة - ١٤٠٥ هـ

١٤٩ - محمد فؤاد شكرى

مصر والسيادة علي السودان - الوضع التاريخي للمسألة - دار الفكر العربي - القاهرة -
١٩٤٦ م .

١٥٠ - محمد فهمي لهيطة (دكتور)

تاريخ مصر الاقتصادى في العصور الحديثة - مكتبة النهضة المصرية القاهرة - ١٩٤٤ م .

- ١٥١ - محمد كمال السيد (المحامي)
الأزهر جامعا وجامعة - سلسلة البحوث الاسلامية - القاهرة - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
- ١٥٢ - محمد لييب البتنوني (الرحالة)
الرحلة الحجازية - ط ٢ - القاهرة - ١٣٢٩ هـ .
- ١٥٣ - محمد محمود السروجي (دكتور)
الجيش المصرى في القرن التاسع عشر - دار المعارف - مصر - ١٩١٧ م .
- ١٥٤ - محمود شاكر
شبه الجزيرة نجد - المكتب الاسلامي - بيروت - ١٣٩١ هـ .
- ١٥٥ - محمود صالح منسي (دكتور)
حركة اليقظة العربية - ط ٢ - القاهرة - ١٣٩٣ هـ .
- ١٥٦ - محمود نعنانة
إسرائيل والبحر الأحمر - دار مكتبة الفكر - طرابلس - ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .
- ١٥٧ - محي الدين رضا
صور ومشاهدات من الحجاز - ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م .
- ١٥٨ - مصطفى بن عبد الله ، وحاجي خليفة
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - الأستانة ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م .
- ١٥٩ - مصطفى فاضل باشا (الأمير)
من أمير إلي سلطان - ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا - نشر توفيق الرافعي القاهر [- ١٩٢٢ م
، وهو عبارة عن خطاب الأمير مصطفى ابن إبراهيم باشا إلي السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٦ م .
- ١٦٠ - مصطفى كامل (باشا)
أوراق مصطفى كامل (المراسلات)-الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٢ م .
- ١٦١ - مصطفى كامل شملول الشريف
عروية مصر من قباثلها - ط ٢ - ١٩٧٠ م .
- ١٦٢ - مصطفى محمد رمضان (دكتور)

وثائق مخصصات الحرمين الشريفين في مصر إبان العصر العثماني وأهميتها في تاريخ الجزيرة

العربية - ندوة تاريخ الجزيرة - الرياض - ١٢٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

١٦٣- مكى شبكه

السودان عبر القرون - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٦٦ م .

١٦٤- نهاده الغادري

التحدي الكبير - بيروت - ١٩٦٥ م .

١٦٥- نوال سراج شمه

جدة في مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي - مكة المكرمة - ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م

١٦٦- هاشم بن سعيد النعيمي (القاضي)

تاريخ عسير في الماضي والحاضر - ح ٢ .

١٦٧- هنري دوديل

محمد علي مؤسس مصر الحديثة - ترجمة أحمد عبد الخالق وآخر - مكتبة الآداب - القاهرة .

١٦٨- هيلين آن ريفلين

الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر - ترجمة د/ أحمد عبدالرحيم وآخر -

دار المعارف - القاهرة .

١٦٩ - يونان لبيب رزق (دكتور)

الأصول التاريخية لمسألة طابا - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٣ م .

سادسا : دائرة المعارف الإسلامية :

وقد انتفع البحث منها بالمواد الآتية :

١٧٠- المجلد الثاني مادة « أحمد أمين »

١٧١- المجلد الرابع مادة « أمير الحج »

١٧٢- المجلد الحادي عشر مادة « الجبرتي »

١٧٣- المجلد الحادي عشر مادة « جدة »

١٧٤- المجلد الثاني عشر مادة «أحمد بن إدريس»

١٧٥- المجلد الثالث عشر مادة «حافظ إبراهيم»

١٧٦- المجلد الثالث عشر مادة «الحج»

سابعاً : التقاويم :

١٧٧- ف . ويستنفلد - جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها

وشهورها : ترجمة د/عبدالممنع ماجد وآخر - الطبعة الأولى - ١٩٨٠ - الناشر مكتبة

الأهملوالمصرية .

ثامناً : الأطالس :

١٧٨- الأطلس التاريخي للدولة السعودية - مطبوعات دار الملك عبد العزيز- ط ١ - ١٩٧٩ م .

١٧٩- الأطلس العربي - إدارة المساحة - القاهرة - ١٩٧٨ م .

١٨٠- أطلس المدينة المنورة - جامعة الملك سعود - ط ١ - الرياض ١٤٠٥هـ/١٩٨٥ م .

تاسعا : رسائل جامعية غير منشورة :

- ١٨١ - سعد بدير الحلواني
الحكم المصرى في سواكن وملحقاتها (١٨٦٥ - ١٨٨٥) رسالة ماجستير أجيّزت في
كلية اللغة العربية جامعة الأزهر سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .
- ١٨٢ - عبدالفتاح حسن أبو عليّة
تطور المجتمع السعودى فى عهد الملك عبدالعزيز آل سعود (١٩٠١ - ١٩٥٣) م رسالة
دكتورة أجيّزت من جامعة القاهرة .
- ١٨٣ - فاروق جميل جاويش
العلاقات المصرية العثمانية فى عهد الخديوى عباس الثانى (١٨٩٢ - ١٩١٤) م
رسالة دكتوراه من جامعة الأزهر سنة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م .
- ١٨٤ - محمد جمعان محمد دادا .
مدينة جدة فى عهد الملك عبدالعزيز آل سعود (١٩٢٥ م - ١٩٥٣ م) رسالة ماجستير
أجيّزت من جامعة الأهر سنة ١٤١١هـ / ١٩٩١ م .

عاشرا : المصادر والمراجع الأجنبية :

- 185- Earl of cromor - Modern Egypt - voli - London.1908.
- 189- The Sate E.J.W. Gibb - History of Ottoman Poetry volume IV-
London, 1905.
- 187- Saleh Al Amer the Higaz undir ottoman Rulle 1869-1914, Riyad
1978.
- 188- Muhamad S. Al Shaafi - the foreign trade of juddah during the
ottoman period (1840 - 1916) All Rights 1985.

حادي عشر : الدوريات :

الأخبار « جريدة يومية » مصرية

١٨٩ - العدد ١٢٣ - السنة الأولى - ٢٨ من رجب ١٣١٤هـ / ٢ يناير ١٨٩٧م.

١٩٠ - العدد ١٢٥ - السنة الأولى - ٢ من شعبان ١٣١٤هـ / ٥ يناير ١٨٩٧م.

اقرأ « مجلة أسبوعية » سعودية

١٩١ - عدد خاص عن : جدة في مطاع القرن الخامس عشر الهجري . ١٠ من جمادي الثانية ١٤٠١هـ / ١٤ من

ابريل ١٩٨١م .

المجلة التاريخية المغربية « مغربية »

١٩٢ - العدد ٣٩-٤٠ السنة الثانية عشر - ديسمبر ١٩٨٥م .

الدارة مجلة فصلية سعودية

١٩٣ - العدد الأول - السنة الخامسة - ربيع الثاني ١٢٩٩هـ / مارس ١٩٧٩م .

١٩٤ - العدد الثالث - السنة الخامسة - ربيع الثاني ١٤٠٠هـ / مارس ١٩٨٠م .

١٩٥ - العدد الأول - السنة الحادية عشرة - شوال ١٤٠٥هـ .

١٩٦ - مجلة كلية اللغة العربية - سنوية من جامعة الأزهر بالقاهرة - العدد الرابع ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

١٩٧ - مجلة كلية الدراسات الإنسانية - سنوية من جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة العدد الخامس -

١٩٨٧م .

الوقائع المصرية " يومية " مصرية

١٩٨ - العدد ٢١ - ٤ من ذي الحجة ١٢٨٢هـ / ١٩ من ابريل ١٨٦٦م .

١٩٩ - العدد ٢٤ - ٢ من محرم ١٢٨٣هـ / ١٧ من مايو ١٨٦٦م .

٢٠٠ - العدد ١٠٥ - ١٦ من ربيع الأول ١٢٨٤هـ .

٢٠١ - العدد ١٢٠ - ٦ من ربيع الأول ١٢٨٤هـ / ٨ من يوليو ١٨٦٧م .

- ٢٠٢- العدد ٦٢٨ - ٢١ من رمضان ١٢٨٤ هـ .
- ٢٠٣- العدد ١٢٩ - ٢٨ من رمضان ١٢٨٤ هـ .
- ٢٠٤- العدد ١٤٢ - ١٧ من جمادي الاول ١٢٨٤ هـ / ١٦ من سبتمبر ١٨٦٧ م .
- ٢٠٥- العدد ١٥٥ - ٣٠ من محرم ١٢٨٧ هـ / ١ من مايو ١٨٧٠ م .
- ٢٠٦- العدد ٢١٠ - ٢٧ من صفر ١٢٨٥ هـ / ١٨ من يونيو ١٨٦٨ م .
- ٢٠٧- العدد ٢١٣ - ١٤ من ربيع الأول ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م .
- ٢٠٨- العدد ٢٢٤ - ٢٧ من ربيع الأول ١٢٨٥ هـ / ١٦ من أغسطس ١٨٦٨ م .
- ٢٠٩- العدد ٢٢٨ - ١٣ من جمادي الأول ١٢٨٥ هـ / ٣١ أغسطس ١٨٦٨ م .
- ٢١٠- العدد ٣٩٠ - ١٣ من شوال ١٢٨٧ هـ / ٥ من يناير ١٨٧١ م .
- ٢١١- العدد ٣٩٢ - ٢٧ من شوال ١٢٨٧ هـ / ١٩ من يناير ١٨٧١ م .
- ٢١٢- العدد ٤٠٠ - ٢ من محرم ١٢٨٨ هـ / ٢٣ من مارس ١٨٧١ م .
- ٢١٣- العدد ٤٠٣ - ٢٣ من محرم ١٢٨٨ هـ / ١٣ من أبريل ١٨٧١ م .
- ٢١٤- العدد ٤٣٨ - ٢٣ من شوال ١٢٨٨ هـ / ٤ من يناير ١٨٨٢ م .
- ٢١٥- العدد ٤٨٥ - ٨ من شوال ١٢٨٩ هـ / ٩ من ديسمبر ١٨٧٢ م .
- ٢١٦- العدد ٤٩٧ - ٥ من محرم ١٢٩٠ هـ / ٤ من مارس ١٨٧٣ م .
- ٢١٧- العدد ٥٠٣ - ١٨ من صفر ١٢٩٠ هـ / ١٥ من أبريل ١٨٧٣ م .
- ٢١٨- العدد ٦٠٤ - ١٩ من ربيع الأول ١٢٩٢ هـ / ٢٤ من أبريل ١٨٧٥ م .
- ٢١٩- العدد ٦٠٦ - ١١ من ربيع الثاني ١٢٨٢ هـ / ٢٦ من مارس ١٨٨٥ م .
- ٢٢٠- العدد ٦٥٥ - ٢٨ من ربيع الأول ١٢٩٣ هـ / ٢٣ من أبريل ١٨٧٦ م .
- ٢٢١- العدد ٨١٠ - ٢٠ من جمادي الأولي ١٢٩٦ هـ .
- ٢٢٢- العدد ٨٢١ - ٩ من شعبان ١٢٩٦ هـ / ٢٧ من يوليو ١٨٧٩ م .
- ٢٢٣- العدد ٨٢٦ - ١٣ من رمضان ١٢٩٦ هـ / ٣١ من أغسطس ١٨٧٩ م .
- ٢٢٤- العدد ١٢٨٦ - ٢٨ من محرم ١٢٩٦ هـ / ٢٠ من ديسمبر ١٨٨١ م .
- ٢٢٥- العدد ١٢٩١ - ٥ من صفر ١٢٩٩ هـ / ٢٦ من ديسمبر ١٨٨١ م .

فهرست

رقم الصفحة

مقدمة

الفصل الأول

٥٢ - ١ ملامح العلاقات المصرية الحجازية قبيل ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م
١ العلاقات منذ ظهور الشراقة حتى سنة ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م
١٦ أثر الحملة الفرنسية على العلاقات المصرية الحجازية
٢٣ أثر الحملة الفرنسية على قافلة الحج والكسوة
٢٥ أثر الحملة الفرنسية على الموقف في الحجاز
٢٦ العلاقات الاقتصادية إبان الإحتلال الفرنسي لمصر
٣٠ دور بعض المجاهدين الحجازيين في صد الحملة الإنجليزية عن مصر سنة ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ م
٣٠ أثر استيلاء السعوديين على مكة في العلاقات المصرية الحجازية
٣٤ محمد علي والحجاز

الفصل الثاني

العلاقات السياسية بين مصر والحجاز

٥٣ تصهيد
٥٥ جلاء جيش محمد علي من شبه الجزيرة العربية
٦٢ تدخل محمد علي لعزل والي الحجاز
٦٥ الدور المصري في الصراع بين الحجاز وعسير في النصف الثاني من القرن ١٩
 التدخل في عهد محمد علي
٦٩ التدخل المصري في عهد عباس باشا
٧٤ التدخل المصري في عهد اسماعيل باشا

٨٥	الصراع بين مصر والحجاز على سواكن ومصوع
٨٧	فى عهد محمد على
٨٨	فى عهد عباس
٨٩	فى عهد اسماعيل
٩٦	الصراع المصرى العثمانى للسيطرة على قلاع الحجاز
١١٢	اتخاذ مصر والحجاز منفى للمذنبين والمعارضين فى القطرين
١١٢	المنفيون من مصر إلى الحجاز
١١٤	المنفيون من الحجاز إلى مصر

الفصل الثالث

١٥٧- ١١٨

العلاقات التجارية بين مصر والحجاز

١١٨	تصهيد
١٢١	الأنماط التجارية المتبادلة بين مصر والحجاز
١٢١	أولا : تجارة البن
١٢٤	ثانيا : تجارة الملح
١٢٧	ثالثا : تجارة الفلال
١٣١	رابعا : تجارة القطن
١٣٤	خامسا : تجارة الحيوانات
١٣٥	سادسا : تجارة الجلود
١٣٦	سابعا : تجارة العاج
١٣٦	ثامنا : تجارة الخصر
١٣٧	تاسعا : تجارة الذهب
١٣٨	عاشرا : تجارة الكتب
١٣٨	حادى عشر : تجارة اللوازم الأولية

١٣٩	ثاني عشر : تجارات أخرى
١٣٩	حمولات سفن القومبانية العزيزية من البضائع والمسافرين
١٤١	فكر الحركة التجارية بين الأقطار الثلاثة مصر والحجاز والسودان
١٤٣	مصادر تجارة جدة
١٤٤	الملاحة التجارية بين الموانئ المصرية والحجازية
١٥٠	القوافل التجارية البرية
١٥٠	مصر شريان الحجاز
١٥٣	أثر افتتاح قناة السويس على تجارة الحجاز

الفصل الرابع

العلاقات الفكرية والاجتماعية بين مصر والحجاز ١٥٨-٢١٠

١٥٨	تصهيد
١٥٨	العلاقات الثقافية والعلمية
١٦٥	تنقل العلماء وطلبة العلم بين مصر والحجاز
١٦٥	رحلات الحجازيين العلمية إلى مصر
١٧٥	رحلات المصريين العلمية إلى الحجاز
١٨٢	رحلات المسلمين إلى مصر والحجاز ودور الصحافة المصرية في تنمية العلاقات بين مصر والحجاز
١٩٢	هجرة الأسر بين مصر والحجاز
١٩٧	الوظائف والأعمال بين مصر والحجاز
٢٠٢	مقارنة بين العادات والتقاليد في القطرين

الفصل الخامس

٢٣٩-٢١١

موكب الحج المصرى وآثاره فى مصر والحجاز

٢١١	تصهيد
٢١٢	الاستعدادات لرحلة الحج فى مصر
٢١٣	طريق الحجاج فى الذهاب والعودة
٢٢٤	الطريق الذى سلكه محمد سعيد باشا لزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم
٢٢٦	معاملة العربان الجمالة للحجاج
٢٢٩	المكوس
٢٣٠	المحمل وكسوة الكعبة
٢٣٧	وصول ركب الحاج إلى مكة

الفصل السادس

٢٧٣-٢٤٠

المخصصات المصرية للحجاز

٢٤٠	تصهيد
٢٤١	المخصصات المصرية العامة للحجاز
٢٥٠	المخصصات المصرية للحرمين الشريفين
٢٥٤	تكيئا مكة والمدبنة المصريتان وخيراتهما
٢٥٨	نفقات كسوة الكعبة وركب الحج المصرى وما يحمله معد من أموال الى الحجاز
٢٦٢	الهدايا والمنح المصرية للحجاز
٢٦٣	قضية المخصصات والمنح والصدقات المرسلة الى الحجاز

تكفل مصر باستقبال ونقل الموظفين الى الحجاز وكبار الشخصيات

المسافرين أو العائدين منه ٢٦٨

رواق الحرمين الشريفين بالأزهر الشريف ٢٧١

الفصل السابع

٣٠٦-٢٧٤

الاصلاحات والتنمية المصرية فى الحجاز

تهييد ٢٧٤

الاصلاحات المصرية فى الحرمين الشريفين ٢٧٥

الاصلاحات المصرية فى بناء جدة ٢٨١

الدعم المصرى للقلاع والموانئ الحجازية ٢٨١

محاولة مصر إنشاء سكة حديدية فى الحجاز ٢٨٨

جهود مصر فى تنمية الموارد المائية فى الحجاز ٢٨٩

الجهود المصرية فى ميدان الرعاية الصحية ٢٩١

التنقيب المصرى عن المعادن بالحجاز ٣٠٠

تنظيم البريد بين الحجاز والعالم الخارجى عن طريق مصر ٣٠٤

٣١٠-٣٠٧

الخاتمة

الملاحق

أولا : الخرائط

ثانيا : الصور

ثالثا : الوثائق ٣١١

ثبت المصادر والمراجع ٣٣٠-٣١١

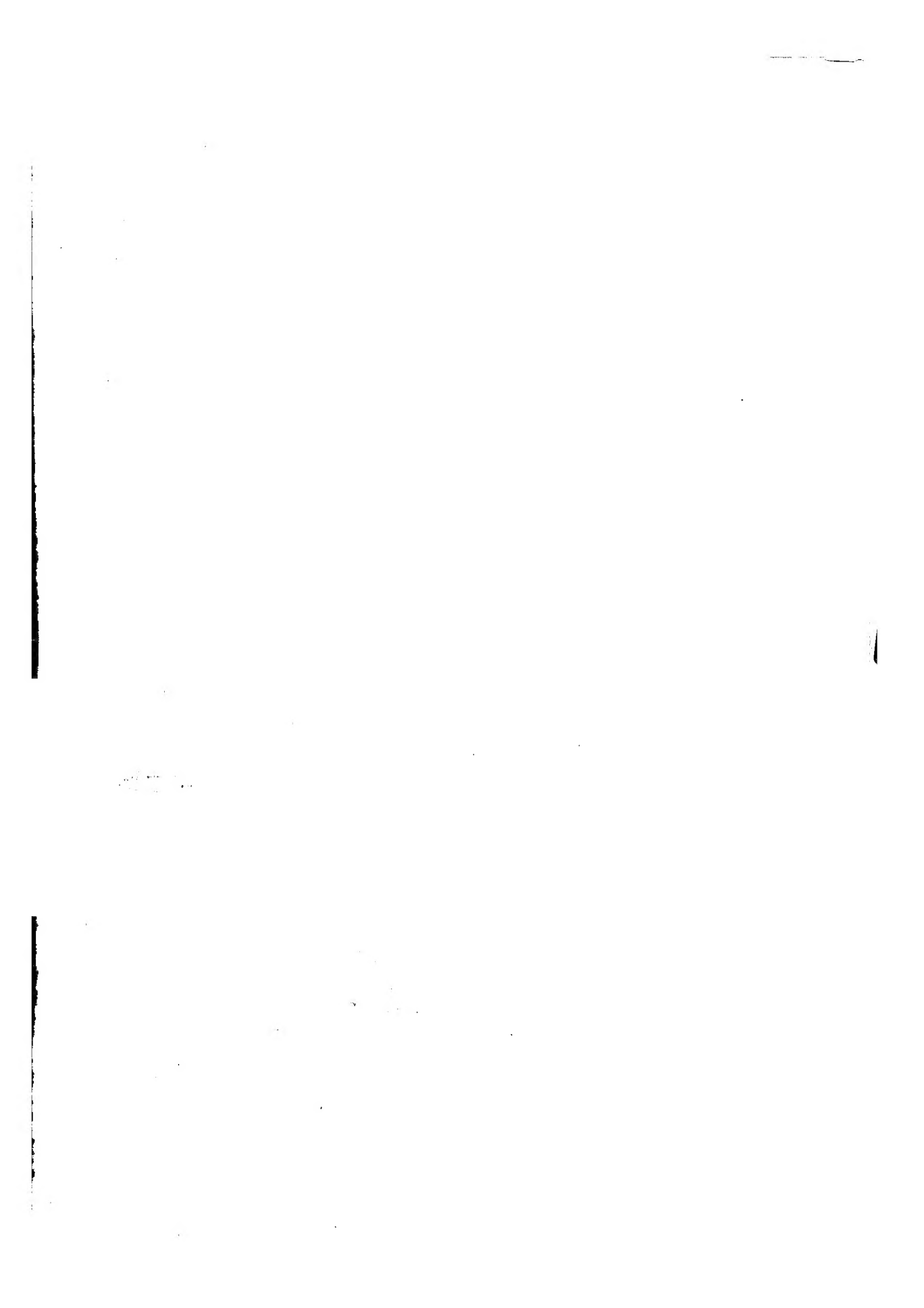
الفهرست ٣٣٥-٣٣١

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٤٧٨ لسنة ١٩٩٣
I.S.B.9-977-5442-06-1



مكتبة

مكتبة



المؤلف

☆ الميلاد : سناء كنفالشيخ
في ١٩٥٧/٦/٥

☆ ليسانس تاريخ وعصارة - كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر

☆ ماجستير : الحكم المصري في سوكاه وملحقاتها
(انتياز)

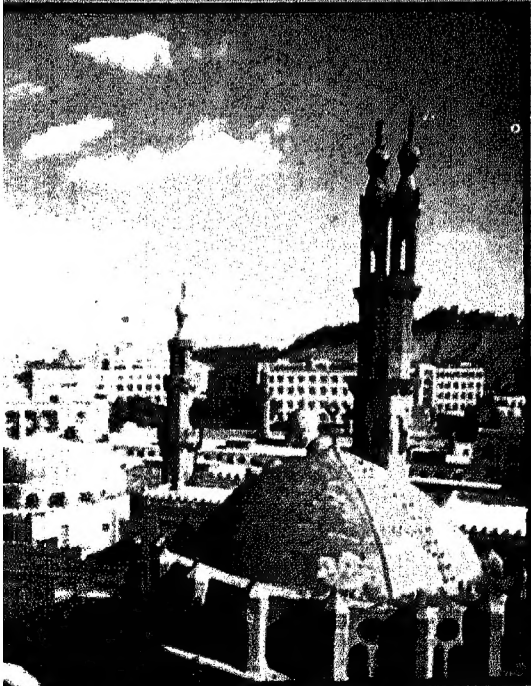
☆ دكتوراه : العلاقات المصرية الجاهزية
(مرتبة الشرف الأولى)



المؤلفات

- ١- تجارة الجواز ٢- تعمير مكة المكرمة ٣- تعمير المدينة المنورة (١٨١٢م - ١٨٤٠م)
- ٤ - الاتصالات الأوربية الحبشية وأثرها على العالم العربي (ندوة اتحاد المؤرخين العرب).
- توزيع هذه المؤلفات في : النهضة المصرية - النهضة العربية - المجلد - عالم الكتب دار الكتاب الجامعي .
- بحوث أخرى : سواكن عبر العصور (ندوة جمعية النيل - معهد الدراسات الإفريقية).
- العلاقات العلمية والفكرية بين مصر والجواز ونخب .
- (ندوة مصر والجزيرة العربية - جامعة القاهرة)

تصميم وتنسيق المؤلف : د. عبد الحليم كنفال



هذا الجواز وهذه مصر
كما فكان الماء والزهر